

نارنج

الحركة القومية

يقظة القوميات الأوربية

الجزء الثاني

الحرية والقومية

تأليف وتعريب

الدكتور نور الدين جاطوم

دار الفكر

الطبعة الأولى

١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م



طبع في دار الفكر بدمشق - شارع سعد الله الجابري - ص . ب ٩٦٢
هاتف ١١٠٤١ - ١١١٦٦ - برقية فكر

إلى

الرواد الأوائل

حملة مشاعل التحرير القومي

تحية ومجداً

الحركات القومية الأوربية
في النصف الأول من القرن التاسع عشر

القسم الثاني

الحرية والقومية

المقدمة

الدور ١٨١٢ — ١٨٤٨

يعتبر الدور الممتد من ١٨١٥ إلى ١٨٤٨ ، من وجهة النظر القومية ، أوضح من عهد الثورة الفرنسية والامبراطورية ، لأن القوميات استيقظت فعلا في هذا الدور على أساس الحرية السياسية ، ونشأت بحق القوميات الأوروبية ، ان في عالم الأفكار أو في عالم الوقائع .

إن الشكل ، الذي شهدنا به القوميات في الجزء الأول من الحركات القومية ، كان بسيطاً على قدر الامكان ، وتجلى بالدفاع الوطني ضد الغاصب الأجنبي ، أي انه كان عاطفة بسيطة جداً ، غريزية ، عفوية ، دون وعي أو شعور تقريباً ، أو على الأقل دون فلسفة ، ودون مذهب فكري نظري . وانا لنتساءل ما ستكون هذه العاطفة القومية عندما لا يكون لرد الفعل الوطني غاية أو هدف ، أي عندما لا يكون هنالك غاصب قاهر ؟ وفي الواقع ، ان الوضع لم يختلف بالنسبة لبعض القوميات عندما عادت الى النزاع الذي بدأت به ، لأن هذا الوضع بقي نفسه ، لم يتغير ، وهذه حال اليونان واپرلنده ، ويمكننا القول في هذه الحال ان لا انقطاع في التاريخ . فقد ناضل اليونان ضد الحكم التركي ، والاييرلنديون ضد الطغيان الانكليزي بعد ١٨١٥ ، كما كانت الحالة بعد ١٧٨٩ . أما في البلاد الاخرى ، مثل المانيا وايطاليا ، فقد زالت اليد التي كانت تضطهدها ، ولكن ما زال في ألمانيا شيء من الروح القديم الذي يمكن

أن نسميه روح « المحارب القديم » ، ونجده في الجمعيات الوطنية ، والجمعيات الرياضية ، والتعبئة العسكرية ، وكراهية الأجنبي التي تلاحق العناصر الدخيلة في كل مكان وفي كل مناسبة ، حتى في اللغة الدارجة ، ولكن هذه الحالة كانت وقتية ولم تدم طويلا .

لذا ينبغي للقوميات قواعد أخرى غير هذه العاطفة الوطنية البسيطة لتعتمد عليها ، أي كان على هذه القوميات أن تنتقل إلى عالم السياسة . ان فكرة الحرية هي التي أوجدت القوميات في هذا الدور الثاني ، موضوع هذا الكتاب ، وذلك لأن القومية لم تعد مجرد عاطفة فحسب ، بل مطالبة ، ولا مجرد غريزة ، بل مذهباً فكرياً . ولا شك في أن سبب هذا الانتقال يرجع ، في الأصل ، إلى حادث واحد وهو الشكل الذي صيغ به الوضع الأوربي الجديد الذي حل محل الامبراطورية الفرنسية بعد عام ١٨١٥ .

الفصل الأول

الحرية الفرنسية وانعكاساتها الدولية

لقد خنقت سياسة مترونيخ والمؤتمرات آخر حركة لروح المقاومة والتحرير التي ظهرت في إسهام الشعوب في تقويض الامبراطورية الفرنسية، وزال ، على هذا النحو ، العنصر الذي ظل ، حتى الآن ، يؤلف جوهر هذه القومية الأولى وهي كره فرنسا . غير أنه من الممكن وجود عقائدية (ادبولوجيا) أخرى لا تتمسك إلا بالحاجات السياسية التي كانت تتمثل ، في ذلك الحين ، بالحرية .

كان نظام الحكم المطلق ، الذي فرض على أوربة كلها ، سياسياً واكليركياً معاً ، واكليركياً لجميع الديانات الارثوذكسية والبروتستانتية والكاثوليكية ، حيثما وجدت . وأنسى هذا النظام الثقيل والضعيف معاً الطغيان النابوليوني وأعباءه ، لأنه كان نظام طغيان للطغيان . ولقد كان من حسنات الامبراطورية الفرنسية ، على الأقل ، أن عادت على الشعوب بالفائدة بسبب نظامها وفوائد الاصلاحات التي أتت بها والمشاركة في سياسة العظمة . وحدث في الأفكار نوع من المثالية والاعجاب والتعلق بنابوليون ، وبدأ اجلاله يظهر في أوربة : فمن ذلك أن البولوني مودانسكي كتب يقول : « كانت النابوليونية في فرنسا تعني ، بالنسبة لنا ، شيئاً كالوطنية ، وكذا الحال في بلجيكا وفي ألمانيا . وهنا نجد شيئاً يلفت النظر

حقاً: فقد تشكلت في بالاتينا، في ألمانيا الغربية ، جمعيات المحاربين القدماء ، محاربي الجيوش النابوليونية ، واحتفلت في ١٥ آب بعيد الامبراطور . ونظمت، في ألمانيا الغربية هذه ، أشعار كثيرة ، وألفت قصص ، ورسمت صور ، على شرف الامبراطور ، وغرس ، عبر ألمانيا ، صف من أشجار الحور على الطريق الذي سلكه نابوليون للحاق بجيشه العظيم .

وتوازياً مع هذه الحركة ، التي خلطت في فرنسا بين فكرة الثورة وذكري نابوليون ، وجد عمل آخر في أوربة يخلط بين نابوليون من جهة، والحركات القومية من جهة أخرى ، على الرغم من قيام حركات قومية، كما رأينا في الواقع ، ضد نابوليون . فقد اعتمد على بعض التصريحات التي نجدها في «مذكرات» نابوليون في جزيرة القديسة هيلانه ، ونذكر منها ، على سبيل المثال ، ان نابوليون كان يقول في معرض كلامه عن الألمان والايطاليين والاسبانيين : « لقد كان بودي أن أجعل من هذه الشعوب شعباً واحداً، بل أمة واحدة » . وكان يصرح ، في تلك الجزيرة نفسها بشأن ايطاليا ، بأن هدفه كان : « تربية الايطاليين تربية قومية » ؛ وأضاف في يوم آخر : « ان روما هي المدينة التي سيختارها الايطاليون ذات يوم عاصمة لهم » . وتكلم عن حق ايرلنده في الانفصال عن انكلترا، وحق الألمان في الاتحاد : « لو جعلتني السماء أميراً ألمانيا ، لحكمت دون شك الثلاثين مليوناً ألمانيا متحدثين » .

وهكذا حول رد الفعل ذكريات نابوليون إلى حجج لصالح القومية ضد تسوية أوربة عام ١٨١٥ .

وكان لهذا النظام من الحكم المطلق والسلطة العامة استثناء أخذ يعمل لصالح فرنسا : فقد تمتعت هذه الدولة بنظام الحرية المدنية والسياسية ،

ومنحها ملكها ميثاقاً ، وكانت الحياة السياسية فيها كثيفة اعتباراً من ١٨١٥ . وكان صوتها ، في هذا الصمت بل في هذا الحبل العام ، يتردد خاصة وينتقل بعيداً ، كما كان الصوت الوحيد الذي يسمع في أوربة : فقد كان نفوذ انكلترا الفكري العقائدي ضعيفاً فعلاً ولا يؤثر في الشعوب . لأن النظام الانكليزي لم يكن شيئاً جديداً ، ولأن الانكليز لا يهتمون بنشر أفكارهم إلا قليلاً ، وأخيراً لأن حياتهم السياسية كانت انكليزية نوعياً ولا يمكن أن تكون درساً للشعوب الأخرى . ولهذا الأسباب مجتمعة لعبت فرنسا دور المربي في أوربة .

ومع ذلك ، فلم تنعش فرنسا وحدها الحركات القومية التي ستقوم في أوربة . بل سينضم اليها جهد عميق يؤثر في الجوهر القومي ، ويقوم به تلاميذه رور أو خلفاؤه ، ونجده في تيار الأفكار الفلسفية الجديدة . ولم تكن الحركة المستقلة ، التي ضربت فرنسا فيها المثل ، مخالفة لهذا الجهد العميق ، وستتحدان مع بعضها في المضمار القومي . وهكذا نعود إلى الحالة التي كانت في نهاية القرن الثامن عشر ، قبيل الثورة الفرنسية ، ولكن في مرحلة متقدمة نوعاً ما ، ويجري الخلط من جديد بين فكرة الحرية وفكرة القومية من جهة ، وبين رسالة فرنسا واستقلال الأمم من جهة أخرى .

١ - الدرس الفرنسي

لقد أصبحت فرنسا مربية أوربة ومعلمة لها ، ولا سيما بعد أن أبدى العهد الرجعي اختلافاً مذهلاً بين دور فرنسا السيامي في أوربة ، وقد أصبح ضعيفاً ، لأن الدبلوماسية الفرنسية كانت ملزمة على الأقل بالانطواء وأحياناً بالطاعة ، وبين إشعاعها الفكري العظيم . لقد كانت

حركة الفكر الفرنسي في العهد الرجعي كثيفة في المضمار الأدبي والسياسي والفني ، و استقت هذه الحركة الابداعية الهامها من أوربة ، حتى ان نوعاً من النفوذ والتداخل قد تم بين الأدب الألماني والانكليزي والأدب الفرنسي ، ونهياً في فرنسا ، بالمقابل ، نظام جديد للأفكار فرنسي جداً وشع في أوربة . وأعطت فرنسا لأوربة درساً سياسياً ظهر بشكل حركة فكرية عامة ، ولم يكن بصورة نوعية وأساسية قومياً .

الحزب القومي . - لقد أخرجت فرنسا «المذهب القومي» لنفسها في بادئ الأمر . وعلى عكس ما مر في القرن الثامن عشر ، حيث كان الانطلاق من الأفكار إلى الوقائع ، نشأ الحزب القومي في فرنسا منطلقاً من الحوادث : لقد نشأ من رد الفعل ضد الاحتلال والمعاهدات ، وضد خذلان الهزيمة عام ١٨١٥ . ثم أضيفت إليه أنواع العناصر المتضررة من العهد الرجعي والجيش وضحايا الارهاب الأبيض وغير ذلك . وكان الفرنسيون يحنون إلى العظمة المفقودة ويمزج الألم نفوسهم من اقتطاع حدودهم . وفي الوقت نفسه كانت الحياة السياسية في الداخل عجيبة ، وكان للحزب القومي ، الذي أسهم فيها ، برنامج أخذه عن البيان الذي ألقى به مجلس ممثلي المائة يوم والدستور الذي صوت عليه هذا المجلس عام ١٨١٥ في فترة هذا الحكم الأخير ل نابوليون بعد عودته إلى فرنسا . وقد رفع هذا الحزب القومي الأمرين ، المطلوب القومي والمطلوب الحر ، إلى مصدرهما وهو السيادة القومية وسيادة الشعب ، ولم يقبل بسيطرة طبقة من الطبقات في الداخل ، ولا بسيطرة الأجنبي في الخارج . ولذا أخذ المذهب الفرنسي القومي مظهراً مزدوجاً : وهو التوكيد الديوقراطي والتوكيد القومي معاً . وأعرب هذا الحزب القومي ، من الوجهة العملية ، عن أفكاره

ببعض حاجات أو مطالب : فمن ذلك انه نفر من آل بوربون الذين عادوا في عربات الأجنبي ، ، وبشر بكره معاهدات ١٨١٥ . وبهذا المعنى كان الحزب القومي حزباً ثورياً وتركيبه يدل عليه : لقد كانت تسمى ، في الأصل ، حزب المستقلين ؛ وبضم بين عناصره جماعات من الجمهوريين ، مثل لافاييت ، وضباطاً وضباط صف بوناپارتيين وارانادت جمعية الفحامين ، وهي جمعية سرية كبرى تأسست بعد ١٨٢٠ ، أت تعيد للشعب ممارسة السيادة القومية . وكانت على اتصال بالجمعيات السرية في أوربة : مع جمعية الفحامين الايطاليين ، ومع عصبة الفضيلة (التوغند بوند) في ألمانيا ، أي ان هذه الحركة الثورية كان لها طابع دولي ، بالرغم من أنه لم يكن أي اتفاق بين هذه الجمعيات لقيادة حركة عامة مشتركة ، وعبرت عن نفسها ، في فرنسا ، بمؤامرات عسكرية ، بعد بعض المحاولات الثورية .

هذا هو الوجه الثوري للحزب القومي . بيد أن له وجهاً برلمانياً أيضاً . فقد كان يكافح سياسة العهد الرجعي الخارجية ، سياسة اشتراك فرنسا بالحلف المقدس . وكان المستقلون يهاجمون سياسة باسكيه المترددة ووزارة ريشيليو : فمن ذلك ان دست جملة في الرسالة التي وجهت إلى الحكومة في قضية السياسة الخارجية ، وشجبت سياسة الدوق ريشيليو حتى سقطت في كانون الأول ١٨٢١ . وكانت المعارضة بخاصة عنيفة ضد الحملة الفرنسية على اسبانيا : فقد اشترك اليسار في معارضته مع اليسار المتطرف (أقصى اليسار) وقام بالنضال في المجلس دوايه كولار ودوليسير وبينيون والجنرال فوا ومانويل . وتوصل النقاش بسرعة إلى أقصى درجات العنف ، وطرد النائب مانويل من المجلس في العام ١٨٢٣ . وفي الحملة الاسبانية نفسها حاولت جماعات من الأحرار ان تقاوم في جبال البيرينه ، وكان

يقودها الكولونيل فاييه ، حتى إن ضابطاً قديماً يدعى آومان كاويل
انخرط في صفوف الاسبانيين بغية اخفاق الحملة الفرنسية التي ذهبت لاختاد
ثورتهم . وعارض الأحرار الفرنسيون في هذه الحملة مبدأ عدم التدخل أي
احترام الحركات القومية في الدول الأجنبية .

ومع هذا فقد أخفقت هذه الحركة الثورية ومات نابليون في ٥ أيار
١٨٢١ ، وسمح هذان الحادثن بتطهير هذه الحركة المضطربة قليلا والثورية
في البدء ، وبنقلها إلى صعيد المذهب بعد أن أخفقت عملياً .

وكانت النتيجة ، التي حصل عليها هذا الحزب القومي ، الفصل بين فرنسا
الحرّة وبين مسؤولية سياسة الحكم المطلق في أوربة ١٨١٥ . وهكذا
ظهرت فرنسا خصماً وبالتالي حليفاً لكل من آلمهم نظام ١٨١٥
في أوربة .

الاعلام . - لم يضم الحزب القومي إلا جماعة قليلة ، ولذا فان شروط
التصويت والتصويت المزدوج خاصة ابعدت تأثيره الفعلي بسرعة ، فضلاً عن انه
لم يكن إلا صوتاً في مجموعة واسعة كثيراً . وابتداء من ١٨٢٠ بخاصة
قدمت فرنسا إلى أوربة مذهباً حراً معقداً كثيراً .

وفي الواقع ، ان الاختلاف بين فرنسا وباقي أوربة ، عدا انكلترا ،
هو أنه وجد في فرنسا رأي عام يعبر عن نفسه في المناقشات البرلمانية ،
وفي الصحافة ، وفي نشاط المكتبات والنشر الفرنسية ، وباختصار في كل
ما يسمى الاعلام . وبذا كان صوت فرنسا عاماً ويؤثر في كل الأفكار ،
ويمتد إلى جميع البلاد ، وبشع على باقي أوربة ، ويفرض نفسه على أناس
من أقصى اليمين : مثل شاتو بریان الذي ظل ، طوال حياته ، مدافعاً متحمساً
عن حرية الصحافة . وان أكبر خطأ ارتكبه آل بوربون ، وكان سبباً من الأسباب

الأساسية التي أدت إلى سقوطهم ، هو أنهم لم يأخذوا بعين الاعتبار هذا الرأي العام وأرادوا أن يحكموا ضده .

لقد وجد ، بفضل هذا الاعلام ، نقاش واسع في الافكار ، وأخذ يتناول مختلف أنواع المشاكل . وكانت العهد الرجعي من اغنى العهود بمناقشة المذاهب التي وجدت في الحياة الفرنسية . ومع ذلك ، فلم تكن أفكار الثورة وحدها المصدر الذي استقت منه اوروبا ، لأن المذاهب السياسية ، التي ظهرت في فرنسا في ذلك العصر ، حركت جميع الأحزاب . لقد وجدت مذاهب يمينية ، مثل مذاهب بونالد ، وهي مذاهب تقليدية تتصل في فرنسا ، لحد ما ، بأفكار هرذر ؛ وكان بونالد يرى ، في الواقع ، أن « تركيب ، الشعب هو نتاج تاريخه وتقليده . وقد أعطت نظريات بونالد هذه مع نظريات جوزيف دوميستتر حججاً للمدرسة التاريخية السويسرية و الألمانية بمثابة في آراء هالر و سافيني والمحافظين الألمان الذين كانوا أنصاراً للقومية دون حرية . وإلى جانب مذاهب بونالد ، وجدت نظريات أساسية صدرت عن لامانيه : وكانت تأثير لاهوت لامانيه في الدفاع عن الديانة المسيحية ، أي نظريته في « الحس المشترك » ، عظيماً على اليقظة الدينية في أوروبا ، وليس في فرنسا وحدها ، كما كان تأثير حربه في الآجل عظيماً أيضاً . وظهر تأثير لامانيه في ألمانيا الجنوبية خاصة وفي بلجيكا ، وكانت مونيخ ، في آخر العهد الرجعي ، مركزاً للأفكار المسيحية الحرة والحية جداً .

أمام هذه النظريات اليمينية ، وجدت نظريات اليسار ، وكان زعيمها الأساسي بنيامين كونيستان ، فقد كان يبشر بأن الفردية هدف اسمي للتشريع ، وأن الدولة لا تستطيع الاعتداء على الحرية ، ودافع عن الفرد

ضد الدولة ، ووضع نظرية الحكم التمثيلي والسلطة الوزارية البرلمانية .
وبين نظريات اليمين ونظريات اليسار كان النظريون يحتلون الوسط :
كان دواية كولار يعلم « السيادة المتشكلة » معارضاً بها سيادة الحق
الالهي و سيادة الشعب ؛ ويعتبر التمثيل الانتخابي وظيفة ، وظيفة
يعرفها القانون ، وليس تفويضاً للسيادة كما تريد الثورة ، وينظم
توازن السلطات المتساوية لتأليف الهيئة السياسية . ويرى غيزو أن
السيادة ليست خاصة إلا بالعقل ، وان السلطة يجب أن تعطى للكفاءات .
ولا نجد في كل هذه الأنظمة الكبرى الفلسفية والسياسية مذهباً
خاصاً بالقومية ، ولكن هذه المذاهب كانت تبريراً للمطلب الاساسي
الذي يحفظ للشعوب : الحرية ، الحرية التي هي الشرط الأول للقومية
وكل هذه المذاهب تبرر تعاون المجتمع في حياة الدولة ، أي توسيع الدولة
على الصعيد القومي .

وفي هذا المجموع من الافكار التي كانت تضطرب وتناقش في العهد الرجعي ،
خارجاً عن المذاهب الفلسفية والسياسية ، تجدر الاشارة إلى تأثير المدرسة
التاريخية الفرنسية . ففي العهد الرجعي بدأت المدرسة التاريخية الفرنسية
وكان يشعر بها كحاجة نظرية عندما كان الفلاسفة السياسيون بحاجة
للتدليل التاريخي : فقد دعم شاتوبريان « عبقرية المسيحية » بما اعتقد
أنه توثيق تاريخي كامل ؛ وكان لامانيه بحاجة الى تحقيقات تاريخية
كبيرة لوضع أسس مذهب . وكانت فلسفة فيكتور كوزني تعتمد ايضاً
على أساس من تاريخ الفلسفة . وهكذا كان التاريخ حاجة للجميع هذه
النظريات في الفلسفة السياسية .

هذا ولم توضع مشكلة القومية أمام المؤرخين . ولكننا نجد في آثارهم

بعض اتجاهات تحملهم على تعريف الأمة . فقد استؤنف في العهد الرجعي . نقاش القرن الثامن عشر في العناصر المقومة للدفاع الفرنسي ، على اثر بحث النظريات الفرنجية ، التي قال بها الكونت دو مونلوزيه . وقام على هذا النحو جدل في الفكرة القائلة بأن فرنسا كانت ، في الأصل ، نتاج أمتين توضعتا فوق بعضهما ، الأمة الغالية والأمة الفرنجية . وجعل اوغستن تييري من هذا النقاش نوعاً من تفسير وشرح عام : فهو يرى في تاريخ الشعوب المختلفة ، التي درس ثورة المضطهدين فيها ضد سادتهم ، ثورة جاك بونوم ضد الأمراء في فرنسا ، و ثورة السكسون ضد الغزاة النورمانديين في انكلترا . وكانت آثاره الأساسية في عام ١٨١٧ « محاولة في ثورات انكلترا » ، وفي ١٨٢٥ « فتح النورمانديين لانكلترا » ، وفي ١٨٢٧ « رسائل في تاريخ فرنسا » . وكان غيزو مؤرخاً موثقاً وأكثر يقيناً من حيث الطريقة من اوغستن تييري : ففي ١٨٢١ و ١٨٢٢ نشر دروسه التي ألقاها في السوربون في « أصول الحكم التمثيلي في أوربة » ، وأبان فيها أن اتجاه التاريخ ينزع نحو شكل الحكم الحر ؛ وفي ١٨٢٣ نشر « محاولات في تاريخ فرنسا » ؛ وفي ١٨٢٦ و ١٨٢٧ ، دراساته الأولى في « ثورة انكلترا في القرن السابع عشر » ، وفي ١٨٢٨ بدأ درسه الأكبر في تاريخ الحضارة في أوربة ثم في فرنسا . ومن نظريات غيزو تخرج هذه الفكرة ، وهي ان العنصر النوعي لتاريخ فرنسا هو الصعود التدريجي للبورجوازية . وقلب تيمير أفكار أو ذكريات الثورة الفرنسية بدراسة هذه الثورة كحادث تاريخي وبين تسلسل الأحداث في « تاريخ الثورة » ، في عشر مجلدات صدر من ١٨٢٣ إلى ١٨٢٧ . وأخيراً كان سيسموندي مؤرخاً واقتصادياً معاً : نشر في التاريخ من ١٨٠٩ إلى ١٨١٣ « تاريخ تاريخ الحركات القومية م (٢٠)

الجمهوريات الإيطالية ، ، وبدأ في العام ١٨٢١ « تاريخ الفرنسيين » .
وفي الوقت نفسه أي من ١٨١٩ إلى ١٨٢٤ صدرت كتبه المطولة في
الاقتصاد السياسي ، ثم تناول بعض أشكاله الجديدة في العام ١٨٢٦ .

ولم يكن هؤلاء المؤرخون الفرنسيون الكبار مغلقين عن النظريات
الخارجية لأن حركة الافكار الفرنسية كانت على صلة بمجرى حركة الافكار
الأوربية : كان غيزو على صلة بطرق ونتائج العلم الجرمانى . وفي
١٨٢٥ ترجم لورتيه « بحوث في القومية » ، لمؤلفه يان . وفي ١٨٢٧ و
١٨٢٨ ترجم ادغار كينييه إلى الفرنسية « فلسفة التاريخ » لهردر . ولم
يعلم الفرنسيون صناعة التاريخ للشعوب الأخرى ، لأن هذه الشعوب
تعرفها كالفرنسيين بل ومن الممكن القول انها تعرفها أفضل منهم ،
لأن المدرسة التاريخية الألمانية تمتاز في ذلك العهد ، بسعة وتفوق في
الطرق غير منازعين ولا مدافعين . ولكن تأثير المؤرخين الفرنسيين في
الحركة الأوربية كان عظيماً بفضل مناقبهم في التأليف والشكل ، وبفضل
موهبتهم في معالجة الأفكار ، وارتفاعهم فوق الرواية المحضة لظواهر
نظريات كبرى أو أفكار كبرى عامة . وعلى هذا النحو يتضح اعجاب
غوته ، الذي عبر عنه في محادثاته مع اكرومان أمين سره ، بالمدرسة
الفرنسية : فقد عاد خلال مرزات عديدة ، عام ١٨٢٩ ، في احاديثه
على أهمية هذه المدرسة : في ١٧ شباط ، وفي ٢ ، و ٣ ، و ٦ نيسان
قال ، في معرض كلامه عن الثلاثة اساتذة الكبار في السوربون ، فيلمان ،
كوزن ، غيزو : « ان هؤلاء الرجال الذين ينظرون إلى جميع الاشياء
بفكر حر وتحت زاوية جديدة ، ويذهبون دوماً على خط مستقيم إلى
الهدف ، على حين أن غيرهم ظل ، حتى هذا اليوم ، يدخل إلى الحديقة

ويأخذ طرقاً ملتوية ، ان هؤلاء الرجال هم على درجة من الجرأة تمكنهم من فتح ثغرة في الجدار وصنع باب في المكان الذي ينفذ منه إلى المشى الاساسي ، (١٧ شباط) . وبعد بضعة أسابيع أعرب إلى إكرمان « عن إعجابه بالنفاذ وسعة النظر ورجاحة العقل الكبرى عند هؤلاء الرجال الذين توصلوا إلى معرفة كاملة لماضي فكر القرن التاسع عشر ، وهذا ما انتج بالطبع نتائج خارقة » . وكانت بفضل بخاسة غيزو ويعجب بطريقته وذكاؤه .

وكانت جاذبية هذه المدرسة التاريخية الفرنسية بالنسبة لأوربة تظهر في الفكر المذهبي والفكر الفلسفي الذي يتطلع إلى استخلاص مبدأ الأشياء من التاريخ ، وبذا تكون دروس التاريخ مفيدة للعصر الحاضر .

تأثير القضية اليونانية . - وفي السنوات الأخيرة من العهد الرجعي أفل نجم المناقشات الكبرى النظرية الصرفة في الأفكار السياسية و القومية ، وكانت الأفكار التي اقترحها الفرنسيون لتربية أوربة غنية ومعقدة ، ولكن كانت لها قيمتها الذاتية وقيمتها النموذجية . وكان هذا التعقيد ملائماً في حينه ، حتى ان المطلب القومي في السنوات الأخيرة زال في فرنسا ، لأن الاهتمام بالسياسة الداخلية ، حيث كانت الاحزاب في نزاع ضد حكومة فيليل ، نقل الأفكار القومية البحتة إلى الصعيد الحلفي . ولكن القضية اليونانية خرجت في ذلك الحين ، وكان لتشكل القومية اليونانية قيمة نموذجية ، ولعلنا نذكر أنه أدى إلى اجماع الرأي بين الاحزاب ، وأن النخبة الأوربية كانت لصالحه . وهكذا كان للقضية اليونانية تأثير مزدوج : فقد أعطت الفكرة القومية قوة لا تقاوم وقضت على النظام الاوربي لعام ١٨١٥ قضاءً مبرماً ، من جهة ، لأنها انشأت دولة جديدة على أساس

قومي ؛ ومن جهة أخرى، لأن الحكومات قاومت الاعتراف بها. ولا يغرب ان تشكل المملكة الاغريقية يرجع الفضل فيه بصورة أساسية إلى الدبلوماسية الفرنسية ، وستكرر هذه السابقة الهامة بعد ثورة ١٨٣٠ ، عند تشكل الدولة البلجيكية .

وفي غضون هذا الدور ، الذي انكشف فيه المطلوب القومي وراء النضال السياسي ، استمر المفهوم القومي في تشكله ولو بشكل أصم ، وسينكشف تقدمه في السنوات الأخيرة من العهد الرجعي . ولا شيء أدل على ذلك من أنه أخذ يتسرب إلى أفكار أحزاب اليمين: فمن ذلك أن لافيرونيه، وزير الشؤون الخارجية في وزارة بولنيك، قوم في هذا الاتجاه الدبلوماسية الفرنسية بعد أن ظلت دون حراك في وزارة فيليل . وفهم المتطرفون انفسهم قيمة المطلوب القومي . وما كان في السابق مفهوماً عند شاتوبريان نفسه أصبح الآن لدى مجموع الحزب الملكي فكرة مشتركة عامة تقريباً. وكانت فكرة بولنيك العميقة تهدف إلى أن نحصل فرنسا على قسم من برنامجها القومي . وقد أعد مشروعاً لتنظيم أوربة ، انطلاقاً من القضاء على الامبراطورية العثمانية ، وأمن به لفرنسا امتلاك بلجيكا . وبمقتضى الحاجات نفسها في استمالة الرأي نحوه ومشابحته الرأي القومي ، علق أهمية خاصة على حملة الجزائر ومع ذلك نجب الملاحظة ، ان المعارضة السياسية التي قامت ضد بولنيك في الداخل لم تمكن جهوده في السياسة الخارجية من أن ترد إليه الفضل الذي يستحقه

وبالمقابل ، تشكل ، بالعكس ، في آخر ١٨٢٩ وبداية ١٨٣٠ حزب قومي ثان واوسع بكثير من الأول لمعارضة حكومة العهد الرجعي . فقد أسس الصحافيون الثلاثة : تيير ، مينيه ، آرمان كاويل ، في كانون

الثاني ١٨٣٠ جريدة وأعطوها اسماً له مغزاه وهو « القومي » . وتألف فريق من الشبان الجمهوريين في آخر ١٨٢٩ واعتمدوا على تقاليد المؤتمر الوطني (الكونفاسيون) في عهد الثورة الفرنسية الكبرى ، وأخذوا يتباهون بلقب « الوطنيين » وطالبوا به في جريدتهم « المنبر » .

ويجب ألا يظن بأن العهد الرجعي في المضمار الخارجي كان بالضرورة دور ممحياً ، ولم يكن له تأثير عميق في أوربة . لقد كرر على أوربه درس الحرية والفكرة في أن حياة الشعوب معلقة بانتصار الحرية . لقد تلقى نوعاً ما دروس الثورة والامبراطورية ووضعها وجعل أفكار الثورة وحوادث الامبراطورية قابلة للتمثل لدى الأمم الآخذ بالتشكل .

٢ - الرسالة الفرنسية على المحك

وهذا المذهب ، الذي ألفتة فرنسا واقترحته على أوربة في العهد الرجعي ، وضعت ثورة تموز ١٨٣٠ على محك التجربة والاختبار . لقد كانت هذه الثورة ضربة خطيرة لأوربة عام ١٨١٥ ، ففيها انهار جزء من أجزاء النظام الأوربي الاساسية ، وهو سلالة آل بوربون التي أعادها الأجنبي إلى فرنسا وثبت من أجلها حدود فرنسا ووضعها السياسي ، هذا فضلاً عن أن ثورة تموز أثارت في أوربة دويماً في الأفكار وحركة واسعة ، وذلك لأن هذا الحادث لم يبق فرنسياً فحسب ، بل أصبح أوربياً .

مذهب ثورة تموز ١٨٣٠ . - لقد بدلت ثورة تموز وضع فرنسا تماماً بالنسبة إلى القضية القومية ، وامتازت في الواقع بثلاث صفات : كانت ثورة حرة ليبرالية ، وثورة مناوئة للاكليروس ، وثورة قومية . لقد أخذ الأحرار على العهد الرجعي انحاء البلاد في المحفل الأوربي .

وكان رمز هذه الثورة وهذا المطلب الجديد تبني العلم المثلث الألوان ، علم الثورة والامبراطورية . والحجة التي أعطيت في الأصل لصالح دوق اورلئان المرشح للملك ، هي أنه أسهم في معارك الثورة وحروبها ، واشترك بل وقاد جيش الثورة في فالمي وفي جيباب . وأبدى رجال ثورة تموز مطالب قومية ووطنية : فقد قال غودفرا كافنيك في ٣١ تموز ١٨٣٠ إلى دوق اورلئان ، وهو الملك لوي - فيليب في المستقبل : « انها ليست ثورة حرة ليبرالية ، فكر بذلك جيداً : انها ثورة قومية » . وعرض الشبان الجمهوريون على غيزو ، في ٦ آب ، اثناء مناقشة إعادة النظر في الميثاق ، برنامجهم والشروط التي وضعوها لدعم النظام الجديد ، ومن بين هذه الشروط المذكورة التي كتبها بوانفيلليه : « لنزحف بجرأة على الراين ولنسترد الضفة اليسرى » .

وبما يعطي إلى ثورة تموز هذا الطابع القومي هو أن حكومات ١٨١٥ فكرت بالاتحاد أمامها في ائتلاف وأخذت تتسلح ، وبدأت أنها متهيئة للزحف على فرنسا . غير أن لوي - فيليب لم يفسح أمامها المجال واستطاع أن يفصل انكلترا عن جميع الدول ، بعد أن أكد لها تخلي فرنسا عن كل 'منفعة تتعلق باطاع أرضية ، وبفضل انكلترا اعترفت أوربة به . ولكن الثورة كانت لها نتيجة مباشرة وهي فصل أوربة إلى كتلتين متعارضتين : فرنسا ، وتدعمها انكلترا الليبرالية ، ضد أوربة الحكم المطلق .

واستمر هذا المطالب الأول وأفصح عن نفسه في برنامج كان برنامج اليسار كله ؛ وأخذت الصحف الفرنسية « تتكلم بمعاودة الدخول إلى حدودنا ، واستعادة الضفة الراين اليسرى » . وأبلغ هؤلاء الصحافيين كان

أرمان كاريل رئيس تحرير جريدة « القومي » ، كتب في ٥ تشرين الثاني ١٨٣٠ . « يجب أن تكون الثورة تحريراً لفرنسا في الداخل والخارج » .

وبدأ كاريل حملة تطالب بمحاربة أوربة : « ان الحق العام لأوربة لا يمكن أن يؤرخ في واترلو ، بل في أياونا ، في تموز ! » ، وطالب بإعادة النظر المباشرة في « معاهدات ١٨١٥ الخزية » . وكتب . « ان الحكومة لا يمكن ، دون أن تخون مصالح فرنسا وتخونها بشكل مجرم وجبان ، وشائن ، أن تسمح بأن تكون الضفة اليسرى لنهر الراين تابعة إلى حكومة أخرى غيرها أو إلى أمة تتفق وإياها في وحدة أفكار تامة » (١٧ نيسان ١٨٣١) . وكان مقتنعاً بأن جيوش أوربة غير قادرة على الوقوف أمام الشعب الفرنسي ، أمام الجنود المواطنين ، الذين يدفعون الجنود المحترفين . وفي بعض الأحيان ، في أيلول وفي آخر كانون الأول ١٨٣٠ ، نرى في صفوف اليسار دعواً لضم بلجيكا إلى فرنسا : فقد طالب بذلك نائبان وهما : الجنرال لامارك ، وموغن . وكانت رجال ثورة تموز مقتنعين بأن كل شيء ممكن لفرنسا ، وان أوربة تنتظر من فرنسا القيادة . وقد أعرب لوي بلان في تاريخه ، « تاريخ عشر سنوات » ، عن المفاهيم التي كانت تجري آنذاك في فرنسا والتي كان يشارك بها . « لم ير بعد شيء مثل ذلك في التاريخ ، لقد ظهرت الدول المتغطرسة صرعى ؛ ولن نحيي الأمم بعد الآن إلا بمساعدة فرنسا ومماحها » .

وفي بداية ١٨٣١ هجرت بسرعة فكرة استعادة الضفة اليسرى لنهر الراين ، ووضع برنامج الضم جانباً ، وتغلّبت الفكرة الليبرالية (الحرية)

على الفكرة القومية . فقد كان يراد بسط المكسب الذي حققته الثورة في فرنسا ، وهو التحرير الفرنسي ، على الشعوب الأخرى ، وذلك بمعاودة الدعاية الجيرونديّة للأفكار الثورية في أوربة ، وحرب تحرير الشعوب ، وعلى الأقل ، عند الحاجة ، دعم الشعوب الشائنة على طغاتها بالأسلحة الفرنسية . وكانت قضية تحرير القوميات إحدى النقاط الست في البرنامج السياسي لجريدة " المستقبل " التي يحررها لامانيّة . وقامت الصحف الليبرالية كلها بحملة إجماعية لصالح الثورات في أوربة : وكتبت جريدة " الكرة " (الغلوب) : " إن أماني أوربة تدعو فرنسا للصف الأول من بين الأمم ، فلتقبل باعتزاز هذه الوظيفة العالية ، ولتمسك بيد قوية صولجان العالم ، وإذا دفعت حتى النهاية ، فلتضرب بشدة الأمراء والباطرة الارستقراطيين الذين يستشرون بعنادهم الأحمق في الحفاظ على حكم شعب لصالح شعب آخر " .

ومكثدا أصبحت فكرة رسالة فرنسا ، فرنسا محررة الشعوب الأخرى ، مذهبا فرنسيا وفكرة رائجة .

الثورة البلجيكية . - ولكن الثورة لم تنفرد بفرنسا ، فبعد سنتين ، اضطربت أوربة بحركات سياسية لم تسج بجاسة على منوال الثورة في فرنسا ، بل كانت أكثر تعقيدا منها . غير أن الثورة في فرنسا كانت ، على الأقل ، بالنسبة لهذه الحركات ، فرصة سانحة ومشجعة . فقد انفجرت قبل آخر العام ١٨٣٠ ثورتان : ثورة في بروكسل في ٢٥ آب ، وثورة في فارسوفيا في ٢٩ تشرين الثاني .

وتستحق الثورة البلجيكية دراسة خاصة . لأنها ولدت ، كالثورة

الاجريقية ، دولة جديدة في أوربة . ولقد اسهمت فرنسا في هذه الحركة ، ويجب أن يميز في موقفها حيال هذه الثورة أمرين : موقف الرأي وموقف الحكومة .

موقف الرأي الفرنسي . - اتجه الرأي بما سمي « حزب الحركة » ، معارضاً في ذلك « حزب المقاومة » . فقد وجد في باريس جمع صغير من البلجيكيين الديموقراطيين اللاجئيين ، مثل الزعيم بوتر وتيلمانس . وبعد ثورة تموز أقام الأحرار الفرنسيون مأدب على شرفهم ، وألقوا بندايات لتحرير البلجيكيين وأرسلوا رسلاً إلى بروكسل ، وكان بعضهم يفكر ويؤمل بضم بلجيكا إلى فرنسا مثل : بينيون ، لافيت ، دوبون دولور ، وهم وزراء ، وكانت هذه الفكرة تداعب خيالهم ، وكانت منتشرة بخاصة في عالم اليسار المتطرف (أقصى اليسار) ؛ حتى أن لوي بلان لام حكومة تموز لوماً عنيفاً لأنها لم تغتنم هذه الفرصة وتوسع فرنسا نحو الشمال . وعندما قامت الثورة في بروكسل انتظم متطوعون في باريس وألقوا الجوقة الباريسية ؛ وانخرط فرنسيون آخرون في الجيش البلجيكي ضباطاً وضباط صف ، نذكر على سبيل المثال منهم جنفال وكان مؤلف النشيد القومي البلجيكي « لا بوابانسون » .

وإذا أدرك الفرنسيون أن امكان ضم بلجيكا كان وهماً وضلالاً ، فقد دعموا ، على الأقل ، بقواهم كلها البلجيكيين في تنظيم دولتهم : شجعوا الكونغرس الوطني البلجيكي على أن يسوي وحده مشاكل تنظيم المملكة دون أن يهتم بأوربة ؛ وألقى بينيون لهذا الغرض خطاباً عظيماً في المجلس الفرنسي في ١٣ تشرين الثاني . وليكيدوا للوي - فيليب آثاراً قضية ترشيح دوق لوشتانبرغ ابن أوجين بوهادنيه لعرش بلجيكا .

وهاجموا بعنف انصاف الحلول التي اتخذها مؤتمر السفراء ، ثم هملوا على قدر استطاعتهم للحملة الفرنسية عام ١٨٣١ و ١٨٣٢ التي خلصت البلجيكيين من الجيش الهولندي . ودعم الرأي الفرنسي بجرارة النظريات القومية التي قال بها البلجيكيون المتشددون ، حتى ان هذه الحركة كانت في بعض الأحيان تضائق الدبلوماسية الفرنسية بل وكادت تفسد القضية البلجيكية .

موقف الحكومة الفرنسية . - وكانت الحكومة الفرنسية بالطبع اكثر سياسة وحذراً ، وقدمت للبلجيكيين خدمة جلى : فبفضل الدبلوماسية الفرنسية انشئت الدولة البلجيكية وقبلتها أوربة . ولا شك في أن حكومة لوي - فيليب لم تكن بعيدة عن المنفعة كل البعد ، ولكنها قبلت بالتسويات أي بالحلول الوسط . ولم يكن تاليران ، وكان سفيراً في لندن ، ولا لوي - فيليب مشبعين بنظريات القومية ، بل كانا يعملان من وجهة نظر دبلوماسية صرفة ، واقتضت ترقياتها الدبلوماسية تسوية لقضية البلاد المنخفضة وانتهت أخيراً لصالح القومية البلجيكية . ومنذ البدء جعل لوي - فيليب أوربة تقبل ببدأ ترك البلجيكيين وأنفسهم في حركتهم الاستقلالية : ففي ٣١ آب (كانت ثورة بروكسل في ٢٥ منه) صرح الكونت موليه إلى السفير البروسي ، دوفوتر ، بأن الجيوش البروسية إذا دخلت بلجيكا ، فان الجيوش الفرنسية تدخلها مباشرة لدعم البلجيكيين . ثم حمل لوي - فيليب لندن على قبول مبدأ الفصل بين البلاد المنخفضة وبلجيكا مقابل تصريح أعرب فيه عن تخلي فرنسا المطلق عن هذه البلاد . وتقام تاليران مع آبودين ، وزير الشؤون الخارجية الانكليزي ، ثم مع خلفه بالمرستون ، على عرض القضية البلجيكية على مؤتمر السفراء المنعقد في لندن ، وحمل المؤتمر على قبول مبدأ الهدنة في ٤ تشرين الثاني . وفي ٢٠ كانون الأول قبل المؤتمر الدولي

استقلال البلجيكيين بتسوية اتفق عليها بشأن البلاد والوضع الدولي للدولة الجديدة ، وفي ٢٠ كانون الثاني ضمنت أوربة حياد بلجيكا بعد أن قبله المؤتمر . وأخيراً في ٢٧ كانون الثاني تقرر أسس دستور المملكة الجديدة .

وتخلت الحكومة الفرنسية عن التوسع الأرضي ، وبالتالي عن البرنامج القومي . واكتفت بتأمين الأمن الفرنسي على حدودها الشمالية بإزالة الدولة الفاصلة (الحاجزة) التي شكلت ضدها في العام ١٨١٥ ، وتغطت بالعكس ، بدولة محايدة دوماً على حدودها الشمالية . وكان لهذه السياسة فائدة مزدوجة : للبلجيكيين ، بإنشاء دولة مستقلة ؛ وللسياسة الدولية بمصالحة فرنسا وانكلترا بزوال المشكلة القديمة ، مشكلة البلاد المنخفضة التي كانت سبباً في النزاع بين هاتين الدولتين منذ قرون . ومقابل هذا النجاح قبل لوي - فيليب بعض التسويات الأرضية في تعريف بلجيكا ، ورفض أن يكون ابنه الدوق دونومور ملكاً لبلجيكا بعد أن انتخب في شهر شباط . وكان البلجيكيون يؤملون عن هذا الترشيح أو الانتخاب أن يجروا فرنسا للدفاع عن مملكتهم . وظل لوي - فيليب على الصعيد الدولي وقبل باختيار ليوبولد دوساكس كدوق بلجيكا ، وتمت التسوية النهائية للدولة البلجيكية بمعاهدة الاثني عشرة مادة المؤرخة في ٢٦ حزيران ١٨٣١ .

وبعد هذه الخدمة الرفيعة قدمت الحكومة الفرنسية للبلجيكيين خدمة أخرى أعظم منها وأنقذتهم من نكبة . فعندما أراد الجيش الهولندي استعادة بلجيكا ودخلها في ٣ آب ١٨٣١ ، كان رد الفعل العفوي للحكومة الفرنسية مباشراً ، ودون أن تشاور الدول الأخرى أرسلت

الجيش الفرنسي لنجدة البلجيكيين . وكان جيش الجنرال جيراو سريعاً وتمكن من ٩ إلى ٢٠ آب أن يجبر الهولنديين على التخلي عن بلجيكا . وعندما لم يقبل ملك البلاد المنخفضة ، غليوم ، بمعاهدة الاربع والعشرين مادة المؤرخة في ١٥ تشرين الأول ١٨٣١ اقترح لوي - فيليب أن تفرض عليه بالقوة ، وانطلق الجيش الفرنسي لاسترجاع آنفرس ، آخر حصن لم يحل عنه الهولنديون ، بحملة سريعة دامت من ١٥ تشرين الثاني إلى ٢٣ كانون الأول ١٨٣٢ .

وانشئت الدولة البلجيكية بفضل فرنسا ، وإذا لم تكن مطابقة مطلقاً للتطلعات القومية وأمانى البلجيكيين القومية فذلك لاعتبارات السياسة الداخلية وبسبب كراهية انكلترا التي اضطر لوي - فيليب أمامها أن يقبل بتسويات للحفاظ على الاتفاق الدولي . هذا وتجب الإشارة إلى أن لوي - فيليب حاول مرتين ، ودون جدوى ، أن ينتهز الفرصة لاصلاح تسوية حدود ١٨١٥ واستعادة هذه الاقطاعات الخفيفة ، فيليبفل ، ماريا نبورغ ، بويثون ، التي جرت عام ١٨١٥ ؛ إلا أن لوي - فيليب استطاع أن يحصل من الحكومة البلجيكية على إزالة مواقع هذا الحاجز ، أكثر من المؤتمر نفسه .

وهكذا نرى ، في القضية البلجيكية ، أن الحكومة الفرنسية ، وإن لم تتبع تماماً برنامج الحزب القومي الفرنسي والبلجيكي ، فقد دعمت على الأقل هذه السياسة الجديدة التي أدت إلى إنشاء دولة قومية ، دولة بلجيكا .

قضية بولونيا . - أما في قضية بولونيا فقد كانت النتائج مغايرة تماماً . لقد كان الفرنسيون يعتبرون دوماً بعث بولونيا عنصراً من العناصر الأساسية في تجديد أوربة . وكانت فرنسا تشعر بندم قديم بسبب تقسيمات

القرن الثامن عشر ، وبعاطفة وحدة نفسانية مع البولونيين في الوقت الذي كانت نظرياتها في الحق العام تجعلها تقبل بيعت الدولة البولونية . ولقد جعل الفرنسيون ، وبخاصة منذ ١٨١٥ ، فكرة القومية البولونية نقطة من نقاط برنامجهم . لقد كانت الهجرة البولونية الاولى بخاصة عسكرية ، وانصهرت في الجيش الفرنسي . وكانت بولونيا تريد أن تعيد بناءها على أسس جديدة . وفي ١٨١٥ أوجد المالكون الجدد لبولونيا في مختلف أقسام الدولة أوضاعاً ملائمة :

في غاليسيا ، لم يتم الحاكم النمساوي إلا قليلاً بهذا الاقليم النائي وترك الماغنات البولونيين احراراً في حياتهم العاطلة وفي السيطرة الاقطاعية التي يمارسونها على فلاحهم . وعرفت غاليسيا مركزاً فكرياً هاماً في مدينة لامبرغ أو لفوف في اللغة البولونية ، حيث أسس البولوني الثري ، الكونت اوسولانسكي ، في العام ١٨١٣ معهداً ، ومكتبة ومتحفاً ، ووثائق ودروساً للغة والتاريخ والآداب البولونية .

وفي بروسيا ، اعطى فريدريك غليوم الثالث رعاياه الجدد وعوداً صريحة في العام ١٨١٥ : « وانتم أيضاً ، لكم وطن ، وستدخلون ملكيتي دونما حاجة إلى التخلي عن وجودكم القومي » . ووعد خاصة باحترام اللغة البولونية . وفي الواقع ، عين للاقليم حاكماً بولونياً قريباً لأسرة آل هوهنتسولرن ، وهو الامير رادتسيفيل . واعتمد على الاكليروس وعامله معاملة حسنة : وقد أعرب المطران ، رئيس أساقفه لوفيتش ، الأمير كارينسكي عن تعلق الاكليروس البولوني بحكم آل هوهنتسولرن . وصدرت في العام ١٨١٩ براءة ملكية تحمي الفلاحين من تجاوز الأمراء . وفي

١٨٢٢ انشئ دباط قومي في بوسن واحترمت اللغة البولونية في المدارس .

في مملكة بولونيا ، كانت القسم الهام القسم الروسي الذي أطلق عليه القيصر الكسندر في العام ١٨١٥ اسم « مملكة بولونيا » . وقد حفظ لها سيادتها القومية في كنيستها وفي مدارسها . وكان للمملكة نقدها (عملتها) ، وجاركتها ، وجيشها وإدارتها . وكان الروس الوحيدون في بولونيا نائب الملك قسطنطين ، أخ القيصر ، والمفوض الامبراطوري ، أما باقي الادارة فكان بولونيا ، حتى ان الكسندر منح بولونيا دستوراً مع مجلسين : المجلس الأعلى ، والمجلس الأدنى ، وكان ينتخب بالتصويت الضريبي ، وزارة بولونية . ومن الطبيعي ان لم تكن هذه الوزارة مسؤولة أمام المجلسين ، وأن النشاط التشريعي لهذين المجلسين كان ضعيفاً ، وما عليها إلا أن يصوتا على القوانين الجديدة والضرائب الجديدة . ومع هذا فقد كان يوجد في هذه المملكة البولونية الصغيرة من الناخبين ما يفرق عدد الناخبين في فرنسا بموجب ميثاق ١٨١٤ . وكانت السياسة التي تسلكها الوزارة البولونية سياسة نافذة وقوية . فمن ذلك أن الوزير المسمى لوييكبي ، الذي يسمى كوليير البولوني ، تشبهاً بكوليير الفرنسي وزير لويس الرابع عشر ، نظم الادارة المالية تنظيمًا حسنًا ، وانشأ مصارف ، وشركات حسم ، وثما الازدهار المادي في المملكة : لقد انشئت بخاصة صناعات جديدة ، صناعات الأقمشة ، وهيئت لتأخذ أهمية كبرى في لودز ، وزاد السكان بنسبة مليون ونصف في خمسة عشر عاماً . ولم تضائق الحكومة الروسية الحياة الفكرية ، بل على العكس ، لقد تشكل مركزان هامان للحركة البولونية حول الجامعات : في فيلنو في ليتوانيا التي لم تكن داخلة في المملكة البولونية ، وفي فادسوفيا . وفي

فيلنو كان القيم على الجامعة ، ويسميه القيصر ، الأمير تشارنوديسكي البولوني . وفي هذه المنطقة الليتوانية الداخلة في روسيا ، تشكل مركز للحضارة البولونية يضم علماء وأساتذة آداب ، مثل الأخوين سنياديكسي وكان أحدهما كيميائياً والآخر رياضياً ، وبخاصة مؤرخاً سيلعب فيما بعد دوراً في الحركة البولونية وهو يواشيم لولوفيل . أما في فارسوفيا فقد أخذت جامعتها أهمية عظمى وانشئت بجانبها « جمعية أصدقاء العلوم » . ووجدت في كل هذا حركة نشيطة جداً لم تكن في إلهامها بولونية فحسب بل سلافية بشكل عام .

وهكذا كانت الظروف المادية والعامة للحياة في أقسام بولونيا المختلفة سعيدة ، ويبدو ، إذا أخذنا بالمنافع المادية ، ان بالامكان أن تشايع بولونيا سادتها الجدد .

ومع هذا فان الناس لم يكونوا مسيرين بمنفعتهم المادية فقط ، بدليل أن معارضة قومية تشكلت مباشرة ضد روسيا ، لا ضد بروسيا وضد النمسا ، مع أن روسيا وحدها ، كما رأينا ، هي التي أعادت بناء نواة بولونيا .

وكانت هذه المعارضة على صعيدين : معارضة ليبرالية (حرية) ومعارضة قومية ومن حيث السياسة الصرفة يأخذ البولونيون على الدستور في أن القيصر أعطاهم إياه غير كافٍ : فلم تكن دورة الديباط الا كل عامين . وسلطاته غير كافية . ولم يكن القيصر لينكر ذلك . فقد ذكر الديباط في ١٨١٨ ان سلطته التشريعية محدودة بالقوانين الجديدة . وفي العام ١٨٢٠ صوت الديباط بالاجماع إلا ثلاثة أصوات على برنامج مطالب قومية ، فأجاب القيصر في العام ١٨٢١ بجواب مهدد : فقد هدد بولونيا بحذف جزء من

حرياتها » إذا لم تظهر بأنها أهل للبقاء في النظام الذي منحه ، . وقويت معارضة البولونيين والديباط السياسية للحكومة الروسية في عهد القيصر نيقولا وكان رجعيًا في أعماقه ، ولكنه ، مع ذلك ، ابقى الدستور البولوني الذي أقسم عليه منذ تسلمه العرش وتوج في بولونيا . وبلغت هذه المعارضة نقطة الذروة في دورة الديباط في شهر أيار ١٨٣٠ : فقد عارض البولونيون المفوض الامبراطوري نوفوسيلتسوف واعتبروه جاسوساً للقيصر ، كما عارضوا سياسة الاستبداد المستنير نوعاً ، التي سلكها الوزير لوبيكي .

وظهرت هذه المعارضة بخاصة على الصعيد القومي . وكانت الشكوى الكبرى ، التي قدمها البولونيون للروس ، من تقلص بولونيا وتحديد مملكة فارسوفيا وجعلها أصغر بكثير من بولونيا التاريخية . وبالفعل كانت حصة روسيا من بولونيا ٦٣٤٠٠ كم^٢ ، على حين أن المملكة كلها كانت ١٢٧٠٠٠ كم^٢ . وقد تشكلت ، في الواقع ، من الحصة التي أخذها الروس عام ١٨١٥ أكثر بكثير مما تشكلت من بولونيا القديمة . وكان البولونيون يطالبون باعادة بناء دولتهم القديمة من الوجهة الأرضية . ففي ١٨١٥ احتج كوزيوسكي العجوز بجرارة على تقليص بولونيا . وطالب البولونيون بليتوانيا وكرانيا ، وما من أحد كان يفكر في ذلك الحين أن من الممكن يوماً ما وجود قومية ليتوانية وقومية اكرانية . وكان هذا الاقليم يؤلف ما يسمى « التخوم الروسية - البولونية » التي منع الروس القيصر من ربطها ببولونيا نفسها . وكان يطالب بـ « بولونيا الكبرى » أو بولونيا القديمة رجال الآداب ، كالشاعر ميسكيفيتش في « الاغاني التاريخية » ، التي صدرت عام ١٨١٦ ، والمدرسة الابداعية البولونية ، على حين أن المدرسة الاتباعية ، بصورة عامة ، كانت محبة للروس .

ولدت هذه المعارضة الليبرالية والقومية حزينين قادا النضال بشكل مختلف أحدهما عن الآخر : الحزب الأول وكان يضم أشد المتزمطين ، وكانوا ، كسائر أحرار أوربة في ذلك العصر ، ينتظمون في جمعيات سرية كالجمعية التي تشكلت في ١٨٢٤ وعرفت باسم « الجمعية القومية الوطنية » . وقد كشفت الضابطة الروسية أمرها وحكم على زعمائها بالموت . وحاول هؤلاء الأحرار أن يتفاهموا مع الجمعيات السرية الروسية المعاصرة أثناء الثورة عند جلوس القيصر نيقولا الأول . وتعرض للخطر بعض البولونيين مع زعماء ثورة بطرسبورغ ، وأوقفوا ، وحاكمهم الديباط وحكم على بعضهم بالسجن خمس سنوات وبرا ثلاثة آخرين . وفي ١٨٢٦ تشكلت جمعية سرية أخرى وأخذت اسم « اتحاد الضباط » ، وكان هؤلاء الضباط شباناً من تلاميذ المدارس العسكرية ، وقد انضم اليهم مدنيون وصحفيون ونواب . وكان غرضهم اعداد ثورة في بولونيا بمساعدة الجيش البولوني . وهيئت هذه الثورة المسلحة في العام ١٨٢٨ .

وكان هؤلاء الأحرار البولونيون على صلة بضباط الجيش والمفكرين ، وكانت فكرتهم اعادة بناء بولونيا التقليدية وكره الروس كراهية شديدة ، ويسمى « الحمر » مقابل معارضة جماعة آخرين معتدلين يسمون « البيض » . ويساقون عادة من بين رجال الطبقة الارستقراطية في المجتمع ، من كبار الموظفين البولونيين والاكليروس ، وكانوا من أنصار الانتظار وترك سنوات الخطر السيئة تمر ، والاكتفاء بالحفاظ على ما حصل عليه أي بالدستور البولوني ، وعدم اعطاء الروس حجة لتهديم النظم الليبرالية (الحرية) .

وعندما قامت ثورة ١٨٣٠ الفرنسية أحدثت فوراً عظيماً وأمسلاً
تاريخ الحركات القومية (٣)

كبيراً . وفتح القصر نفسه المناسبة أداة الثورة ، لأن الجيش البولوني جند لضرب الثورة البلجيكية . وثار قطعاً هذا الجيش في ٢٩ تشرين الثاني في فارسوفيا واستولت على قصر البيلفدير ، ولكن الدوق الأكبر قسطنطين تمكن من الفرار مع الجنود الروس في الجيش . ثم تشكلت حكومة مؤقتة ودعي الديباط للانعقاد .

حاول البيض أن يوجهوا الحركة ، وترعموها وسلمت القيادة إلى جنرال كان في الجيش النابوليوني وهو شلوبيكسي ، وقام هذا بمفاوضات مع قسطنطين والقصر ، ولكن القصر صرح في بيان ١٧ كانون الأول بأنه يشترط شرطاً أولاً وضرورياً وهو خضوع البولونيين خضوعاً كاملاً . وعجزت الحكومة البولونية بسرعة عن تلبية مطالب المتطرفين ، الحمر ، الذين سيطروا على الديباط المنتخب . وفي ٢٠ كانون الأول صوت الديباط على « بيان الشعب البولوني » وهو : « ان الشعب البولوني خرج من حالة الخضوع والتبعية التي كان فيها ، وقد وطد العزم على ألا يعود إلى السلاسل التي حطمها ، وألا يضع سلاح أجداده قبل أن يحصل على الاستقلال والسلطة ، الضمانين الوحيدين للحرية ، أويؤمن الحريات ، وله ملء الحق مزدوجاً في أن يعتبرها تراثاً نبيلاً من أجداده وضرورة عاجلة في الحاضر . ولن يتخلى عن النضال قبل أن ينضم إلى أخوته الراسفين في غل بلاط سان بطرسبورغ ، وقبل أن يحررهم ويجعلهم يشاركون في حرياته وفي استقلاله » . وأمام هذه الأهمية التي أخذها الحمر انسحب البيض أي المعتدلون وشلوبيكسي ، في كانون الأول وفي كانون الثاني ١٨٣١ .

وأعلن الحمر سقوط آل رومانوف والحرب على روسيا . ووجهوا نداءً إلى أوربة ، ودخل الجيش البولوني ليتوانيا .

أحدثت ثورة بولونيا في فرنسا فعلاً سحرياً : فقد تشبعت لها الأحزاب وجميع السياسيين ، من لافايت الى مونتالامير ، للقضية . وتآلفت لجان لمساعدة البولونيين .

وساندت جميع الصحف الحركة ، من صحيفة « القومي » الى صحيفة « الدستور » . وألف بيرانجييه أغاني أنشدت في شوارع باريس . وطالب لافيت باصلاح « خزي ١٨١٥ » ، وتقسيم بولونيا بالسلاح . وعلى اثر قداس أقيم للاحتفال بالذكرى السنوية لوفاة كوسيووسكو ، في ٢٣ شباط ، قامت مظاهرة في باريس ضد سفارة روسيا ، وضرب الجمهور نوافذها بالحجارة . ووجه فرنسيون رسائل سباب وشتائم وتهديدات إلى القيصر : فمن ذلك أن الجنرال بوتيه كتب إلى القيصر نيقولا الأول رسالة تبدأ بهذه الكلمات : « ياسيد ، أعتقد بأن بربريتك في أقصاها » . ودفع اللاجئون البولونيون في فرنسا السياسيين والحكومة للتدخل .

ماذا يمكن أن تقوم به الحكومة الفرنسية لصالح بولونيا ؟ من البديهي ، شيئاً قليلاً ، وكما قيل في القرن الثامن عشر : تعالى الله كثيراً ونأت فرنسا كثيراً . لقد أعلنت الحكومة البولونيين على لسان سفيرها الدوق مورقمار الذي عاد إلى سان بطرسبورغ ، بأن من المستحيل عليها أن تدعمهم بالسلاح ودعمهم إلى الاعتدال ، وصرح وزير الشؤون الخارجية ، سيباستياني ، إلى سفير روسيا في فرنسا : « ان تقويض هذه المملكة سيكون عملاً مناقضاً لبنود مؤتمر فينا » ، وطالب الحكومة الروسية بالحفاظ على المملكة البولونية ، وقدم وساطته . وأبعد كازيمير-بيريه بالحال فكرة التدخل المسلح ، ولكنه حاول ، على الأقل ، تدخلاً دبلوماسياً : اقترح في ٢٠ حزيران ١٨٣١ على انكلترا والنمسا القيام بتدخل مشترك لدى القيصر .

ولكن الانكليز رفضوا في ٢٢ تموز . ومع ذلك حاولت فرنسا
« تدخلاً معنوياً ، لدى الحكومة الروسية ، ولكن نسيلاود رفض
محاولات السفير الفرنسي .

وتجمع بسرعة جيش روسي يتألف من ١٢٠٠٠٠ رجل وحمل على البولونيين في شهر
شباط ، وشيئاً فشيئاً دحر البولونيون قرب فارسوفيا ، ثم توقفت العمليات أثناء
الكوليرا ، واستؤنفت في آخر الصيف بقيادة الجنرال باسكيفيتش وصل الجيش
الروسي أمام فارسوفيا وعرض باسكيفيتش على البولونيين الخضوع مقابل
العفو العام وبقاء الدستور . ولكن العناصر المتطرفة تزعمت الحركة
البولونية وأخذت تذبح الأسرى الروس في سجون فارسوفيا . وطالب
البولونيون بالاستقلال والحدود القديمة ورفضوا كل مفاوضة مع الروس .
ولذا عاود باسكيفيتش العمليات ، وضربت فارسوفيا بالقنابل وأخذت في
أيلول . وهكذا أخذت الثورة .

وأحدث هذا الاخفاق البائس للثورة البولونية خوراً حقيقياً في فرنسا .
وعندما علم باستلام فارسوفيا ، في ١٥ أيلول ، ساد حزن عام :
أغلقت المسارح كلها ، وعلقت الأعمال . وفي اليوم التالي ، قام في
المجلس نقاش مؤلم في القضية البولونية ، وفي هذا النقاش قال الجنرال
سيباستيان ، وزير الشؤون الخارجية ، هذه الكلمة الحزينة : « النظام
يسود في فارسوفيا » ، فأجاب عليها مندوب بولوني مستشهداً بقول
الكتاب المقدس : « حيث يصنعون الصغراء يسمون ذلك سلاماً » .
وصوت المجلس موافقاً على سياسة الحكومة . ولم يبق هنالك شيء آخر
للعمل . وأصبحت القضية البولونية منذ الآن قضية فرنسية . وفي كل عام
كان المجلس الفرنسي ، في رده على خطاب العرش ، يؤكد الأمل واليقين
بان بولونيا ستحيا يوماً ما .

لقد كانت نتائج هذه الثورة بالطبع شؤماً على بولونيا . فقد صرح
اوكانز (مرسوم) قيصري لاقى استحسان الروس ، حتى الأحرار، مثل
بوشكين : « ان بولونيا تؤلف منذ الآن جزءاً من الأمبراطورية ولا
تشكل مع روسيا الامة واحدة » . والغي الدستور وعوض بنظام
أساسي في ٢٦ إيلول ١٨٣٢ ينظم الادارة الروسية في بولونيا . وفيه
يعد القيصر بالحفاظ على الكنيسة واللغة البولونيتين . وفي الواقع ، كانت
حكومه باسكيفيتش حكومة ارهاب عسكري : حذفت جامعة فارسوفيا
والجمعيات السياسية والفكرية أيضاً . وأقيم موظفون روس مقام الموظفين
البولونيين ، وأصبحت اللغة الروسية اجبارية في الادارة . وشيئاً فشيئاً
الحقت المؤسسات البولونية المختلفة بالمؤسسات الروسية : ففي ١٨٣٩
التحق التعليم العام بوزارة سان بطرسبورغ ، وربطت بولونيا بمجلس
الشيخ الروسي الذي كان محكمة تميز ومجلس دولة . وادخل قانون
العقوبات الروسي الى بولونيا عوضاً عن قانون نابوليون . وقسمت البلاد
إلى عشر « حكومات » . وكان هذا آخر وجود قومي لبولونيا .

ترينا هذه الحركة البولونية عدة حوادث هامة ، أهمها :

١ - تمجيد الفكرة القومية التي أخذت في بولونيا شكلاً متطرفاً تبعاً
للمزاج البولوني ، هذا المزاج المتحمس المندفع الذي نراه عند البولونيين
ويدفعهم في كل شيء إلى التطرف . ونجد هنا سبباً خاصة للحركة
البولونية ترجع إلى المزاج القومي .

٢ - الصلة الوثيقة بين فكرة الحرية وفكرة القومية اللتين تمتزجان
تماماً في بولونيا .

٣ - لقد أحدثت هذه الثورة فرقة جديدة بين البولونيين ، وهجرة

جديدة أم بكثير من هجرة آخر القرن الثامن عشر ، ومن الممكن ان يقال ان روح بولونيا ذهبت لتلجأ في الخارج وان قلبها ينبض خارج حدود البلاد البولونية .

الثورة في ايطاليا . - لقد أدت ثورة ١٨٣٠ في بلجيكا وفي بولونيا إلى ثورات قومية كبرى في أوربة ، ولكن هذه الحركات لم تصل إلى هذا الحد ، ولم تتجاوز مرحلة الاضطراب : ففي أوربة الوسطى وافقت ثورة ١٨٣٠ حركة قومية ، في إيطاليا وفي ألمانيا ، تستحق دراسة خاصة . ولنشر ، فيما يتعلق بإيطاليا ، إلى ان حركة قومية مزدوجة تألفت في السنوات التي سبقت عام ١٨٣٠ : احدهما حركة مستقبل ، ولكنها لم تحمل بعد ثمارها ، وكانت أيضاً بعيدة جداً عن كل ما أعطت في الآجل . كانت هذه الحركة فكرية أو بالاحرى أدبية ، حركة ابداعية ، تقتل بشواهد الفيري وفوسكولو في الوطن في زمن الأمبراطورية الفرنسية ، وتدعو إلى إيطاليا ، إيطاليا المستقبل ، أو أنها ترجع إلى عظمة إيطاليا الرومانية . وهنا تبدأ حركة تربية فكرية تظهر بعد ١٨٣٠ بحركة البعث ولكنها كانت في حالة رسم أولي . ولذا فإن الشكل الآخر للمعارضة يبقى على الصعيد الأول ، وهو شكل العمل الذي رأيناه في حركة « الفحمة » التي أجهضت في ١٨٢٠ وفي ١٨٢١ ، ولكنها عاشت ودامت لأن العاملين الذين ولداها قويا مع الزمن . لقد أصبحت السيطرة النمساوية في إيطاليا عامة وثقيلة ، وبالتالي ازداد كره الالمان ، التدشني ، في ايطاليا . واستعيدت كلمة الأمر القديمة التي كانت ترد في القرن الخامس عشر : « فروا من البرابرة » . ومن جهة أخرى ، قوي رد الفعل السياسي أيضاً . ففي نابولي تبنى الملك فرنسوا ، الذي حكم حتى ١٨٣٠ ، سياسة

الارهاب . وفي روما أعيدت الحكومة القديمة ، بعد زوال كونسالفي والبابا بيوس السابع ، في هبرية ليون الثاني عشر . وكانت سياسة النمسا قوية وشديدة جداً في منطقة ميلانيا . وناضل الايطاليون دوماً هذه الرجعية بتشكيل الجمعيات السرية وتدبير المؤامرات . الا ان هذه الجمعيات السرية كانت قوة مبعثرة وليست أهلاً للتوفيق بين بلد وآخر ، فضلاً عن أن قوة هذه المعارضة لا تتناسب مع قوة الحكومات .

لقد كان مثل فرنسا اشارة لاستئناف النضال . ويجب أن نقول: المثل والعمل . فقد تشكلت لجنة ايطالية في باريس لنشر منشورات ثورية تغرق بها ايطاليا ، ولارسال المال إلى الوطنيين الايطاليين وتشجيعهم على القيام بالثورة . واستقبلت باريس لذلك قبيل الثورة استقبالا حماسياً الشاعر سيلفيو بيلليكو بعد ان أطلق سراحه من سجنه وكتب فيه كتابه «سجوني»^(١) وكذلك مبدأ عدم التدخل الذي نادى به الحكومة الفرنسية ، كان أيضاً مشجعاً للايطاليين . وحاولوا الحصول على الحريات . وكانت الجمعيات الايطالية المختلفة تريد دستوراً ليبرالياً ، وإنشاء حرس قومي ، وحرية الصحافة . ومع ذلك لم تذهب الحركة حتى التنفيذ إلا في إيطاليا الوسطى أي في الدول الايطالية التي كانت الحكومات فيها أضعف من غيرها ، وحيث أحدثت وفاة البابا بيوس السابع ، في ٣٠ تشرين الثاني ١٨٣٠ ، فترة ظل فيها العرش الهبري شاغراً عدة أشهر .

نشبت الثورة في إيطاليا الوسطى ، في ٥ شباط ١٨٣١ ، وكانت نقطة الانطلاق دوقية مودينا ، وكان الدوق فيها يشارك ، في الأصل ، بفكرة محاربة النمساويين ، ولكنه عند العمل تخلى واختفى . ثم

(١) ترجم الأب يوسف سعد كتاب «سجوني» إلى العربية ونشره في القاهرة ١٩٥١

انفجرت أيضاً في بولونيا وفي المدن الأخرى في رومانيا والمارش
واومبريا وأخيراً في بارما حيث تألفت حكومة مؤقتة .

وكانت هذه الحركات تشبه من حيث الشكل حركات ١٨٢٠ و ١٨٢١ .
ولكن وجد فيها شيء جديد : ففي الدولة الحربية ، في القصادات (أي
المناطق التابعة للبابا) والمارش تأسست حكومة مؤقتة من النبلاء
والبورجوازيين ودعت الى الانعقاد مجلساً من النواب المنتخبين في بولونيا
وألقى هذا المجلس بندااء لتشكيل حكومة إيطالية الوسطى في دولة
واحدة ، في ٤ آذار . وتدل هذه الاحداث على تطور سياسي اكثر تقدماً
بما كان في ١٨٢٠ : لقد وجد برنامج اصلاحات ، وهذا ما لم نره
في نابولي او بيمونت في ١٨٢٠ و ١٨٢١ . لقد وجدت عبارة تدل على
أفكار جديدة : وهي الكلام عن الوحدة . وسمي مجلس بولونيا
« مجلس نواب الأقاليم الحرة » . ثم أطلق النواب على أنفسهم اسم : نواب
« الأقاليم الإيطالية المتحدة » . ومن الطبيعي ان هذه الثورات الخفيفة
لم تدم ، وكان رد الفعل النمساوي مباشراً : فقد احتلت الجيوش
النمساوية في البدء بارما ومودينا ثم رومانيا ، وخضع الثوريون بعد
قليل ، في شهر آذار ، اثر الوعد بالعفو العام .

موقف الحكومة الفرنسية . — حال هذه الثورات الإيطالية كان موقف
الحكومة الفرنسية حرجاً نوعاً ، كانت مأخوذة بين الرغبة في الحفاظ
على السلام وعدم كفاية جيوشها من جهة ، وهياج الرأي الذي كان يريد
التدخل لصالح إيطاليا من جهة أخرى . وأكدت الحكومة بأنها راغبة
في الحفاظ على السلام : أكد ذلك مراراً الجنرال سيباستيان في المجلسين ، في ١٣
تشرين الثاني ١٨٣٠ ، وفي أول كانون الأول . وصرح إلى سفير النمسا ، أبونوي ، في

٢١ تشرين الثاني ، بأنه ، من جهة ، عدو صريح لنظام الدعاية والحزبية ، ولكن الحكومة أمام دفع الرأي ، اضطرت إلى اتخاذ تدابير لاعادة بناء الجيش لتكون لديها ، عند مقتضى الحال ، قوة لدعم حججها . وأوضح بأن فرنسا إذا كانت لا تريد التدخل في الخارج ، فهناك بعض دول متاخمة لفرنسا ولا تقبل فرنسا بأن يتدخل في أمر هذه الدول ، ويريد بذلك : بلجيكا وسويسرا والدول السارديّة . ولخص رئيس مجلس الوزراء : لافيت ، وجهة النظر الفرنسية بهذا الشكل : يوجد امكان حرب إذا احتلت مودينا ، واحتمال إذا دخلت الدول الرومانية ، ويقين إذا احتجت الليمونت . وعندما استلم كازيمير بيويه الوزارة ، في ١٣ آذار ١٨٣١ ، كانت النمسا تصفي ثورات ايطاليا الوسطى . وحافظ كازيمير بيويه على سياسة أسلافه ، وقال في ١٨ آذار إلى المجلس : « إننا نتمسك بمبدأ عدم التدخل في كل مكان بطريق المفاوضات ، ولكن مصلحة فرنسا وكرامتها تستطيعان وحدهما أن تحملانا السلاح ، ولن نتنازل لأي شعب عن حق يجبرنا على القتال لقضية . ان دم الفرنسيين لا يخصص إلا لفرنسا ، . وفي الوقت نفسه أعلم الحكومة الليمونتيّة مرتين بأن النمساويين إذا هاجموا فان فرنسا تأتي لدعمها .

على أن سياسة فرنسا وإن كانت في مجموعها سياسة عطالة ، فقد دلت على أن القضايا الايطالية نهمها لدرجة خاصة : وهي تعتبر أن مصلحة فرنسا الرئيسية في منع النفوذ النمساوي من أن يثقل كثيراً على ايطاليا . وكانت الحكومة الفرنسية تدافع عن استقلال الدول الايطالية كما تدافع عن حرية حكوماتها .

كانت سياسة كازيمير - بيويه ماهرة : فقد دل على أن لدى فرنسا امكانيات العمل إذا أرادت ، ودعا ٨٠٠٠٠٠ رجل ليكونوا تحت السلاح ،

وأرسل اسطولاً للتجوال في الآذربايجان . وحشد بعض الجيوش في تولون : وصرح إلى الدوائر الدبلوماسية ، في ٢٧ آذار ، بأنه يجب اتخاذ أمرين منعاً لاحتمال وقوع الحرب وهما : جلاء الجيوش النمساوية خارج الأراضي الرومانية (من روما) التي دخلتها ؛ ومن جهة أخرى ، سياسة اصلاحات تقوم بها الحكومة الحبرية . ولدعم وجهة نظره أرسل سفيراً إلى روما ، الكونت سنت اولير وكلفه بأن يقترح على البابا برنامج اصلاحات ليبرالية (٣١ آذار) . وبعد مفاوضات صعبة حصل سنت اولير على أن ينعقد مؤتمر للسفراء في روما ، في ١٤ نيسان ، وبطالب البابا ، باسم أوربة ، باصلاحات .

وحصل على عفو عام لجميع الثائرين ، في ٢٠ نيسان ، ثم في ٥ تموز على اصلاح الادارات البلدية . وفي الوقت الذي كان يدفع فيه الحكومة الرومانية على القيام باصلاحات تجعل الثورة دون جدوى وتعطل الحركة الثورية ، كان كازيمير - بيرييه يقوم بمساع ملحة للحصول على جلاء الجيوش النمساوية وتوصل لذلك : فقد انسحبت الجيوش النمساوية من رومانيا في ١٥ تموز . وكان في ذلك نجاح مزدوج للسياسة الفرنسية وسابقة دبلوماسية هامة . وفي هذا ما يدل على بداية سياسة متصبع في المستقبل خطأ للسياسة الفرنسية في ايطاليا وذلك بمنع سيطرة قوية للنمسا على ايطاليا وإثارة حركات اصلاح سياسي فيها .

وللأسف حدثت نكسة للثورة في رومانيا ، بسبب خرق حكومة الكرادلة ، ونتج عنها من جديد تدخل نمساوي : وفي الواقع ان الكردينال الباني ، أمام هذه الثورة الثانية ، دعا الجيوش النمساوية ، في ٢٥ كانون الأول . فدخلت رومانيا واحتلت بولونيا في ٢٨ كانون الثاني ١٨٣٢ .

فلم يقبل بذلك كازيمير بيويه ، وتدخل في روما ليضطر البابا إلى دعوة فرنسا ضد النمساويين ، وأرسل اسطولاً وحمله إلى الادرياتيك لاحتلال ميناء انكونه في ٢٢ شباط . ولسوء الحظ وجهت القضية توجيهاً سيئاً : فقد أظهر قائدا الاسطول والحملة ، غالوا وكونت هذه الحملة كطليعة للجيش الفرنسي ، وشجع الجنود والضباط الفرنسيون أحرار البلاد ، وأمام هذه العملية احتج البابا بشدة . وساء أوروبية أن ترى فرنسا تتدخل في دولة حرة . وارتبك كازيمير بيويه ، وما وسعه إلا أن أنكر على القائد غالوا عمله . وعلى مرأى من حقن الأحرار ، تفاوض مع البابا وانتهى إلى الاعتراف باحتلال انكونه في ١٦ نيسان ١٨٣٢ . وفي الواقع ، لم ينجح التدخل الفرنسي ، لأنه لم يجبر النمساويين على الانسحاب من بولونيا ، وستبقى الجيوش الفرنسية في انكونه ما دامت الجيوش النمساوية باقية في بولونيا ، أي حتى ١٨٣٨ .

كان موقف الحكومة الفرنسية تجاه هذه القرارات الايطالية لابساً : فقد كانت بين التنازل أو الحرب . وكانت مسؤولية فرنسا المعنوية في الثورات الايطالية واضحة ، ومصصلحة السياسة الفرنسية ملتزمة . ومع هذا فإن الحكومة لم تشأ أن تطيع منطق وضعها ، لأنه قد يؤدي بها إلى التدخل بالسلاح لدعم هذه الثورة الايطالية ، ولم تشأ أن تكون على رأس حركة ثورية أوروبية .

الثورة في ألمانيا . - لم تصل الحال في ألمانيا إلى الثورات : لأن حركة ١٨٣٠ لم تتجاوز مرحلة الاضطراب . كانت قضية الحرية السياسية ، بسبب النظام الداخلي للدول الألمانية وبسبب سياسة مترينخ ، تهم الألمان أكثر من قضية الوحدة القومية . ومن الممكن القول ان هذه القضية قد أغمى عليها : إن الحقد الذي كان يرى من ١٨١٣ إلى ١٨١٥ زال .

وكان برنامج الألمان الأحرار صغيراً : كانوا يطلبون في مختلف البلاد مجالس تصوت على الموازنة وحرية الصحافة والقضاء والحرس القومي . ولقد كان من نتائج ثورة تموز ان أثارت في ألمانيا اضطراباً كبيراً كانت تشجعه لجنة موجهة للاجئين الألمان في باريس . وفي البلاد التي وجدت فيها مجالس ، كانت المعارضة قوية وجريئة : ففي دوقية باد الكبرى حصل المجلس على نشر الجلسات وضبطها ، وعلى إلغاء الرقابة في ١٨٣٠ . وفي كل مكان تقريباً ، في دول ألمانيا الجنوبية ، كانت الجرائد والمناقشات السياسية والعرائض نشيطة ، وكان الألمان يؤكدون موقفهم الحر بالواربة عن طريق المظاهرات . لصالح بولونيا و إيطاليا . وقد خاف بعض السادة هذه الحركة فمنحوا شعوبهم دساتير ، في برنسفيك ، وهسن - كاسل وساكس ، وهانوفر . حتى انه وجدت بعض مظاهرات تقسم بروح قومية : فمن ذلك ان نائباً بادوياً (من باد) يسمى فوكر طالب في العام ١٨٣٢ بانشاء برلمان للاتحاد الجرمانى . وتشكل اتحاد للصحافة هدفه جمع المال للتعويض عن الصحافيين المحكومين بمخالفات من قبل الحاكم ، وللقيام بالدعاية لصالح دولة اتحادية فدرالية . ونشرت هذه الجمعية كراريس وعقدت مجالس ، وكان أهمها المجلس الذي عقد في قصر بالاتينا البافارية ، في هانباخ ، في ٢٧ أيار ١٨٣٢ ، وحضره فرنسيون وبولونيون إلى جانب الألمان . ورفعت راية البورشنشافت السوداء والحمراء والذهبية ، والقيت خطب لصالح سيادة الشعب ودول أوربة المتحدة . وكانت هذه المظاهرات عذراً ومحركاً جديداً لسياسة مترنيخ الذي أوقف كل حركة اضطراب .

وهنا وقفت الحكومة الفرنسية دون حراك ، ولم يكن لها سياسة ألمانية ، ولم يكن لديها أي مفهوم لتأمين نفوذ فرنسا يجمع الدول الحرة

في ألمانيا الجنوبية حولها ، اما بتشجيع سياسي أو بامتيازات اقتصادية .
وهكذا ، إذا استثنينا بلجيكا ، لم تكن ثورة ١٨٣٠ ، بالنسبة
لأوربة ، سبباً أو فرصة لتقدم قضية القوميات . ومع ذلك فقد كانت لها
نتائج هامة : لقد أثارت ثورة ١٨٣٠ في أوربة تطوراً متسارعاً لحركة
القوميات وتحويلاً لهذه الحركة . وبينما كانت أوربة في خبل تام من
١٨١٥ إلى ١٨٣٠ ، نجدها اضطرت على العكس من ١٨٣٠ إلى ١٨٤٨ إلى
تشكيل حركات قومية كبرى وكانت ثورة ١٨٣٠ نقطة انطلاقها .
أما ما يتعلق بفرنسا فقد أحدثت الثورة في السياسة الخارجية نوعاً
من فصل بين سياسة الحكومة التي تمسكت بالجمود المحافظ ، وبين متطلبات الرأي
الذي أخذ يتجه ، على العكس ، نحو سياسة العمل والدعاية في الخارج .
وهكذا كان نجاح الحرية في فرنسا مثلاً لأوربة ، لاسيما وان فرنسا أصبحت
آنذاك عاصمة الحرية الأوربية .

٣ — فرنسا عاصمة الحرية الأوربية

وفي الواقع ، ان ما رفضت الحكومة الفرنسية ان تفعله ، فعله الرأي
العام . لأن السياسة لصالح القوميات . أي البرنامج القومي فيما يتعلق بفرنسا
وبصالح القوميات الأوربية معاً كانت في الحقيقة البرنامج الذي تبناه
اليسار واليسار المتطرف وحتى قسم من الوسط الأيسر في عهد الملك لوي -
فيليب . وستغذي أحزاب المعارضة البرلمانية اتجاهاً كبيراً وعميقاً بتشكيل
في سواد الأمة ، اتجاهاً جهل تقريباً لوي - فيليب ولم يقدره ولكنه
سينفجر في عام ١٨٤٨ . وهذه الحركة القومية لصالح فرنسا داخلياً ولصالح
القوميات خارجاً ضمت عدة عناصر : عناصر فرنسية وعناصر أجنبية .
العناصر الفرنسية . - كان من الطبيعي ان يتغذى هذا الاتجاه

بالليبرالية الفرنسية التي أوضحت هذا البرنامج من قبل : لقد رأى لوي بلان ارتباط الشئيين وسجله في تاريخه : « تاريخ عشر سنوات » ، عندما اعترف بأن الأحزاب الليبرالية الفرنسية كانت تجعل جميع القضايا الليبرالية قضاياها ، وكما قال : « ان الديمقراطية كانت تعيش في حياة الشعوب الأخرى أكثر من حياة فرنسا الخاصة » . وبدا له ان هذا طبيعياً تماماً ومشروعاً وقال : « ان عبقرية فرنسا كانت دوماً في المواطنة العالية » . ومن المفيد ان نرى الآن ان فكرة البرنامج القومي الفرنسي : أي المطالبة بصفة الراين اليسرى والحدود الطبيعية ، قد غابت في فكرة السياسة القومية الاوربية ؛ وان رجال اليسار في فرنسا ، لم يستسلموا لسياسة الحكومة المحافظة .

كتب آرمان كاريل في صحيفته : « واخجلتاه ، واخجلتاه الف مرة من النظام العاجز الجبان الذي يريد أن يطالب بأناية فرنسا السياسية ! » وهو يرى ان الاحرار الفرنسيين يندفعون لجميع القضايا الليبرالية في أوربة : لبولونيا ، باجماع الرأي ، كما كان هذا الرأي مجعاً في السابق ، للاغريق . وكان الكتاب الفرنسيون يقومون بالدعاية لصالح بولونيا مثل لامانية وكازيمير دولافين والشاعرين باربيه ، وبيرانجييه . وكذلك كان مجلس النواب ، في جميع الاعوام يصوت في رسالته إلى الملك على جملة لصالح بعث بولونيا ، ثم تبعه مجلس الشيوخ في عام ١٨٤٠ .

ولكن لم تكن قضية بولونيا القضية الوحيدة التي كانت تحرك الفرنسيين . فقد تشيعوا أيضاً لفكرة الوحدة الالمانية . كتب لافايت : « القومية الالمانية عزيزة علينا ، نحن الفرنسيين ، كما هي عزيزة على جرمانيا نفسها » . وقال لاسكودير : « من الضروري عاجلاً أو آجلاً ان تتألف الوحدة الجرمانية وسيان لدينا أن تكون بروسيا أو النمسا

الوارثة لكل هذا . أما ميشليه فقد جعل من الحركات الليبرالية والفكرية في ألمانيا شيئاً واحداً وتكلم خالطاً جميع قضايا « علم لوثر وكانط وغيخته » .

وكانت إيطاليا أيضاً إحدى القضايا العزيزة على الأحرار الفرنسيين . أما الشعوب الأوروبية الأخرى ، فكانت معروفة عندهم قليلاً ، وخاصة السلافيون ، ولم يكن لديهم أي فكرة عنهم إلا بين حين وآخر ، بما يتلقفونه من معلومات من سائح مر في المناطق السلافية وحدثهم بأن فيها عروفاً ترغب في الوصول إلى القومية . فمن ذلك أن لامارتين دعم قضية الصرب ، في كتابه « رحلة الشرق » الذي صدر عام ١٨٣٥ . وفي ١٨٤٧ وجد صحافي يدعي ديسبريه ساح في البلقان ، وكتب في « مجلة العالمين » ، في ١٥ آذار ١٨٤٧ ، وصفاً للحركة الأيليرية وكان يهل عن ثقة لهؤلاء السلافيين رغم الجهل بهم .

وكسب برنامج القوميات بعض العناصر المحافظة : فقد كان دوفيرجييه دوهوران عضو الوسط الأيمن ومثله لوي - فيليب « يدعمان » الشعوب ضد الحكومات .

أما الأحزاب البرلمانية فقد اقتصر البرنامج على الأقل على ائتلاف بين جميع الحكومات الدستورية ضد الحلف المقدس الذي عقدته دول الشرق في مونشنغواتز . طالب اودليون بارو وتيريه هذا الائتلاف بين الحكومات الدستورية ، ولحقا إلى الحلف الرباعي الذي وقع مع انكلترا واسبانيا والبرتغال عام ١٨٣٤ وظنا أن فيه ائتلافاً من الدول الحرة ضد ائتلاف الدول المحافظة في الشرق . وعندما كان تيريه رئيساً لمجلس الوزراء أراد أن يتدخل في اسبانيا لصالح الدستوريين والتقدميين ، واختلف في هذه النقطة مع لوي - فيليب فأقاله .

إن الفكرة الجيرونندية في الدعاية للأفكار الحرة ودعمها في الخارج بفكرة رسالة فرنسا التي تدعو الشعوب إلى الحرية أصبحت إذت برنامجاً عادياً جارياً لكل الرأي الا بالطبع الحزب المحافظ والحكومة .

الاسطورة النابوليونية . - وإلى هذا العنصر الأول ، الذي لم يكن إلا نتيجة للخلط بين فكرة الحرية والفكرة القومية ، جاءت الاسطورة النابوليونية منجدة . وبعد ١٨٣٠ تمت في الحركة الأدبية والفنية ، وكانت بخاصة فكرية ، ولم تعط مجالاً لتشكيل حزب سياسي . ولم يكن لعائلة بوناپرت إلا فكرة واحدة ، بعد سقوط الامبراطورية : وهي أن تنسى . وكان العنصر الوحيد لعمل اسرة بوناپرت الأمير الشاب لوي - نابليون ، وليقطع دابر الأحكام التي أثقلت كاهل آل بوناپرت حاول القيام بضربة قوة في ستراسبورغ في ١٨٣٦ . وكان الدليل على عدم وجود حزب بوناپرتي في لامبالاة الرأي أمام الحركتين اللتين حاولهما لوي - نابليون بوناپرت عام ١٨٣٦ في ستراسبورغ وفي ١٨٤٠ في بولونيو .

ومع هذا فان حكومة ثموز كانت تضم في جهازها كثيراً من العناصر البوناپرتية التي أتت على الأقل من الادارة الامبراطورية ، ولم تكن لتغضب من الالتجاء ، بين حين وآخر ، وراء مجد الامبراطور ، وهذا ما كان يعفيا من البحث عنه بنفسها . وقد بلغت هذه الظواهرات البوناپرتية نقطة الذروة عندما أتى برماد نابليون إلى قصر الانفاليد في كانون الاول ١٨٤٠ . أما الجماهير فكانت التربية السياسية الوحيدة التي تلقنها في ذلك العصر تتألف من القصص التي كان جنود الحرس الامبراطوري المسرحين يروونها عن ملحمتهم في زمن الامبراطورية . ولم يتم أحد بتربية هذه الجماهير . لذلك كانت تعرف الحياة السياسية فقط من قصص هؤلاء الجنود المسرحين الذين يجعلونها تألف فكرة نابليون .

ومن وجهة النظر القومية التي تشغلنا ، انتهت هذه الاسطورة النابوليونية بتمثل فكرة الثورة وفكرة الامبراطورية النابوليونية ، ومثلت نابوليون كتجسيد للفكرة القومية الليبرالية ، واستقلال الشعوب الذي حققته فرنسا بالسلح في أوربة الجديدة .

إن أول عرض يعني هذا البرنامج أكثر من غيره هو هذا الكراس الذي أصدره الامير لوي - نابوليون بونابرت في ١٨٣٩ تحت عنوان : « الأفكار النابوليونية » . فقد طبعه ناشر متخصص في هذه الأفكار ، وسبق له أن نشر « تاريخ الامبراطور نابوليون » الذي ألفه لودان وصوره هورادفيرنيه ، ونشر أيضاً الموسوعة النابوليونية المسماة : « المعجم التاريخي لكل ما قاله وكتبه نابوليون في الناس والاشياء والاحداث ، من قديم ومعاصر » . وكذلك نشر بولن « تاريخ حروب الثورة » ، ونشر « تاريخ الفرنسيين » لمؤلفه لافاليه . إن كراس الأمير لوي - نابوليون ، وهو كتيب رقيق صغير يتألف من (١٦٠) صحيفة ، يوسع هذه النظرية وهي ان انكلترا مسؤولة عن حروب الامبراطورية ، وان السياسة الانكليزية جرت نابوليون إلى حروب لانهاية لها ، أي انه بالرغم عنه وسع هذه السياسة في الفتوحات والسيطرة الاوربية . أما النظرية الثانية ، نظرية الامير ، فهي ان فتوحات نابوليون لم تكن الا مقدمة وتهيئة لتنظيم أوربه ، لان هدف السياسة الامبراطورية ، برأي الامير لوي - نابوليون ، تنظيم السلام الاوربي على أسس قوية . وقال : « ان سياسة الامبراطور كانت تأسيس رابطة أوربية صلبة وذلك باعتماد سياسته على قورميات كاملة وعلى مصالح عامة راضية » . ان رأي الامير لوي - نابوليون هو أن سياسة الامبراطور كانت تشكيل القوميات تاريخ الحركات القومية (٤)

في أوربة ثم ادخال هذه الدول القومية في رابطة أوربية كبرى يمكنها أن تحافظ على السلام إلى الابد .

يوجد في هذه الاسطورة النابوليونية مثالية عليا للسياسة الامبراطورية تبعد كثيراً عن الوقائع ، وتفسير هذه السياسة الامبراطورية لصالح النظريات القومية التي كانت دارجة في ذلك الحين . وهكذا جاءت الاسطورة النابوليونية تعزز بقوة برنامج القوميات .

الأزمة المصرية عام ١٨٤٠ . - ويضاف إلى ذلك عنصر ثالث وهو الازمة التي سببتها القضية المصرية عام ١٨٤٠ . فقد صوبت رأي هؤلاء الاحرار الذين يزعمون بأن فرنسا ، في وسط أوربة ، تمثل عنصر عمل ليبرالي . وان معاهدة ١٥ تموز ١٨٤٠ ، التي اشركت انكلترا في توقيعها بروسيا والنمسا والروسيا ضد محمد علي عزيز مصر ، من شأنها أن تكون تالباً أوربياً ضد فرنسا . وفي الحقيقة ، ان الدول لم تفكر في عمل سياسة عامة معادية ، الا روسيا التي أرادت الحرب ، ولكن الرأي الفرنسي على الاقل فسر المعاهدة على هذا النحو : فقد رأى فيها اعادة تشكيل تالاب ١٨١٥ ضد فرنسا . وازداد هذا التفسير أيضاً بسياسة التعبئة العسكرية التي سلكها تيير . واعتقد الناس انهم على شفا حرب . واثقدهم لهيب الوطنية فوسعت قومية اليسار حتى البورجوازية . وطالبت الصحف والخطباء بصفة الراين اليسرى . واستأنفت جريدة « القومي » حملتها منذ البدء . وألفت عدة أغاني وأشعار ، وأشهرها « الراين » للشاعر دوموسيه الذي أجاب عن شعر بمائل للاماني بيكو . وكان النبأ الجديد ان اللذان أثارا بخاصة حركات الرأي هذه هما : الاول في ١٦ تموز عندما علم نبأ معاهدة ١٥ تموز ، والثاني في ٢ تشرين الاول عندما علم نبأ ضرب بيروت بالقنابل واسقاط تركيا لمحمد علي . وقامت مع المطالبة

بالواين فكرة الثورات الاوربية التي تثيرها وتدعمها فرنسا. وتكلم لوي - فيليب نفسه بـ « نزع الكهام عن فم النمر » وكتبت جريدة « الزمان » في ٢٨ تموز : « ان أوربة ضعيفة جداً ضدنا ، وبإمكانها أن تحاول أن تلعب معنا لعبة الحرية الفظيعة ، وسنلعب معها أفظع لعبة الثورات ، وإذا ما دفعنا الى أن نجول من جديد بالعلم المثلث الالوان من عاصمة لعاصمة ، فلن نفعل ذلك مطلقاً ، هذه المرة ، لنراكم ضدنا انتقام الشعوب بل لنشجعها على التحرير » . وطألت صحيفة « القومي » بالحرب ، وكأسلوب للحرب قالت بوجوب نقل الثورات إلى ايطاليا وألمانيا بكاملها ، وبولونيا ؛ وأضافت : « يجب محو عار معاهدات ١٨١٥ » .

وفي الواقع ، سقطت هذه الاثارة الحربية بسرعة ، ولكن الأزمة تركت وراءها نتائج لا تمحى . لقد عارضت فرنسا ، من جديد ، أوربة المحافظة كلها . ويمكن القول ان قوتها الثورية عبثت بالطاقة بهذه الومضة الحربية . وقوي النظر حتى كاد ينتقل إلى العمل . وفي السياسة الداخلية أيضاً ، كانت نتائج الأزمة خطيرة . فقد خفضت من جديد وبشكل عجيب من اعتبار لوي - فيليب في نظر اليسار . وستكون المعارضة منذ الآن عنيفة وعامة . ومهما تكن سياسة الحكومة الخارجية ، على ما أبدت من تعقل وحكمة في سياسة التفاهم الودي ، فلن يقبل الرأي العام بها مطلقاً .

العناصر الاجنبية . وإلى هذه العناصر الفرنسية التي شكلتها سياسة فرنسا الليبرالية في أوربة ، تضاف عناصر أجنبية : إن أزمة ١٨١٨ كان من نتائجها أن زادت في فرنسا نفوذ العناصر الأجنبية ونشاطها . إن هجرة اللاجئين السياسيين إلى فرنسا حدثت خاصة عقب الثورات الأوربية في العام ١٨٣٠

و ١٨٣١ . وكان المهاجرون يفدون اليها من مختلف نقاط أوربة : وجد روس ، مثل الروائي تودغونيف ، وباكونين الذي ظل في فرنسا حتى عام ١٨٤٧ : و هورتون الذي جاء في هذه السنة نفسها . ووجد ايرلنديون ولكن وجد خاصة ثلاث جماعات :

- ١ - ألمان مثل مهاجري « ألمانيا الفتاة » هان و بورن .
 - ٢ - اشتراكيون : مثل كارل ماركس ، الذي ظل في فرنسا حتى عام ١٨٤٥ قبل أن يذهب إلى انكلترا .
 - ٣ - ايطاليون أتوا من جميع نقاط شبه الجزيرة : ولقد رأينا ماتريني ، غداة خروجه من السجن ، يأتي ويلجأ في مرسيليا عام ١٨٣١ ، ومن ثم في باريس .
- وأخيراً بولونيون . وقد وجد ، بين خمسة آلاف وثلاثمائة عائلة بولونية مهاجرة ، ان أربعة آلاف منها التجأت في فرنسا .
- استقبلت فرنسا هؤلاء المهاجرين استقبالا كريماً من قبل الحكومة والشعب . وأعطتهم الحكومة إعانات يومية ، واحتفت بهم الصالونات . وكان مهاجرو أوربة يتدافعون للالتفاف حول لافايت حتى وفاته ١٨٣٤ . ثم وجد بعد ذلك صالون السيدة آغو وصالون الأميرة باجيوجوزو . واختلف المهاجرون أيضاً إلى صالات الكتابة (التحرير) ، وفتحت لهم المحافل الماسونية ابوابها رحبة . وبعد زمن رأت الحكومة ، تجنباً لفوضى نشاطهم ، أن تقيمهم في بعض مدن الأقاليم وأصبحت هذه المدن مراكز تجمع لهم .
- اختلط هؤلاء اللاجئين بالحياة الفرنسية . وكانوا ينتسبون إلى شتى المهن ، ولكنهم كانوا في الغالب مفكرين ، نقلوا إلى فرنسا هيئاتهم ووسائلهم وجمعياتهم التي أعادوا تشكيلها ، وصحفهم ، مثل : « الحوليات

الفرنسية - الألمانية ، ، وأحياناً عملهم ؛ وبعضهم كان يتجمع على الحدود ، وعلى استعداد للعمل في الخارج : فمن ذلك أن اللاجئين الألمان ، في ١٨٣٣ ، نظموا هجوماً مفاجئاً جريئاً عقد في بزانشون لضرب فرانكفورت . وفي السنة التالية ، في ١٨٣٤ ، كانت محاولة اللاجئين الإيطاليين على شامبيري . وعندما اضطربت الأمور في سويسرا في ١٨٤٦ و ١٨٤٧ ونظم الراديكاليون السويسريون جيشاً من المتطوعين ضد التجمع الانفصالي الزوندوبوند ، الذي ألقته الكاتونات السبعة الكاثوليكية ضد الحكومة الفدرالية ، انخرط المهاجرون من كل القوميات في جيش الجنرال دوفور الذي حل التجمع في أعقاب الحرب الأهلية . وحافظ هؤلاء المهاجرون بالطبع على صلاتهم مع أبناء وطنهم ، والجمعيات السرية ، التي كانت الشكل الوحيد لعمل ممكن في بلادهم . وحاولوا أيضاً أن يعملوا من هذه الجمعيات الخاصة تجمعاً عاماً : وأول هذه التجمعات كان في « اتحاد المبشرين » ، وقد تأسس في ١٨٣٤ ؛ ومن ثم في « أوربة الفتاة » ، التي أسسها ماتزيني عام ١٨٤٤ . وهكذا نظم اتحاد اللاجئين عرفه ماتزيني بأنه « شعب الشعوب ، ووطن جميع الأوطان وأمة المحكومين » . وكانوا بالطبع على اتصال دائم بالعناصر الثورية الفرنسية ؛ وكانت الصحف كجريدة « الإصلاح » ، جريدة « اليسار المتطرف » ، تتضمن معلومات عن الحالة الداخلية في ألمانيا وإيطاليا تظهر هذه العلاقات بين الجماعات الثورية . وقام على هذا النحو تضامن بين العناصر الديمقراطية والقومية في أوربة واتخذ فرنسا مركزاً له . وقام في فرنسا ، وبخاصة في باريس ، نوع من تعبئة دولية للثورة .

الجمع البولوني . - كان من أهم هذه الجموع المهاجرة جمع يستحق أن نقف عنده بعض الوقت ، وهو الجمع البولوني . فقد شكل المهاجرون ،

كما قبل ، الجزء الخامس من بولونيا ، وهو على كل حال أكثر الأقسام تطوراً وقوة من وجهة نظر المقاومة . وعلى اثر ثورة ١٨٣٠ و ١٨٣١ ، ازداد نظام خنق الحريات في أقسام بولونيا الثلاثة : في بولونيا الروسية ، سلكت حكومة باسكيفيتش سياسة التمثيل التدريجي لجميع المؤسسات البولونية والمؤسسات الروسية : في ١٨٤٢ ، رفعت الشعارات البولونية وحلت محلها الشعارات الروسية . وفي ١٨٤٣ ، أخذت الأقاليم البولونية أسماء روسية والموظفون ألقاباً روسية . وفي ١٨٤٦ ، روست أسماء الشوارع ؛ وفي ١٨٤٧ ، حل القانون الروسي محل قانون نابوليون ؛ وفي العام السابق أي ١٨٤٦ ، أغلقت المدارس الثانوية في فارسوفيا بسبب « تحريض الأفكار » . وفي ١٨٣٥ أتي القيصر نيقولا إلى فارسوفيا ورفض أن يستمع إلى الخطاب الذي أعده وفد بولوني ليقراه عليه ووجه إليه هذا الكلام : « لأوفر عليكم كذباً ، لأنني أعلم أن عواطفكم ليست كما تريدون أن أعتقد . وإذا ركبتم العناد في الحفاظ على أحلامكم في الطوبائية والقومية المتميزة وبولونيا المستقلة فستجر عليكم هذه الأضغاث أحلام مصائب كبرى . لقد أمت القلعة ، وأصرح لكم بأنني ، عند أقل ثورة ، أصعق المدينة ، وأقلب فارسوفيا رأساً على عقب ، وأؤكد أنني لست بالذي يعيد بناءها » . ونشر خطاب القيصر في « جريدة المناقشات » وأثار هياجاً عظيماً في أوربة كلها .

وفي بولونيا البروسية ، هجرت سياسة التسامح التي كانت في البدء . وحل محل الأمير رادتز يفيل حاكم ألماني ، فلوتفيل . وسلك هذا الأخير سياسة جرملة منظمة ضد الأديرة والمدارس بل وضد الملكية الريفية الصغيرة . وفي غاليسيا كانت رقابة الحكومة قاسية جداً . وكان من بنود الحلف المقدس المصغر في مونشنغراثز عام ١٨٣٣ ، ذلك الضمان

الذي اتخذهُ الأمراء الثلاثة حِيال بعضهم في الحفاظ على تقسيم بولونيا .
كانت نتيجة هذه السياسة كبت العاطفة القومية في بولونيا على الصعيد
الروحي ، وعلى هذا الصعيد بخاصة . وتحولات هذه العاطفة إلى
نوع من صوفية اتجهت نحوها الروح البولونية بصورة طبيعية . وأخذت
هذه القومية البولونية فكرة رسالة بولونيا في أوربة . ولم يكن البولونيون
يعتبرون أنفسهم مهاجرين يبحثون عن ملجأ ضد الاضطهادات ، بل حجاجاً
للمثل الأعلى « حجاج ميكيفيتش البولونيين » . فمن ذلك أن الأستاذ
برودزينسكي قال في خطاب له ، في فارسوفيا ، إلى جمعية أصدقاء
العلوم ، قبل أن تسحق الثورة تماماً ، في ٣ أيار ١٨٣٠ : « الأمة ،
هي فكرة فطرية ، وإن الذين تضمهم اليها يحاولون أن يحققوها ، إنها
أسرة لها حوادثها الخاصة ورسالتها » . وهو يرى أن بولونيا اكتشفت
قانون الحركة الحقيقية للعالم الأخلاقي ، واعترفت « بأن كل أمة جزء من
الجماعة ويجب أن تدور في فلكها وحول مركز مشترك كما تدور
الكواكب حول بؤرتها المركزية » . وإن رسالة بولونيا الخاصة هي أن
تسهل على الاتصال بين أوربة المتقدمة والعالم البربري ، العالم الروسي .
ويعتبر ميكيفيتش ، وهو أكبر شاعر قومي ، أن هذه هي رسالة بولونيا
وهو لا يمجّد القومية البولونية فحسب ، بل إنه يجعل من الهجرة نوعاً
من واجب : « إن كل من يبقى في وطنه ويشكو العبودية للحفاظ
على حياته ، سيفقد وطنه وحياته ، وإن كل من يهجر وطنه للدفاع عن حريته
مخاطراً بحياته ، ينقذ وطنه وتكون له حياة الخلود » . و يرى أن
قضية بولونيا قضية مشتركة للعالم المتمدّن : « ففي كل مكان في أوربة
يوجد فيه اضطهاد للحرية ويكافح للحرية ، يوجد فيه أيضاً كفاح من أجل
بولونيا ، وعلى البولونيين جميعاً أن يقوموا بهذا الكفاح » . وانتهت هذه

الصوفية البولونية عند بعضهم إلى نوع من مذهب فلسفي سري ، ونخص بالذكر بعض الشخصيات الغامضة المهمة مثل توفيا نسكي .

الاتجاهات البولونية . - كان في هذه الهجرة البولونية عدة اتجاهات : فقد كان الانقسام وروح الحزب شراً عضالاً في بولونيا وهذه الانقسامات التي رأيناها في فارسوفيا حدثت في المهجر . وقد أعيد تأليف الفريقين اللذين وجدا قبل ١٨٣٠ مرتبطين ، إلى حد ما ، بالوضع الاجتماعي :

المعتدلون . - تجمع المعتدلون حول الأمير آدم تشارتوريسكي المشاور القديم لالكسندر الأول ، ورئيس جامعة فيلنو (فيلنا سابقاً) ، وقد قطع علاقته مع القيصر نيقولا وأقام في باريس بعد الثورة . كان الأمير آدم تشارتوريسكي يملك ثروة كبرى ويتمتع بوضع اجتماعي عظيم بل ووضع دولي ، وقد وضع هذه العناصر في خدمة بولونيا وأبناء وطنه . فكان يأتي لمساعدتهم ، ويبحث لهم عن سند في فرنسا ، وانكاثروا ويناضل ضد الروس . سكن في باريس في قصر لامبير ، في جزيرة القديس لويس ، وأصبح هذا القصر نوعاً من وزارة بولونية . وكان يضم ضد الروس ، البولونيين وسلافي البلقان : الصرب والبلاغار والرومان . وكان المعتدلون وتشارتوريسكي يعتمدون على العمل الأخلاقي والعمل الدبلوماسي ولا يعتمدون على العنف وينتظرون فرصة تحرير بولونيا .

الديموقراطيون . - أما الديموقراطيون ، على العكس ، فقد تخلصوا من هذا العمل ومن نفوذ تشارتوريسكي . ولكنهم أخذوا ينقسمون إلى فئات عديدة كلما ابتعدوا عن ١٨٣٠ .

كان الفريق الأول ، وهو الأهم والأكثر اعتدالاً من غيره ، يوجهه ليلوفيل وكان هذا مؤرخاً في جامعة فيلنا ، ثم هرب وترأس في باريس اللجنة القومية ، التي تشكلت في كانون الأول ١٨٣١ .

وفي آذار ١٨٣٢ تشكل فريق آخر أميل اليسار وهو : « الجمعية الديمقراطية » .

وبعد ١٨٣٥ انتظم ثوار « بولونيا الفتاة » في فريق يدعى « المركزية » : وأرادوا إعادة بناء « بولونيا الكبرى » بولونيا من الباطيك إلى البحر الأسود ، على أن تكون دولة ديمقراطية وتقوم بتربية السلافين جميعاً .

وظلت هذه الفرق الديمقراطية المختلفة ، على نقيض المعتدلين ، وفيه لمذهب الثورة والجمعيات السرية ، التي نظموها في البلاد المحتلة : فمن ١٨٣٣ إلى ١٨٥٠ اكتشفت الضابطة الروسية في مملكة بولونيا القديمة ثلاث عشرة منظمة هدامة اشترك فيها ٥٧٤ شخصاً ، وأوقفوا كلهم ، وجرت محاولتا ثورة ، احدهما في ١٨٣٣ ، والأخرى في ١٨٣٨ .

وفي السنوات الأخيرة التي سبقت ثورة ١٨٤٨ ، أفاد البولونيون من تسامح ملك بروسيا الجديد ، الابداعي فريدريك - غليوم الرابع الذي اعتلى العرش في ١٨٤٠ ، ومن الازدهار الناجم عن التدابير الادارية التي اتخذتها الحكومة البروسية وكان منه تحسين مصير الفلاحين البولونيين . وعوضاً عن فارسوفيا ، التي جثمت دون حراك تحت الرقابة ، تألف في بوزن مركز فكري بولوني حل محل الجامعات القديمة في المملكة . وفي بوزن نفسها وجد فريق من الكتاب والفلاسفة ورجال العلم وخاصة أطباء ، وبخاصة مازينكوفسكي ، وفتحت مكنتات ، وتألفت جمعية تعاونية للطلاب تحت ادارة المربي ايستكوفسكي . وفي بوزن انتظم أيضاً مركز تبشير لتحرير الفلاحين : نشر كامينسكي في ١٨٤٥ كتاب « تعليم الديمقراطية للبولونيين » . وهذه الحركة الفكرية والاجتماعية التي توجهها الطبقة النبيلة البولونية

الروسية كانت على اتصال بتشار توريسكي . وسرعان ما قامت المعارضة بين المعتدلين والثوريين . وفي ١٨٤٣ الف العنصر الثوري لجنة سرية تناصر الاشتراكية ونهيء للثورة .

وشارك هؤلاء البولونيون اللاجئون في فرنسا وفي باقي أوربة وسيشاركون في جميع الحركات الثورية ، منها كانت ، التي تقوم في أي نقطة ممكنة من أوربة . ونجدهم في جميع المؤامرات ، وفي جميع الثورات ، وسيجربون بخاصة قواهم في الثورات انطلاقاً من ١٨٤٦ وفي ١٨٤٧ . وكانت عظمة هذه الهجرة البولونية تقوم على القيمة الفكرية لأعضائها الذين يشكلون مدرسة أدبية من الشعراء ولا سيما ميكيفيتش ، سلوفيسكي كوازينسكي ، والفنانين ، مثل شوبان والعلماء المؤرخين مثل ليلوفيل . وكانت عظمتهم أيضاً في إيمانهم الذي لا يتزعزع في الوطن . وكان ليلوفيل يجد حماسة الشباب ويقول : « سترون بولونيا تبعث حياة ، وأكثر شباباً ، وأكثر مجداً ، وأكثر جمالاً ، . وكتب أحدهم وهو اللاجئ هيلكيل في ١٨٤٦ : « لقد أصبحت الوطنية للبولونيين ديناً ، .

العقيدة القومية الرسولية . - كان الفرنسيون أميل إلى فهم هذه الصوفية البولونية ، حتى أننا نرى القومية الفرنسية ، في السنوات التي سبقت ١٨٤٨ ، تأخذ لوناً جديداً وتصبح نوعاً من عقيدة مسيحية تحركها فكرة رسالة فرنسا . لقد نسيت عصبية ١٨٤٠ بسرعة . وبقي منها أن فرنسا ابتعدت نهائياً عن النمسا . وظل كره النمسا عقيدة ، ودامت إلى ما بعد جميع الحوادث ، حتى الحرب الكبرى ، بل وحتى ١٩١٩ وتركت تماماً المناقشات التي كانت تثار في السابق في العرق . وتروضت فكرة القومية نهائياً . وفي العام ١٨٤٠ طرحت « نظرات في

تاريخ فرنسا ، لاوغوستن تييري النظريات المتعلقة في الفرنجة وأعادت اعتبار الأب دو بوس .

اتجهت هذه القومية الفرنسية نحو العقيدة الرسولية . وكانت هذه العقيدة تشويهاً ابداعياً لفكرة قديمة . وكانت المتوقع منها عظمة فرنسا من هو جيرانها الذين دعهم إلى الحياة المستقلة . واعتبرت فرنسا مسيح الأمم . وقال لوي بلان : « لقد فرض الله الفداء على فرنسا عنصراً لقوتها وشرطاً لحياتها » . وعبر عن هذه العقيدة بأشكال مختلفة : فمثلاً في نشيد « مارسيز السلام » نجد أن الشاعر لامارتين عارض فيه الاغاني القومية لعام ١٨٤٠ ، و كتب فيما كتب : « ان بعث إيطاليا يكفي مجد شعب » . وهذه هي الحالة الفكرية التي نجدها في « كتاب الشعب » لمؤلفه لامانيه ، وفي المثالية الدينية المناصرة للاشتراكية عند بيير لودو أو بوشيز ، وفي حماس مونت لا مبير لصالح البولونيين أو لصالح البلجيكيين . وكان الجمهوريون والاشتراكيون ، الذين تأسست مدارسهم بين ١٨٤٠ و ١٨٤٨ ، يثقون بالغريزة الشعبية . وخصصت جريدة « القومي » ، في ٢٨ تشرين الثاني ١٨٤٤ ، مقالاً لدور فرنسا في أوربة الذي يعتمد دوماً على الفكرة نفسها وهي : أن تحرير الشعوب يسير ويوازي عظمة فرنسا .

ونعطي لهذه العقيدة الرسولية مثالين يميزين بصورة خاصة لانها من أناس نخولهم مهنتهم كثيراً من الموضوعية ، وهما المؤرخان ميشليه وكينيه . وقد عرف كل منهما نظريات هرذر ، وترجمها كينيه عام ١٨٢٧ و ١٨٢٨ ، وتراها في تمجيدهما العبقرية الشعبية . ولكن الالهام أتاها بصورة خاصة من الفكرة الثورية عندما وضعتها ظروف عملها السياسي في حملة حائقة على الكنيسة ، في ١٨٤٢ و ١٨٤٣ ، وعظم التمجيد الثوري .

ميشليه . - ابتعد ميشليه ، في دروسه في كلية (كولييج) فرنسا ، عن كل برنامج . وكان مستمعوه يأتون اليه من جميع نقاط أوربة و يجد أمامهم فكرة القومية ويحول فرنسا رسالة قيادة أوربة في هذا الطريق . لقد كانت فرنسا بالنسبة اليه موثلاً لحرية العالم : « ان البشرية بكاملها تهتز فيه » . ويقول : « ان فرنسا تحمل عبقرية المجتمع الإلهية » . « ان فرنسا ملاح سفينة البشرية » . وبفرنسا أصبحت الأفكار أوربية . ان فرنسا جعلت من لوثر ومن لوك أناجيل للعالم أجمع . « وهكذا انكشفت كل فكرة منعزلة بفرنسا . انها تقول كلمة أوربة ، كما قالت أغريقية كلمة آسيا . ولماذا قبلت هذه الرسالة ؟ لأن عاطفة الكرم الاجتماعي تنمو بها في النظر وفي العمل ، وباسرع من أي شعب آخر » . ولكن ميشليه يرى أن تفتح فرنسا يرجع تاريخه إلى الثورة . فلقد هيا ماضي فرنسا ، أثناء قرون ، الثورة الفرنسية ، وروح فرنسا هي روح الشعب . وليس العباقرة إلا فيضاً وتعبيراً لهذه الروح الشعبية . ولا عمل لهم إلا التعبير عن هذه الغريزة الشعبية . وينتهي ميشليه بصنع كل من التاريخ والعرق والطبيعة ، ويستخلص منه ديناً للشعب وفرنسا

ادغار كينييه . - كانت له مناقشات تاريخية ورؤى نبوية . ودروسه في كلية فرنسا ارجالية عموماً وليس لها برنامج ، وكان يكثر من الأمثلة والدراسات التي يكون غرضها : الوطنية القومية ورسالة فرنسا الانسانية . ويخلط كل هذا بقضايا واضحة من التاريخ . كان نبياً لدين ديمقراطي وثوري . وعلى هذا الأساس أراد أن يعيد بناء وحدة الحياة الاجتماعية . وفي آخر حياته ، في ١٨٦٩ ، عاد إلى دروسه في كولييج فرنسا ولخص الأسباب التي وقف لها في ذلك الحين حياته بقوله : « حب فرنسا الذي يفيض بحب الانسانية : « لقد حاولت أن أنقذ الضمير الانساني من

الفخاخ المنصوبة له . وأعطى لنفسه صفة حوارى الأمم : « ما دام الكلام لي ، فقد دافعت عن قضية الشعوب والضعفاء ، والقوميات » . إن ما كان يريد به هو أن يخول فرنسا رسالة انسانية عظيمة : « لقد عبت فرنسا وحملت لها المجد الذي تصبح فيه مثلاً أعلى للشعوب الحديثة » .

وكان لهذين الرجلين ، ميشليه وكينيه ، سماعة كبرى في أوربة . وبالمقابل ، ان ما كانت تنتظره أوربة هو أن تأتي فرنسا لنجدتها . وقد قبل بأن تكون فرنسا ذخراً للحضارة الحديثة ، ولكن فرض عليها أن تتفانى في انتصار أفكار الحرية والقومية التي تعتمد عليها هذه الحضارة . ويقول كينيه « إن فرنسا لا تستطيع أن تقف الا وألف لسان أجنبي يصرخ على الفور في ادنها : ازحفى ! ازحفى ! » .

أبدت الحكومة الفرنسية تحفظاتها تجاه هذا المفهوم للسياسة ، فقد نجح لوي - فيليب وغيزو من عدوى هذه العقيدة الرسولية . وبالعكس ، قلقا من صلة هذا البرنامج المتعلق بالقوميات بالأفكار الثورية . حتى ان الحركات الثورية التي رافقت ، في ١٨٤٠ ، انفجار القومية كانت سبباً من الأسباب التي جعلت لوي - فيليب يتراجع أمام الحرب . وابتداء من ١٨٤٦ كانت حركة المطالبات القومية والديموقراطية على وشك قلب أوربة . ولذلك قلق لوي - فيليب وغيزو : لم يجب لوي - فيليب الوحدة الايطالية ، وخشي غيزو الوحدة الألمانية ، وخاف من « الفائدة الكبرى التي يمكن أن تجنيها بروسيا منذ الآن في ألمانيا ، ومن الفكرتين اللتين تسعى لامتلاكها تدريجياً : الفكرة الجرمانية والفكرة الليبرالية » . وكان وضع الحكومة الفرنسية صعباً ، لأنها كانت مأخوذة بين رغبتها في تأمين السلام والاستقرار ، وهذا ما يقربها من النمسا ، وبين الزبانة الليبرالية التي تتدافع للالتفاف حول فرنسا في أوربة وأصل ملكية تموز نفسها ،

التي خرجت عن ثورة ١٨٣٠ . وحاول غيزو أن يقف بين الثورة والنظام وبذل جهداً في دعم السلطة ، ولكن شريطة أن تكون هذه السلطة مصلحة ، وحاول أن يقتنع الحكومات بأن تقوم بالاصلاحات لتجنب الثورات ، واثني على هذه السياسة في ألمانيا وإيطاليا وسويسرا . ولكن هذه السياسة كانت صعبة القيادة لأن فرنسا لم تعمل شيئاً . وما كان من انكلترا إلا أن تزعمت الثورات وأخذتها على عاتقها لتلعب على فرنسا لعبتها السيئة ، وبدأ بالمرستون في ١٨٤٦ و ١٨٤٧ حملة تخريض ثورية حقيقية في أوربة ، وأرسل لهذا الغرض اللورد منتو إلى سويسرا وإيطاليا . وكانت هذه السياسة صعبة المتابعة أيضاً ، لأنها اصطدمت ، في البرلمان الفرنسي ، بهجوم عنيف . ففي العالم السيامي ، كانت حملة البرلمانيين ضد غيزو شبيهة بحملة الصحافيين والثوريين في الجمهور . وفي حزيران ١٨٤٧ وكانون الثاني ١٨٤٨ استصوب تير واوديلون - بارو الاصلاحات الليبرالية الألمانية التي قام بها فريدريك - غليوم الرابع ، واصلاحات الامراء الايطاليين ، لتشجيع الألمان والايطاليين على إنشاء وحدتهم ، وقدموا اليهم مساندة فرنسا .

هذا ويجب الا نرى في الثورات ، التي انفجرت في أوربة كلها في العام ١٨٤٨ ، تقليداً لفرنسا ، وأثراً للدعاية الفرنسية فحسب ، لأن هذه الثورات المختلفة خلطت أيضاً ، على شاكلة فرنسا ، قضيتها الخاصة ، مع غيرها وكانت قومية كما كانت متأثرة باصل فرنسي . ولكن الشعور بهذه الحركة القومية وبالأهمية التي أخذتها فكرة القومية بالتدريج في أوربة منذ ١٨٣٠ كان في فرنسا أكثر منه في غيرها . وكانت الفكرة القومية توجه أوربة إلى جانب الفكرة الديوقراطية . كتب هنري مارتن في ١٨٤٧ في كراس يسمى : « عن فرنسا و عبقريتها ومصيرها » : لم تع القوميات نفسها وعياً تاماً وحياءاً ، في أي وقت مضى ، كما هي عليه في

هذا الحين ، حيث يحكم عليها بعض النظريين بالموت . ولم تثقل بقوة في أي وقت مضى على السياسة العامة وتعمل على تجديدها كما هي في الحال . وإن علائم قوية تبشر ، قبل قليل من السنوات ، بأن قضايا القوميات ، مختلطة مع القضايا الاجتماعية ، ستسيطر على جميع القضايا الأخرى في القارة ، وإن الدول التي لا تستقي سبب وجودها من هذا المبدأ ستتحول أو تتفتت . وفي ١٨٤٩ خصص هنري مارتن نفسه لهذه القضية أطروحته اللاتينية التي هي بهذا العنوان : « اختلاف الأمم في سبيل الحفاظ على وحدة الجنس البشري » .

أما ما يتعلق بارتباط الحرية والقومية ، والليبرالية ونظرية القوميات ، فقد لاقت المؤلفات الثلاث الكبرى في تمجيد الثورة الفرنسية ، التي صدرت في ١٨٤٧ ، للمؤلفين لامارتين ومشييه ولوي بلان ، نجاحاً عجباً في فرنسا وفي أوروبا . وكان هذا النجاح إشارة مميزة تبشر بثورة ١٨٤٨ .

الفصل الثاني

تشكيل دولة بلجيكا

تعتبر الثورة البلجيكية اختاً لثورة ١٨٣٠ الفرنسية . ومن المفيد أن نقف عند هذه الثورة وتشكيل الدولة البلجيكية لنرى أنها تؤلفان نسخة ثانية عن الحركة القومية التي رأيناها عند تشكيل أول دولة قومية في اغريقية .

كان بين تشكيل بلجيكا وتشكيل اغريقية تشابهات واختلافات ، وترجع التشابهات إلى أننا نجد في القضية البلجيكية ارتباطاً بين الفكرة الليبرالية والفكرة القومية ؛ ونرى تنازع هذه الحركة القومية مع عمل الدبلوماسية التي تريد أن تحدد نموها . ولم يكن لبلجيكا قومية مسبقة ، بل كانت العاطفة القومية في البدء معارضة سياسية ، ثم اتسعت تدريجياً وطالبت بالاستقلال . وقد اختلط فيها الحادثن معاً وكبروا معاً : الوعي القومي من جهة ، وانشاء الدولة من جهة أخرى .

١ — اتفاق الدمج وبراية المعارضة القومية

لم يكن لبلجيكا في العام ١٨١٤ تقاليد قومية ، ولم تكن في الماضي دولة مستقلة ، لأنها كانت ، منذ العصر الوسيط ، تابعة بالتوالي إلى اسبانيا ، فالنمسا ثم فرنسا . ولم يكن لها وحدة مادية أيضاً ، وحدتها الأرضية

في ظل النظام القديم : فقد كانت أمارة لبيج مستقلة ، ولم تؤلف اللوكسمبورغ جزءاً من الدولة نفسها كالفلاندر . ودخلت في ظل الحكم الفرنسي في عهد الثورة والامبراطورية في دولة واحدة تتألف من تسع مقاطعات . وكانت تقاليد بلجيكا تتمثل بارادة الاستقلال الذاتي البلدي ، وهذا الاستقلال قديم ويرجع إلى عاطفة عميقة في العصر الوسيط حين كان يتكلم عن « جمهوريات البلاد المنخفضة » . وكانت « القومونات » الفلاماندية شكلاً أساسياً وغريزياً للحركة السياسية البلجيكية ويضاف إلى ذلك عنصر ثان يؤلف أساس التقاليد التاريخية في البلاد ، وهو المطالبة بالحرية الفردية والاقتصادية .

لقد تمثلت بلجيكا دون كثير من الصعوبة في النظام الفرنسي منذ أن وقعت الكونكوردات وهدأت المنازعات الدينية . ولكن في السنوات الأخيرة ، أدى نزاع نابوليون ضد البابا ، ابتداء من ١٨١١ ، ثم الازمة الاقتصادية ١٨١٣ ، إلى تحلل الأفكار من السيطرة الفرنسية . وعندما أريد تحرير البلاد ، بقيت هذه دون حراك ، في ١٨١٣ و ١٨١٤ ، ولم توجد ثورة ، كما وجد في هولانده ، أو هزة وطنية ، أو مشاركة في النضال في سبيل الخلاص ، حتى ان البلجيكيين لم يعبروا عن أي رأي فيما يتعلق بالنظام الذي ينتظرونه . وكل ما سجله المراقبون الأجانب عن هذا البلد إنما هو مجموعة مصالح مدنية واقتصادية ترغب أن ترى نفسها مضمونة ، وهي مصالح يرجع تاريخها إلى الثورة ؛ ومن جهة أخرى ، ترغب في الحرية المحلية والاقليمية . وكذلك بقي رأي البلاد لا مبالياً تماماً أمام حكم المائة يوم لنابوليون وأمام معركة واترلو .

وهكذا وقف البلجيكيون موقفاً سلبياً أمام تسوية مصيرهم الخاص

تاريخ الحركات القومية (٥)

من قبل أوربه ، وفي الواقع ، من قبل انكلترا التي انشأت بملكية البلاد المنخفضة حيث ارتبطت بلجيكا بهولانده التي ألفت السبعة عشر اقلياً القديمة في الأزمنة الحديثة ودارت ضد فرنسا . وعندما وصل الملك غليوم إلى بروكسل في ١٣ تموز ١٨١٤ استقبلته رعاياه الجدد بشكل لائق .

وعندئذ ثبتت أوربة الحدود التي بقيت حدود بلجيكا خلال قرن ، حتى ١٩١٩ . وبموجب معاهدة باريس ١٨١٤ كانت الحدود بين فرنسا وبلجيكا الحدود القديمة التي كانت عام ١٧٨٩ . ولكن بروسيا ، في ذلك الحين ، طالبت بالبلاد الفالونية حتى نهر الموز ، ولتتخلى عن هذه المطالبات وجب أن تعطى تعويضاً : ولقد تخلى الملك الجديد غليوم إلى بروسيا بدوله الوراثية في ناسو ؛ ودخلت اللوكسمبورغ في الاتحاد الجرمانى وأقيمت في المدينة نفسها حامية فيديرالية (اتحادية) . وأخيراً ، على الحدود ، أعطيت لبروسيا ثلاث مناطق صغيرة : اوين ، ما لميدي والقديس - فيت . وفي العام ١٨١٥ ، جرت تغييرات في الحدود بموجب معاهدة باريس الثانية : أخذت البلاد المنخفضة من فرنسا: فيليبيل ماريانبورغ ، بويون ، وبعض القرى من هينوت . وفي العام ١٨١٥ ، بخاصة ، شيدت ، كما في بداية القرن السابع عشر ، مواقع من « الحواجز » ضد فرنسا : على الشاطئ ، أوستاند ونيوبور ؛ وعلى خط نهر الايسكو : انفرس ، ترموند ، غاند ، اودينارد ، تورنيه ؛ وعلى خط نهر الموز : لياج ، هوي ، نامور ، دينان ؛ وعلى الحدود الأصلية الخاصة : ايبير ، مونن ، آط ، مونس ، شارلروا ، فيليبيل ، ماريانبورغ . وبموجب اتفاق ١٥ تشرين الثاني ١٨١٨ يحق لانكلترا في حالة حرب أن تحتل مواقع الغرب ، كما يحق لبروسيا احتلال مواقع

الشرق . وانتهى تنظيم هذه الحصون الحاجزة عام ١٨٢٠ . ونظمت بلجيكا على هذا النحو ، من الوجة العسكرية ، بشكل معسكر كبير محصن ضد فرنسا .

النظام الاساسي . - فرضت أوربة على الملك غليوم عدداً من الشروط لحكم المملكة التي أعطيت له وهي « الثانية بنود » التي قبلها من أوربة في ٢١ تموز ١٨١٤ . وبموجب ارادة الدول يجب تحقيق الدمج « الأكل » بين قسيمي الدولة ، بلجيكا وهولندة . ويجب على الهولنديين الا يكونوا مفضلين في الدولة الجديدة . وفرض على الملك أن يمنح حمايته وفضله متساويين إلى جميع الأديان ، وأن يصل الكاثوليك والبروتستانت إلى الوظائف العامة ، وأن تكون الفوائد التجارية عامة لجميع الاقاليم ، على كل من الشعبين ، البلجيكي والهولندي ، أن يعطي موافقته على تغيير القانون الاساسي . وحصل البلجيكيون في الدولة على تمثيل لائق في المجالس التمثيلية . وكانت هذه المجالس العامة تنعقد على التوالي في لاهاي وفي بروكسل .

وهذا النظام الأساسي ، وهو نوع من دستور ، الذي منحه الملك غليوم الأول إلى الهولنديين ، أعادت النظر فيه بأمر الملك لجنة مختلطة من البلجيكيين والهولنديين ، ونشر في ١٣ تموز ١٨١٥ . وبموجبه انشئ إلى جانب الملك مجلس يسمى « مجلس المملكة العام » ، ويتألف من مجلسين : مجلس يسميه الملك ، و« مجلس الممثلين » ويسميه مجلس المملكة العام . وقد خول هذا المجلس العام سلطة تشريعية ناقصة ، لأنه لا يملك حق المبادرة ، حتى ان بعض قطاعات التشريع سحبت من صلاحياته ، مثل التعليم العام والنفقات المستدعية التي كان يصوت عليها لمدة عشر سنوات لا سنوياً . ولم توف الوعود التي قطعت فيما يتعلق بحرية

الصحافة واستقلال القضاء ، وبدأ أن هذا التنظيم الجديد ، هذا التنظيم الدستوري ، لم يرض المواطنين والدول الكبرى إلا قليلاً .

ومع هذا فقد كان الملك غليوم مخلصاً طيب الارادة ، غير أنه كان مستبداً مستنيراً ، ورجلاً من القرن الثامن عشر أكثر منه رجلاً حديثاً . ويبدو أنه كان دون علم منه ، ورغم ارادته الطيبة ، هولاندياً جداً ، لأن ثقافته ومحيطه وجهازه الاداري كانت هولندية أكثر منها بلجيكية ، وقد فهم من عملية الدمج التي فرضتها عليه أوربة ، أنها ذوبان تدريجي لبلجيكا في هولانده ، يضاف إلى ذلك أن كل هيئات الادارة في الدولة أقيمت في هولانده . أما الدين والتمثيل لدى الدول فقد قسم بالتساوي بين بلجيكا وهولانده . ولكن هذه المساواة في التقسيم كانت ، في الواقع ، ضارة بالبلجيكيين ، لأن الدين الخاص ببلجيكا لم يكن إلا عشر دين هولانده . وإذا أعطى تمثيل متساو للسكان ، فقد كان البلجيكيون مع ذلك ثلاثة ملايين ونصف ، بينما كان الهولنديون مليونين . ورغم المبدأ ، كانت الأكثرية للهولنديين في الوظائف العامة . فقد وجد في الادارة أحد عشر موظفاً بلجيكياً كبيراً ، على حين أنه وجد فيها مائة وسبعة عشر هولاندياً . وفي الجيش وجد ٢٨٨ ضابطاً بلجيكياً مقابل ١٩٦٧ هولندياً . وكانت اللغة القومية للدولة النيثرلاندية ، ، حتى ان مرسوماً صدر في ١٨١٩ يجعل معرفتها اجبارية للحصول على وظيفة عامة أولتحرير صكوك قضائية أو للتسجيل لدى الكاتب العدل .

وهكذا سويت عملية الدمج على حساب البلجيكيين . وكان الملك غليوم فكراً مشغولاً حسيماً جداً ، وعملياً جداً . وقد اعتمد على شيتين لاستمالة وعيابه البلجيكيين وربطهم به : على الرخاء الاقتصادي ، وعلى نشر

« الأنوار » . وكان في هاتين النقطتين رجلاً جداً من رجال القرن الثامن عشر .

الرخاء الاقتصادي . - كان الرخاء الاقتصادي متحققاً لأن السياسة الاقتصادية التي سلكها الملك كانت محايدة حيال نصفي دولته ، حتى ان البلجيكيين أفادوا منها أكثر من الهولانديين وبعد أزمة تصريف في السنوات الأولى ، أزمة امتدت حتى ١٨٢٠ ، أفاد البلجيكيون من الظروف الجديدة الملائمة : ان السوق الهولندية مع زبائنها ، وخاصة مع مستعمراتها ، انفتحت الآن للتجار والصناعيين البلجيكيين عوضاً عن السوق الفرنسية التي انفصلوا عنها من جديد بخط جمارك . وان نهر الايسكو ، الذي أغلقه الهولنديون منذ بداية القرن السابع عشر ، فتح ثانية ، وعلى اثر ذلك نمت انفرس نمواً عظيماً . وساعد التشريع ، الذي كان ملائماً للرؤساء ، ورخص اليد العاملة البلجيكية على التوسع الصناعي . ووضع النظام الجمركي عام ١٨١٦ لحماية الصناعة البلجيكية ، ثم خفف وأعيد تنظيمه عام ١٨٢١ . وكانت الحكومة تشجع انطلاق الحركة الاقتصادية بسياسة المكافآت ، والأشغال العامة ، وانشاء مؤسسات الاعتماد (التسليف) ، وأهمها الشركة العامة عام ١٨٢٢ وعلى هذا النحو نمت جميع أشكال الحياة الاقتصادية نمواً عظيماً ، وبخاصة الصناعة ولا سيما الصناعة القطنية والصناعة المعدنية . وفي ١٨٢٧ انشئ في سيرينغ أول فرن عال في أوربة القارية . ودخل استخدام الآلة بسرعة على مثال انكلترا ، وازداد الانتاج الصناعي بلجيكا حتى انه أقلق الانكليز . ونمت انفرس نمواً فائقاً جعل الميناء يقفز كثيراً ويسبق امستردام بعد أن كان له منذ بداية القرن السابع عشر منافساً بائساً . ونمت الزراعة

أيضاً ، ومن الممكن أن يقال ان بلجيكا ، في أوربة حتى ١٨٣٠ ، كانت أكثر البلاد ازدهاراً ورخاءً . وازداد عدد السكان نصف مليون نسمة : وفي العام ١٨٣٠ بلغ أربعة ملايين تقريباً . وإذا كانت المصالح المادية تسير الناس ، فليس للبلجيكيين ما يجعلهم يعارضون حكومتهم الجديدة .

نمو الانوار . - واعتمد غليوم أيضاً على نمو الأنوار . وكان هذا النمو مفهوماً من مفاهيم القرن الثامن عشر وفي الوقت نفسه تقليداً لهولاندة في اهتمام الدولة وعملها على تنمية التعليم العام . وكان البلجيكيون ، من وجهة النظر هذه ، متخلفين : كان الشعب أمياً ، والبورجوازية البلجيكية دون مطالعة ، والارستقراطية دون أي حب اطلاع فكري . وعلى خلاف الامبراطورية الفرنسية التي لم تهتم إلا بالتعليم الثانوي ، اهتم غليوم بتنمية التعليم العالي والتعليم الشعبي . وفي تشرين ١٨١٧ فتح ثلاث جامعات دولة : غاند ، لوفن ، لياج ، ودفعت الدولة ثمن الأبنية وتكاليف صيانتها ، وسمت الأساتذة . وأصلحت أكاديمية العلوم والآداب الجميلة في بروكسل عام ١٨١٦ . وأنشئت في عدة مدن مدارس نموذجية للتعليم الشعبي . وأجبرت كل قومون (مدينة) على فتح مدرسة عامة . وسجلت الأنظمة المدرسية بعناية ، وكان من واجب الحكومات أن تراقب التعليم الابتدائي وتنشطه . وأنشئت مدرسة للمعلمين في هارلم ، وأُنمي التعليم الثانوي أيضاً ، وأنشئت ، إلى جانب المدرستين الثانويتين النابوليونيتين في بروكسل ولييج ، مؤسسات للتعليم الثانوي في جميع المدن الكبرى . وأخضعت لتفتيش الدولة الكليات الثانوية الحرة التي تمت في كل مكان تقريباً .

وفي الحقيقة ، بذل جهد رصين لتعويض تخلف البلجيكيين بالنسبة

للهولانديين وسدت الثغرات . وكان في تنمية التعليم هذه فكرة سياسية وهي تشجيع نشر اللغة النثرلاندية عن طريق تنظيم تعليم اللغات .

عقبات التلاحم . - ولكن سياسة غليوم الهادفة إلى جلب البلجيكيين إليه اصطدمت بقوة روحية وتعثرت . ويبدوننا أن أسباب تفتت مملكة البلاد المنخفضة نفسية وفكرية .

النفوذ الفرنسي . - لقد بقيت بلجيكا بلداً فرنسي اللغة والحضارة ، ولذلك لم يستطع الهولانديون أن يؤثروا عليها . كان رد الفعل ضد سياسة الملك اللغوية شديداً جداً من جانب الاكليروس أولاً ، ثم من جانب الموظفين بشكل عام ، ومن عالم المحاماة وعالم القانون . ففي ١٨٢٢ وقعت عرائض في غاند ضد ازدواجية اللغة الاجبارية . ورفضت المجالس التمثيلية استعمال اللغة النثرلاندية . وأصبح سوء المزاج مرأ بين الاكليروس والادارة : رفض الاكليروس أن ينشد قداس الروح القدس عند الدخول إلى المدارس الثانوية (آئينيه) ؛ ورفضت الادارات أن تحضر المواكب . وفي بضع سنوات أصبح المرسوم الخاص باستعمال اللغة القومية لاغياً .

وتشكلات رابطة هولاندية في بلجيكا ، وفتحت لها أقساماً في مدن الفلاندر الكبرى وفي بلاد الفالون ، ولم تستطع أن تحقق غرضها : ففي ١٨٢٩ كانت تضم ٦٤١ مشتركاً فقط ، ولم تكن لتضم الا بضعة موظفين . وحاول الاكليروس ، بشكل عام ، منذ القرن السادس عشر ، وجهد استطاعته ، أن يقف في وجه انتشار اللغة النثرلاندية التي يمكن أن تكون عجلة للهرطقة الكالفنية ، وعزل البلاد الفلاماندية . وبقيت اللغة الفلاماندية لغة شعبية محدودة وفي عالم المفكرين كان التكلم فقط باللغة الفرنسية لغة الارستقراطية والبورجوازية حتى في البلاد الفلاماندية نفسها .

وفي الجامعات التي أنشأها غليوم لم يقيم الأساتذة بالعمل الذي عول عليه ، مع أنه انتخبهم بعناية ، وأتى بعلماء من ألمانيا وهولانده ولكن هؤلاء الاساتذة لم يعملوا شيئاً . وعندما تكون الدروس باللغة النثرلندية يغيب المستمعون . واكتفى معظم هؤلاء الاساتذة باعطاء دروسهم ، وعند الانتهاء منها ينصرفون لأشغالهم الشخصية دون أن يقوموا باتصال مع عالم الطلاب أو مع زملائهم ، ولم يكن لهم أي تأثير على الشبيبة أو أي تأثير علمي . وبما يبرهن على ذلك أن زعماء حركة الاستقلال في ١٨٣٠ كانوا ممن تثقفوا في المدارس الثانوية . (آئينيه) وفي الجامعات التي كان يراد منها أن تقنعهم بامتياز لغة الملك . . أما أبناء الطبقة البورجوازية فكانوا يوفدون للدراسة في فرنسا ، إذا كان بإمكان أهلهم إيفادهم ، ليتخلصوا من الدعاية النثرلندية ، كما كانت أبناء الفلاندر يرسلون إلى المدارس الثانوية في البلاد الفالونية .

وكان الكتاب يبحثون عن نماذجهم في فرنسا ، ويقفون عند صيغ كلاسيكية قديمة بطل استعمالها . ولم يتجدد عالم الأدب في بلجيكا ، ولم يكن في بلجيكا ابداعية ، وعلى خلاف معظم البلاد الأخرى ، لم تكن الحركة القومية مرتبطة بالحركة الابداعية . و كان رجال الشمال والعلماء والاخلاقيون الهولنديون يحتقرون هذه الآداب العابثة البلجيكية . ففي اكااديمية بروكسل حيث كان نصف الأعضاء ينطق باللغة الفرنسية ونصفهم باللغة النثرلندية ، كان النثرلنديون يقاطعون الجلسات ولا يحضرون . وفي العالم السيامي ، كانت الغلبة للغة الفرنسية . والنفوذ الفرنسي كما في العالم الفكري . وفي مجلس المملكة العام ، حيث كانت اللغتان مقبولتين ، كان الكلام في الواقع بالفرنسية ، لأن النواب البلجيكيين لم يشاؤوا التكلم بلغة أخرى غير الفرنسية ، وكان النواب النثرلنديون يجبرين على

استعمال الفرنسية لافهام زملائهم ، وكانت جميع الجرائد البلجيكية تتجه نحو فرنسا، وتأخذ اخبارها من فرنسا وتستقي منها مادة مقالاتها الجوهرية . وقد تعزز هذا النفوذ الفرنسي على الصحافة وعلى العالم السيامي في بلجيكا باقامة محكومين ومبعدين بعد أن طردهم من فرنسا مجلس النواب الملكيين المتطرفين في العهد الرجعي في فرنسا بعد مؤتمر فيينا ١٨١٤ - ١٨١٥ . وكان هذا الأمر يهم السياسة لأن النفوذ الفرنسي يمثل بالنسبة للبلجيكيين تربية بالمعنى الليبرالي والمعنى البرلماني ، وبالتالي يغذي معارضة سياسية لسلوك الملك .

لذا كله لم يتم الانسجام الفكري ، وبقيت بلجيكا كتلة فرنسية . وما دامت الحياة السياسية متعركزة في الطبقات البورجوازية والنبيلة فإن القضية الفلاماندية التي سيكون لها فيما بعد كثير من الأهمية في بلجيكا لا توضع . وهكذا أخذ الاختلاف يظهر تدريجياً بين بلجيكا ، البلد الفرنسي ، وهولانده . ودام الحصام رغم جهد الحكومة ، ولم ينجح غليوم الأول في نزع بلجيكا عن فرنسا وربطها بهولانده .

القضية الدينية . - أما حجر العثرة الثاني فهو القضية الدينية ، وقد وضعت في الأصل عند تشكل مملكة البلاد المنخفضة . وكانت عظيمة الأهمية لأن العاطفة القومية لم تشكل بعد بوضوح في بلجيكا ، ولذا كانت القضية الدينية مكوناً للرأي . وفي كل مناسبة خطيرة كانت الجماهير بقضها وقضيضها تقف بجمعة وراء الاكليروس : لقد وقفت وراءه عندما نشب النزاع الديني في عهد الامبراطور جوزيف الثاني في عهد النظام القديم ، ووقف الشعب مناضلاً ضد الاضطهاد الديني في عهد حكومة الادارة (الديركتوار) ؛ ومن ثم لمقاومة سياسة نابوليون الأول المناوئة للحر الروماني . وما دامت القومية البلجيكية غير واضحة المعالم فإن العاطفة

الكاثوليكية كانت العلامة الوحيدة لهذه القومية . وقد قام سوء الظن بين حكومة مملكة البلاد المنخفضة والكنيسة ، وكان الاكليروس قلقاً من الحاق بلجيكا بدولة بروتستانتية وليبرالية نقشت في أعلى دستورها الحرية والمساواة في العبادات ، بالرغم من أن الحكومة لم تقم بأي دعاية أو سياسة بروتستانتية . واحتج الاكليروس على القانون الأساسي في ٢٨ تموز ١٨١٥ . ووجه الاساقفة للملك « لومهم باحترام » ونخص بالذكر منهم اسقف غاند المونسنيور دوبروي الذي شجب الدستور في ٢ آب . وعندما صادق النبلاء على الدستور قام الاكليروس عليهم بحملة شديدة واثار على اليمين (القسم) مشكلة وجدانية . وأخيراً ، حكمت الاسقفية بكاملها ، في ايلول ١٨١٥ ، على الدستور « حكماً مذهبياً » .

ومن جهة أخرى ، لم ينظم تشكيل الكنيسة . وقد صدرت براءة ١٠ أيار ١٨١٦ وحافظت على كونكوردات عام ١٨٠١ والأحكام الملحقه بها ، ولكن البابا لم يقبل بهذه الكونكوردات التي تسلم السلطات على الكنيسة إلى أمير بروتستانت . ونجد في هذه الكونكوردات مادة صريحة تنص على أنه في الحال الذي يكون فيها الحكم بأيدي بروتستانت ، تستأنف المفاوضة لتغيير المعاهدة . وقد حافظ الملك على الكونكوردات بلا شرط ولا استثناء ، وتصرف الاكليروس كما لو كانت الكونكوردات غير موجودة ، كما لو استرد استقلاله التام : فقد ادعى بحرية جمعياته الدينية ، ولم يحسب للحكومة حساباً . ووضعت بخاصة مشكلة خطيرة : وهي مشكلة بين الولاء (الاخلاص) للسلطات المدنية التي تجبر الكونكوردات الكهان والاساقفة على أدائها . وفي بعض البرشيات رفض الكهان الجدد اليمين . وكان النزاع شديداً . وحاولت روما مع ذلك أن تهدئه . وعندما رسم المونسنيور دوميان اسقفاً على مالين ، وهو الذي

أقسم اليمين للقانون الاساسي عندما كان عضواً في لجنة اعادة النظر في الدستور ، أُقرَّ بأن هذه اليمين ليس لها قيمة إلا بالنسبة إلى النظم المدنية ، وبالتالي يمكن شرعاً حلفها (أيار ١٨١٧) .

ومع هذا فقد قام خلاف عنيف في مجموع هذه الكنيسة بين الحكومة واسقف غاند المونسيونر دوبروي . وكان هذا رجلاً عنيفاً متزمتاً ، وقد سبق له أن دبر النضال ضد نابوليون فأمر بسجنه . واستمر بنفس الحماس في معارضته لحكم غليوم الاول . وكانت أبرشيته نوعاً من كنيسة منفصلة في الفلاندر في داخل الكنيسة البلجيكية ، حتى ان الكنيسة تميزت غيظاً وقررت القاء القبض عليه . وفر دوبروي إلى فرنسا ، وحكم غيابياً بالنفي في ٨ تشرين الثاني ١٨١٧ . ولكن هذا الحكم لم يضع حداً لمعارضة أبرشيته : فقد حافظ نواب الاسقف العامون على موقف الاسقف المذهبي والاداري ورفضوا قبول التدابير الحكومية . وتوفي مونسيونر دوبروي في ٢٠ تموز ١٨٢١ وتوقف النزاع مؤقتاً .

قامت المعارضة في الاصل بين الاكليروس والحكومة . وكانت مفهوم غليوم الاول ، في علاقات الكنيسة والدولة ، مفهوماً جوزيفياً ونابوليونياً ، ولذا أراد أن يصنع من الكنيسة الكاثوليكية البلجيكية كنيسة خاضعة للإدارة . غير أن النفوذ الفرنسي كان عظيماً على الكنيسة البلجيكية وبدا خطيراً لسببين : ففي نظر الاكليروس والكاثوليكين في بلجيكا كان وضع الكنيسة الفرنسية نموذجياً : ففي العهد الرجعي كان نفوذ الاكليروس على الحكومة وازدهار الكنيسة عظيمين : وقد أفادت الكنيسة فوائد جمة من العهد الرجعي ، وخاصة ابتداء من ١٨٢٠ . ولذا أراد الاكليروس البلجيكي أن يتبع هذا المثل الذي ضربته فرنسا .

ومن جهة أخرى . نشأت ومنت ، بتأثير لامانيه ، أفكار كاثوليكية
حبرية رومانية . ولهذين السبيين كان النفوذ ، الذي تمارسه الكنيسة الفرنسية
على الكنيسة البلجيكية ، خطراً على الحكومة . ولذا أراد غليوم أن
يضع يده على تثقيف وتشكيل الكهان لبناء هذه الكنيسة القومية
المستقلة عن تأثيرات الخارج . وكان سوق إلكهان ضعيفاً فضلاً عن
جهلهم . ورغب غليوم أن يتقهم حسب مذهب الدولة ويكافح النفوذ الذي
يمكن أن يؤثروا به على تربية الأطفال . ولذا أصدر عدة قرارات
وأولها : القرار الصادر في أول شباط ١٨٢٤ ويفرض على مدارس
الجمعيات الرهبانية طلب الترخيص من الحكومة ، وعلى المعلمين تقديم
شهادة الكفاءة التي تسلمها الدولة . وهذا الالتزام ساعده على أن يطرد
من بلجيكا « اخوة المدارس المسيحية الفرنسيين » الذين يعلمون في المدارس
الابتدائية البلجيكية . أما القرار الثاني الصادر ، في ١٤ حزيران ١٨٢٥ ،
فيضع المؤسسات التعليمية ، مها كانت ، تحت اشراف الدولة ويطلب من
جميع الاساتذة درجات جامعية . وفي الوقت نفسه انشئت « الكلية
الفلسفية » ، وهذا الامم له معناه ومغزاه ، وارتياحها اجباري على كهان
الغد قبل دخولهم إلى المدارس الكهنوتية . ونظمت الكلية مباشرة وافتتحت
في لوفن ، في ١٧ تشرين الأول ١٨٢٥ : وقد انشئت لتكون
عظيمة : وكان لديها من الامكنة ما يجعلها تضم الف ومائة تلميذ ولكن
وجد فيها ١٦٧ ، وأخذ هذا العدد يتناقص في السنوات التالية . وأخيراً
في ١٤ آب ١٨٢٥ ، قررت الحكومة بأن البلجيكيين ، الذين أتموا
دراسهم في الخارج ، لا يقبلون في الجامعات ولا يمكنهم أن يقبلوا في
الوظائف العامة في بلجيكا . وهذه القرارات ، كما نرى ، تهدف إلى
قطع الكنيسة البلجيكية عن كل تأثير فرنسي وإلى وضع تثقيف رجال

الدين تحت ادارة الحكومة . احتج الاكايوس مباشرة ، حتى ان مطران مالين نفسه المونسنيور ميان قاطع مدارس الدولة ، وخطب على منبر المطرانية خطباً شديداً شجب فيها قرارات ١٨٢٥ . فقامت الحكومة تجاه هذه الخطب بتدابير انتقامية لاقت استحسان الكالفنيين الهولانديين .

وأخيراً حاول غليوم تنظيم الكنيسة وبخاصة الأسقفية . كانت الوظائف الكنسية مضطربة ، ووجدت كراسي اسقفية كثيرة وشاغرة : أسقفية لياج منذ ١٨٠٨ ، منذ عهد نابليون ، اسقفية تورنيه في ١٨١٩ ، وأسقفية غاند في ١٨٢١ ، وأسقفية نامور في ١٨٢٨ . ولم يكن هناك كونكوردات لأن البابا رفض تجديد معاهدة ١٨٠١ ، ولذا لم يكن بالامكان شغل هذه الكراسي الشاغرة . ومن جهة أخرى ، كانت الحكومة ترغب في إضعاف معارضة الكاثوليك بالتفاوض مع روما ، وقامت بمفاوضات مع البلاط الحبري أدت إلى كونكوردات ٢٥ تموز ١٨٢٧ . وأفادت هذه الكونكوردات روما لأنها ربطت الكنيسة الكاثوليكية في هولنده بالكرسي الأقدس : وأنشئت رسمياً أسقفيات امستردام ، بوالودوق ، أو ترخت ، في هولنده ؛ وفي بلجيكا أسقفية بروج التي حذفت عام ١٨٠٢ . ومن جهة أخرى شهد الأساقفة الاعتراف بحق ادارة مدارسهم الكهنوتية كما يريدون . ومقابل ذلك ، أصبح للحكومة الحق بنصيب في رسم الأساقفة ، وذلك بأن تعرض قائمة المرشحين ، الذين تشير بهم مجالس الكهنة على روما لرسمهم ، على الحكومة ، وتستطيع هذه أن تحذف الأسماء التي تبدو لها خطرة . وبعد أن يتقلد الأساقفة مناصبهم يقسمون اليمين للحكومة . وبدأ أن كونكوردات ١٨٢٧ ، سوت مشكلة تنظيم الكنيسة . ولكن سوء نية الحكومة الهولندية ظهر حالاً ، لأن الحكومة أرسلت بلاغاً ، إلى حكام الأقاليم في ٥ تشرين

الأول ، يصرح بأن تطبق الكونكوردات « مع التحفظات التي تقتضيها القوانين » ، وبانتظار تسمية الأساقفة الصالحين والعقلاء والمستنيرين بقي تشريع التعليم ساري المفعول .

كانت القطيعة تامة بين الأكليروس البلجيكي والحكومة . وكان الأكليروس سيد الجماهير . ويضاف إلى ذلك أن سياسة الحكومة في التمثيل والدمج في البروتستانتية الهولندية وفي مناوأة الأكليروس كان من نتيجتها أن أصبحت القضية الدينية أرضاً للمعارضة ، معارضة تدافع عن السياء التاريخية والتقاليد البلجيكية تجاه حكومة أخذت بالتدريج وجه حكومة أجنبية . ومع هذا فلم تكن القضية الكاثوليكية بعد قضية بلجيكا كلها في تلك الفترة ، لأن الأكليروس كان مرتبطاً بحزب المحافظين أي ان الكنيسة ما زالت مرتبطة بالتعاملات القديمة والامتيازات والنظم السائدة في النظام القديم . . . ولتصبح المعارضة الكاثوليكية معارضة قومية حقاً كان عليها أن تتحرر من ارتباطها بالنظام القديم .

المعارضة . - وفي السنوات الأخيرة للمملكة ، من ١٨٢٨ إلى ١٨٣٠ ، حدث تطور في الظروف السياسية كان من نتيجته أن أسقط كل ما أبقى على انفصال حزبي المجتمع البلجيكي : الأحرار والكاثوليك . وأعطى الرخاء الاقتصادي البورجوازية أهمية متزايدة ، وأشعرها بقوتها في وقت كان التحويل عميقاً في الحزب الحر كما في الحزب الكاثوليكي .

وفي الواقع ، كانت الأحزاب الحرة البلجيكية تدعم الملك ، في سياسته المناوئة للأكليروس ، ووجد في بلجيكا تقليد في معاداة الكاثوليكية كما وجد فيها تقليد للكاثوليكية ، ولكنه قليل . ومع ذلك فقد عبر عن العداء بانتشار وتشكيل حزب فلسفي على طراز الافكار الفرنسية في القرن

الثامن عشر عند الفلاسفة والموسوعيين . ودعم هؤلاء الأحرار سياسة حكومة الادارة (الديركتوار) اليعاقبية ضد الكنيسة . وبعد ١٨١٥ كانوا يمثلون ، أمام الكنيسة المرتبطة بالنظام القديم ، حزب المجتمع الحديث . كانوا حقوقيين يناصرون حرية الدولة والحريات المدنية. وعززت الماسونية هذا الحزب عندما أعيد تشكيلها بعد ١٨١٥ ودعمتها الحكومة . وكان الامير فريديريك ، ثاني أبناء الملك ، سيد الماسونية الاعظم في مملكة البلاد المنخفضة . وقد سعت الحكومة لانتساب الضباط إلى الألوج الماسونية . وعزز الحزب الحر بعمل الحكوميين الفرنسيين ، الذين جاؤوا وأقاموا في بلجيكا . وكان هؤلاء المحكومون من رجال المؤتمر الوطني بفرنسا من قتلة الملك الذين أخرجوا من ديارهم أو من رجال المائة يوم الذين استثنوا من قانون العفو العام . وهؤلاء الفرنسيون ، الذين جاؤوا وأقاموا في بلجيكا ويمثلون تقاليد الثورة والامبراطورية في فرنسا ، كانوا يكرهون الاكليروس وخاصة الموالين للبابا . كانوا متحمسين ويقومون بالدعاية وامتهنوا مهناً حرة ، محامين في بروكسل ، أو أساتذة ، أو صحافيين . وأصبحت بروكسل على هذا النحو مركز حياة' للأفكار الفرنسية وانتشارها . ودعم هؤلاء الأحرار حكومة الملك في نضالها ضد الاكليروس . واستخدمهم غليوم ورحب بدعمهم لأنه كان مقتنعاً بأنه لن يكون لهذا التحالف أي مدى خطير .

وابتداءً من ١٨٢٥ ، وجد اتجاه جديد عند هؤلاء الأحرار : فقد بلغ الجيل الجديد منهم سن الرشد ، ولم يشترك هؤلاء الشباب في المنازعات القديمة ، واستمر النفوذ الفرنسي يؤثر فيهم ، ولكنه نفوذ من نوع آخر ، مغاير لنفوذ الحزب الفلسفي المرتبط بأفكار القرن الثامن عشر العقلانية ؛ إنه نفوذ الأفكار التي كان يوسعها في دروس السوربون

كبار الأساتذة الفرنسيين الذين كان اشعاعهم عظيماً في أوربة ، مثل فيلمان ، غيزو ، كوزن ، وخاصة كوزن الذي حلت فلسفته الروحانية محل فلسفة القرن الثامن عشر الملحدة ؛ أو المثل الذي تقدمه إلى البلجيكيين مناقشات المجالس الفرنسية وقراءة الصحف الفرنسية وخاصة تأثير بنيامين كونستان ومطالبته بالحكم البرلماني والحرية الفردية . وأدت انتخابات ١٨٢٧ إلى ظفر هذا الحزب الحر في فرنسا الذي فرض على الملك سقوط فيليل وتشكيل وزارة مارتيناك المعتدلة . وكانت الليبرالية الفرنسية تعرب عن رأيها في جريدة « الكورة » التي أصبح نفوذها عظيماً في بلجيكا . ومثال هذا النفوذ هو اعتناق الشاب لوي بوتر لهذه الليبرالية الجديدة ، وسيصبح هذا من زعماء الثورة البلجيكية ، وبعد أن كان في القديم عدواً للكنيسة غير اتجاهه واتجه منذ ١٨٢٤ صوب الديموقراطية والليبرالية على الطراز الفرنسي الجديد .

وكان لهذه الليبرالية الجديدة مراكز : بروكسل ولييج . ففي بروكسل تزعم الشبان خاصة حركة الاستقلال مثل : بوتر ، الدوق بتيو ، شارل بروكسر ، فان دوفير ، ديفو ، لو ثومب ، وقد أسسوا في العام ١٨٢٦ صحيفه باسم « البلجيكي » . وفي لييج تزعم الحركة الأخوان روجه وجوزيف لوبو . وكانت لهما جريدة وقد تأسست عام ١٨٢٤ واسمها « ماتيولانسبرغ » ، ثم أخذت ابتداءً من ١٨٢٦ اسماً جديداً وهو « السياسي » . وبرنامج هؤلاء الأحرار برنامج حكومة برلمانية مفتوحة للجميع ، للكاتوليك كما للآخرين ، ومع ذلك فقد كان الأحرار قلة ، ويساقون من بين البورجوازية المدنية ، ولم يكن وراءهم جماهير كتلك الجماهير التي كانت تتبع الاكليروس ،

وبشكل مواز ، تطور الكاثوليك تطوراً مشابهاً ، ولنفس الاسباب ،

فقد وصلت عندهم كما وصلت عند الأحرار أجيال جديدة لقيادة الحركة . وهجر هؤلاء الشبان الكاثوليك فكرة رجعة امتيازات النظام القديم ، ونحروا من الماضي . وكان مطلبهم ضد الحكومة التي تضطهد الكنيسة هو مطلب الحرية وحرية الكنيسة ، ثم انتقلوا إلى فكرة الحرية للجميع . وتبعوا في تطورها لامانيه وقد أصبح نفوذه عظيماً . وانطلق لامانيه هذا من حزب ما وراء الجبال ، حزب البابا ، وفكرة الحكم المطلق . وانتهى بالوصول إلى مذاهب ليبرالية عندما رأى أن ارتباط الكنيسة والحكومة يضايق نمو الكنيسة . وهناك حادث يري جيداً انتشار أفكاره في الاكليروس البلجيكي الناشئ . وهو أن كتابه « تقدم الثورة في الكنيسة وفي المجتمع » عندما صدر في بداية ١٨٢٩ ، صدرت له مباشرة أربع طبعات في بلجيكا .

لقد تخلى الكاثوليكيون إذن عن مهاجمة الحرية ، وانسحبوا من موقفهم القديم الذي يشجب القانون الأساسي بعد أن وطد حرية الأديان وحرية الصحافة . وقبلوا الآن الحرية لجميع الناس . ويجب أن نذكر بين زعمائهم بخاصة الأمير فيليكس دوميرود والأب فان بومل الذي أصبح أسقف لياج . وكانت لهم جريدتان « بريد الموز » ، أي « بريد نهر الموز » و« كاثوليكسي البلاد المنخفضة » . وتكيف الكاثوليك مع المجتمع الحديث وتبدل موقفهم تماماً ، حتى أن القاصد الحبري عجب من ذلك بل واستاء . وعلى هذا النحو سار الأحرار والكاثوليك سيراً متوازياً حررهم من وجهة نظرهم الضيقة القديمة ومن روح الحزب . وهذا التطور جعل النضال المشترك ضد العدو المشترك ممكناً ، أي ضد السلطة التي تقيد الحرية . ولا شك في أن مفهوم الحرية لم يكن نفسه تماماً عند الكاثوليك

تاريخ الحركات القومية (٦)

وعند الأحرار ، ولكنه كان ضرورياً لنمو كل من الحزبين ، وترك الخلافات جانباً . ووجدت المناسبة للاتحاد بين الحزبين في تشرين الثاني ١٨٢٨ ، عندما اقترح شارل بروكير على المجلس العام إلغاء صك ١٨١٥ المتعلق بالصحافة : ولأول مرة في المجلس العام ، جرت مناقشة مبدأ كبرى في السياسة ، وامتد النقاش حتى قضية الحكم الشخصي والحكم البرلماني . وطرح اقتراح بروكير بـ ٦١ صوتاً ضد ٤٤ . وفي هذا الاقتراع ، صوت جميع الممثلين الهولنديين وسبعة بلجيكيين ضده ، بينما صوت جميع الممثلين الآخرين ، ممثلي الجنوب ، ممثلي بلجيكا ، مع هذا الاقتراح . وهكذا أقرت القطيعة في المجلس العام في هذه القضية حسب قسمي الدولة الجغرافيين ، حسب المنطقتين القوميتين في المملكة ، الهولنديين من جهة والبلجيكيين من جهة أخرى .

وبرهنت التجربة في المجلس العام على أنه لا سبيل إلى الحصول على نظام حر . ولذا كان من اللازم أن تعطى الجماهير الحرية إذا أريد الحصول على اصلاحات . والقي دوبرتر إلى الكاثوليك ، في جريدة « بريد البلاد المنخفضة » ، ببدء إلى الاتحاد . وتفاهم الحزبان لتنظيم المعارضة ضد الحكومة ، وظلا على الصعيد القانوني وتأثرا في هذه النقطة بنفوذ الأحرار الفرنسيين الذين لا يعتمدون ، ضد وزارة بولنيك الرجعية ، على وسائل أخرى غير الوسائل القانونية . وتأثراً خاصة بالمثل الانكليزي ، وبخاصة مثل اوكنيل الذي كان يقوم بتنظيم حملة كبرى لتحرير الكاثوليك وهكذا ظلا على الصعيد القانوني ، وأسلحتها عرائض موقعة من جميع جهات الشعب . وهذه العرائض تتناول نقطتين مختلفتين : بعضها يطلب حرية التعليم والآخر حرية الصحافة ، واقامة لجنة القضاء ، واصلاح الادارة لصالح الحريات المحلية ، وفي بضعة أسابيع اجتمع ٤٠٠٠ توقيع ، واستمرت

الحركة طوال سنة ١٨١٩ . وفي شهر تشرين الثاني جمع ٣٦٠٠٠٠ توقيع .
وقد دل حملة العرائض على أن المعارضة نجحت في توجيه اهتمام الجماهير
وتدريسها . وهكذا دخلت البلاد البلجيكية كلها مسرح السياسة ، أي
الشعب نفسه وليس زعماءه السياسيون فحسب ، ولم يعد أي تمييز في
معارضة الحكومة وفي مطالب الإصلاحات بين مختلف الأحزاب
البلجيكية . وثم الاجماع ضد الحكم ، ضد النظام الذي تجدد شيئاً فشيئاً
في هولندا

ووصلت هذه المعارضة إلى درجة حادة بسبب خرق الحكومة وعدم
جدوى سياستها وهي سياسة الملك نفسه ورئيس مجلس الوزراء فان مائين .
وقررت الحكومة سياسة الشدة : حكم على دو بوتر بالسجن والغرامة ،
فأصبح بذلك شهيداً قومياً ولم يمنع سجنه معارضته : فقد كان يلقي من
السجن بالكراريس فتلاقى نجاحاً عظيماً . وحاول الملك في الوقت نفسه
أن يعدل المعارضة ويقسمها . وفي قرار ٢٠ حزيران ١٨٢٩ جعل
ارتداد الكلية الفلسفية اختيارياً ، وفي قرار ٢ تشرين الأول ١٨٢٩ أرجع
للاساقفة استقلال مدارسهم الكهنوتية . ولكن هذه التنازلات لم تخضع
الاكليروس ، ولم ينقسم اتحاد الأحرار والكاثوليك .

والقى غليوم الأول نفسه ، كشارل العاشر ملك فرنسا في
توكيدات طائشة أثارت عليه معارضة اجماعية : ففي لياج وأمام مجلس
القومون اعتبر المعارضة قباحة . وفي رسالة إلى المجلس العام في ١١
كانون الأول ١٨٢٩ شجب الحكم البرلماني والمسؤولية الوزارية ؛ واثني
على سلوكه الخاص ونظامه وانهم المعارضة بالعمالة لدى الاطماع
الأجنبية فأجاب دو بوتر على هذه التصريحات الملكية بكراش يدعى

« رسالة محب الشعب » ، في ٢٠ كانون الأول ١٨٢٩ ، وبشروع جمعية مقاومة قانونية . فحكم عليه مع حر آخر وكاثوليكين بالنفي ، في ٣٠ نيسان ١٨٣٠ ، واضطر أن يغادر البلاد ويقيم في فرنسا .

وهكذا حفرت وهدة بين البلاد البلجيكية وملكها . ووجد الملك في طريق مسدودة . وأخذت الحكومة بوضوح وجه حكومة هولندية في نزاع مع اجماع الرأي البلجيكي كله . وكان النزاع ، في سنة ١٨٢٩ والقسم الأول من ١٨٣٠ شديداً للغاية . ومن غير المفيد أن نذكر التفاصيل ولكن الاتجاه كان واضحاً : فقد وجد اجماع معنوي في القسم البلجيكي للمملكة . وانقسمت بمملكة البلاد المنخفضة إلى قسمين ، ولم يعد التلاحم ممكناً . وكانت هذه المعارضة سياسية صرفاً ، وبرنامجهما الحرية البرلمانية ، وهو برنامج مماثل لبرنامج الفرنسيين الأحرار المعارضين لحكومة بولنياك . ولم تفكر هذه المعارضة البلجيكية مطلقاً بالانفصال حتى ولا رفض الملك ، بل ان البلجيكيين ظلوا موالين للنظام وتشكلت جمعية واتخذت شعارها « موالون للملك حتى العار » . ولم يطالبوا إلا بالاصلاح الدستوري ، وتمسكوا بدقة بحدود القانون ، ولم توجد بعد أقل رغبة في تفتت المملكة .

ومع ذلك فقد ظهرت من قبل عناصر ديموقراطية : من الشباب « اليقاقة » ، كما سموا أنفسهم ، ومن خوارنة وكهان شبان متزمتين غير متساهلين . وبدأ الاضطراب الديموقراطي يقلق المعارضة ، ويفسر بصعوبات الحياة التي سببتها الازمة الاقتصادية التي حدثت في بلجيكا ، كما في فرنسا ، في سنة ١٨٣٠ . ولم ير بان من الممكن حدوث ثورة ، ولم يلاحظ أيضاً أن المعارضة السياسية يمكن أن تصبح حركة قومية .

ومع ذلك فقد كان الوضع قريباً من الحركة القومية لأن الثورة نشبت في شهر آب ١٨٣٠ .

٢ - الثورة

إذا تم الانتقال من المظاهرات السلمية إلى الثورة ، ومن المعارضة السياسية إلى المطالبة القومية ، ومن الولاء للملك إلى الاستقلال ، فذلك لم يتم حسب خطة موضوعة مدروسة أو هدف يراد الوصول اليه . ان الواقع كان ، على العكس ، له معناه ومغزاه ، لأن الثورة البلجيكية كانت نتيجة سياسة عملية نشأت عن قوة الحوادث أكثر مما أتت عن الناس ، ولم تكن موجهة من قبل رجل دولة ، بل كانت حصيلة قوة مغفلة ، قوة الشعب نفسه .

لقد كانت الثورة من عمل البلجيكيين أنفسهم . وان ثورة تموز ١٨٣٠ في فرنسا كانت بالنسبة إلى الثورة البلجيكية فرصة ، ولكنها ليست مسؤولة عنها ، لأن فرنسا لم تأت إلى الثورة البلجيكية بمساعدة مادية؛ ولم يكن في بلجيكا حزب فرنسي ، باستثناء بعض أفراد منعزلين ، مثل الديمقراطي الجمهوري جان دويين ، وكان على صلة بالجمهوريين الفرنسيين أو بعض موظفي عهد الامبراطورية ، مثل الكونت دوسيل . ولم يكن في بلجيكا حزب بلجيكي يطلب ضم بلجيكا إلى فرنسا . وفي الاتجاه الآخر ، لم يكن سوى بعض محرضين فرنسيين نجدهم في المظاهرات الأولى في بروكسل ، وهم فرنسيون متطوعون اختلطوا مع البلجيكيين الذين عادوا إلى بلادهم في ايلول ؛ وأخيراً ، الجوقة الباريسية المؤلفة من المتطوعين الذين أتوا لمساعدة البلجيكيين . ان نصيب فرنسا في الثورة البلجيكية كان مطبوعاً بمساعدة الرأي الفرنسي ومساعدة الدبلوماسية الفرنسية بشكل طبيعي ، قبل التدخل العسكري عام ١٨٣١ .

مظاهرة بروكسل. - ان تفتت بملكة البلاد المنخفضة وتشكيل دولة جديدة لم يتأ دفعة واحدة ، بل على مراحل متتابعة ، ومن هذه المراحل انبثقت القومية البلجيكية .

كانت الثورة مزيجاً من الأحداث العسكرية والسياسية المتفرقة ، وكانت نقطة الانطلاق فيها مظاهرة شعبية قامت في بروكسل في مساء ٢٥ آب على اثر تمثيل « كوخ ميناء بورقيشي » في الاوبرا . ثم انقلبت المظاهرة إلى فتنة مع نهب وتدمير آلات المصانع . ولوضع حد لهذه المظاهرات ولهذه الثورة ، كان من الضروري تشكيل حرس وطني يوطد النظام ويبقى مسلحاً وتشكل أركانه ادارة بلدية جديدة . وحدث مثل ذلك في مدن بلاد الفالون ، مع شيء من التأخير ، وفي مدن البلاد الفلاماندية . وفي كل مكان تشكل حرس مدني ولجان أمن . وهكذا كان الشكل الأول للثورة البلجيكية ثورات بلدية رفعت أعلامها المحلية وتنازلت أمامها السلطات القديمة ، وتشكلت على هذا النحو الحرية البلدية بصورة غريزية وكانت تقليداً للبلاد الفلاماندية القديمة .

كانت المطالب التي قدمها هؤلاء الثائرون سياسية صرفة وتقدمية قليلاً . فمن ذلك أن اللجنة البلدية في لياج ، قررت في ٢٧ آب ، وأن نبلاء بروكسل قرروا في ٢٨ منه ، أن يوجهوا إلى الملك « رسالة » يحملها اليه وفد ويطلب منه تطبيقاً صادقاً وأميناً للقانون الأساسي ، وأعربوا في هذه الرسالة عن الحرية التامة للصحافة والتعليم والنظام البرلماني واشتراك البلجيكيين في الحكم بنسبة عدد الشعب البلجيكي . وهذا البرنامج هو برنامج برلماني ، برنامج اتحاد الأحزاب الليبرالية والكاثوليك تسانده ، في هذه المرة ، جماهير الأمة . ولم يوضع النظام موضع اتهام بعد ، حتى ولا شكل المملكة نفسه .

ومن هذا البرنامج تم الانتقال إلى برنامج أكثر تقدماً تحت تأثير حادثين : من جهة ، كان عمل الحكومة تجاه هؤلاء الثوار خرقاً : أرسل الملك نجليه ، الأمير اورانج والأمير فريديريك إلى بروكسل في ٣٠ آب مع تصريحات مهددة فآثارت مظاهرات معادية قام بها سكان بروكسل ، واضطر الأمير اورانج أن يترك جنوده خارج المدينة ويدخل في مفاوضات مع زعماء الحرس المدني . ومن جهة ثانية ، عندما جاء المندوبون وطلبوا إلى الملك الاصلاحات التي تكلمنا عنها ، وأجاب الملك جواباً مسوفاً . وعندما عاد الوفد ، إلى بروكسل في أول ايلول ، قدم تقريراً أثار جموع الشعب الصاخبة . وهكذا اصطدمت المطالب البلجيكية بمعارضة الحكومة . وهذه أول خيبة ، وستجني هذه الخيبة ثمارها .

وفي غضون ذلك تعممت الحركة في بلجيكا كلها . وتوافدت على بروكسل الوفود والمتطوعون من كل مكان ، وتبنت بلجيكا ألوان بروكسل البرابانسونية : العلم الأسود والأصفر والأحمر . وأصبحت الحركة البلدية حركة قومية .

كانت نتيجة هذا الحادث المزدوج تزايداً في مطالب الثوار ، وقام مقام هذا البرنامج الأول البرلماني الصرف فكرة الفصل بين الأقاليم الجنوبية والأقاليم الشمالية دون أي نقطة اتصال ما خلا السلالة الملكية . هذا ما طلبه البروكسليون الآن من الأمير اورانج . ووعد الأمير أن يوصي الملك بهذا المطلوب . وقد اتفق الدبلوماسيون الموجودون في بروكسل والسلطات على أن الفصل الإداري بين اقليمي المملكة أصبح أمراً حتمياً . وفي الوقت الذي تقدم فيه البرنامج في الاتجاه القومي تشكلت في بروكسل سلطة سياسية ، لجنة الأمن ، في ١١ ايلول ، التي انتخبها القطاعات الثمانية للحرس المدني . ولم يكن هدف هذه اللجنة الادارة البلدية فحسب ، بل العمل على

تحقيق الفصل الاداري في الدولة . وكانت تتألف من أركان الحرس المدني والعناصر البورجوازية المنتخبة . وكان الفصل الاداري ، الذي يطالب به البلجيكيون ، مع الحفاظ على المملكة تحت الاتحاد الشخصي للملك ، يعني تعريف بلجيكا كشخصية سياسية منفصلة عن هولانده ، ومتميزة على الأقل عنها .

ونشأت في الوقت نفسه حركة ديموقراطية ثورية تحت تأثير الأزمة الاقتصادية ، وكان مركزها مدينة لياج . ووصلت وفودها إلى بروكسل في ٧ ايلول بزعامة دوجيه . وهاجت الأندية ، وبدأ الاستعداد للنضال . ووقعت حوادث في ضاحية بروكسل وفي ضاحية لياج بين الجنود الملكيين والشعب . وفي ٢٠ ايلول نادت البورجوازية بالحركة الشعبية في بروكسل ، وأراد الشعب حل لجنة الأمن ليقم مكانها عناصر أكثر تقدمة . وهكذا وجد العامل الشعبي الذي انفجر ولم يرض بالانفصال الاداري البسيط .

الانفصال القومي . - وحول الملك نفسه حركة المطلب الاداري هذه إلى انفصال قومي ، بسبب خرقه السيامي : فقد جعل الحل الوسط غير ممكن باعطائه الأمر إلى فريديريك للاستيلاء على مدينة بروكسل بالقوة . وحاول الأمير ذلك دون نجاح من ٢٣ إلى ٢٧ ايلول . ويجب أن نلاحظ في دفاع المدينة الظافر ، إن الشعب كله ، والشعب نفسه هو الذي قاوم الجيش الملكي . لأن الزعماء السياسيين ابتعدوا ، وان البروكسليين الذين قاوموا الجيش أتوا من جميع البلاد ، باستثناء غاند وانقرس ، ومن جميع طبقات المجتمع . وأقبلت الألوف من المتطوعين من الاقليم كله لنجدة المقاومة القومية . وكانت نتيجة انتصار الشعب البلجيكي على جيش الأمير فريديريك أن قتالاً بمائلاً انفجر في كل مكان ضد الحاميات الهولندية في المدن : ففي مونس أجبر الشعب الحامية الملكية على الاستسلام في ٢٩ ايلول ، وفي لياج

في ٦ تشرين الأول ، وفي غاند في ١٥ منه ، الخ ... وبعد هذا الاخفاق في بروكسل تراجع الجيش الملكي وسار الفلاحون في أعقابهم . ووقع آخر قتال في ٢٥ تشرين الأول أمام أنفوس حيث وقعت هدنة في ٢٨ منه بين السلطات العسكرية والشعب . وفي القسم الأخير من شهر تشرين الأول ، لم يبق للهولانديين إلا قلعة آنفوس ومدينة ميستريخت ومدينة لو كسمبورغ . وهكذا تخلص الشعب البلجيكي في شهر من الجيش والسيطرة الهولندية .

ومن الممكن دون عناء أن نلاحظ النتائج السياسية لهذا النصر الذي أحرزه الشعب : وهي أن فكرة الانفصال الإداري ، مع المحافظة على الاتحاد الشخصي للأقليمين تحت الحكم الملكي ، أصبحت مستحيلة . وفجأة تم تجاوز فكرة الفصل : حاول المجلس العام عبثاً التصويت على المبدأ في ٢٩ ايلول ، وحاول الملك دون جدوى أن ينظم هذا الفصل على يد الأمير اورانج الذي استقر لهذا في آنفوس في ٥ و ٧ تشرين الأول ، وحاول بالتالي أن ينقذ السلالة وقدم نفسه لزعامة الدولة الجديدة ، في ١٦ تشرين الأول . ولم يشأ البلجيكيون أن يسمعوا الكلام عن الانفصال الإداري ، ومنذ بداية تشرين الأول ، اتخذوا القرارات القطعية التي تؤدي إلى فصل المملكة إلى شطرين .

أمام هجوم الجيش الملكي على بروكسل ، تشكلت ، في ٢٣ ايلول ، لجنة إدارية من الزعماء العسكريين وانضم اليها ممثلون عن الأحزاب السياسية . وناب عن الكاثوليك فيلكس دوميرود ، وعن الأحرار فان دوفير وروجيه ، وعن الجمهوريين جندوين ، ثم دو بوتر الذي عاد من فرنسا واستقبل في بلجيكا استقبال الظافرين . واتخذت هذه اللجنة الإدارية ، في ٢٨ ايلول ، اسم « حكومة بلجيكا المؤقتة » . وفي ٤ تشرين

الأول ، نادت باستقلال البلاد ، واعتبرت أقاليم الجنوب المنفصلة عن هولانده تؤلف دولة مستقلة

ولقطع محاولة الأمير اورانج في تزعم الدولة الجديدة أجابت الحكومة على عروضه بنداء في ١٨ تشرين الأول وقالت : « إن الشعب هو الذي يصنع الثورة ، إن الشعب هو الذي طرد الهولانديين من أرض بلجيكا ؛ وهو وحده ، لا الأمير اورانج ، على رأس الحركة التي أمنت استقلاله وتوطد قوميته السياسية ، . وهذا صحيح لأن الحركة كانت شعبية ، وكانت حركة عميقة عامة ، وكان تأثيرها عظيماً للغاية إذا قورن تاريخنا الانطلاق والوصول . ففي ٢٥ آب ، كانت البدء ، مظاهرات في بروكسل ؛ وفي ٤ تشرين الأول كان اعلان الاستقلال . وهذا يعني أن القومية كانت واقعاً حقيقياً ووجدت قبل أن يشعر بها ، ويكفي لها هذا العدوان الملوكي لتعي وجودها مباشرة .

وبعد هذا يجب تشكيل قوام الدولة ، وإنشاء سلطة سياسية لتقوم مقام سلطة المملكة الزائلة . ولذا انقسمت الحكومة إلى لجان : لجنة مركزية مكلفة بالسلطة التنفيذية ، مؤلفة من بوتر ، جندوبين ، فان دوفير ، روجيه و ميرود . وتألقت إلى جانبها لجان لمختلف الوزارات : لجنة المالية الخاصة ، لجان خاصة للشؤون الخارجية ، والشؤون العسكرية النع ... يضاف إلى ذلك مفوضون يرسلون إلى الاقاليم لتوجيه الادارة . ومن هنا نرى أن طابع هذه الحكومة مجلسي ، وأنها سلطة واقع، ولكن لاينازعها أحد . وقد بقيت على اتصال وثيق بالشعب الذي انبثقت عنه . ومن وجهة النظر هذه ، تشبه الحكومة المؤقتة البلجيكية لعام ١٨٣٠ بشكل فريد الحكومة المؤقتة للجمهورية الفرنسية عام ١٨٤٨ . ولثلاث اضطرب

الدولة وتنزع منها أطرها ، حافظت الحكومة الموقته ما أمكن على موظفي النظام القديم وبخاصة على نظام القضاء

وهيات الحكومة نظام الدولة للمستقبل : ففي ٦ تشرين الأول سميت لجنة وكلفت باعداد الدستور ؛ وفي ٨ منه أعيد تركيب السلطات البلدية بانتخاب مباشر ، وكان الناخبون موجودين من قبل ، وأضيفت اليهم الكفاءات الفكرية . وأعلنت الحكومة الحريات الكبرى الاساسية في الدولة ليتمتع الشعب بها مباشرة : في ١٢ تشرين الاول حرية التعليم ، وفي ١٦ حرية الصحافة والاديان والجمعيات والاجتماعات ، وفي ١٨ الغيت الرقابة ، وفي ٢٦ أعلن نشر المحاسبة العامة والموازنات . وتبع ذلك عدة قرارات مبدئية بمائلة . وفي ١٠ تشرين الأول ، دعت الحكومة إلى كونغرس قومي لتسلمه سلطاته عند تشكله . وجرت الانتخابات في ٣ تشرين الأول . وانعقد الكونغرس في ١٠ تشرين الثاني وثبت في اليوم التالي الحكومة الموقته في وظائفها

وحقق تنظيم الدولة الجديد في آن واحد البرنامج السيامي والاتحاد البرلماني الذي كان ، قبل الثورة ، يوجه المعارضة ، ضد الحكومة الملكية ، والتطلعات القومية التي ظهرت أثناء الثورة . وترك الجهاز الداخلي للدولة على حاله ، وجرت محاولة لصبغه بروح عامة جديدة وكل هذا يدل على تسلم الشعب سلطته المباشرة ، وقد جرى كل شيء بحكمة واتحاد ، ولم يحدث أي عنف ، وفي هذا دليل على اجماع الرأي .

٣ - انشاء الدولة

وهكذا خرج تشكيل الدولة الجديدة من معارضة سياسية كانت في الأصل وبشكل بساطة بين الملك وأعضاء البرلمان . وبعد ذلك يجب

انشاء هذه الدولة من وجهة النظر الدولية ، أي يجب وضعها بين دول أوربة الأخرى ، والاعتراف بها في المحافل الأوربية . وقد وجدت اغريقية قبلها أمام المشكلة نفسها ، ووجدت بلجيكا هنا عقبات مماثلة للعقبات التي لاقتها اغريقية ، بسبب دبلوماسية الدول الكبرى . ولكن البلجيكيين يمتازون عن الاغريق بيزة الاتحاد: فيينا كان الاغريق منقسمين إلى شيع وأحزاب ومنافسات شخصية ، كان الاتحاد يسود أحزاب بلجيكا . والحزب الوحيد الذي انفصل عن الحكومة ، ولكن دون أن يقوم بمعارضة ، كان فريق الديموقراطيين الصغير حول بوتر . ولم يثر الشعب أي اضطراب ولم يحدث ، بعد ثورة بلجيكا ، شيء يشبه الاضطرابات المتعددة التي دامت خلال عدة أشهر غداة ثورة تموز في فرنسا .

كان جهاز الكونغرس الذي أنشأ هذه الدولة متقفاً ثقافة سياسية ؛ ولكن هذه الثقافة ظلت بالطبع على الصعيد النظري ولم تكن عملية ، ولم يكن لهؤلاء الرجال بعد ما يجعلهم يضعون يدهم في القضايا ، ووجدت الأطر الادارية ، وبالتالي أمكن للدولة أن تعمل ، بينما كانت الأحزاب تناقش في تنظيم الحكم المركزي . ولم يكن للبلجيكيين تقاليد يدارونها ومحسبون حسابها ، أو سلالة قومية أو أرستقراطية قومية تبحث عن مصالحها وتضع يدها على التنظيم السياسي . ولذا كان أمام جهاز البرلمانين صفحة بيضاء وبإمكانه أن ينشئ الدولة حسب النظريات السياسية . وكانت عند البرلمانين الارادة والامكان أيضاً لانشاء دولة لهم . ولكن العقبات في انشاء الدولة البلجيكية لم تأت من الداخل ، بل آتت ، على العكس ، من الخارج ، لقد آتت من الدول .

الدستور البلجيكي (٧ شباط ١٨٣١) . - جرت انتخابات الكونغرس في الوقت الذي تم فيه النصر على الملك واعترفت به اوربه فعلا ، لأن

سفراء الدول المجتمعة في مؤتمر لندن قرروا ، في ٤ تشرين الثاني ، تعليق العداء بين الهولانديين والبلجيكيين وطلبوا سحب الجيوش الهولندية إلى ما وراء حدود شهر أيار ١٨١٤ . وانتخب الكونغرس بـ ٣٠٠٠٠ صوت على ٦٠٠٠ ناخب وضم مائتي عضو . وكان هذا المجلس مجلس بورجوازيين بخاصة : فلم يكن فيه غير ٤٥ نبيلًا و ١٣ ملاكًا للاتيات انتخبوا في الأرياف . والباقي يتألف بكامله تقريباً من المحامين وعددهم ٣٨ ، ومن أعضاء من مختلف الصناعات الحرة في المدن . ولذا كان الكونغرس من حيث الأساس مجلس مفكرين ، رجال شباب حديثي السن بالقضايا والمشاكل : فعلى المائتي عضو وجد أن ٣٤ عضواً فقط كانوا أعضاء في مجلس المملكة . وكانوا في غالبيتهم فلاماندين وكاثوليكين ولكن لا أهمية لذلك ، لأن القضية الفلامندية لم توضع بعد ، ولأن الاتحاد موجود وسيظل قائماً بين الكاثوليك والأحرار حتى النهاية .

اتخذ الكونغرس القرارات الأساسية في الأسابيع الأولى التي تلت انعقاده : ففي ١٨ تشرين الأول ، أعلن المجلس رسمياً وبالإجماع استقلال الدولة الجديدة ، واستقلال الشعب البلجيكي ، وسيادة الشعب . وهذا الاعلان هو عمل سيادة لا يهتم بانعكاساته الممكنة على أوربة . وهذه الدولة التي أعلنت استقلالها عرفت نفسها طبقاً لحدودها الطبيعية . وضم الكونغرس نواب ليمبورغ ولو كسمبورغ بنفس الصفة التي ضم بها نواب برابان أو أقاليم بلجيكا الأخرى . واقتصر اعلان الاستقلال ببساطة على التصريح بأن قضية العلاقات مع الكونغراسيون الجرمانى ، الذي تدخل فيه اللوكسمبورغ نظرياً ، سيعاد فيها النظر .

وانصرف النواب إلى العمل . وهيات لجنة في غالبيتها من الأحرار ، عمل الدستور . وفي ٢٢ تشرين الثاني قرر الكونغرس أن تكون الدولة

ملكية بـ ١٧٤ صوتاً مقابل ١٣ ؛ وكان الحزب الجمهوري قليل العدد جداً . ولقطع دابر مناورات عائلة ناسو ، صوت الكونغرس في ٢٤ تشرين الثاني على الابعاد الدائم لأمره اورانج - ناسو عن تاج بلجيكا . وإذا اتخذ الكونغرس هذا القرار فذلك لأنه كان يعلم بأن تسمية أمير من امرة اورانج ، على رأس الدولة الجديدة ، كان حلاً ترغب فيه أوربة ، وهو الحل الذي أوصت به فرنسا . ووضع الدستور في بحر كانون الأول وكانون الثاني وانتهى في آخر كانون الثاني ١٨٣١ . وفي ٢٨ كانون الثاني بدأت المناقشة على الترشيحات للعرش . وقد أعلن الدستور في ٧ شباط ١٨٣١ ، وهو يتألف من قسمين : الأول يتعلق بتنظيم المؤسسات ، والثاني يدرس الحق العام في بلجيكا .

وإذا تركنا التفاصيل جانباً ، نرى أن ما يهنا هو المبادئ الأساسية التي هي في أساس هذه الدولة القومية الجديدة : أولاً ، يعلن الدستور سيادة الشعب : لأن « جميع السلطات تنبثق عن الأمة » . والمبدأ المحرك للدستور هو الفردية الليبرالية . وينسب للفرد الحد الأعظم من الحرية الممكنة ؛ ولا يقيد حرية الصحافة والتعليم ، والاجتماع بأي قيد ، ويحاول أن يضعف إلى الحد الأعظم السلطة الملكية ، من حيث النظر ، ومن حيث النظرية البرلمانية ، وذلك لينهج نهج انكلترا ، ولكن أيضاً بسبب سوء الظن بما يمكن أن تفعله السلطة الملكية وتمارسه ، كما فعل غليوم الأول . ولم توجد في بلجيكا سلالة قومية أو أرستقراطية لها حقوق وبالتالي امكن تنظيم السلطة الملكية بشكل برلماني مطلق .

وإذا خفضت السلطة الملكية إلى الحد الأعظم ، فقد انتقل كامل السلطة إلى البرلمان ، وهو يضم مجلسين : مجلس الشيوخ ومجلس النواب . وفي ذلك ضمان لتوازن السلطات ، وبالتالي لاحترام الحريات . وقد انبثق

هذا البرلمان عن نظام ضريبي . والتميز بين المجلسين هو فقط ضريبة قابلية انتخاب أقوى بالنسبة لمجلس الشيوخ منها بالنسبة لمجلس الممثلين . وكانت ضريبة العضوية في مجلس الشيوخ التي فلورين ضريبة مباشرة . وما يلفت النظر في الدستور البلجيكي ، الذي يختلف عن دستور لوي - فيليب الفرنسي ، هو أنه لا يحدد الضريبة بشكل مباشر . ولكنه يدل فقط على الحد الأدنى الذي لا يمكن للضريبة أن تنزل دونه أي عشرين فلورين ، وهذا يطابق اثنين وأربعين فرنكاً في ذلك العصر . ولم تحدد الضريبة في ذلك الحين بهذا الانخفاض ، ولكنها كانت امكاناً لاصلاح نص عليه في الدستور . وكان ينتظر تربية البلاد تربية سياسية قوية لتخفيض الضريبة حتى الحد الأدنى القانوني بقانون انتخابي ، وهذا ما حصل في ١٨٤٠ .

ولم يعد الدستور إلى اللامركزية الإقليمية القديمة . بل اريد تجنب تفكيت المملكة . وأقر استقلال البلديات لأن الحرية المحلية هنا كانت غير خطيرة على الدولة .

لقد اسس الدستور البلجيكي إذن ملكية برلمانية تعتبر أكمل تعبير وجد في عصر الليبرالية البورجوازية . وأصبح نموذجاً لجميع أحرار أوربة حتى ١٨٤٨ . وقد دل من جانب واضعيه على ارادة سياسية واضحة جداً ، ووعي قومي متطور جداً . وكان اعداد الدستور والقوانين الأساسية من عمل المؤتمر بكامل استقلاله وسيادته .

الموقف الأوروبي . - وإذا كان الكونغرس يعمل من نفسه ، فقد اعتبرت أوربة بأن لها كلمتها التي يجب أن تقولها . وفي الواقع ، لم تكن بلجيكا أرضاً منعزلة ، بل ان لها قيمة دولية ، وقد جعل وضع البلاد المنخفضة منها قضية من القضايا المثيرة في أوربة . حتى ان الملك غليوم نفسه ادخل هذه القضية في عالم الدبلوماسية : ففي ٢٨ آب

استنجد ببروسيا لتدعمه ضد رعاياه الثائرين . ولكن الحكومة الفرنسية جمدت مباشرة هذا التدخل البروسي فمذ ٣١ آب أعلم وزير الشؤون الخارجية ، هوليه ، السفير البروسي بأن الجيوش الألمانية إذا دخلت الحدود البلجيكية فان فرنسا تدافع عن الدولة الجديدة . وفي هذه الظروف ، تخلت الدول عن الملك غليوم على مثال انكلترا . غير أن هجوم الهولانديين واخفاقهم في بروكسل جعل من القضية البلجيكية قضية دبلوماسية ، لأن الملك ، أمام الصعوبات ، القى ببناء ناشد فيه اوروبا المساعدة : وكان قصر روسيا حائقاً غاضباً مغتاظاً من الثورة البلجيكية فجند جيوشه في بولونيا لاطلاقهم في بلجيكا . ومن جهة ثانية ، كان الزعماء السياسيون يخشون من عدم القدرة على مقاومة الهجوم الملكي ، فاستنجدوا بفرنسا ، وارسل جندويين بالحال إلى باريس ، فرفض لوي - فيليب التدخل ولكنه صرح بأنه لا يقبل بتدخل اوريبي لصالح هولنده ، واقترح على انكلترا مفاوضة دولية لحل المشكلة ، شريطة ألا يفرض على البلجيكيين حل لا يريدونه . وهكذا نرى في آن واحد ، من جهة ، الحكومة الموقته تعلن الاستقلال في ٤ تشرين الأول ؛ ومن جهة ثانية ، فرنسا وانكلترا تدعوان الدول الأخرى ، في ٣ تشرين الأول ، إلى مؤتمر سفراء ينعقد في لندن لتسوية المشكلة الدبلوماسية . وقد انعقد هذا المؤتمر في ٤ تشرين الثاني ، وقرر تعليق السلاح وانسحاب الجيوش ، وهذا يعني ، في الواقع الاعتراف بوجود الدولة الجديدة .

وأفاد البلجيكيون من الخوف الذي تملك العالم من امكان خروج حرب عامة من المشكلة ؛ ومن رغبة فرنسا في تفتيت مملكة البلاد المنخفضة التي نظمت ضدها عام ١٨١٥ ؛ ومن انفجار الثورة في فاريسوفيا في ٢٩ تشرين الثاني وتوقف كل حركة ممكنة للجيوش الروسية ؛ ومن انتخابات

انكلترا ، في ١٥ تشرين الثاني ، التي أعطت السلطة إلى حزب الهويغ فشكل وزارة جديدة ، في ١٩ تشرين الثاني ، عوضاً عن وزارة ويلينغتون . وهذه الحوادث المختلفة توضح القرار الذي اتخذته المؤتمر الدولي في ٢٠ تشرين الثاني معترفاً باخفاق عملية الالتحام التي حاولتها أوربة في عام ١٨١٥ : « إن المؤتمر مستعد للاعتراف باستقلال بلجيكا القادم ولكن بادخاله بينود المعاهدات ، ومصالح الدول الأخرى وسيادتها والحفاظ على التوازن الاوربي » . وأخيراً احتفظ المؤتمر بحقوق غليوم الأول والكونفدراسيون الجرمني على اللوكسمبورغ ، وهي حقوق لا يمكن أن يؤثر عليها بشيء . واعترفت الدول ، كما نرى بإنشاء الدولة الجديدة ، ولكنها أكدت ارادتها بأن تفرض عليها سلطة الشروط . وهكذا فإن بلجيكا الجديدة لن تكون حرة كما تريد .

الشروط الدولية - نرى عملاً مزدوجاً متوازياً معاً : فمن جهة ، الكونغرس الذي ينظم دولته ، دون أن يهتم بالدول ؛ ومن جهة أخرى ، المؤتمر الذي يناقش فيه السفراء ، في نزاع شديد ، تنظيم الدولة الجديدة : تنافس من جهة ، بين فرنسا وانكلترا ضد دول الشرق : بروسيا والنمسا وروسيا ؛ ومن جهة أخرى أيضاً ، يجب أن نقول ، تنافس بين فرنسا وانكلترا يسمح لمارستون بأن يساوم تاليران والسفراء الآخرين على أن الدول ستصنع نظام بلجيكا في الحدود التي يستطيع فيها صيانة الدبلوماسية العامة ، والمصالح الدولية ، وخاصة مصالح انكلترا . ومن غير المفيد أن نعرض هذا النزاع الدبلوماسي الذي يخرج عن موضوعنا ؛ والنتيجة التي حصل عليها هي بروتوكولا ٢٠ و ٢٧ كانون الثاني ١٨٣١ اللذان يعرفان « أسس الانفصال » بين بلجيكا والبلاد المنخفضة .

وستتمتع الدولة الجديدة بوضع دولي جديد ليس له من مثيل الا نموذج آخر في ذلك العصر ، وهو وضع سويسرا : الحياد الدائم و ضمان الدول كافة . أما أرض هذه الدولة فان الدول لم تعترف بها كما عرفها البلجيكيون أنفسهم ، لأنها تركت الفلاندر الزيلاندية ، أي أفواه الايسكو ، للأقاليم المتحدة ، أي هولانده التي كانت تملكها قبل ١٧٩٠ . ومن جهة أخرى ، فصلت أيضاً اللوكسمبورغ عن بلجيكا ، باعتبارها تابعة لأمرأه ناستو ، أي إلى ملك هولانده وإلى الكونفدراسيون الجرمانى . وقسم الدين بين هولانده وبلجيكا بنسبة السكان . وأخيراً عين المؤتمر بنفسه العاهل الذي سيحكم البلجيكيين .

وأثارت شروط ٢٠ و ٢٧ كانون الثاني مباشرة الخلاف بين مؤتمر السفراء والكونغرس : واحتجت الحكومة البلجيكية بذكره في ٣٠ كانون الثاني على التحفظات التي أبداهها مؤتمر السفراء للدولة الجديدة . وصرحت في أول شباط ، في بلاغ « بأنها لن تتنازل في أي حال لصالح الحكومات الأجنبية عن السيادة التي خولها الشعب البلجيكي إياها . ولن تخضع مطلقاً لقرار يمكن أن يقضي على سلامة البلاد ويشوه التمثيل القومي ، وستطالب الدول دوماً بتطبيق مبدأ عدم التدخل » . وهكذا عاكس الكونغرس مبادئ الحق الاوربي مبدأ السيادة القومية للشعب البلجيكي وحق قوميته التي أرادت الدول أن تضيق أرضها .

وفي مشكلة اللوكسمبورغ و مشكلة الدين دعمت الحكومة الفرنسية البلجيكيين ؛ وقد أكد ذلك الجنرال سياستيانى وزير الشؤون الخارجية الفرنسى في رسالة قرئت في الكونغرس في أول شباط بقوله : إن فرنسا لن تصادق في الوقت الحاضر على بروتوكولي ٢٠ و ٢٧ كانون الثاني . ويبدو أن تاليران لم يتمسك بالتعليقات التي أرسلت اليه في هذا

المعنى . وظن الكونغرس أنه على حق في اعتماده على مساندة فرنسا ؛
وفعلًا جاءت تشجيعات من الأحزاب الليبرالية في فرنسا ، من حزب
الحركة ومن الجمهوريين . وأعتقد ، من جهة ثانية ، أنه في حالة تمكنه
من أن يفرض على فرنسا التزاماً في دعم بلجيكا والدفاع عنها ، وليجعل
من ذلك ضرورة لها انتخب ، في ٣ شباط ، الدوق دونومور بن الملك
لوي فيليب ، ملكاً . وعندما علم الملك الأب بالقضية أجاب البلجيكيين
بالرفض ، في ٢ كانون الثاني ، وأكد سياستيا في هذا الرفض برسالة تليت
في الكونغرس في ١٣ كانون الثاني وأراد مؤتمر السفراء أن يوقف
الترشيح فقرر ، في أول شباط ، بأنه لن يعترف بأمر من الأسر الحاكمة
في الدول المشتركة في المؤتمر ملكاً للبلجيكيين . ولكن الكونغرس
البلجيكي تجاوز هذا التأكيد ، اثر التطمينات التي تلقاها جندوبين من
أحزاب اليسار الفرنسي ، والتشجيعات التي أعطاهها وزير فرنسا بريسون
إلى الأحزاب البلجيكية برغبته في العمل على اخفاق ترشيح البونابارتي
الدوق دولوشتانبرغ . ولهذا السبب انتخب الدوق دونومور ملكاً لعرش
بلجيكا لاجبار فرنسا على أن تأخذ بيدها مهمة الدفاع عن المملكة
البلجيكية . ولكن لوي - فيليب رفض مباشرة التاج لابنه وأربك
رفضه البلجيكيين . وقرروا أخيراً انتخاب الكونت سورليه دوشوكيه
وصياً على العرش في ٢٤ شباط ، ريثما يتدبرون أمرهم ويبحثون عن
عاهل لهم .

استاءت الدول من هذا القرار ، الذي اتخذته البلجيكيون ، ووقفت
موقفاً مهدداً ؛ وفي ١٩ شباط ، أكد مؤتمر السفراء إلحاق بلجيكا بارادة
الدول بقوله : « لكل أمة حقوق خاصة ، ولكن أوربة لها حقها أيضاً ؛
وقد خولها النظام الاجتماعي هذا الحق ، وان الحوادث ، التي تولد دولة

جديدة ، لا تخولها الحق في إفساد نظام عام تدخل فيه ، كما ان التغييرات الطارئة على دولة قديمة لا تخولها الاعتقاد بأنها في حل من تعهداتها السابقة . ويقول مؤتمر السفراء : إن بروتوكولات لندن « أساسية وغير قابلة للنقض » . وأضاف المؤتمر تهديداً جديداً : فقد اعترف للدول الأخرى باستعمال حقوقها بأي تدبير تراه مفيداً ؛ وبتعبير آخر ، انه يقبل بأن يستخدم الكونفدراسيون الجرما في القوة لاثبات حقوقه في اللوكسمبورغ . وصرح أخيراً بأنه لن يقبل بأن يقوم البلجيكيون بأي مشروع كان ضد الأراضي الهولندية .

رد الفعل البلجيكي . - كان رد فعل البلجيكيين ضد هذا القرار ، الذي اتخذته المؤتمر ، شديداً جداً . وحرضت الجرائد الرأي ، فقامت المظاهرات في كل المدن البلجيكية . وطالب الديموقراطيون جنديين ودوبوتر بحرب هولندا ، والاتحاد مع الثورين الفرنسيين ، والاتفاق مع ثورة بولونيا وثورات ايطاليا . وانشئت رابطة قومية في ٢٣ آذار ألقت بياناً في ٢٧ منه جاء فيه : « بزعم يفرضه الأجنبي أو يدل عليه فقط ، لن يكون استقلالنا إلا وهماً ، وثورتنا إلا وقتاً ودماً مهدورين ، لنكن بلجيكيين ولننه ثورتنا كما بدأناها بأنفسنا ! » . وأرسل الوصي ، في ١٠ آذار ، نداءً إلى اللوكسمبورغيين : « لقد بدأنا ثورتنا بالرغم من معاهدات ١٨١٥ ، وستشور رغم بروتوكولات لندن ! ... إن اخوتكم لن يتخلوا عنكم أبداً ! » . واعتبر المؤتمر بيان سورليه دوشوكيه اثاراً ، وتفوه فاليران وبالمستون . لدى الرسول البلجيكي بكلمات قاسية جداً . وهكذا قوت معارضة أوربة للارادة البلجيكية العاطفة القومية والحساسية الوطنية . ولسوء الحظ لم يستطع البلجيكيون الحفاظ على هذا الموقف حتى النهاية . وفي فرنسا ، أبعد حزب الحركة عن السلطة وأصبح كازيمير - بيريه

رئيساً لمجلس الوزراء في ١٣ آذار ، وكان في السياسة الخارجية ، على وفاق وثيق مع انكلترا ، ولذا لم يكن للبلجيكيين أمل بفصل سياسة فرنسا عن سياسة انكلترا . وفي بلجيكا نفسها ، تشكلت ، في ٢٨ آذار ، وزارة جديدة برئاسة دولوبو . وكان هذا الرئيس ، في الأصل ، محباً للحرب وشارك في حماس البلجيكيين الوطني ؛ وقد قال في ٧ نيسان : « الحرب وشيكة الوقوع ولا يمكن اجتنابها ؛ وأقول أكثر ، لقد أصبحت ضرورية . يجب علينا أن ندافع عن اللوكسمبورغ ، انها قضية شرف ، . ولكنه قدر تدريجياً الوضع الدولي ، وأدرك أيضاً الضرورة الداخلية في وضع حد للقوضى ، ووجود ملك لتوجيه الدولة ؛ وتطور بتأثير الواقع . وفي غضون ذلك ، اتفقت فرنسا وانكلترا على المرشح لعرش بلجيكا وهو : الأمير ليؤبولد دوساكس - كوبورغ . وقد اقترح على هذا ، قبل ذلك ، عرش اليونان ، وقبل لوبر أخيراً به . وفي النصف الثاني من شهر نيسان أرسل وفداً للاتصال بالأمير . وأثارت هذه القضية أيضاً صعوبات كثيرة ، لأن الجانبين غير متساحين . وخلال شهرين تعاظم الحماس في بلجيكا ؛ وانقلبت المظاهرات إلى ثورة ؛ وتظاهر الجمهور حول قصر البرلمان . ومن جهة ثانية عيل صبر الحلفاء ؛ وفي ١٠ أيار أرسلوا انذاراً مع تهديد بالحصار الاقتصادي واحتلال اللوكسمبورغ . وأخيراً استحصل لوبو من الكونغرس على السماح بالمفاوضة ، وفي ٤ حزيران ١٨٣١ ، انتخب الكونغرس ليؤبولد ملكاً للبلجيكيين . وسوي الوضع بمعاهدة الثاني عشرة مادة في ٢٦ حزيران ١٨٣١ ، التي أدخلت بعض التغييرات على أسس الانفصال في ٢٠ و ٢٧ كانون الثاني ؛ ونظم الدين بحسب أصل القروض لا بحسب الرجوع إلى رقم السكان ؛ أما بشأن اللوكسمبورغ فقد حوفظ على « الوضع الراهن ، الحالي (أي الاندماج

في الدولة البلجيكية) بانتظار الاتفاق مع دوق اللوكسمبورغ الأكبر ، أي ملك هولندا بوساطة الدول ؛ وأن تكون الملاحة حرة على نهر الايسكو ، وأخيراً يمكن للبلجيكيين أن يتفاوضوا مع هولاندة بمبادلة عدد من المناطق البلجيكية المغلقة فيما وراء الحدود على الأرض الهولاندية مقابل الليمبورغ .

وأثارت معاهدة الثماني عشرة مادة في البدء عاصفة في بروكسل ومناقشات حارة . وأخيراً انتهى الكونغرس بالموافقة على المعاهدة بـ ١٢٦ صوتاً ضد ٧٠ ، في ٩ تموز ١٨٣١ . ووصل ليوبولد إلى بلجيكا في ١٦ تموز ١٨٣١ ونصب ملكاً على البلجيكيين .

هذه هي بلجيكا وقد أصبح لها نظام داخلي ، ودستور ، وملك ، ووضعها الدولي وأرضها وحيادها الدولي . ولقد أقيم هذا الوضع الدولي على نقيض الإرادة القومية لحاجات الدبلوماسية الدولية .

موافقة هولاندة . - احتج ملك هولاندة رسمياً على معاهدة الثماني عشرة مادة في ١٢ تموز ، وفجأة ، في ٢ آب ، خرق الهدنة ، وفي ٣ منه ، اجتازت الجيوش الهولاندية الحدود . أما الجيش البلجيكي فقد ارتجل في الأصل منذ اعلان الاستقلال ، وكان ضعيفاً للغاية ، بالرغم من تبجح البلجيكيين الذين يتصورون بأن القيام جماهيرياً يكفي لاحتراز النصر ، ويرون في الجيش الهولاندي خصماً قليل الخطر جداً لأن الشعب كان كافياً لابعاده في أيام بروكسل في آخر ايلول . وأحدث الهجوم الهولاندي انهياراً عسكرياً كاملاً . فقد اندحر الجيشان البلجيكيان الأساسيان ثم انكسرا ، أحدهما في ٨ آب في هاستيلت ، والآخر في ١٢ منه في لوفن ، ووصل الفرسان الهولنديون على بعد ثلاث فراسخ من بروكسل . وصحب هذا الانهيار العسكري انهيار سياسي : القى

الملك ، من تلقاء نفسه ، نداء يستجده به فرنسا وانكلترا ، ولكن الوزارة أوقفت هذا النداء وناقشت . وحتى ٨ منه ، عارضت دخول كل جيش أجنبي للبلاد . غير أن عجز الحكومة عن دعم النزاع جعل الملك يأخذ بيده توجيه الحكم . وأنقذت بلجيكا بتدخل فرنسا : فقد دخل الجنرال جيرار بلجيكا في ٩ آب ، وانسحب الهولنديون أمام الجيش الفرنسي وعبروا الحدود في ٢٠ منه باستثناء قلعة آنفرس حيث ظلوا محبرين على القتال .

وهذا الاخفاق الذي مني به البلجيكيون كان تأثيره الدبلوماسي فظيلاً : فقد أثار حسد الانكليز وقلقهم أمام عمل فرنسا العسكري في بلجيكا . واعترف بالمرستون بالحال بأن البلجيكيين غير قادرين على الدفاع بأنفسهم ، ولذلك يجب أن يتصور بان تؤلف هولاندة حاجزاً ثانياً ضد كل توسع فرنسي . وافقد هذا الاخفاق البلجيكيين اعتبارهم ، ولفظ الانكليز كلمات احتقار بشأنهم ، ولم يكن ثاليران ليعتقد بإمكان بلجيكا واقتراح تقسيمها . وانتصرت بروسيا والنمسا وروسيا ، ولم يبق إلا لوي-فيليب يدافع عن البلجيكيين . واستطاع بتدخلاته أن يخفف شروط الدول . وفي ١٥ تشرين الأول ، قررت الدول أن تبدل معاهدة الثامن عشرة مادة بمعاهدة الأربع وعشرين مادة التي فاقمت خطر الاولى : لان هذه المعاهدة لم تقدم ، كأساس للوساطة ، بل كقرار من أوربة . وأعطيت المناطق المغلقة في الشمال ، واليمبورغ على ضفة نهر الموز اليمنى ، وميسترينجت وأفواه الايسكو إلى هولاندة دون شرط . وقسمت اللوكسمبورغ وأعطيت المدينة وثلاث الدوقية إلى ملك هولاندة وظلاً جزءاً من الكونفدراسيون الجرمانى . ولم يأخذ البلجيكيون إلا أقسام آرلون وبويون : وحدد الدين بعقد على أن يدفعه البلجيكيون للهولانديين .

أثارت معاهدة الـ ٢٤ مادة الحزن في بلجيكا . وفكر ليؤبولد بالتنازل عن العرش ، وكان النقاش في المعاهدة شاقاً للغاية في الكونغرس : وأخيراً قرر المجلس التصديق عليها ، في الأول والثالث من تشرين الثاني وكانت دول الشرق غاضبة أيضاً . فقد اعتبرت هذه المعاهدة مشينة وأجلت تصديقها . وللفصل في الأمر صادقت فرنسا وانكلترا على المعاهدة في ٣١ كانون الثاني ١٨٣٢ ، ورفض الهولنديون توقيعها ، وابعاد أي وساطة ، وكانوا غير متساهلين حتى أنهم اتعبوا وأغاظوا حماهم الخاصين . وانتهت بروسيا والنمسا بتصديق المعاهدة في ١٨ نيسان ، والروسيا في ٤ أيار .

وألحت فرنسا عندئذ أن توضع المعاهدة موضع التنفيذ رغم رفض الهولنديين ، وانتهت باقناع بالمرستون . وفي ٢٢ تشرين الثاني ١٨٣٢ أرسلت إلى الحكومتين مذكرة تخطرهما بتنفيذ المعاهدة ، ولا يطلب البلجيكيون أفضل من ذلك ، تحت طائلة الحصار الاقتصادي والتدخل لاجبار الدولة المقاومة على قبول تنفيذ المعاهدة . وظل ملك هولاندة مصراً على رفضه ، فحكم عليه بالحصار ابتداءً من ٥ تشرين الثاني ودخلت الجيوش الفرنسية بلجيكا في ١٥ تشرين الثاني ، وحاصرت انفرس واستسلمت هذه في ٢٣ كانون الأول ، وضائق التجارة الهولندية ذرعاً بالحصار فقرر الملك عندئذ أن يوقع في ٢١ أيار ١٨٣٣ اتفاقاً ، دون الاعتراف بالمعاهدة ، وتعهد فيه ألا يهاجم الأراضي البلجيكية ، وأن يترك كامل الحرية للملاحة على نهر الايسكو . وهماً عناد هولاندة للبلجيكيين فوائد واقعية : فقد استعادت مساندة لأوربة والحفاظ على الوضع الراهن ، أي دمج اللوكسمبورغ والليمبورغ فعلاً بانتظار تنفيذ المعاهدة حقاً . وفكر البلجيكيون بأن حالة الواقع هذه مع التمديد تنتهي بأن تصبح حالة حق ، وأن اللوكسمبورغ

والليمبورغ ستكونان تابعتين لها في الواقع إلى الأبد . وظل نواب
الاقليمين ينتخبون في المجلسين ، وبالتدريج زال الحزب الاورنجي في بلجيكا .
ولكن الهولانديين وجدوا أخيراً أن العبء ثقيل ، لأن الجيش
ظل مجنداً ، وفي هذا ما يثير مشاكل مالية مزعجة . وفي ١٨٣٨ حدد
المجلس العام باطراح الموازنة بعد أن ثقلت بالنفقات العسكرية . لذا
قرر الملك أن يعلن فجأة ، في ١١ أيار ١٨٣٨ بأنه ينوي تصديق معاهدة
ال ٢٤ مادة . وقامت على اثر ذلك أزمة عنيفة في بلجيكا : لقد هز
انفجار الوطنية البلاد وكانت عاماً . وأنت من كل جانب عرائض
واحتجاجات من الكاثوليكين يدعمهم الكاثوليكيون في فرنسا والأحزاب الليبرالية،
ومن الديوقراطيين أيضاً يدعمهم اليسار الفرنسي . وبدأت الحكومة للبلجيكيين
فترة جداً في مقاومتها لهولاندة . وفرضت عليها تدابير عسكرية، وأجاب
الكونغرس برسالة حربية على خطاب العرش الذي يعد بالدفاع عن
حقوق البلجيكيين « بثبات وشجاعة » واعتبر أن هذا الكلام ليس تعهداً
كافياً . وأتى فيلكس دوميرود وصهره مونتالامير من بوهيميا بضابط
بولوني من ضباط الثورة ليكون قائداً عاماً للبلجيكيين بعد أن هربوا
وأوصلوه إلى بلجيكا ، على مرأى من استياء القصر ومترونيخ بالطبع .
وكان يخشى من أن تنساق الحكومة الملكية البلجيكية بحركة ثورية
وطنية .

ولكن موقف أوربة لم يترك أملاً للبلجيكيين : لقد كانت انكلترا
لامبالية بصورة مطلقة بهذا الاحتجاج . وأعلنت في ٢٤ أيار بأنه يتوجب
على بلجيكا أن تتخلى عن كل أمل بتغيير المعاهدة ؛ ثم أعلنت الدول بأنها
لا تدعم وجهة النظر البلجيكية بضرورة إعادة النظر في المعاهدة . وقام
ليوبولد عبثاً بمساع لدى الملكة فيكتوريا في شهر حزيران وفي شهر ايلول

وكان لوي - فيليب يجابه صعوبات داخلية ، نضال الائتلاف ضد وزارة موليه ، فلم يشأ أن يلقي بنفسه في صعوبات دبلوماسية . ورأى البلجيكيون أن فرنسا وانكلترا قد تخلتا عنهم وهما الوحيدتان اللتان تستطيعان دعمهم . وفي كانون الثاني ١٨٣٩ عرضت الحكومة البلجيكية أن تشتري الليمبورغ من الهولانديين ، فرفض الهولنديون واضطر ليؤبولد أن يقدم للمجلسين مشروعاً بخوله توقيع المعاهدة . وكان النقاش مؤثراً ودام خمسة عشر يوماً . وأخيراً وافق الكونغرس ، مجلس النواب بـ ٥٨ صوتاً ضد ٤٢ ، ومجلس الشيوخ بـ ٣١ صوتاً ضد ١٤ ، في ١٨ و ٢١ آذار ١٨٣٩ .

ووقع النظام النهائي لبلجيكا بمعاهدة ١٩ نيسان ١٨٣٩ التي نسخت من جديد معاهدة الـ ٢٤ مادة ، مع اعادة نظر واحدة ، وذلك بانقاص رقم دين بلجيكا لهولاندة بخمسة ملايين .

وهكذا كررت التجربة البلجيكية التجربة الاغريقية . وكوفح الحل القومي الصادر عن ارادة الشعب وأجبر على التسوية التي فرضتها دبلوماسية الدول . وفي هذا الخلاف ، بين السيادة القومية والدبلوماسية ، كانت المواقع في القضية البلجيكية بمثابة لمواقع القضية الاغريقية . واصطدمت الدولة الجديدة بعداء بلاطات الشرق الثلاثة ، وكان موقف فرنسا حاسماً في القضية البلجيكية كما كان في القضية الاغريقية ، ولم تتصور انكلترا القضية في كلا الحالين الا من وجهة نظر أنانية .

لقد كانت التجربة البلجيكية ذات أهمية كبرى في قضية القوميات من وجهة النظر التاريخية والعقائدية . وكانت تشكل الدولة البلجيكية نصراً للمفهوم الفرنسي في القومية . فمنذ الأصل ، وفي كل المظاهرات نجد فكرة رضى الشعوب بتشكيل الدولة ، وفكرة

العقد بين المواطنين الذي هو في أساس الدولة الجديدة والقومية الجديدة .
وانا نتساءل بعد هذا مم تتألف هذه القومية البلجيكية . ان
القضية العرقية لا توضع هنا لانه لا يوجد عرق بلجيكي ، لأن
البلجيكيين لا يتميزون فيما بينهم في أي مكان من الوجهة العرقية
عن الفرنسيين والهولانديين ، ولا توجد وحدة لغة : لأن نصف بلجيكا
يتكلم اللغة الفالونية أي الفرنسية . والنصف الآخر يتكلم الفلاماندية .
والتقاليد التاريخية ضعيفة ، وقد اضطر المؤرخون البلجيكيون ، الذين
يعتبرون عن سابقات المملكة الجديدة ، أن يصعدوا إلى الدولة البورغوندية ،
دولة فيليب الطيب وشارل الجسور في القرن الخامس عشر ، التي كانت
موقته جداً . ان القومية البلجيكية تبدو لنا بصورة أساسية جاذبة
ارادة تألفت من عناصر فكرية صرفاً ، وهذا ما جعل واقعي العصر
لا يؤمنون بهذه القومية : ولندكر أن تالليوان لم يعتقد بأن الأمة البلجيكية يمكن
أن تدوم ، بل ستنهار يوماً ما وعندئذ اما أن تتلقفها فرنسا بأكملها ،
أو ان يلجأ الى تقسيمها . وقال ذات يوم إلى الأميرة دو ليفين :
«البلجيكيون لا يدومون ، لاحظي ، انهم ليسوا أمة : ان ماثي بروتوكول
لا تصنع أمة . وبلجيكا هذه لن تكون بلداً أبداً ، ولن تدوم ، :
وكانت وجهة النظر هذه وجهة نظر دبلوماسيين آخرين كثيرين . وقال
بريسون ، القائم بأعمال فرنسا في بروكسل أيضاً : « لم تكن بلجيكا
في الماضي أمة مستقلة . وكان مصيرها ازعاج الغالب أو التكيف معه .
أما دليلنا على أن القومية البلجيكية كانت موجودة فهو أنها
دامت رغم تنبؤات الدبلوماسيين ، وما وسعها إلا أن أكدت نفسها
طوال القرن التاسع عشر . وقد قوت الحياة المشتركة هذه القومية التي
انبثقت فجأة عام ١٨٣٠ .

الفصل الثالث

الحركة القومية الإيطالية

كانت القومية الإيطالية قضية من القضايا الهامة التي شغلت أوربة طوال القرن التاسع عشر . وظلت هذه القضية من ١٨٣٠ إلى ١٨٦٠ مدرجة على جدول أعمال الدبلوماسية الأوربية ، لأنها لم تكن قضية إيطالية فعسب ، ولأن مصير إيطاليا لم يكن متعلقاً بها وحدها .

كانت القضية الإيطالية ، من وجهة النظر التاريخية والسياسية ، قضية « تعبير جغرافي » عند حد قول مترینخ . ولكن الواقع يؤيد فعلاً وجود قومية إيطالية حقيقية ضمن إطار جغرافي إيطالي واضح المعالم .

يلاحظ في البدء أن إيطاليا تضم عناصر أجنبية ، وأن هنالك اختلافات عميقة في النفسية والسلوك بين النابوليين والصقليين . والرومانيين في شبه الجزيرة ، أو بين الناس في الشمال ، مثل الميلانيين والبيموننتيين . ولكن هذه الاختلافات اقليمية وليست اختلافات عرقية .

ومن جهة أخرى ، يوجد في إيطاليا جنس إيطالي تكون تاريخياً وجغرافياً بتأثير التقاليد والحركات التاريخية والاقتصادية ، وبانصهار المجلوبات الأجنبية في السكان الأصليين ، وتشكيل شعب واحد عرف باسم الشعب الإيطالي . ويوجد في إيطاليا أيضاً ، وهذا نادر تقريباً ، وحدة دين ووحدة لغة . فمن حيث الدين لم تعرف إيطاليا الانحرافات الهرطقية ، بل ظلت كاثوليكية

من أقصاها لأقصاها . كذلك لا يوجد في إيطاليا آداب إقليمية تدل على اختلاف روحي بين الإيطاليين . وأخيراً يوجد في إيطاليا تقاليد إيطالية تتغنى بها إيطاليا كلها . وهذه التقاليد ترجع إلى الإمبراطورية الرومانية وعز روما القديم ؛ وإلى روما الحبرية البابوية في العصر الوسيط . وستكون عظمة هذا المجد الإيطالي الماضي مرجعاً وحجة للقوميين الإيطاليين طوال القرن التاسع عشر . وهذا المجد يفخر به الإيطاليون جميعاً دون استثناء ، لا فرق في ذلك بين شمال إيطاليا أو جنوبها .

وفي الحقيقة ، يوجد في إيطاليا قومية إيطالية حقاً لأن مقومات القومية متوافرة فيها ، ولكن ما يعوز إيطاليا ، وسيعوزها زمناً طويلاً ، إنما هو الإرادة والقوة لإدخال هذه الشخصية القومية في إطار سياسي موحد . إن ما يوضع أمام إيطاليا ، ليس اختراع القومية الإيطالية أو اكتشافها بل تحقيق هذه القومية الإيطالية ، الموجودة فعلاً ، في حين الواقع السياسي .

١ - أصول الحركة القومية وأسطارها الأولى

تتماز القومية الإيطالية في أننا لا نجد في إيطاليا ، قبل عام ١٨٣٠ ، حركة وحدة إيطالية ، وما ذلك إلا لأن قوى التماسك وقوى التفتت كانت في حالة صراع ، لا سيما وأن الظروف السياسية والاجتماعية كانت تحمل لصالح التجزئة . أما بعد ١٨٣٠ فقد انقلبت العلاقة بين هذه القوى .

لقد بسط التقسيم الذي وضعه مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ التقسيمات القديمة وأقام سبع دول مكانها وهي :

١ - مملكة الصقليتين ونفوسها سبعة ملايين ونصف .

- ٢ - المملكة اليموننية - الساردية وتتألف من أربعة ملايين نسمة .
- ٣ - المملكة اللومباردية - البندقية ونفوسها أربع ملايين وربع .
- ٤ - الدولة الحبرية (دولة البابا) ونفوسها مليونان ونصف .
- ٥ - الدول الأخرى وهي الدوقيات الثلاث : توسكانا الكبرى .
مودينا ، بارما .

ووجدت أيضاً ، بعد ١٨١٥ ، حالات مؤقتة عقدت هذا التقسيم السباعي : فمن ذلك ان بارما وبليزانس وغواستلا اعطيت إلى الامبراطورة ماري - لويز مدى الحياة . وبانتظار وفاتها كان على آل بوربون في بارما ، وهم المالكون الشرعيون لهذه الدوقيات ، أن يقيموا في امارة لوقا التي يجب أن تعود فيها بعد إلى توسكانا . وماتت ماري - لويز في ١٨٤٧ ، وعندئذ أقيم آل بوربون في دولهم ، وعادت امارة لوقا إلى توسكانا . وكذلك حافظت أم فرنسوا مودينا على ملكيتها الشخصية في دوقية ماسا - كرايه الصغرى حتى عام ١٨٢٩ .

وإلى جانب هذه التعقيدات تجدر الإشارة إلى أن تقسيم إيطاليا السياسي كان ، في بعض النقاط ، مخالفاً للعلاقات الاقتصادية : فمن ذلك ان رومانيو كانت تنظر ، من الوجهة الاقتصادية ، نحو سهل البوا أكثر مما كانت تتطلع نحو روما ، مع أنها كانت ترتبط بها سياسياً . وان مناطق الآبروز وأمارتي بينيفن وسبوليت كانت جزءاً من نابولي ، ولكنها كانت تتبعه صوب الدول الرومانية لا صوب نابولي . وهذه الصلات الاقتصادية ، التي تقيم روابط خارجة عن الحدود ولا تأتلف مع التبعية السياسية ، تعتبر حوادث هامة ، من وجهة النظر القومية ، وستكون في المستقبل عناصر تفتت لهذه الدول المحلية .

عقبات الحركة القومية . - لقد كانت العقبات التي تقف في طريق

الحركة القومية كبيرة ، لان قوى التماسك بين الأجزاء الإيطالية كانت غير كافية لتوليد حياة عامة ومشتركة . ولنوضح ذلك :

أولا ، لم يكن في إيطاليا حياة اقتصادية عامة . والحياة الاقتصادية في إيطاليا تعتمد في أساسها على الزراعة والحياة الريفية التي تتصف بالمحلية والتجزئة ، لأن كل بلد فيها يؤلف موطناً منعزلاً ، منفصلاً عن المواطن الأخرى بحماية جمركية ومحرمات . ولم يكن في إيطاليا نقد وموازين ومكايل عامة في جميع الدول . وكان التشريع يعيق عمل المصارف في كل مكان . ولم تكن على هذا النحو صناعة ، عدا بعض صناعات غزل الحرير في لومبارديا وبيموننت . ولا توجد مشاريع تجارية خارجاً عن جنوة وليفورنه وميلانو . كذلك لا توجد سلع للتصدير باستثناء الحرير الخام في الشمال ، وزيت الزيتون في جنوة ولوقا ونابولي ، وكبريت صقلية . وأخيراً لم يكن في إيطاليا أي جهاز اقتصادي حديث . وهكذا فإن الحياة الاقتصادية في إيطاليا لم تولد بطبيعتها علاقات وتضامن مصالح ، ولم توفر منافذ لنشاط المثقفين أو العمال .

أما الظروف الاجتماعية فكان من طبيعتها ، كالحياة الاقتصادية ، أن تعزل الناس أكثر بما تقربهم من بعضهم . لقد كانت كتلة السكان فلاحين ، والزراعة في حالة متأخرة . وكانت بعض مناطق السهول الشاطئية عرضة للبرداء (الملاريا) وخلوا من السكان أو مأهولة قليلاً . ومنذ قرون والجبال تعرى من الغابات ، والأرض تتراجع بتأثير الجت . كذلك لا توجد زراعة عقلانية ، ومردود الحنطة ضئيل ، وزراعة الكرمة وصناعة الخمر تحافظان على طرق بدائية للغاية ، ومازال المحراث القديم مستخدماً في أعمال الفلاحة . ومن الممكن القول ان المناطق الزراعية الغنية والحديثة قليلة ، كالمراعي الخضراء وحقول الأرز في لومبارديا وبيموننت ،

والزراعات الصغيرة في وادي نهر الآرنو ؛ وكروم الزيتون وبساتين البرتقال هنا وهناك . ولم تكن الملكيات الصغيرة لتكفي إعاشة مالكيها ، وكان الفلاحون من مالكيين ومزارعين يعيشون عموماً بشكل ملائم رتيب ، أما الكتلة الكبرى ، وتتألف من العمال الزراعيين ، فكانت بائسة شقية بالرغم مما تلقاه من معونة وإسعاف ونجدة من جمعيات الإحسان الكنسية .

أما عمال الصناعة فكانوا يعملون في الصناعات المنزلية أو الحرفية ، وكانت ظروف الحياة سهلة بالنسبة إلى هؤلاء العمال نظراً لطيب المناخ وقلة حاجات السكان ومتطلباتهم . غير أن ما يميز هؤلاء العمال هو أنهم لم يشعروا بشيء من الوعي الطبقي ، ولم تصل إليهم السياسة إلا آجلاً بتأثير جمعية « إيطاليا الفتاة » بعد ١٨٣٠ .

ولم يكن هنالك أي اهتمام بالشعب ، ولم توضع المشكلة الاجتماعية أمام الأحرار ، حتى ان مذاهب الأحرار ، التي تتضمن الحرية الشاملة في الحياة الاقتصادية ، لم تتضمن أي اهتمام من هذا القبيل ، ولم تلعب كتل الشعب أي دور سياسي ، باستثناء بعض الحالات التي تثير فيها شدة البؤس بعض الثورات العنيفة .

وإلى جانب هذه الكتلة الشعبية وجدت طبقة الإكليروس ، وكانت عديدة وتتمتع بنفوذ عظيم على الشعب . وكان الكهان من أصل شعبي . أما الإدارة الكنسية فكان رجالها من الطبقات العليا في المجتمع . وهذا الأصل الشعبي للإكليروس يوضح لنا كيف أن كثيراً من الكهان اشتروا في الحركات الثورية وخاصة في لومبارديا وصقلية وسيكون من بينهم وطنيون وأحرار ، على خلاف الإكليروس الأعلى الذي يدل موقفه على سوء الاستعمال والامتيازات التي تربطه بالنظام القديم والدولة الحبرية وسياسة الكرسي

الأقدس التي اتجهت في اتجاه رجعي استبدادي كامل . وكان هذا الإكليروس يمارس نفوذه ضد الأفكار القومية والليبرالية .

ولم يكن في إيطاليا أرستقراطية كبرى تضم الشعب والملوكيات الكبرى لا توجد إلا في كالابرو وفي صقلية . وما كان المالكون الكبار يقيمون في الأرياف حتى يكون لهم أي تأثير على الشعب .

أما احتياطي القوة في إيطاليا فيتمثل في الطبقات الوسطى التي لعبت دورها في ظل العهد الفرنسي ، وكانت منها الموظفون والضباط والمهندسون والأطباء والمفكرون . وقد تكونت هذه الطبقة في الجامعات وكان عددها عظيماً ، فقد وجد في إيطاليا آنذاك أربع وعشرون جامعة . وأكبر الجامعات جامعة بولونيا ونابولي ، ثم تورينو ، بادوا ، بافيا ، روما وغيرها . ولم يكن في هذه الجامعات حواجز اجتماعية : كان النبلاء الشبان يلتقون فيها بالشبان البورجوازيين ؛ وبوجه الإجمال ، كان الأساتذة والطلاب يؤلفون شعباً حساساً مستعداً للحركة والعمل ، وكان للأساتذة تأثير قوي على طلابهم ، وكان هؤلاء وأولئك يؤلفون جهاز الحركة . وكانت جامعة بولونيا مركز الحركة الثورية عام ١٨٣١ . وسيكون أساتذة وطلاب جامعات بيضا وجنوة وبافيا من أول المتطوعين في ثورات ١٨٤٨ . وكما رأينا ، كانت الحياة الاقتصادية ضئيلة . وكان المنفذ الوحيد لهؤلاء الشبان المهن القضائية والطب ، لأن وظائف الإدارة كانت محجوزة للطبقة النبيلة . وكان الجيش مغلقاً عليهم ، لأن الرتب العسكرية كانت خاصة أيضاً بالنبلاء . والمنفذ الآخر لهم هو العمل الأدبي وخاصة الصحافة ، بيد أنهم كانوا يصطدمون بالرقابة والعقبات من كل نوع . وكانت هذه الطبقة البورجوازية ، التي تنشقت في الجامعات ، تشكو بخاصة ظروف تاريخ الحركات القومية م (٨)

الحياة السياسية والاجتماعية التي توطدت في إيطاليا بعد العهد الرجعي ،
وتشعر برارة بأنها مبعدة عن بيئتها ، وهذا ما أوجد عندها استعداداً
للمطالب الثورية .

الاعتبارات المحلية . - وهذا المجتمع الايطالي الذي يتألف من
عناصر متفرقة مبعثرة ، وتفصله الحواجز الطبقية ، كان المهم فيه الظروف
المباشرة والاعتبارات المحلية لالعموميات أو التيارات العامة . وكانت
نظام الاستبداد والفساد وإساءة الاستعمال فيه سائداً . ولا يختلف هذا النظام
من دولة لأخرى إلا من حيث الدرجة ، وليس فيه أي رقابة على تشكيل
الضرائب واستخدامها أو مسئولية سلطة ، أو أصوات استشارية من
قبل السكان عند سن القانون ، أو حق في عقد اجتماع ، أو تأسيس
جمعيات ، وحتى الجمعيات العلمية والزراعية ، أو إدارة منظمة ، إلا في
المملكة اللومباردية - البندقية ، وفي بيمونت ، على علات هذه الإدارة
التي أخنى عليها الدهر . لقد كان نظام الرقابة يحول دون أي هجوم في
المضمار السيامي . ولنشر كتاب يجب الحصول سلفاً على إذن النشر من
الرقابة ، وفي بعض بلاد إيطاليا من الإكليروس ، لأي نوع من أنواع
المؤلفات ، حتى المؤلفات الاقتصادية . ولذا كان الكتاب يكلف غالباً ،
وبحاجة الى الانتظار مدة طويلة للحصول على السماح بالنشر ، وليس بالموثوق
الحصول عليه دوماً ، وفي الغالب كان مرور الكتاب من دولة لأخرى
مستحيلاً ، ولا يوجد صحف بالمعنى الصحيح للكلمة .

وكانت نظام القضاء فاسداً بخطورة ، وكانت توسكانا وحدها في
هذه النقطة معتبرة كدولة حديثة . وكانت القوانين مختلطة جداً ولا سيما
في دول البابا ، وفي دوقية مودينا وفي بيمونت . وفي كل مكان توجد
محاكم سرية لمراقبة كل بقطة سياسية ، وفي الدعاوى السياسية يستخدم

التعذيب المادي و المعنوي . ولصرف الناس عن الحياة السياسية المحرمة
وجد جيش من الضابطة . وكانت الجاسوسية عامة في المقاهي وفي المسارح
من قبل الخدم وحتى على كرمي الاعتراف .

وبالمقابل ، كان النضال شغلا أساسياً . غير أن النضال كان نضالاً
محلياً ولم يكن عاماً . لقد كان في سبيل حرية إيطاليا أي ان فكرة
الحرية كانت قبل أي فكرة قومية . وكانت كل دولة تتناضل بنفسها
منعزلة . وزادت وسيلة النضال طابع التجزئة ، ولم يمكن توجيهه إلا
بجمعيات سرية ، لأن كل شكل من أشكال النضال كان محرماً ، وبالتالي
كان الارتباط صعباً بين المناضلين من دولة لدولة مجاورة . وبكاد التنسيق
بين هذه الحركات يكون مستحيلاً . وكان رجال هذه الجمعيات السرية
منتشرين في كل مكان ، من بورجوازيين أحرار ، ومفكرين ، وضباط
ونبلأء تأثروا بالأفكار الفرنسية ، وكان التطلع واحداً . ولكن لم تكن
هنالك حركة عامة شاملة تجمعهم . ونظراً لطبيعة النضال ضد الفساد
المحلي ، ولطبيعة جمع العناصر الثورية كان العمل يضي قبل النظرية وقبل
كل عقائدية فكرية . كانت الحركة تقتضي الثورة في الجيش ، والمؤامرات ،
والعصيان والتمرد . ولذا كان الاهتمام منصرفاً إلى البحث عن نتيجة
مباشرة أكثر من الاهتمام بالمذهب .

وكانت الحكومات تعارض هذه الحركات بحركات مماثلة تعقد وتفقت
حركة المجموع ؛ ففي نابولي عارضت الحكومة جماعة « الكاربوناري اي
الفحامين » ، بجماعة « الكالديراري أي النحاسين » . وفي الدول الحبرية
كانت الجمعيات السرية التي تقوم برد الفعل الاستبدادي الإكليركي تسمى
جمعيات « رجال الإيمان الأقدس » ، وفي اليموننت تسمى جمعيات

« الاتحاديين » . و في ايطاليا الوسطى وجد نوع من تفاهم بين حكومات الدوقيات ، بين الأمراء . لذا كانت هذه الحركات حركات منعزلة وعملية والرابط الوحيد فيما بينها هو أنها كانت فرصة لبعضها .

وظلت الحركات الثورية تعمل عملها في ١٨٢٠ و ١٨٢١ و ١٨٣١ وتثير أعمال قمع وتطهير في الجيش والموظفين ، حتى اضطر بعض الزعماء تحت هذا الضغط أن يهاجروا إلى سويسرا وانكلترا وفرنسا . وبالرغم من الإخفاق الذي مني به العمل الثوري فقد تتابعت الحركات وتلاحقت لأن مزاج الشعب الإيطالي يحب العمل السري والمؤامرة والتمرد . ومن المؤكد أن الحركة القومية لم تخرج من هذه الحركات .

٢ - ابراهيمية الإيطالية

وإلى جانب هذه الحركات الثورية قامت حركة فكرية هامة وخصبة ، وهذا يرجع إلى أن الظروف الاجتماعية والسياسية أوجدت ضائقة حرجية أمام الشبيبة الإيطالية التي تخرجت من الجامعات ولم تجد منفذاً حقيقياً لنشاطها ومن جهة أخرى ، لقد تمادى القهر السياسي في غيه وضغطه حتى شعر به من ليس لهم أي رغبة في الثورة . وفي الحقيقة إن عدم جدوى الجهد الثوري كان حجة لمن كانوا يرغبون بالخلاص منه ، واتجهت الأنظار نحو الحياة الفكرية ، وآل الأمر بالوجدان القومي إلى العمل في المضمار الروحي والعقلي والأدبي أكثر مما في العمل السياسي .

إن أفضل وأنجح حركة إيطالية في ذلك العصر كانت الحركة الابداعية (الرومانتيكية) . بدأت في إيطاليا عام ١٨١٦ ببيان للشاعر جيوفاني برشيه (١٧٨٣ - ١٨٥١) . و التف حوله عدد من الأدباء مثل الشاعر روسيني الذي تغنى بثورة نابولي عام ١٨٢٠ ، وعدد

من النبلاء الميلانيين المثقفين . وكان هؤلاء الأدباء بدافعون عن مذهبهم
يجدل ضد المدرسة الاتباعية (الكلاسيكية) في مجلة « الكونسيليانور »
التي صدرت في عام ١٨١٨ و ١٨١٩ ودخلت في نضال مع مجلة
كلاسيكية رجعية استبدادية ، تدعمها النمسا وهي « المكتبة الإيطالية » .
وكان هؤلاء الأدباء يريدون شعراً حياً ، حديثاً ، وثيق الصلة بروح الشعب
وعقائده وتطلعاته ، وأدبا أكثر مرونة وتنوعاً من الأدب الاتباعي . ومن
ميلانو انتقل الجدل إلى أقاليم إيطاليا الأخرى ، إلا أن المدرسة
الابداعية كانت في إيطاليا أقل تطرفاً ودواماً منها في سائر البلاد
الأوروبية الأخرى ، ولذا حافظت إيطاليا على ثروة طبيعية للأدب الاتباعي
هذا وتجدر الإشارة إلى صفتين أساسيتين في هذه المدرسة الابداعية
عند البحث عن بقعة الروح الإيطالية :

الاولى ، وهي البحث عن موضوعات تهم أناساً من غير المثقفين .
وهذا ما جعلها على صلة بتطلعات الشعب وعواطف الجماهير وعقائدها وأباطيلها
والعودة إلى الذكريات التاريخية وتقاليد الماضي وهذا الماضي الذي يرجع إليه
هو عصر الحريات والمنازعات ، عصر النهضة الإيطالية ، وعصر الجمهوريات
الإيطالية التي كتب سيسموندي تاريخها منذ عهد قريب .

الثانية ، وهي أن هذه المدرسة الابداعية الجديدة وضعت العاطفة
واللذة الأدبية والفنية في خدمة التربية القومية . فقد تخلى أدباء هذه
المدرسة عن الفكرة القديمة الكلاسيكية للثقافة الصورية المحضة ، كما
تخلوا أو لم يجذبوا المدارس الأوربية المعاصرة الأخرى في نظرية « الفن
للفن » . وكانت الأدب عند هؤلاء الكتاب الإبداعيين توكيداً للحرية
السياسية . وقد اشترك محررو مجلة « الكونسيليانور » في العمل
السياسي عام ١٨٢١ ، ونذكر منهم كونفالونيري ، زعيم الحركة المملانية ،

والمحرر الرئيسي للمجلة سيلفيو بيليكو وكان شاعراً وكاتباً مسرحياً .
وقد أوقف كلاهما عام ١٨٢١ وحكم عليهما في شيلبرغ . وقد كتب
سيلفيو بيليكو ، عندما أطلق سراحه عام ١٨٣٠ ، كتاباً ذاعت شهرته في
أوربة وهو « سجونى » . ونشره عام ١٨٣٣ ، وفيه يروي قصة
اعتقاله . وكان له تأثير معنوي واسع وروحي ، في إيطاليا كلها ، بالاستسلام
المسيحي الذي برهن عليه ، وببساطة قصته وظلاماته أكثر مما تضمن من
مطالب عنيفة على طريقة الثوريين قديماً . وكذلك اضطهد جيوفاني برشي
واضطر إلى الفرار والهجرة إلى انكلترا ، وعاش فيها حتى عام ١٨٢٩ ،
ومنها انطلق بأشعاره تتر عاطفة ووطنية ، واضطر روسيني أيضاً إلى الفرار .
ومع هذا فقد وجد إبداعيون غير ثوريين ، إلا أنه يمكن القول ان
التمثيل قائم بين الحركة الإبداعية والحركة الليبرالية ، وبين الإبداعية
والوطنية الإيطالية .

كان مركز هذه الحركة الإبداعية الحرة توسكانا . وفي فلورنسا
أسس صاحب مكتبة يدعى فيوسو حلقة صغيرة ، صالة مطالعة صغيرة ،
كانت بمثابة مكان لقاء وأخذ يستقبل فيها الكتاب من كل إيطاليا . ونشر
مجلة « الأنثولوجيا » (المقتطف) وعاون في هذه المجلة مشاهير كتاب
العصر مثل ترويا ، تومازو ، ليوباردى ، كاردلوتا ، ماتزيني وغيرهم . وكان
برنامج هذه المجلة تمثيل مجتمع إيطاليا وحاجاتها المعنوية الأدبية ومساعدة
إيطاليا على معرفة نفسها بنفسها وإنشاء مثل أعلى قومي . ولم تنتشر
الأنثولوجيا كثيراً ، إلا أن تأثيرها كان عظيماً : لقد تشكلت حولها
مدرسة خاصة لدراسة دانتي أكبر شاعر قومي ، ومدرسة مؤرخين أشهرهم
ترويا في نابولي ، و بالبو في تورينو ، و كابوني في فلورنسا .

وكان الكاتبان الهامان اللذان يمثلان هذه المدرسة الابداعية ، دون أن ينخرطا في السياسة ، مانتزوني وليوباردي .

مانتزوني (١٧٨٥ - ١٨٧٣) . - كان مانتزوني نبيلاً من منطقة ميلانو ولم يحمل لقبه كونت ، وهو حفيد الحقوقي بكاريا من أمه . كان في بدايته اتباعياً في أدائه وفي إلهامه ، وأخذ كثيراً من أفكار القرن الثامن عشر . بيد أنه عاد إلى الدين المسيحي بعد زواجه ، وبدأ إنتاجه الرصين ، عام ١٨١١ ، بنشر سلسلة « الأناشيد المقدسة » ، حتى عام ١٨٢٢ . وسام بيان برشييه الإبداعي وشارك في الآراء الحرة . وفي آذار ١٨٢١ ، ألف على شرف الثورة البيمونتية قصيدة اسمها « آذار ١٨٢١ » ، ولم ينشرها إلا في العام ١٨٤٨ . وبعد بضعة أشهر ، قصيدة عن وفاة نابليون . ثم جرب نفسه في الأدب الدرامي وألف مأساتين نهل موضوعهما من التاريخ الإيطالي وهما . « الكونت كارمانولا » ، (١٨٢٠) ، و « ادلتشي » ، (١٨٢٢) . ثم هجر الأدب الدرامي ونشر القصة « المخطوبين » ، وهي قصة تاريخية ورمزية معاً ، وتعتبر كل ما أعطاه في أدب القصة . ثم انطلق في دراسة النقد والفلسفة واللغة . كان مانتزوني مسيحياً قبل كل شيء . والعاطفة الدينية عنده مصدر القوة والشجاعة ، والدين يمثل الحب بين الناس ، إنه المثل الأعلى للمساواة والعدل وأمل المقهورين والمعذبين . وكان يطلب من الأدب أن ينشد فائدة عملية وأن يشارك في تجديد الأخلاق والمجتمع في إيطاليا ، وأن يصنع من جديد التربية الأخلاقية والروحية للأمة قبل المطالبة بالحرية السياسية . وبشر بالاستسلام والاعتدال دون التخلي . وكان متفائلاً يتق بالنصر القريب لمثله الأعلى في العدل والصلاح . ومن هنا يبدو أن مانتزوني لم يكن ثورياً تماماً ، بل

مربياً . وكان تأثيره عميقاً في الأخلاق الإيطالية وفي نمو الوجدان القومي الإيطالي .

ليوباردى (١٧٩٨ - ١٨٣٧) . - قضى حياة قصيرة ، وكان في الفن اتباعياً رغم إبداعه الشخصي بحياته الأليمة وتشاؤمه . تأثر بالروح القومي وشعر بذل إيطاليا والانحطاط الذي تردت إليه منذ عام ١٨١٥ وأخذ ينقد حركة الحرية . قام بدراسات في فقه اللغة ، وبأعمال علمية واسعة ونشر في العام ١٨١٨ أغنيتين وطنيتين : « إلى إيطاليا ، و « على الآبدة المصممة لدانتي في فلورنسا » . وفي ١٨٢٠ قصيدة إلى إنجيلومي قيم المكتبة الأندروسية الذي اكتشف في مخطوطات الرق نصوصاً جديدة للمؤلفين القدامى . وهذه هي مساهمته في الأدب الوطني . وقدم لإيطاليا نموذج عظماء الرجال ودروس الشجاعة ، التي أعطاهها كبار المؤلفين وكبار وجوه الماضي ، لتنهض من كبوتها وتستأنف سيادتها . وكان يعلق آماله على الشباب ويتوجه إليه ، ويأمل منه أن يعطي إلى الوطن الأجيال القوية التي تحتاجها . وفي السنوات الأخيرة من حياته نشر ، عام ١٨٣٧ ، « تكملات النزاع بين الضفادع والجردان » المنسوبة إلى هوميروس كالقصائد الأخرى ، ولكنها متأخرة عنه كثيراً ، وخاصم فيها الحزب الليبرالي الإيطالي ، وانتقد ثقته بنفسه وعدم كفاءته ، وانكر إمكانيات برنامج الإصلاحات الليبرالية ، وصاغ كاريكاتوراً لا يرحم للشخصيات والنماذج القومية الإيطالية . وشبه في قصيدته النابوليين (سكان نابولي) بالجردان ، والكهان بالضفادع ، والنمساويين بالسرطانات .

ولا شك في أن إسهام مانتزوني وليوباردى في حركة التحرير الإيطالية كان إسهاماً رقيقاً بذاته ، ولكنه هام في قصده ، لأن الأديبين أضافا ثروة عظيمة لتراث إيطاليا القومي .

طابع الابداعية السيامي . - وسيقوى هذا الطابع السيامي ، الذي
دشنته الإبداعية ، بعد عام ١٨٣٠ وسيصبح شكلا لليبرالية . فقد أصبح
سياسياً بكامله ، وعلق فنه بالاعتبارات السياسية ، حتى ان الكتاب أنفسهم
بدأوا ينطلقون في العمل ، وكان بعضهم شهداء القضية الليبرالية ، كما
هي حال سيلفيو بيليكو ، ويظهر ذلك بعودة حارة إلى الأبحاد
القومية ، وبخاصة نحو دانتى . فمن ١٨٣٠ إلى ١٨٧٠ وجد أكثر من مائتي
طبعة للكوميديا الإلهية ، ودراسات كثيرة وعظيمة عن الشاعر وحياته .
كذلك بدأ الإيطاليون يعلقون أهمية كبرى على الأدب الشعبي
(الفولكلور) والدراسات اللغوية ، والتاريخ : ففي عام ١٨٣٣
تأسست في تورينو « جمعية تاريخ الوطن » ، وفي ١٨٤٢ ، في فلورنسا
« جمعية الوثائق التاريخية الإيطالية » التي عاون فيها المؤرخ جينو كابوني
مؤلف « تاريخ جمهورية فلورنسا » ، ونذكر كارلو ترويا الذي نشر عام
١٨٣٩ « تاريخ إيطاليا في العصر الوسيط » ، وميشيل امادي ، وقد
نشر عام ١٨٤٢ « تاريخ مذبح صلوات العصر الصقلية » ، وفي العام ١٨٤٥
« تاريخ المسلمين في صقلية » . ونشر كانتو : عام ١٨٣٢ ،
« تاريخ لومبارديا في القرن السابع عشر » ، وفي العام ١٨٤٥ بدأ بنشر
« التاريخ العام » . كما لفت الحق القديم ، كالتاريخ ، نظر الفقهاء . فمن
ذلك أن كاتانيو قام في ١٨٤٤ بدراسة عظيمة في « الحق المدني
والطبيعي في لومبارديا » .

ومع هذا الجيل من الفقهاء والعلماء والمعلمين تمت الصحافة الدورية .
وتأسست مجلات عديدة ، بعد أن حذفت الانثولوجيا عام ١٨٣٣ ، نذكر
منها : « دليل التربية » و « دليل جنوة » و « إيطاليا » وغيرها .
ومن الطبيعي أن يتجه هذا الأدب التعليمي نحو السياسة . ولكن

أدب الخيال امتاز أيضاً بهذه الصفة ولو بصورة غير مباشرة وظهر أثر ذلك في أدب القصة وأشهر كتابها غيوازي (١٨٠٤ - ١٨٧٣) . فقد كان كاتباً متعمساً عنيفاً ، ونجح في الأدب بقصة « حصار فلورنسا » عام ١٥٣٠ ، التي أشعل بها الشبيبة الإيطالية . كما اتجه الشعراء نحو تمجيد العاطفة الوطنية والسياسية ، وهجر النمسا وكره المنافقين والمرايين .

وهكذا أصبح الأدب سياسياً ، لا سيما وأن معظم الكتاب ساهموا في الحركات الثورية . لقد كان التماثل تاماً ابتداءً من ١٨٣٠ بين الحياة الفكرية في إيطاليا ، وبين التطلع القومي الإيطالي ، وكان دور هذا الأدب يحوم حول تربية الشعب وصنع روح إيطالية عامة ، كما كان من نتيجة هذه الحركة الأدبية تطهير الحركة الثورية وتصعيدها بتوجيه ماتزيني وتشكيل جمعية « إيطاليا الفتاة » .

٣ - إيطاليا الفتاة

إن الاخفاق ، الذي مني به رجال « جمعية الفحامين » في العمل ، جعلهم يتجهون نحو الفكر والحياة النظرية . وإن التأثير التربوي ، الذي خلفته الإبداعية ، أعطى العنصر الأخلاقي أهمية أساسية ، وبتأثير هذين العاملين ، خيبة العمل والتأثير التربوي للأدب ، شعر الإيطاليون بالحرار بضرورة تطهير العمل الثوري وروحته ، وقد جسد ماتزيني هذه الحركة الجديدة .

ماتزيني . - ولد ماتزيني في جنوة في ٢٢ حزيران ١٨٠٥ من أسرة بورجوازية كبرى . كان أبوه طبيباً مشهوراً ، وأمه امرأة عظيمة بقوتها ومفهومها الجانسي الصارم للدين . وتربى ماتزيني في جامعة جنوة حيث درس الحقوق . وعندما حصل على الدكتوراه وقف نفسه

لموهبته واستعداداته السياسي . فهو اذن قد نشأ وتربى وثقف في بيئة مثالية وفكرية . بدأ الأدب بنقد الإبداعية من وجهة نظر العمل السياسي بسلسلة مقالات في « دليل جنوة » عام ١٨٢٨ ثم في جريدة « دليل ليفورنه » التي أسسها غيرازي وألغيت بسبب مقال عنيف نشره ماتزيني . وفي غليان الأفكار الذي تلا ثورة ١٨٣٠ في إيطاليا أصبح ماتزيني مشبوهاً . فقد أوقف وسجن ستة أشهر في سافونة، وحكم عليه بمغادرة جنوة والاقامة المراقبة ، ثم فر إلى كورسيكا ومنها إلى مرسيليا حيث أقام .

أعد ماتزيني مذهبه في سجنه في سافونة ، ووصل إلى مرسيليا عندما اعتلى شارل ألبيير عرش بيمونت في ٢٧ نيسان ١٨٣١ ، ومنها وجه إلى الملك الجديد ، باسم الايطاليين ، رسالة يذكر الملك بمفهومه لايطاليا الحرة عندما كان أمير كارينيان ، وتناشده أن يصغي لصوت إيطاليا التي لا تنتظر إلا كلمة لتكون إيطاليا شارل ألبيير ، وفيها يقول : « ضع نفسك على رأس هذه الأمة ، واكتب على علمك : اتحاد ، حرية ، استقلال ، ونجّ إيطاليا من البرابرة » . ولم تحظ رسالة ماتزيني بجواب من الملك ، بل ، على العكس ، كان من نتيجتها أن أعطى الأمر بإيقافه إن عاد إلى إيطاليا ، وكان ذلك بداية قطيعة تامة بين الملكية الساردية وماتزيني .

وأسس ماتزيني في مرسيليا جمعية وجريدة تحت اسم « إيطاليا الفتاة » عام ١٨٣٢ ، وكانت هذه الجمعية لا تضم إلا رجالاً سنهم دون الأربعين عاماً ، وتجدر الإشارة إلى أنه كان بينهم رئيس (قبطان) في الملاحة التجارية يدعى غاربيالدي ، وكان أعوان ماتزيني الأساسيون في الجمعية : روفيني ، ميليفاري ، بيونادوتي . وكانت « إيطاليا الفتاة » جمعية مربية ، عملها توري ، وفي الوقت نفسه تربوي ، ومنذ السنة الاولى من

عمرها انتقلت إلى العمل وبدأت بإعداد مؤامرات في إيطاليا . ثم وسع ماتريني إطار عمله وبرنامجه ، وأنشأ في ١٨٣٤ في برون في سويسرا جمعية « أوربة الفتاة » . وفي العام ١٨٣٦ أقام في لندن ، وأخذ يوجه الحركة الإيطالية ، وأسس فيها مجلة جديدة : « رسالة الشعب » ، وكانت الضابطة الانكليزية والفرنسية تراقبان حركاته مراقبة شديدة ووثيقة .

أثر ماتريني على الناس بكتاباته وجاذبيته وجماله وتعبه المثالي ، وكان بعيداً عن المنفعة ، يعيش عيشة خشنة ، وكل من لازمه أو عاشره كان يشعر بأن فيه سحراً فاتناً ، فقد كان عظيم التأثير بفصاحته ومراسلاته الأولية الجسيمة ، وبأسلوبه المشرق الشيق ، وهذا ما جذب الأنظار نحوه . فقد أحاطه الليبراليون الايطاليون والجمهوريون ، والليبراليون الفرنسيون ، والنساء ، مثل جورج سان والكونتس آغول والأميرة بلجيو جوزو ، بالعطف والاحترام . وكانت تتمثل فيه صفات البطل الابداعي ، وعم تأثيره حتى أصبح زعيم الحركة الثورية في إيطاليا ، والمحرك الأساسي للحركة الثورية الدولية بما أعطاها من برنامج ومذهب .

ينطلق ماتريني في كتاباته من نقد مزدوج : نقد الابداعية ونقد الفحمية . فهو يأخذ على الابداعية فرديتها وعدم حساسيتها برسالة سياسية أو قومية . ويعتقد ، على نقيض مانتزوني ، بأن إصلاح الفرد لا يمكن أن يكون إلا نتيجة للإصلاح السياسي ، ولذا يدعو الأدب إلى العمل السياسي ويقول : « إن موضوع الإبداعية أن يعطي إلى إيطاليا أدباً قومياً وأصيلاً للدفاع بفصاحة عن صالح أفكار الحركة القومية وضرورتها » . ويأخذ على الفحمية بأن لا إيمان لها ، ولا قوة أخلاقية ، وبخاصة ليس لها أهداف اجتماعية ، وليس لها برنامج تشريع وتربية . ويريد أن يبعد الفحامين ويقول لهم : « المكان للشبيبة على رأس الثورة ، أشعروهم بأن

لهم دوراً نبيلًا يجب أن يلعبوه ، ألهبهم بالمديح ، وأكدوا لهم قوتهم ، ثم اقدفوا بهم على النمساويين ، . ولذا ينبغي للشعب التحرر الفكري والتربية الاجتماعية والحلقية ، وهذا ما لم يتصوره الفحامون . ولكن ماتزيني كان على وفاق معهم بضرورة العمل بواسطة الكتل والجمهير ، وبدونها يخفق العمل الثوري ، ويجد الشعب نفسه مسوقاً إلى اعتبار الثورة خديعة . ويجب تعليم الشعب ، ولتعليمه يجب إعطاؤه مثلاً أعلى عظيماً : « قولوا للشعب بأنكم تريدون أن تحرروه من ظلم الأمراء وإهانات الموظفين ، وقهر أصحاب الامتيازات والأغنياء . وعندئذ ، وبخاصة ، عندما تبدأ الجماهير بالثورة ، وجهوا وجوهكم شطر لومبارديا وبشروا بالحرب ضد النمساويين . » وهو يشجب الثورات الارتجالية التي يقوم بها الفحامون دون منهاج .

لقد نظر ماتزيني إلى الشعب الأسباني الذي قام على نابوليون وبحج في طرد الأجنبي ، واستخلص من ذلك نتيجة وهي أن المتطوعين ، الذين يحركهم الايمان ، أعلى من الجيوش المنظمة ، وان الجيوش النظامية تمنى بالإخفاق أمام الحركة الشعبية . ولكن لإثارة الجماهير يجب أن يقدم لها مثل أعلى ، وهذا المثل الأعلى هو الأمة . وكان ماتزيني أول من أعطى للحركة الثورية الإيطالية برناجاً قومياً . فحتى ذلك الحين كانت الحركة الثورية حركة حرية محلية ، ولكنها بماتزيني أصبحت قومية . ومفهومه عن القومية مفهوم طاهر نقي سام متصاعد إلى عناصر روحانية تماماً . ويقصد بالأمة عموم المواطنين الناطقين بلغة واحدة ، والمشاركين بالمساواة في الحقوق المدنية والسياسية في نية مشتركة وهي إيقاظ القوى الاجتماعية وتحسينها بالتدريج . وهو يعرف القومية أيضاً بهذا الشكل : « القومية فكرة مشتركة ، مبدأ مشترك ، هدف مشترك . والأمة هي تجمع كل الناس الذين تجمعهم اللغة أو بعض الظروف الجغرافية أو الدور الذي

فرضه التاريخ عليهم ، ويعترفون بمبدأ واحد ، ويسيطرون تحت تأثير حق واحد ، لكسب هدف معين واحد . وإن النشاط المنسجم وإعداد جميع القوى الفردية التي يحتويها التجمع نحو هذا الهدف الوحيد ، تؤلف الحياة القومية ، . ولا تثريب على هذه الجمل من حيث الوعي للفكرة القومية . وهذه المفاهيم مندفعة نحو المثالية المتطرفة : « الوطن قبل كل شيء وعي الوطن . وليس التراب الذي تدوسونه والحدود التي وضعتها الطبيعة بين أراضكم وأراضي الغير واللغة العذبة التي تطن فيه ، إلا الشكل المرن للوطن . ولكن إذا كانت روح الوطن لا تقيم في معبد حياتكم الذي يسمى الوعي فإن هذا الشكل يشبه جثة لا حياة فيها ، وأنتم قبر دون أمم ، وكتلة أفراد لا شعباً . الوطن هو الإيمان بالوطن . وعندما يملك كل منكم هذا الإيمان ، ويكون مستعداً لسفك دمه في سبيله ، عندئذ تملكون الوطن ، لا قبل ذلك ، . وهذا المفهوم ولا شك أسمى من المفهوم العادي لعمل الثوريين الفحامين .

ولكن ماتريني يذهب إلى ما هو أسمى من ذلك في مفهومه للقومية . فهو يتجاوز مرحلة القومية ليمسوا إلى مرحلة الإنسانية : « القومية هي شيء آخر أيضاً ، القومية هي القسط الذي صنعه الله للشعب في عمل الإنسانية ، هي رسالته ، هي العمل الذي يجب أدائه على الأرض ، لتحقيق فكرة الله على هذه الأرض ، هي الأثر الذي يخوله حق المدينة (المواطنة) في الإنسانية ، هي التعميد الذي يخوله طبعه ويعين له مكانته بين الشعوب ، أخوته ، . ولذا فإن العمل القومي لا يقف عند حدود الأمة ، ولا ينضب بخلاص الأمة وتحقيقها ، لأن الواجب ، في نظر ماتريني ، أوسع أيضاً : « الإنسانية هي تجمع الأوطان ، الإنسانية هي تحالف الأمم لأداء رسالتها على الأرض بسلام وحب ، . وهذا ما يجعلنا نفهم

ماذا يعني آنذاك إنشاء « أوربة الفتاة » ، وكيف يرتبط بعمل الإلهام القومي عند ماتزيني . إن حبه للبولونيين ، رغبته في التوفيق بين البولونيين والديموقراطيين الروس ، يتضح بهذا الواجب نفسه الملقى على عاتق القوميين حيال الإنسانية جمعاء . ويرى أن لكل شعب رسالته في الإنسانية . ويمجد ماتزيني رسالة إيطالية ، كما كان يمجدها من قبل الفيوري ، أو الإبداعيون إنه يمجد روما القياصرة وروما البابوات ، اللتين سادتا العالم ، وسودتا الوحدة والسلام في العالم . ويرى « إيطاليا الثالثة » تلعب الدور نفسه . وكان مفعماً بهذه الفكرة ولا يقبل بأن تختص فرنسا بدور القائد للحضارة الحديثة الذي يعترف لها به كافة الأوروبيين .

يوجد إذن في مذهب ماتزيني فلسفة كاملة متسامية للقومية . فقد تصورهما بأسمى أشكالها . ولكن كيف تصورهما بالنسبة لإيطالية خاصة ؟ وفي الحقيقة ، يختلف ماتزيني في هذا الموضوع عن الثوريين الإيطاليين . إن رد فعله يختلف كثيراً عن رد فعل المؤرخ سيسموندي عندما كتب في ٣ تشرين الثاني ١٨٣٢ : « من المحتمل جداً أن أكون في صف الملكية إذا أعطانا ملك بيمونت أو نابولي نواة جيش وترسانات . انني أتمسك بالاستقلال ، وبالتالي بالقوة أكثر من الحرية » . أما ماتزيني فيقبل بأن تأتي نجدة الأمراء بقوة حقيقية للقضية القومية . ولكن هذه الفائدة قد تتعدل بكثير من المحاذير ، وبتحاسد الملوك ، ولذا يحسن التخلي عنها . ونراه يهاجم بعنف مفهوم إيطاليا الاتحادية في مؤلف صغير نشر عام ١٨٣٣ لأنه يرى في زعرات إيطاليا البلدية والإقليمية « أهواء صغيرة حقيرة مسكينة تنغل في شبه الجزيرة كما تنغل الديدان على الجيفة » . وهو يرى أن لا أمل يرجى بقوة تجديد من الأمراء والملوك الإيطاليين ، وأن الوحدة وحدها تستطيع أن تحقق الأمة التي تسمو بإيطاليا إلى المستوى

الروحي لرسالتها ، شريطة أن تتحد الوحدة بالحرية التي هي الشرط اللازم والكافي لهذه الوحدة . ولذا فإن الشكل الأسمى للوحدة والضروري لإيطاليا هو الجمهورية والمثل الأعلى لما تزيني هو إيطاليا الموحدة ، الديمقراطية ، والمحكومة لصالح الشعب .

وقطع ماتزيني علاقاته مع المسيحية ومع الكنيسة التي تبدو له عقبة كبرى في تحقيق الوحدة . ولكنه ، رغم ذلك ، مازال مثالياً ومؤمناً بالله . فقد وضع في رأس مذهب هذه الشعارات الثلاثة : « الله ، الشعب ، الإنسانية » . وكان مذهب في الوقت نفسه أخلاقاً ، وفي ذلك يقول : « الحياة رسالة ، والفضيلة تضحية ، والتضحية وحدها مقدسة » . وبهذا التمجيد للدين القومي والحرية كان نفوذ ماتزيني عظيماً وأعظم من نفوذ زعيم عصاة أو قائد جمعية سرية . وكانت الشبيبة الإيطالية متعصبة جداً لما تزيني ، وتؤمن به وتخضع لتوجيهاته على العمياء . وهذا المظهر الديني الذي يعطيه ماتزيني لتوجيهه ، يوضح عقيدته وتشدده وإيمانه المطلق بالحقيقة . وهذا ما جره إلى كثير من الأخطاء ، وجعله يتطلب من الإيطاليين تضحيات غير مجدية . ولكن هذه المثالية هي التي صنعت عظمته وجعلته يختلف عن سائر ثوريي الدور الأول في تاريخ الوحدة القومية الإيطالية .

ورغم أن ماتزيني شجب الفصحية فقد سار في الواقع على خطاها . كان مزاجه نشيطاً وجزعاً للعمل ، وجعلت مثاليته التضحية رخيصة في نظره ، ووجد فيها سبباً للتمجيد . ومن هنا تراكمت المحاولات وإسكفها انتهت باخفاقات دامية وكل هذه المحاولات تتمثل بالطرق نفسها من تشكيل الجمعيات السرية والمؤامرات وإشعال الثورات . وقد دبرت ثورات متعددة في شمال إيطاليا وجنوبها ، ومؤامرات كثيرة ، ولكنها

باءت بالفشل . بيد أن الفائدة الوحيدة من كل هذه المؤامرات الماثرينية هي إطالة قائمة شهداء الحرية الإيطالية . وقد غدت ذكرى هؤلاء الشهداء الإيمان بالوطن وأُمتة .

٤ - البعث الإيطالي

منذ عام ١٨٤٠ جرى في إيطاليا تغير هام في واقع الحال وفي الأفكار معاً . فقد أدت الحوادث إلى رفض العقائدية الفحشية ، وتوطد نوع من النفوذ والتوغل عبر الحدود بعد أن ظلت حتى ذلك الحين كتيمة تفصل الدول بعضها عن بعض ، وأصبح بالإمكان تشكيل حركات غير منفصل بعضها عن بعض ، كما كانت في السابق ، وتشكيل حياة قومية وتنافس على شروط هذه الحياة .

وقد أعطي لهذه الحركة اسم البعث وإن كان هذا التعبير عنواناً خاصاً لجريدة تأسست عام ١٨٤٧ . ولكن يجب أن يؤخذ هذا الاصطلاح بفهمه العام ويعني النهضة .

تحويل شروط الحياة الاجتماعية . - لقد تحولت ظروف الحياة الاجتماعية . ولكن هذا التحويل لم يكن في كل الميادين تاماً وعاماً في إيطاليا كلها ، بيد أنه يمكن القول إجمالاً ، بأن إيطاليا ، التي ظلت حتى الآن متخلفة ، أخذت تتجدد . ولوحظ التقدم المادي وخاصة في الحياة الزراعية التي ظلت أساس الحياة الإيطالية : لقد تحسنت الطرق الزراعية ، وأفادت إيطاليا الشمالية من النظام الإداري الفرنسي والنمساوي واهتم النبلاء باستغلال أراضيهم ، وشكلوا جمعيات زراعية ، وحاولوا تنمية التعليم الفني والزراعي ، وفتحت مزارع مدرسية وصناديق ريفية لتنمية تاريخ الحركات القومية م (٩)

الرأسمالية القروية . وامت زراعة الرز والذرة . وبدىء بتربية الحيوانات بطريقة علمية لإنتاج الحليب والجن . وأضيفت معامل لتكرير السكر إلى الصناعات الفاخرة النامية ، وخاصة صناعة نسيج القطن والحرير ، كما بدىء باستصلاح المناطق المغمورة بالماء والموبوءة بالمalaria على الشاطئ ، وامت المدن الكبرى . ولكن هذا النمو المادي أوقفته أو كبحت جماحه منافسة الصناعات الألمانية في إيطاليا الشمالية بما لاقتنه التعريفات النمساوية أو اللومباردية - البندقية من تشجيع . وفي الجنوب تمت حياة البذخ والثراء في نابولي على حساب الأرياف ، وجاء هذا الثراء من الاجارات الباهظة التي كانت تقطع من الفلاحين .

وامت الآلة وتجددت الشروط المادية . فقد ألفت شركات الملاحة الإيطالية ، ومددت السكك الحديدية ، وكانت في بادىء أمرها للتسلية ، ولكنها ما لبثت أن أصبحت ذات أهمية اقتصادية . هذا وتجدر الإشارة إلى أن الدولة الحبرية ظلت متخلفة ، دون تقدم ، وفي فوضى بسبب اضطراب الادارة وأعمال الشقاوة .

ولم يقتصر هذا التقدم على الميدان المادي والعملي التطبيقي ، بل كانت تناقش الأفكار التي كانت في أساس هذا التقدم . لقد تمت مفاهيم الاقتصاد السياسي الواسعة ، ودخلت نظرية كوبردن في المبادلة الحرة . وبدأ الكلام عن تشكيل خطوط جمركية وتخفيض التعريفات بين الدول . كما بدأت الحركة العلمية بمناقشات عامة بين العلماء الإيطاليين من مختلف البلاد . وافتتحت المؤتمرات العلمية وكان المحرك لها شارل بوناپورت بن لوسيان ، أخي نابوليون ، وانكليزي مقيم في إيطاليا وهو السير جوت بودينغ . وجرت العادة أن تكون المؤتمرات سنوية وفي مدينة جديدة في كل مرة ، وعلمية تقنية بحتة . ولكن المشاكل التي كانت تعالج فيها

كانت تتجاوز بسرعة وبسهولة قضايا البرنامج وتصبح عامة أكثر منها محلية ، إذ من المستحيل أن يجدد العلم أو الاقتصاد السياسي في إطار الدول الصغيرة . وكان سياق البحث يقتضي النقاش بمشاكلهم إيطاليا كلها . وكان يلتقي في هذه المؤتمرات أناس وعلماء من جميع الدول الإيطالية ، وبالتالي كانت تنمو فيها روح عامة . وكان التقدم الفني يقوي وضع البورجوازية الاجتماعي والسياسي وخاصة في إيطاليا الشمالية أي في لومبارديا وبيمونت وتوسكانا .

الأفكار القومية الجديدة . - لقد أدت نتيجة هذا التقدم الفني وبداية هذا الاقتصاد القومي والاختراق الذي لاقاه الفحامون في الطريق الثوري إلى توسيع وتحويل في العقيدة السياسية، وفضلت طرق أخرى على طرق الفحامين والثورات المحلية ، وتفوقت الفكرة القومية على الفكرة الثورية . وأصبحت الحركة السياسية بهم أناساً آخرين من غير الديمقراطيين ، لأن الحركة السياسية تعممت في المجتمع ولم تبقى قاصرة على فئة صغيرة من العسكريين المستأجرين أو البورجوازيين الذين ليس لهم وضع في المجتمع ، كذلك لم يعد نفوذ الفكرة القومية مرتبطاً بالبرنامج الليبرالي وحده .

لقد ظهرت الأفكار الجديدة بعدة أشكال ، وأنت باديء بدء من المهاجرين الإيطاليين : ففي ١٨٣٦ صدر في باريس كتاب ألفه نيقولا توماسينو تحت هذا العنوان : « آمال إيطاليا الجديدة » ، وهو نداء إلى الأقاليم والاكليروس للتعاون في التجديد القومي . ونجد في هذا الكراس أول فكرة لبابا مصلح يتزعم تجديد البلاد . وفي ١٨٣٥ و ١٨٣٦ نشر الحقوقي الفيلسوف ماميانى كتاب فلسفة يسمى « تجديد الفلسفة القديمة الإيطالية » ، وفي ١٨٤٣ نشر « تاريخ الأدب » ، خاصاً بشعراء العصر الوسيط . ولكن الذي يهمنا قبل كل شيء أنه نشر في ١٨٤١ كراساً فضل فيه قبل كل شيء استقلال إيطاليا : فهو يرى في المستقبل إيطاليا

فاتحة لاستقلالها بحرب يقودها أمير قومي . ولكنه يرى لهذا الاستقلال شروطاً مبدئية : وذلك بأن تطرح النمسا في مشاكل دبلوماسية تمنعها من الدفاع عملياً عن المملكة اللومباردية - البندقية التابعة لها ؛ وأن يربى الشعب تربيته السياسية التي لم يحصل عليها بعد ، وأن تشارك الطبقات العليا في حزب الاستقلال . هذا . ويضيف مامباني إلى فكرة الاستقلال برنامجاً كاملاً للإصلاحات الاجتماعية ليعيد إلى الشعب كرامته وأمن حياته .

ولم يكن لكراس توماسيؤ أو مامباني كبير انتشار ، ولكنها يفيدان بأن حالة الرأي تغيرت وفي الحقيقة ، ان الأفكار في المجتمع الإيطالي قد تغيرت بتأثير الكاثوليكية الديمقراطية التي كان يقول بها في فرنسا لامانيه ، وفي إيطاليا الفيلسوف روسيني . وقد وجد الرأي العام الإيطالي مهياً للفهم والحماسة عندما ظهر كتاب وبرنامج جيورتي .

جيورتي (١٨٠١ - ١٨٥٢) . - كان أباً بيمونتيّاً من تورينو ، اشتغل كاهناً في خدمة كنيسة البلاط واشترك في حركة إيطاليا الفتاة فأوقف وحكم عليه عام ١٨٣٣ ، ولجأ إلى باريس ، وبروكسل . كان جيورتي فيلسوفاً متافيزيقياً . وكاثوليكيته الفلسفية عريضة . وقد قال ذات مرة إلى ما ترزيني بأن كاثوليكيته مرنة وتستطيع أن تضم العالم كله . ومن هذه الفلسفة نرى أن جيورتي يؤمن بفضيلة الأفكار وقوة المحبة للتقريب بين الناس ، وينكر العمل الثوري . غير أن ما ينقصه هو الثبات ، لأن الملاحظ عليه تردده وتغير اهتمامه وأفكاره : فقد شارك في حركات إيطاليا الفتاة الثورية واستهوته الفلسفة ، وجذبتة الفكرة القومية . حتى انه نشر في العام ١٨٤٣ كتاباً مؤثراً في بروكسل بهذا العنوان : «تفوق الإبطاليين المدني والأخلاقي» .

وفي الواقع ان فلسفة جيورتي ليست سوى استدلال لدعم الأفكار

السياسية . وان أساس مذهبه ومشاغله واهتمامه هو وطنيته وكبرياؤه الإيطالية وفكره المحافظ ووضعه كاهناً . هذه هي العناصر التي توضح لنا اتجاه أفكاره . إن نقطة انطلاق مذهبه هي حب إيطاليا والارادة في رؤيتها عظيمة . ويبرر هذا الحب والرغبة في العظمة بخلق إيطاليا الخيالية في الماضي والحاضر معاً . ولا شك في أن هذا المذهب هو إنشاء منطق وتصور أكثر منه نتاج دراسة تاريخ أو ملاحظة . فهو يرى أن الأمة لا تستطيع أن تحتل في العالم المكان الذي يلائها إلا إذا اعتقدت بأنها أهل لاحتلاله ، ونراه يبحث عن رسالة إيطاليا التي يجب أن تفخر بها لأن الرومانيين نشروا في العالم فكرة العدل والحق ، ولأن روما المسيحية علمت العالم السلام والمحبة . وفي خلال هذين العهدين من التاريخ علمت إيطاليا العالم أسس الحضارة . وإيطاليا هي الأمة الأم للجنس البشري ، وان مركز العالم أوربة ، ومركز أوربة إيطاليا . لماذا ؟ لأن إيطاليا مهد الناس الحركيين النشيطين الأقوياء . فمن حيث العرق ، تنحدر الايطاليون من البيلاجيين وهم الذرية الملكية المنحدرة من يافث بن نوح . ومن هنا يأتي تفوق إيطاليا ، ويمكن ملاحظة هذا التفوق بالعمل ويبرهن جيورتي على ذلك برجلين عظيمين في العالم الحديث وهما إيطاليا الأصل : ميروبو و نابوليون . ويلاحظ هذا التفوق أيضاً بالفكر . فالإيطاليون هم الذين أبدعوا الفلسفة كالقديس آنسلم والقديس توماس والقديس بوناونتور ؛ والإيطاليون هم الذين أبدعوا العلم على يد أرخميدس وغاليليه وهناك الإيطاليون كبار مثل دانتي وفناني عصر النهضة وفيكو مؤسس فلسفة التاريخ .

إن عظمة ماضي إيطاليا وتفوقها يجب أن يوحيا بالتفاؤل والأمل . ولتجد إيطاليا تفوقها في العالم الحديث يجب أن يتجدد الإيطاليون اتحاداً سلمياً لا اتحاداً مبنياً على القوة ، ويجب استقلال إيطاليا . ولكن على

أي أساس يجب أن يتم الاتحاد ؟ على أساس تقاليدها . وتقاليد إيطاليا ، كما يقول جيورتي ، هي اتحاد إيطاليا والبابوية . إذ لا يمكن للإيطالي أن يكون إيطاليا تماماً إذا لم يكن كاثوليكياً . ولصنع هذا الاتحاد يجب أن تقوم الطبقات الموجودة في خدمة الدولة . وفي ذلك يقول جيورتي : « يجب على النبلاء أن يبرروا ألقابهم بقيمتهم وبالتخلي عن امتيازاتهم وباحترام من هم أدنى منهم ؛ والكهنة بتثقيف أنفسهم وتحريرها من مشاغلها العصرية ، وبكونهم متسامحين » . ويدعو جيورتي لهذا الاتحاد القومي حتى اليسوعيين . أما الأمراء فعليهم أن يقوموا بالإصلاحات ، ويمنحوا رعاياهم مجالس ، وحرية الصحافة . وإذا ما اتحد الإيطاليون وتعاونت الطبقات ، أمكن تحقيق إيطاليا بشكل اتحاد كونفدرالي ، تحت زعامة البابا ، لأن الكنيسة لها توجيه إيطاليا حسب التقاليد ، وهذا الاتحاد يحقق العبقرية الإيطالية التي هي ملكية وارشتراطية واتحادية معاً . وعندئذ تستطيع إيطاليا الاتحادية أن تستعيد دور القائد للإنسانية وتجدد العالم كما فعلت في القديم .

هذا هو تحليل مؤلف جيورتي . ويبدو من خلاله أن مفهوم جيورتي السيامي والاجتماعي مع حله بتحويل إيطاليا ، مفهوم يحافظ ما أمكن ، لأنه يأخذ كل ما يستطيع أخذه مما هو موجود . وهو ينظر إلى وحدة إيطاليا أقل مما ينظر إلى اتحاد الإيطاليين ، لأن الاتحاد يفرض إصلاحاً أخلاقياً وإرادة طيبة من الجميع ، ولكنه لا يهدم ولا يقوض ما هو موجود . وتقرب نظريات جيورتي من نظريات ماتزيني بالتبشير الذي يقوم به للعمل والرجاء والأمل في رفع جيل الإيطاليين المتعب إلى عظمته القديمة . ويقرب من ماتزيني أيضاً بفكرة رسالة إيطاليا والاستقلال القومي الذي يجب كسبه . ولكنه يختلف عن ماتزيني في عدة نقاط : أولاً ؛

باكليركيته ، لأنه يعتمد في مذهبه على الكنيسة ، على حين أن ماتريني مناوئاً للإكليريكية ؛ ثانياً ، لأنه ينكر الثورة ، بينما يجعلها ماتريني عنصراً أساسياً لعمله ؛ ثالثاً ، لأنه يرى اتحاداً إيطالياً ، لا وحدة إيطالية ، وبالتالي ينفي الجمهورية ، التي يريد ماتريني تنظيمها ، ويبقي على الأمراء والدول القائمة .

ونجد في نظريات جيورتي عدداً من النقاط التي تذكرنا بنظريات فيخته : كفكرة الأمة الأم والدور الحضاري المحضر في الماضي والمستقبل الذي يعطيه لإيطاليا ، كما يعطيه فيخته لألمانيا لنفس الأسباب . ونجد عند جيورتي ، كما هي الحال عند فيخته ، حقداً على الفرنسيين ، مع اختلاف الأسباب . فقد أبدى فيخته حقده عندما كانت ألمانيا وبروسيا تحت حكم نابليون . أما جيورتي فيرى أن الفرنسيين ليسوا أهلاً إلا للفوضى الفلسفية أو للاستبداد ، ويقوم بعدة اتهامات ضد السياسة الفرنسية في إيطاليا من ١٧٩٦ إلى ١٨١٤ .

لقد كان تأثير جيورتي عظيماً ، وكسب كتابه شعبية واسعة ، وقبلته الأوساط المختلفة من دينية وعلمانية ، باستثناء اليسوعيين . ولكن آراء جيورتي أثارت ، من جهة أخرى ، انتقادات متعددة ، ونخص بالذكر انتقادات أعداء النمسا ، وانتقادات أعداء الحكومة الزمنية للبابا ، فضلاً عن أن نظرياته كانت تصطدم بالوقائع . واعترض عليه ناشر يدعى نيقوليني بقوله : « إذا أراد البابا أن يعمل لتجديد إيطاليا فعليه أن يتخلى عن البابوية . »

بالبو . - بيد أن الناقد الأساسي الذي انتقد جيورتي كان قيصر بالبو ، وهو كاتب إيطالي عاش من ١٧٨٩ إلى ١٨٥٣ ، عمل ضابطاً ثم انصرف للدراسات التاريخية ونشر عام ١٨٣٠ « تاريخ إيطاليا في ظل

البرابرة ، ، وفي ١٨٤٣ ألف كتاباً تحت هذا العنوان : « آمال إيطاليا ، انتقد فيه كره جيورتي للأجانب وسخر من مطالبه المفرطة مثل مطالبته بكورسيكا ، ونهم متسائلاً ، لماذا لا يطالب الإيطاليون أيضاً بقيومه وراغوزه وسبالاتو ومالطه ... ولم يوافق جيورتي على تفوق إيطاليا في الماضي والحاضر ، واعترض عليه بأنه لم يقم شرطاً مبدئياً في تحويل إيطاليا وهو الاستقلال ، وقال : « بدون استقلال قومي ، تكون الأمور الأخرى الصالحة عدماً ، ولا شيء يمكن قبل طرد النمساويين .

بيد أن بالبو أدرك بأن الإيطاليين ليسوا على درجة من القوة تمكنهم في الوقت الحاضر من طرد النمساويين ، وبأنه لا دعم يرجى من الخارج ، لاسيما وأن موقف الملك لوي - فيليب ، ملك فرنسا ، قد دل على ذلك ، ويرى أن ينتظر حدوث حادث سعيد في الخارج يساعد على طرد النمساويين ، وذلك يَكُون في تفتيت الامبراطورية العثمانية القريب ، لأن هذا الحادث يشغل اهتمام النمسا ، التي ترغب في الحصول على إرث في البلقان ، وقد يكون في هذا الحادث ما يضطر النمسا الى قبول التنازل عن المنطقة اللومباردية - البندقية .

ويتفق بالبو مع جيورتي في فكرة الاتحاد التي يمكن أن نحقق الشكل القومي لإيطاليا ، وفي ضرورة إصلاح معنويات الإيطاليين . وكان بالبو مؤمناً متفائلاً في بقظة الطباع في إيطاليا ، لأن « أمة من عشرين مليوناً لا تقهر إذا كانت متحدة ولها طبع » ، وعلى كل إنسان أن يقوم بواجبه حسب وضعه ، والحكمة الإلهية تقوم بالباقي . وفي الواقع يبدأ مع بالبو ظهور حل آخر وهو اللجوء إلى الملكية اليموننتية ، ولم يكن هذا الحل عنده إلا دلالة ولكنه سينمو بشكل آخر .

غير أن جيورتي نفسه أبدى بعض التحفظات على نظرياته الخاصة .
ففي عام ١٨٤٥ صدر له مؤلف جديد وهو « المقدمات » وفيه أبعاد
اليسوعيين بعد أن دعاهم ، وآل بوربون في نابولي ، حتى أنه تخلّى
أخيراً عن مبدأ سلطة البابا الزمنية .

مذهب الملكية اليموننتية . - لقد وجه بالبو الأفكار لصالح دولة
اليموننت ، وهذا المذهب سيكون مذهب المستقبل في تشكيل الوحدة
الإيطالية على يد الملكية اليموننتية التي قامت بإصلاحات إدارية واقتصادية
وتعليمية أعطتها سماء الدولة الحديثة . وقد تشكل فيها حزب حقيقي
يموننتي - إيطالي ، وكانت الطبقة النبيلة على رأس الدولة في ييموننت ،
وهذه الطبقة تعترّ بفاضلها وعدائها للنمسا ، وقد لعبت دوراً هاماً في
الإدارة ، وكانت تحب الحكم الصالح وتخشى التجديدات ، وتحتقر
النظريات ، وكان بعض هؤلاء النبلاء مصطبغاً بصبغة الحرية الليبرالية نظراً
لاتصالهم بالأجانب ، وزياراتهم المتكررة في فرنسا وانكلترا ، وهذه هي
حال الشاب الكونت كافور . وكان هؤلاء النبلاء يرغبون بنظم شعبية
دون أن تكون ديموقراطية ، كما كانوا قليلي التعلق بالكنيسة ويعادون
السلطة الحبرية ويرغبون بتوسيع ييموننت على حساب لومبارديا .

وكانت هذه الطبقة النبيلة اليموننتية مصطبغة بصبغة القومية الإيطالية
حتى أن بعض هؤلاء النبلاء سموا إلى فكرة الوحدة الإيطالية في مفهوم
بماثل لمفهوم جيورتي ، ولكنه يتجه بصورة مغايرة نحو ييموننت لا نحو
البابا ، أي نحو مفهوم علماني غير إكليريكي .

ماكسيم دازيليو . - يأتي على رأس هؤلاء النبلاء اليموننتيين ماكسيم دازيليو ،
وهو من عائلة ييموننتية كبرى . كان صهر مانتزوني ، اشتهر بقصصه ، ثم تعاطى
السياسة وألف عدداً من الكراريس والمقالات ، وتأثر بالأفكار التقدمية ،

وهاجم السياسة الحبرية ، وكشف عن الفوضى والفساد ، ونصح الأحرار ، وطلب إليهم أن يتخلوا عن الثورات المحلية التي تفسد مستقبل الأمة دون نتيجة ، وطلب إليهم أن يتجهوا صوب القوة الوحيدة الممكنة التي تستطيع أن تصنع إيطاليا ، أي نحو دولة اليمونت . وعلى اثر ذلك تألف حزب باسم حزب « الألبرتين » . وبالرغم من أن دازيليو نفسه لا يعطي المثل الصالح لكل الفضائل التي يشر بها ، إلا أن الشبيبة الجمهورية تعلقت بهذا الحزب الجديد بعد أن خاب رجاؤها من الثورات المتوالية . ووجد في هذا الحزب الالبرتي من لا يعتقدون بالبابوية المصلحة ولا يريدون « إيطاليا الفتاة » . ولما الحزب بسرعة فائقة حتى ان ماتزيني رأى من الضروري الدخول في مفاوضات مع أعضائه ، وعرض التخلي عن الدعاية الجمهورية إذا قبل الآخرون بالتخلي عن فكرة الاتحاد الكونفدرالي لفكرة الوحدة .

وفي ييمونت ألف الحزب جماعة منظمة على رأسها دازيليو ومامباني وكافور ، ووقف بالبو جانباً ، وكان زعماءه السياسيون يكتبون في « المجلة الجديدة » وينقلون مقالات الجرائد والمجلات الفرنسية ، من « جريدة المناقشات » أو من « مجلة العالمين » أو الجرائد الانكليزية ، وألقوا في العام ١٨٤٧ جريدة جديدة وهي جريدة « البعث » ودعوا شارل ألبير علناً ليكون على رأس الحركة القومية ، وقد كتب كافور : « لقد دقت ساعة الملكية السافوازية » . ومن هذه المدرسة سينطلق مستقبل إيطاليا في الآجل البعيد بعد ثورة ١٨٤٨ .

ماهي نتيجة ذلك قيل الثورة ؟ إن الحالة السياسية لم تتغير في إيطاليا ولكن الحالة المعنوية تحولت . فقد تبنى المثقفون فكرة التفاهم فيما وراء حدود الدول لخلق وطن إيطالي . ويرى الايطاليون هذا الوطن بشكل متباين جداً : لقد قصوره الأوائل وحاولوا أن يحققوه بأعمال ،

وهؤلاء هم الثوريون الذين أرادوا أن يتوصلوا إلى ذلك بالنضال ضد الانظمة الاستبدادية المطلقة المحلية ، واندفعوا في الفكرة إلى الحد الأقصى ، إلى الوحدة وحتى إلى الجمهورية ، وقد بدأت حركتهم في عام ١٨٣٠ ويمثلهم الماتريون ، وما زالت هذه الحركة مستمرة في نضالها غير المفيد عن طريق الثورات .

ومنذ ١٨٤٠ ، شاع المعتدلون جملة هذه الفكرة : وهي أن الفكرة الإيطالية ليست مرتبطة بالفكرة الثورية ، وأصبحت هذه الفكرة واقع العناصر المحافظة أيضاً . بيد أن الحلول اختلفت والحركة انقسمت: فهناك أنصار البابية من جيورتي والغلفيين الجدد ، وهناك أعداء الحكومة الحبرية مثل دوراندو في كراسه « القومية الإيطالية » ، ولويجي توبيلي في مؤلفه « أفكار عن إيطاليا » ، وفريق آخر مع بالبو لا ييالي بالحريات المدنية ، ولكنه يبحث قبل كل شيء عن الاستقلال ، وآخرون أيضاً، على العكس ، يضعون الأفكار الدستورية فوق فكرة الاستقلال عن النمسا ، ويأتي أخيراً حزب التوسع اليموني ، وسيصبح أكثر عدداً ونفراً ، وسيجمع شمل إيطاليا في فريق سياسي .

ولا شك في أن الحركة القومية الإيطالية ، كما نراها قبيل ثورة ١٨٤٨ ، يشوبها الاختلاف والاضطراب واللبس والغموض ، ولكن الحس القومي استيقظ تقريباً في كل مكان وعند جميع الطبقات .

ولكن كيف تتحقق هذه القومية ؟ إذا وضعنا جانباً الثوريين الذين فقدوا اعتبارهم بإخفاقاتهم المتكررة ، نجد أن معظم الإيطاليون لا يتصورون بأن العمل يمكن أن يكون قريباً ، ولا سيما بعد أن وعدتهم فرنسا بالمساعدة ثم تخلت عنهم ، وهذه الحية أبعدت عنهم الاعتقاد بمساندة الأجنبي لهم على تحقيق مثلهم الأعلى ، حتى أن شارل ألبر ملك الدولة اليمونية الساردية قال : « إن إيطاليا ستعمل وحدها » .

الفصل الرابع

الحرية والقومية في ألمانيا

وضعت أفكار الحرية والقومية في ألمانيا عدة قضايا معقدة وأكثر تعقيداً مما في إيطاليا ، بالرغم من أن نقطة الانطلاق كانت ، للوهلة الأولى ، أفضل في ألمانيا منها في إيطاليا ، لأنه وجد في ألمانيا دولة بشكل « الكونفدراسيون الجرمانى » ، وبالرغم أيضاً من أن المطالبين الألمانية كانت قطعاً نفس المطالب الإيطالية ليبرالية وقومية معاً ، وأن النظريات في ألمانيا كانت أبسط مما في إيطاليا . ولا شك في أن الألمان تأثروا بالمذاهب الفرنسية في القومية منذ ١٨١٥ وقبلوها كإيطاليين ، وستكون النظريات الفرنسية عنصراً حاسماً للعمل في ألمانيا . بيد أنه وجد ، في ألمانيا من قبل ، أيديولوجيات خاصة بالنسبة للقومية . فلقد رأينا هردر وفيخته يوسعان نظريات القومية التي تعتمد على فكرة العرق ، أو بتعبير آخر ، على وحدة الأصل والانتقال الوراثي للطباع الطبيعية والمعنوية التي تكشفها اللغة . وقد طبقت هذه النظريات على ألمانيا خاصة فولدت مفهوماً متطرساً في تفوق الجرمانية واعتبارها سابقة للأعراق الأخرى وأنقى منها . ولكن هذه الملاحظة المزعومة ، عن قدم العرق الجرمانى ونقاوته ، اصطدمت بالأحداث التاريخية ، ونحوت في المستقبل إلى رسالة ألمانيا في قيادة البشرية الحديثة . وسيضاف إلى هذه النظريات نظرية الحقوق

التاريخية التي خرجت عن هردر وسيكون من دعايتها المؤرخ زيبيل ، وبعد ١٨٤٨ المؤرخ ترايتشكه ، وفلسفة هينغل الخاصة ، وستعطي هذه النظريات جميعاً فكرة القومية في ألمانيا إرادة فاتحة ، وشهوة للسيطرة ، لأن القومية الألمانية كانت توسعية دوماً ، ولم تنحصر في نطاق ألمانيا بالمعنى الأصلي للكلمة ، بل تجاوزته إلى خارج الحدود ، وستنزع هذه النظريات إلى جعل الفرد آلة في قلب الجماعة وفي يد الدولة التي يعتبرها الألمان هيئة في ذاتها وقوة كبرى منظمة للمجتمع .

كذلك يجب أن نرى في القضية الألمانية تأثير الظروف التاريخية والسياسية : إن سيادة ألمانيا وعظمتها منوطتان بمفهوم مجرد ، وهو فكرة الإمبراطورية ، لا بأساس أرضي ، كما هي حال فرنسا أو إيطاليا . ثم إن التطور التاريخي ، من جهة ثانية ، أدى في ألمانيا إلى تفتيت الحياة السياسية والحركة الفكرية وخاصة في غضون القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، هذا فضلاً عن أنه وجد في ألمانيا عنصر ينقص إيطاليا وهو : دولة بروسيا ، وأن تحرير ألمانيا تم بحركة وطنية مضادة لفرنسا . ومن هنا نرى أنه لا يوجد في ألمانيا ، بسبب هذه الظروف التاريخية والسياسية ، وحدة هوية في جوهر فكرة الحرية والقومية التي رأيناها في إيطاليا أو التي نجدها بشكل نموذجي في فرنسا . إن مانراه في ألمانيا إنما هو إمكان لمفاهيم وحدوية ترتبط بأفكار محافظة في السياسة دون أن ترتبط فقط بالعقائدية الثورية وحدها .

ونتيجة لكل ذلك تظهر الفكرة القومية الألمانية بشكل أكثر لبساً بما في إيطاليا ، لأنها مختلطة باتجاهات مختلفة ، وغالباً متعاكسة ، وسيكون لها انحرافات ، حتى أن بعض عناصر الحياة الألمانية ، كالقضايا الاقتصادية والسياسة البروسية ستلتأم مع الفكرة القومية الألمانية وتخدمها . وهكذا

نجدنا مسوقين إلى أن نرى في ألمانيا كثيراً من الاتجاهات الفكرية المختلفة والمتناقضة بما لم نره في إيطاليا .

النظام السياسي والنزاع بين السلطة والحرية

نجد في ألمانيا ، كما في كل مكان ، نزاعاً بين النظام السياسي الاستبدادي القائم وبين حاجات الحرية التي تخرض بعض أجزاء المجتمع الألماني . إلا أن هذا النزاع بقي في ألمانيا دون نفاذ بسبب تفاوت القوى . لقد كانت الحكومات في ألمانيا مسلحة بشكل أفضل مما في إيطاليا وتساندها السياسة النمساوية والسياسة الروسية . وكان المزاج الألماني أقل نشاطاً ومطالبة من المزاج الإيطالي ، لأن أحرار الألمان لم يكونوا رجال عمل بل رجال فكر ، ولأنه لا يوجد في ألمانيا ، كما في إيطاليا ، دفع ثوري مستحكم ثابت دائم خارج عن كل مذهب . وهذا ما جعل الشعب أمام بعض الحركات جامداً لا يبدي حراكاً . يضاف إلى ذلك أن المنافع المتناقضة والمنافسات كثيراً ما أضعفت نضال المجتمع الحر أمام الحكومات بسبب انقسام المصالح والمذاهب بين الكاثوليك والبروتستانت .

عمل الحكومات . - لم يكن لدى الحكومات الألمانية أي فكرة في القومية . ولندكر على سبيل المثال أن الوزير البروسي وتغنشتاين كان يقول ان غاية البرشنشافت (اتحاد الطلاب) « أن يقتل الوطنية الخاصة لقيم مقامها ألمانيا واحدة لا تتجزأ » ، وأن يزيل مختلف الدول الألمانية في فرضي ثورية » . وكانت الوطنية بالنسبة إلى هذا الوزير معاكسة لفكرة الوحدة الألمانية ، أو بالأحرى ، ان الوحدة الألمانية ، معاكسة للوطنية الخاصة . ويصرح زعيم الضابطة (الشرطة) سيلدنيتسكي بأن فكرة

« دويتشتوم » أي « الجرمانية » هي خارجة عن المألوف ، حتى ان الحكومات التي تسلمت السلطة بعد ١٨١٥ أزالَت في أربعة أو خمسة أعوام العنصر الوطني والمحارب القديم الذي صنع التحرير وقاوم نابليون ، وهذا يعني أن هذه الحكومات رفضت مباشرة روح ١٨١٣ .

لقد خولت قرارات كارلسباد عام ١٨١٩ وعمل مؤتمر فيينا في ٨ حزيران ١٨٢٠ الحكومات سلطات خاصة في الإشراف ، وتمت هيمنة مترنيخ وإشرافه على ألمانيا دون رقابة ، لأن الأمراء والحكومات انحنوا أمامه بما فيهم بروسيا ، ماعدا فرثامبرغ بين حين وآخر . ومن جهة أخرى ، كانت الحكومات قوية ، وخول الديباط الألماني سلطات خاصة على الدول الفردية . ويمكن أن نستخلص من هذا التنظيم مبدأ لسياسة عامة مشتركة ، وعلى الأقل ، لتنسيق سياسة الحكومات الألمانية . ويمكن أن يفكر بأن امتداد سلطات الديباط قد يؤدي إلى نشوء حكومة مركزية ألمانية ، حتى انه كان يرى أن مندوبي الأمراء كانوا يجتمعون في حضرة مترنيخ ، في قصره الخاص في يوهانسبرغ في أيار ١٨٢٤ لتحرير القرارات التي سيتبناها الديباط لألمانيا كلها مثل تمديد نظام كارلسباد ، ودعوة الحكومات للإشراف على المجالس لمنعها من الاعتداء على المبدأ الملكي ، وانعقاد الديباط خلال دورة مدتها أربعة أشهر ، ومنع الشعوب من الاشتغال بالسياسة . ولكن السير في هذا الاتجاه توقف بسرعة اثر وفاة الكسندر قيصر روسيا ، في كانون الأول ١٨٢٥ ، وضعف وضع مترنيخ بتضاؤل جاهه في الخارج وعمله الأوربي ، حتى ان نعرات الحكومات الألمانية قويت وأخذت تدافع عن نفسها ، وخاصة في الجنوب ، وبحث العناصر الرجعية عن دعم لها من جانب نيقولا الاول قيصر روسيا الجديد أكثر مما بحثت عن هذا الدعم من جانب مترنيخ . ولكن ما ان ظهر الخطر الثوري للعيان ثانية ، إلا

وتهيأت الحكومات من جديد لطغيان السلطة المركزية أي الديباط ، كما هي الحال غداة حركات ١٨٣٢ و ١٨٣٣ . وهكذا أتاحته هجمات الليبرالية فرصة لنجدة جديدة لعناصر التنسيق السياسي ، وجرى في ألمانيا مصغر لما جرى في أوربة عام ١٨١٥ . وكما نشأت فكرة أوربة والوحدة الاوربية من النضال ضد نابوليون ، كذلك ، في ألمانيا ، شعرت الحكومات بنفسها متضامنة تجاه الخطر الثوري . ومن جهة أخرى ، نرى أن فكرة التنسيق الجرمانى ، كفكرة أوربة ، ليست بالضرورة مرتبطة بالنظرية الليبرالية .

ومما يكن من أمر فقد استغلت الحكومات الظروف والسلطات المحولة لها واستبدت بشكل مطلق . وقوت هذه السياسة النعرات المحلية وعزلت الدول عن بعضها وباعدت الشعوب حتى النخبة فيها عن كل حياة سياسية . وقويت شوكة الحكومات بعد أن أصبحت تعتمد على عقائدية (أيديولوجيا) انبثقت عن المدرسة الإبداعية وتوطدت في اتجاهين : المدرسة التقليدية من جهة ، والفلسفة الهيغيلية من جهة أخرى .

المدرسة التقليدية - تشبه المدرسة التقليدية في ألمانيا مدرسة جوزيف دوميستروبوئالد في فرنسا ، حتى انها أخذت عنها بعض النقاط ، وهذه المدرسة تستند في جزء منها على قاعدة حقوقية بفضل سافيني الفقيه والمؤرخ في الحقوق .

سافيني . - كان سافيني استاذاً في جامعة بولن ، عاش من ١٧٧٤ إلى ١٨٦١ ، واعتمد في الحقوق على التاريخ على العقل والطبيعة ، وأسس مع حقوقي آخر ، آيشورن ، مؤرخ الاعراف الجرمانية ، مجلة العلم التاريخي للحقوق ، عام ١٨١٥ . ويرى سافيني أن العنصر الخالق للحق ، كالعنصر الخالق للغة والاخلاق ، هو روح الشعب التي تتجسد

في الدولة ، الدولة التي تؤمن استمرار العرق ووجوده ؛ وفي رأيه أن الدولة تختلط بالتقاليد ، والتقاليد وحدها مبدعة ، وعلى الدولة أن تكون مسلحة لتكسر القوى الفردية التي تريد الخروج عن المركز وتعارض بالفعل حاجات التنظيم الاجتماعي . وهذه القوى هي : المصلحة ، والكبرياء والعامل الفردي .

وقاوم سافيني الحقوقين العقلانيين وبخاصة الحقوق تيباوت الذي كان يطالب بوضع مجموعة قوانين في ألمانيا تذيب فيها القوانين الخاصة ، ولهذا الغرض ألف سافيني كتاباً بهذا العنوان : « موهبة عصرنا في التشريع والفقه » ، وفيه يضحى بالاجيال الحالية في سبيل تقاليد أسلافهم .

هالزر . - واتضحت هذه المدرسة التقليدية بصورة أكثر على يد هالزر وهو فقيه من بيرن ، نشر عام ١٨١٠ « اصلاح علم الحقوق أو نظرية الدولة الاجتماعية الطبيعية المعارضة لشبح الدولة السياسية الاصطناعية » ، وفيه يرى أن القوة مصدر الحق ، وهذا الحق ليس غير الحماية التي يأتي الضعيف ويلتمسها بالقرب من القوي ويضع مصيره بين يديه ، كما يجري ذلك في العائلة أو في المدينة أو في الدولة . ويقارن هالزر بين الملكية والسلطة ويقول : السلطة ، كالملكية ، مجهزة بقوة الاستعمال وإساءة الاستعمال . والحد الوحيد لسلطة الامير هو الاحترام الواجب عليه للملكية السلطة الآخرين أي النبلاء والاصناف المهنية . وليست الرعايا سوى متصرفين مؤقتين ، وبدونهم تبقى الدولة ، وما عليها إلا أن تبدل رعاياها بآخرين . فالناس إذن ليسوا مواطنين ، وليس من شأنهم مطلقاً أن يزجوا بأنفسهم في شؤون الدولة التي هي ملك الامير ويديره بواسطة خدامه المنزليين .

ويضاف إلى نظريات هالر نظريات أخرى أقل ضيقاً وأقل رجعية منها وهي النظريات التي تسمى « نظريات حزب الحقوق التاريخية » وتعرف فقط بالحقوق السياسية المبنية على الاعراف التي تؤول بالتالي في الدول إلى إبقاء أو إعادة تأليف المجالس القديمة التي يرجع عهدها إلى العصر الوسيط ، وأهم رجال هذا الحزب نيبور مؤرخ روما والاستاذ في جامعة بون .

تعترف هذه النظريات إذن بروح المحافظة الكاملة عند الأمراء وتحدد بشكل دقيق جداً حريات النبلاء وامتيازاتهم ، ولكن الأهم من هذه النظريات التقليدية هو فلسفة هيغل بنتائجها واتساعها .

فلسفة هيغل (١٧٧٠ - ١٨٣١) . - ولد هيغل في شتوتغارت ودرس ، في جامعة توبنغن ثم في سويسرا ، اللاهوت ثم فلسفة شلنغ التي تجاوزها فيما بعد . وعين أستاذاً في يينا عام ١٨٠١ ثم في نورامبرغ ، وأستاذاً في هيدلبرغ عام ١٨٠٨ ، وأخيراً في برلين عام ١٨١٨ وظل فيها حتى وفاته . وفي هذا الدور الثقافي ساهم في تحرير « صحيفة بامبرغ » مدة عام ونصف ، وأعجب بنابوليون كثيراً ، وفي ١٨١٤ و ١٨١٥ أعرب عن رأيه لصالح الحكم المطلق . وعندما تكلم عن « الوطن الطليق » أراد بذلك سيادة الأمراء ، وتحزب إذن ضد النظريات الليبرالية والثورية ، وفي كراس نشر عام ١٨١٧ دافع عن سياسة فريدريك فرتامبرغ عندما كان في نزاع مع دوله . وأثنى بعد قليل على قرارات كارلسباد ، وباعتباره محافظاً ، دعت الحكومة البروسية لاستسلام كرمي الفلسفة في جامعة برلين عام ١٨١٨ .

وقبل أن يدخل جامعة برلين نشر مؤلفاته الأساسية ووضع فلسفته : ففي عام ١٨٠٧ نشر كتاب « ظواهر الفكر » ، وفي عام ١٨١٢ « العلم والمنطق » ، وفي ١٨١٧ « موسوعة العلوم الفلسفية » . ثم أضاف

لها في عام ١٨٢٠ « فلسفة الحق » وعدداً من الدروس التي ألقاها في برلين ونشرت بعد وفاته .

كان هيغيل فيلسوفاً ميتافيزيقياً وأحد كبار العباقرة في فلسفة ما وراء الطبيعة في ألمانيا والعالم . ومن غير المفيد أن نقول ان فلسفته في هذا المظهر خارجة عن موضوع دراستنا . ولكن عدداً من النقاط يعيننا . يجب أن نشير أولاً إلى أن معارف هيغيل موسوعية حقاً . فقد وقف على نمو العلوم وجميع مظاهر الفكر الماضية والمعاصرة . فهو إذاً لا يخلو من أسس الواقع ، ولم يبن مذهباً في التجريد المحض . وكان على صلة وثيقة بالسياسة والنمو المادي لعلوم عصره . ولكنه رجل مذهب ينقل الواقع إلى النظر ويبدل وضعه ويدخله بكامله في مذهب ثم يؤسس هذا الواقع ، الذي يقف على حافته دوماً ، في ميدان ما وراء الطبيعة .

إن النقاط التي تهمنا من مجموع نظريات هيغيل هي التالية :

فلسفته في التاريخ ، ومفهومه للعلوم الاجتماعية ، ونظريته في الدولة .

فلسفة التاريخ - لم يكن هيغيل بالإنسان الذي يناضل ضد الوقائع وضد الحوادث ، إن دور الفلسفة عنده أن تفهم ما هو كائن . وما هو كائن هو العقل المتحقق . والتاريخ ، كما يقول ، « هو فهم الجالم ووعيه ، وإن من غلب في التاريخ كان على حق . لقد حكم النصر ضد نابوليون وضد الأفكار الفرنسية ، ولذا لم يتعلق بها البتة لأنها أفكار ناضبة . إن الغالبين لم يغلبوا صدفة . إنهم يستحقون الظفر لأنهم انتصروا . ويقول : « إن الشعب الذي يمثل زمناً ما من نمو الفكر له على الشعوب الأخرى كلها حق مطلق ، وليس لهذه الشعوب حقوق عليه . وإن الشعوب التي ولى زمنها لا تعتبر أبداً في تاريخ العالم » . وهذه النظرية تقوم في آن واحد برد فعل ضد النظرية العلمانية في تاريخ القرن الثامن عشر ، وضد

النظرية المسيحية . إنها رد فعل ضد التاريخ الديوي كما فهمه القرن الثامن عشر الذي يرى أن محرك التاريخ في قابلية الإنسان للكمال اللامتناهي . وهي أيضاً رد فعل ضد التاريخ الديني المحض الصادر عن القديس اغسطينوس أو بروسويه ، والذي يفترض أن النشاط الإنساني لا يقدر إلا على الخراب والعدم . أما هيغل فيرى في التاريخ السيامي « تاريخ درجات تقدم الفكر ، والتطور في نظره نمو نبتة فكرية تتضمن آثارها الأولى ظاهراً التاريخ كله ، ولا شيء يضيع في الماضي ، لأن الفكر حاضر والروح خالدة ، والأزمة ، التي يملكها الفكر تحته ، يملكها في عمقه الحاضر ، . وإن عناصر التاريخ هي الدول ، المظهر الأرضي للمطلق . إنها تعتمد على مبدأ فكري ، وتعتبر عن أمسي درجة يبلغها الفكر الإلهي الذي ينفذ في العالم في كل زمن من أزمان التاريخ ولكن هذه الدول تعتبر بصورة غير كاملة عن الفكر الإلهي . وهذا هو السبب في سقوطها . وإن جوهر التاريخ هو إذن تمييز الروح الفكرية لهذه الدول التي سيطرت ، في زمن ما ، على العالم .

وينفي مفهوم هيغل تمجيد الأزمنة البدائية ، إما على شاكلة جان جاك روسو ورجال القرن الثامن عشر ، الذين يرون أن الإنسان في الأصل صالح ولكن الحضارة تفسده ؛ أو على مثال النظرية الكاثوليكية التي تضع صفاء الإنسان وصلاحه في نشأة الجنس البشري قبل الذنب الأصلي . وينفي هيغل أيضاً تفسير التاريخ بحدوث عارضة ، ويرى أن هذه الحوادث العارضة يعدل بعضها بعضاً ، كما ينفي إرادة الناس كعامل في التاريخ ، لأن العمل البشري نقطة انطلاق لنتائج لامتناهية لا يدركها صانعوها . وعليه نرى أن نظرية هيغل تؤدي إلى تبرير الماضي . « العالم الواقعي هو كما يجب أن يكون ، والعقل الإلهي العام يجب أن يتم

بنفسه ، . وهذا المفهوم ، الذي يبرر حالة الأشياء الماضية والحاضرة ، لا ينفي إمكانية الحركة : التطور دائم دون انقطاع لأن الفكر يتابع دوماً انتصاره على ماضيه .

ويرى هيغيل ثلاثة أدوار كبرى في تاريخ العالم تمثل ثلاث درجات للحرية ، هذه الحرية المفهومة كسلطة تقرير داخلي للفكر ، لا الحرية الخارجية ، الحرية المادية .

إن أول هذه الأدوار هو دور الاستبداد الشرقي ، حيث لم يكن في الواقع سوى حرية واحدة ، حرية المستبد بذاتها ، المبنية على خضوع الجميع له .

والدور الثاني هو الدور الإغريقي - الروماني الذي سادت فيه حرية المواطن الظاهرية التي تعتمد على الحق . ولكن هذا الحق ليس إلا تجريداً للعقل منفصلاً عن الطبيعة ، وشكلاً ناقصاً للحضارة .

والدور الثالث هو ما يسميه هيغيل « الحضارة الجرمانية - المسيحية » التي تولد حرية المسيحي الداخلية ، ودور الجرمانية فيها أن تدع المبدأ يمر إلى الواقع السيامي ، لأن العرق الجرمني ، بتعاطفه مع الفكر المسيحي ، يجب أن يعتبر العرق المختار الغائي للعالم . وإن الأعراق اللاتينية والديانة المسيحية على خطأ في مضاعفة الوجدان وجعله شطرين : من جهة ، التقوى والعنصر الديني ؛ ومن جهة أخرى ، الحق ، أي المصلحة العصرية . وقد عرف لوثير والبروتستانتية كيف يذيان المفهومين في مفهوم واحد . « إن الباطن النقي للطبيعة الجرمانية ، سمح له بصهر العامل الفردي والعقل المطلق ، الدين والحق ، الوحدة الدينية والوحدة السياسية . إن العرق الجرمني هو العرق الذي يملك الصفات الطبيعية التي نخوله تلقى أممى وحي الفكر .

وإذا أخذنا بعين الاعتبار الزمن الذي كتب فيه هيغل مذهبه نجد أن هذا المفهوم لتاريخ الحضارة ، أو هذه الفلسفة للتاريخ ، ليس إلا تبريراً للسياسات الظافرة آنذاك ، ولكنه كان أيضاً سياسة أمل وتغيير لغير الراضين .

العلوم الاجتماعية وفي مضمار العلوم الاجتماعية تختلف أفكار هيغل أيضاً عن الأفكار التي سادت حتى ذلك الحين . لقد تشكلت في عصر هيغل علوم الأديان ، وتاريخ الحقوق ، وتاريخ الفن ، وفهمت على أنها دراسات وقائع . وأصبح علم النفس علماً . وانفصلت هذه العلوم المختلفة عن الأخلاق والدين والفلسفة المعتبرة علوم قواعد وتعاليم فقط . ولم يحم هيغل تمييزاً بين هذه العلوم الاجتماعية والعلوم الأصولية ، بل إنه يرى فيها كلها أشكالاً ضرورية لحياة الفكر ، ويحاول أن يمسك بمعاني هذه الحوادث الفكرية كلها . وعلى هذا النحو يقوم برد فعل ضد مذاهب القرن الثامن عشر المختلفة ، التي ترى في الحق الطبيعي تعبيراً لاستعدادات الإنسان الفطرية ، وتؤسس الأخلاق على حسابات نفعية ، وترى في الدولة نتيجة أنايا مختلفة اتفقت فيما بينها . أما هو فيرجع أسس الحق إلى حوادث فكرية . فالملكية ليست ، بالنسبة له ، اغتصاباً مادياً بسيطاً ، كما هي بالنسبة لروسو ، إنها تأكيد للشخص الذي يؤخذ بشيء خارجي دون إرادة لجعله ملكه ويدخل فيه إرادته ، وفي هذا التأكيد يجعل الآخرين يعترفون به . إن الاعتراف بهذه الإرادة المطبوعة في الملكية ، الذي هو اعتراف من قبل الناس الآخرين ، أي من قبل الإرادات الأخرى ، يشكل نوعاً من عقد تبادل ، تبادل هذه الإرادات التي تؤكد نفسها أو تتخلى . وهذا العقد هو أساس الحق . وإن الخلافات التي يمكن أن توجد بين هذه الإرادات يمكن أن تنشأ عن الطبع الفردي

وبالتالي العارضي الإرادات المتعاقدة . ولحل هذه الخلافات يجب حكم من الخارج ، حكم قوة تلفظ قرارها وتقول ماهو الحق بذاته ، وهذا هو الحق المدني ، وتعيد الحق إلى نصابه ، عندما يخرق ، بالجزاء الذي تقررره ، وهذا هو الحق الجزائي .

وهذا الحق كما يفهمه هيغيل هو الحق الخاص دون غيره : فالحياة السياسية والمدينة ليستا ، كما يريد فقهاء القرن الثامن عشر ، حالة خاصة لحياة الحق . لأن هيغيل يفصل بصورة جذرية ما هو سياسي وما هو حقوقي . ومفهومه للحق يفترض إذن سلطة تقرر لتعريف الحق وتحكم تبعاً لهذا الحق . وهذا يعني شجب الفرد كمصدر للحق . ويجنب هيغيل إرادة المواطن الفردية في خلق الحق ، ويرى أن القوانين التي سنّها المواطنون ليست إلا عملاً اصطناعياً ودون قيمة . وهذا المفهوم الفكري للحق الذي يهدم الفردية هو أيضاً مفهوم هيغيل في أساس نظريته في الأخلاق التي تعتمد على قصور الانسان عن بلوغ المطلق الذي يتطلع إليه . والانسان لا يجد الحرية الأخلاقية إلا في تسلسل الجماعات التي هي درجات مختلفة في السير نحو المطلق ، وهذه الجماعات هي : الأسرة ، والمجتمع ، والدولة .

مفهوم الدولة . - إن مفهوم الدولة الذي يوسعه هيغيل يؤلف جزءاً من فلسفته ، وهو الجزء الذي كانت له نتائج سياسية مباشرة . فبينما التاريخ يحاول عرض الحوادث الماضية ، تكون الفلسفة اكتشافاً واستنتاجاً عقلانياً ، أي فهم ما هو حاضر وواقعي . ويتعلق هيغيل بتعريف الدولة كائناً عقلانياً بذاته . ومن قبل نظر جان جاك روسو الى العلم السياسي من وجهة نظر مسبقة ، ولكنه خدع لأنه ظن بأن المواطنين كانوا سابقين للدولة المدينة بوجودها للمواطنين . أما هيغيل فيرى أن كل حل ينظر إلى الدولة بأنها أقيمت لتكفل الأشخاص أو الحقوق الفردية ، لا يمكن أن يكون أساساً

للدولة ، إذ من السهل عندئذ على الأفراد أن ينسحبوا من الدولة ، ويكونوا أعضاء فيها أو لا يكونوا . ولذا يقول العكس : « الدولة واقع مطلق وليس للفرد نفسه موضوعية وحقيقة وأخلاق إلا إذا كان عضواً في الدولة » . ويقول : « الدولة هي العقلاني بذاته ولذاته » ، هي « غاية بذاتها مطلقة » ، هي إرادة ميتافيزيقية لا تتميز عن العقل المطلق ، عن الفكر ، وباختصار عن الإله . الدولة هي الفكر من حيث يتحقق بوحي في العالم ، بينما الطبيعة هي الفكر من حيث يتحقق دون وعي . والدولة كلها تشارك في هذا الجوهر الإلهي . الدولة شكل من أشكال الوجود الإلهي . وهكذا نرى أن هيغل يفهم الدولة شيئاً مغايراً للمجتمع المدني ، ومغايراً تماماً لتنظيم قانوني لجماعة بشرية .

ويستنتج هيغل من هذا المفهوم كيفية تنظيم الدولة : فهو يرى أن فكرة فصل السلطات ، وفكرة الدستور ، قضايا ليست بذات موضوع ، إنها أفكار باطلة ، وأن الدولة في شكلها الأسمى تتألف من ثلاثة عوامل :

١ - العامل الأول والأساسي هو العنصر الملكي ، فلولا الملك لما كان الشعب سوى كتلة لا عضوية . إن للملك نوعاً من صفة إلهية ، لا لأنها من حق إلهي كما كان يقال في السابق ، بل لأن الملك يجسد الدولة ، ولأن الدولة تجسد الفكر الذي هو الله ، والمليك يلبس جلالة لا يمكن خلعها عنه ، فهو يملك إذن إدارة الشؤون ، وخاصة الشؤون الخارجية ، ويحكم دولته بسلطة قوية ومركزية ، ويعجب هيغل خاصة بريشليو ونابوليون ، وعلى الملك مع ذلك أن يعتمد على المدن لأنه يجد فيها مصالح مشروعة محترمة ، ويجب عليه مراقبتها .

٢ - العامل الثاني هو العنصر الأرستقراطي الممثل بمجالس الأمير وموظفيه السامين .

٣ - العامل الديمقراطي وهو البرلمان ، ضمان الخير العام والحرية العامة ، لأن البرلمان يعطي للملك آراء ، ولأنه هيئة إعلان ، وبدونه يبقى جمهور الشعب في الواقع لا عضواً وذرياً . ومن الطبيعي ، أن هذا البرلمان ، بالنسبة لهيغل ، لا يمثل الأفراد ، بل هو هيئة تضم مجلس الأمراء الذي يمثل مصالح الملكية العقارية ، الملكية الدائمة بالوراثة ، ومجلس النواب الذي يمثل المصالح الاجتماعية الكبيرة الأخرى : الملكية المنقولة ، الزراعة ، التجارة ، الصناعة الخ ... ومن الطبيعي ألا يكون هذا البرلمان سلطة تشريعية لأن هذه السلطة تتعلق بالملك ، ويساعده في ذلك عاملاً الدولة الآخرون . وأما البرلمان فهو هيئة مساعدة تدير الحكومة ، وهيئة تربية للشعب بالإعلان الذي تعطيه عن سير الدولة وبالصحافة التي يجب أن تكون حرة ما دامت غير خطيرة على الدولة وغير شائنة لها .

وهذا المفهوم نفسه يعين علاقات الدول بين بعضها أيضاً ، لأن الدولة ليست ملزمة بالعمل بموجب الأخلاق ، والحرب ضرورية بقوة الظروف . فهي بالتالي معقولة ، وإلهية ، ولا غنى عنها لصحة الشعوب ، كما يمنع تحريك الأمواج الماء من الفساد والصري . وأحياناً تكون الحرب وسيلة وحيدة لتحقيق الدولة . فهي إذن عامل ضروري لتطور الدولة . وهكذا قطع هيغل الصلة تماماً مع المثل الأعلى السلمي للقرن الثامن عشر .

هذه هي الملامح الكبرى لفلسفة هيغل السياسية التي كان لها تأثير كبير على العالم المعاصر . وهذا التعليم السياسي ينطلق ، كما نرى ، من مذهب يختلف اختلافاً مطلقاً عن أيديولوجيا القرن الثامن عشر كلها وإيديولوجيا الثورة الفرنسية والليبرالية المعاصرة . وقد رحب المعاصرون بهذه الفلسفة كما هي ، ولاقت في المستقبل تفسيرات أخرى ، وبعض هذه التفسيرات ليبرالية من بعض تلاميذه ، مثل كارل ماركس . أما بالنسبة لعصره فقد

ظهرت قطيعة مع الليبرالية وتبريراً لسياسة الحكم المطلق التي انتصرت في ١٨١٥ .
وبهذه الصفة كان ملك بروسيا فريدريك - غليوم الثالث ووزير التعليم
العام آلتنشتاين يفخران بأنها جاءا بهيغل إلى جامعة برلين . ولقد
أعطت فلسفة هيغل بذهبا قوة فريدة لسياسة الواقع التي سلكتها
الحكومات الألمانية .

وهناك صفة أخرى لفلسفة هيغل وهي أنها قابلة لأن تولد أو تبرر
نظرية التوسع القومي ، نظرية امبريالية الدولة ، ونظرية العزة الألمانية ،
وسُيخرج عنها نظريات تعتمد في آن واحد على التاريخ وعلى الفلسفة
ونجدها عند بسمارك وحتى عند هتلر .

وأخيراً تبدو فلسفة هيغل تبريراً لتاريخ بروسيا وسياستها . وكان
هيغل نفسه يعي هذه الصفة في مذهبه ، وقد اعترف بذلك في درسه
الأول الذي جعل موضوعه « العلاقة الانتقائية والقربى الأصلية بين الدولة
البروسية والفلسفة الهيجلية » ، وستكون فلسفة هيغل ، بالنسبة لسياسة
بروسيا ، كتاباً مقدساً ورحبة لا حد لها تمنح منها الحجج والدلائل .
ووجه هيغل النظر إلى ضرورة تنظيم الدولة ، بعد أن انصرف عن
هذه الفكرة المؤلفون الألمان لصالح فكرة أكثر مرونة وهي فكرة
الأمة . إن مذهبه يقنع ألمانيا بأنه ينبغي لها أن تتشكل كدولة لتكون
موحدة وتحقق كامة . ولم يكن في ذلك الحين سوى حكومة واحدة
في ألمانيا تستجيب حقاً لهذا التعريف للدولة وهي حكومة دولة بروسيا التي
عرفت وحدها كيف تبلغ هذا المدلول للدولة وتنظمه .

لقد كان تأثير هيغل عظيماً جداً ، وكان نجاحه مباشراً ، ويمكن
القول انه اثر في الآجل البعيد على ألمانيا المفكرة كلها ، ومن هذه

الوجهة يمكن أن تعتبر فلسفة هيغل حادثاً قطعياً في التاريخ ، لا في تاريخ ألمانيا فحسب بل في تاريخ العالم .

وفي ألمانيا استطاعت بروسيا أن تحتل مكاناً وتلعب دوراً خاصاً ، لأن هيغل أبدع الإيديولوجيا التي ستبنى عليها السياسة البروسية لتبذل الوحدة الألمانية في المستقبل .

الادارة البروسية . - لقد تمتعت بروسيا في السنوات ١٨١٣ - ١٨١٥ بحظوة كبيرة في الرأي الألماني ، لأنها كانت على رأس حركة التحرير والخلاص . ولكن خيبة الأمل كانت سريعة جداً ، لأن بروسيا اشتركت بسياسة مترونيخ الرجعية وصفت جماعة المحاربين القدماء من وطنيين وأحرار . ولكن تجدر الإشارة إلى حادثين عظيمين على الصعيد القومي في تاريخ بروسيا في هذا الدور: أولاً كان يجب إعادة صنع الدولة البروسية بعد سنوات السيطرة الفرنسية ، ولهذا الغاية ، رجعت الملكية البروسية إلى تقاليد القديمة أي إلى تقاليد الحكم المستبد . ولكن هذا الحكم ، من جهة أخرى ، كان ناجعاً مادياً ومفيداً : لقد أحاط الملك نفسه بالرجعيين من أمثال آنسيلون الذي أبعد فكرة التمثيل القومي ، والتنشتاين ، وزير التعليم العام ، وشاملز وكامبتر رئيس الضابطة (الشرطة) . وتخلي عن السياسة التي جربت خلال دور النكبة وعززت السلطة الملكية بالرأي العام وبأشراك الشعب بالحكم . وبسرعة سقطت بروسيا في النظام البوليسي التعسفي : فمن ذلك ان ١٢٠ طالباً أوقفوا في العام ١٨٢٣ بحجة التحريض ، وظلوا في السجن ثلاثة أعوام قبل أن يحاكموا . وكان نظام الرقابة ثقيلًا : فقد حذف الصحافة السياسية كلها واخضع الرسائل إلى رقابة الدولة . وفتحت رسائل الشخصيات الكبرى مثل شتاين ، نيور ، شليغل . ومنعت الرقابة المطبوعات ، وحتى إعادة طبع المطبوعات التي لا تحرض على الثورة

مثل «رسائل القرن السادس عشر» مؤلفها أولريخ دوهوتن، و «خطب إلى الأمة الألمانية» لفيخته. وحرّم تمثيل «ايغمونت» لغوته. و«غليوم قيل» لشيلر. وعين مفتشون لتطهير غرف المطالعة. وكانت السياسة الدينية تعاون سياسة القمع الفكري وتتابع استعباد الافكار للحكم: سلك الملك حيال البروتستانت سياسة الاتحاد القسري بين الكنيسة اللوثرية والكنيسة المصلحة. وأقيمت ارثوذكسية تقية متزمتة وغير متسامحة؛ وكان زعيمها النظري ويمثلها شخصاً يدعى شتال وأنشأ هذا «صحيفة الصليب» وكانت لسان «الحزب التقى». وكان شتال يهودياً اعتنق البروتستانتية وضم إلى مذاهب هالر التقليدية صوفية جديدة.

أما الكاثوليك، فقد كان أساقفتهم في السنوات الأولى يطيعون أوامر الحكومة، كما كانوا في زمن نابليون، وظلوا كذلك إلى أن قام رد الفعل ضد جهودها، عندما أرادت أن تخرجهم عن دينهم وتجعلهم بروتستانتين، ونشب الخلاف في قضية الزواج المختلط، بين البروتستانت والكاثوليك، وذهب بعيداً عندما سجنّت الحكومة رئيس أساقفة كولونيا وبوزن.

وهكذا انقطع التيار الذي كان من الممكن أن يوجه الافكار المفتوحة والمجددة نحو بروسيا الليبرالية كرهاً بالنمسا. وانتزعت بروسيا من الحركة الليبرالية أي من الحركة القومية.

وعادت الادارة سيدة الدولة. واقتصرت الاصلاحات البروسية الموعودة على اصلاح اداري بسيط. فبموجب البراءة الصادرة في ١٥ حزيران ١٨٢٣ انشئت أو أصلحت الديانات الاقليمية أي هيئات العصر الوسيط القديمة. وتتألف هذه الديانات من نواب ثلاث «هيئات» وكان ناخبو هؤلاء

النواب مالكي أطيان . وكان لهيئة الطبقة النبيلة نصف التمثيل ، و ينتخب النبلاء نوابهم مباشرة . وبالمقابل كانت هيئة الطبقة الريفية تنتخب نوابها على درجتين . ووجد في بروسيا ثمانية ديابات اقليمية ، بعدل دياط لكل اقليم ، وللدلالة على أن القصد لم يكن تشكيل الدولة احدث كل دياط من هذه الديابات ببراءة خاصة . وكانت سلطة هذه الديابات نافذة ، وكانت تدعى لاعطاء رأيها في القوانين التي تهم الاقليم ، ولتسوية الشؤون المحلية فيما يتعلق مثلاً بالطرق والاسعاف العام وتقديم العرائض . ولم يكن ليجاب على هذه العرائض إلا إذا وصلت عرائض الديابات الثمانية كلها إلى برلين . وفي الواقع ، لم يكن لهذه الديابات أي صفة تمثيلية ولا أي سلطة سياسية .

كانت المركزية قاعدة الادارة البروسية : وبوجهها كانت الدولة مقسمة إلى ثمانية أقاليم يتزعمها رئيس أعلى . وتنقسم هذه الأقاليم إلى خمسة وعشرين مقاطعة «بيزيركة» وعلى رأسها حكومة ادارة (ديركتور) جماعية تسمى « ويجيروونغ » . وتنقسم المقاطعات إلى دوائر « كرايزه » ، وعددها ثلثائة كرايزه ، وتدار من قبل لاندروات أي قائمقام ومجلس الدائرة . وقد احدثت الكرايزه عام ١٨٢٥ لتقديم مرشحين لوظيفة لاندروات .

كان هذا النظام في بروسيا أصيلاً ، وهو حل وسط ، وتسوية بين الحكومة والطبقة النبيلة . فقد تركت الدولة للطبقة النبيلة نفوذاً عظيماً في القضايا المحلية . وكانت الطبقة النبيلة مسيطرة على هذه المجالس . وكان اللاندروات يختار من النبلاء ويقترحه المجلس . ويؤلف هؤلاء القائمقامون جماعة يساق منها رجال الادارة . وكذلك تركت الحكومة للنبلاء فلاحهم . وبالمقابل ، حافظت الادارة على المصالح العامة . وكان هذا النظام يجمع بين الوظيفية والاقطاعية . ونرى فيه طبقتين ارسقراطيتين تتقاسمان

الدولة : ارستقراطية الطبقة النبيلة والبوروقراطية (الديوانية) . ولنلاحظ أن تنظيم الدولة على هذا الشكل يستجيب لنظريات هيغيل . وكانت هذه البوروقراطية الادارية ممتازة . ويتم انتقاؤها بفضل امتحانات الدخول . وقد انتج الأمن الذي خولته الانظمة الدقيقة لهؤلاء الموظفين والمبادهة المتروكة إلى رؤساء المصالح في ممارسة وظائفهم ، ادارة عظيمة بنزاهتها وكفاءتها . ولهذا كان النظام قوياً . ولكن هذا النظام كان غير شعبي بسبب استعلاء هؤلاء الموظفين وفضاظتهم .

وقامت هذه الادارة بعمل جيد : نظمت المالية البروسية وحلت قضية الاصلاح الزراعي لصالح الطبقة النبيلة واعادت بناء الجيش ، وأدخلت في الدولة البروسية الأقاليم الجديدة التي خصصت لها في العام ١٨١٥ وهي بروسيا الربنانية ووستفاليا . ودام هذا العمل ، الذي جرى في السنوات الأولى للنظام ، حتى وفاة فريدريك - غليوم الثالث في ١٨٤٠ ، ومن الممكن القول حتى ١٨٤٨ عندما قامت الثورة والغته .

وظهرت بروسيا في المانيا دولة غير ليبرالية ، دولة منظمة ، ونموذجاً للادارة بالنسبة لباقي المانيا . وعلى الرغم من أنها كانت نموذجاً لباقي الدول الألمانية ، فيجب أن نرى ان الحكومة البروسية كانت ذات نعة متطرفة خاصة ، نعة بروسية وغير ألمانية .

وكان هذا التنظيم البروسي لصالح بروسيا وحدها، ونذكر بخاصة انشاء الاتحاد الجمركي الذي امتد فيما بعد على قسم كبير من المانيا :

الاتحاد الجمركي (التسولفواين) . - لقد نسب الاتحاد الجمركي زمناً طويلاً إلى حركة عفوية قامت بها الأوساط الاقتصادية بغية الوحدة ، والى دفع الرأي وضغطه على الحكومة . غير أن الدراسات ، التي

قامت على الوثائق، برهنت على أن هذا المفهوم في نسبة التسولفراين إلى نوع من حركة قومية كان خاطئاً . ونجد تحليلاً لذلك في الفصل الأول والثاني من كتاب بيير بينير^(١) في « أصول الصناعة الكبرى الألمانية » وقد اثارت اسطورة التسولفراين الناجمة عن حركة قومية بعض تصريحات ومشروعات مؤلفين من ألمانيا الجنوبية وهم : فريدريك ليست و نيبينوس . كان فريدريك ليست استاذ الاقتصاد السيامي في جامعة توبنغن . حرر عريضة باسم شركة التجارة والصناعة التي أسسها عام ١٨١٩ بعض الصناعيين من ساكس وجنوب ألمانيا . وهذه العريضة ، المؤرخة في ٢٤ أيار ١٨١٩ ، توسع أمام الديباط احلام الاتحاد الجمركي الكبرى ، مع برلمان مشترك ودستور مشترك . وقام ليست في السنوات التالية بحملة لالغاء الجمارك الداخلية ، ووجه بخاضة « بحملة التجارة والصناعة الألمانية » ولكن مفاهيم ليست كانت مشاريع مليئة بالخيال ، وغير واضحة ، ولا تعتمد على أي مذهب تجاري محسوب .

أما نيبينوس فقد اختص بفضل كبير في اصل التسولفراين . وكان وزيراً لدولة باد ، وقدم لمؤتمر كارلسباد خطة مفصلة لرابطة جمركية بين الدول الألمانية . ولم يناقش المؤتمر هذه الخطة ولم يخرج شيء عن ليست أو نيبينوس . وكانت وجهة نظرهما الألمانية وغير بروسية ، وعلى العكس ، كانت مشاريعها ترتيبات مناوئة لبروسيا ، واتخذت رد فعل ضد مزاعم بروسيا في تنظيم جماركها .

المرحلة الأولى : . - لم يكن التسولفراين ، في الواقع ، عملاً سياسياً ، وإنما هو عمل مالي ضريبي . ولم يكن عمل رجال سياسيين قوميين ، بل عمل إداريين بروسيين وهم : المدير العام للضرائب فون ماسن

(١) راجع Pierre Bénédicts , *Les origines de la grande industrie Allemande* , PARIS 1933 .

وزير المالية من ١٨١٥ الى ١٨٣٠ ، فون موتر ، وأخيراً آيشورن وزير الشؤون الخارجية .

في ١٨١٥ أصلح النظام الجمركي في ألمانيا مع عودة النظام القديم . واحتيطت الـ ٣٨ دولة الداخلة في الكونفدراسيون الجرمانى بالجمارك كدول مستقلة . ونظمت من جديد في داخل هذه الدول رسوم المرور ورسوم « الدخولية » ورسوم العبور (الترانزيت) ، وحصر الدولة وماليها . غير أن هانوفر والمدن الحرة وحرية الملاحة على الأنهار ، التي أقرها الصك النهائي لمؤتمر فينا ، فتحتا ثغرة في وسط هذه المجموعة من الرسوم والجمارك الداخلية ، وأصبح ممكناً بهذين الطريقين أن تنصب على ألمانيا ، بالرغم من النظام الجمركي ، منتجات الصناعة الانكليزية التي تنافس الصناعة الناشئة في ألمانيا .

لقد خرج التسولفراين من واقعين :

الاول، وهو ظلامات أصحاب المصانع والتجار في البلاد الالمانية الذين سحقهم المنافسة الانكليزية ، لأن وضعهم الاداري لم ينظم بعد . فمذ ١٨١٦ و ١٨١٨ كان تجار الراين وصناعيوه يطلبون إلى الحكومة البروسية التي ارتبطوا بها أن تسوي قضية الجمارك في اتجاه ليبرالي .

الثاني ، الفوضى الضريبية التي غرقت بها بروسيا . فقد كانت بروسيا تتألف من أربعة أقسام مختلفة وجدت في داخلها كل أنواع الأشكال والصيغ القديمة ، حتى وجد في بروسيا سبع وستون تعرفية جمركية مختلفة ومرتبطة بضريبة غير مباشرة للمدن . وكانت الجمارك مختلطة بضرائب الاستهلاك . وللخروج من هذه الفوضى المعتصة صدر قانون في ١١ حزيران ١٨١٦ ألغى رسم المرور على الأنهار والجمارك

الداخلية والاقليمية ونقلها إلى حدود الاقليم ، إلى حدود أي قسم من بروسيا . وصدر أيضاً قانون في ٢٦ أيار ١٨١٨ ووضع تعرفه موحدة لكل بروسيا ، وهي تعرفه معتدلة للحيولة دون تنشيط التهريب وتشجيعه . وكان غرض هذين القانونين تبسيط النظام الضريبي وإقامة وحدة جمركية في الأراضي البروسية نفسها . غير أنه وجدت في داخل الاراضي البروسية ٢٧ منطقة تابعة لاثنتي عشرة دولة ألمانية خارجية . وكانت كل منطقة من هذه المناطق محاطة بالجدارك البروسية .

ومن جهة أخرى ، كان النظام الضريبي يتضمن رسوم استهلاك وجمارك تراكم وتدفع جميعاً ، وفي الوقت ذاته ، تعرفات ترانزيت على البضائع الخارجية التي تجتاز الأرض البروسية وكانت رسوم الترانزيت مصدر ربح للحكومة البروسية ووسيلة ضغط اقتصادية بيدها على الدول المجاورة وقد وجد بسبب هذا الوضع الجغرافي لبروسيا ، أن جميع الطرق ، التي تذهب من شمال ألمانيا إلى جنوبها ، تمر في زمن ما عبر الأرض البروسية ، إلا طريقين : الاول وهو الطريق من هامبورغ إلى هانوفر وكاسل في الغرب . والثاني ، في الاتجاه الآخر ، وهو طريق تجارة لبزيغ في بولونيا وروسيا . وقد أثارت التعريفات البروسية استياء الدول الأخرى

وعندما وضعت بروسيا تعرفه الترانزيت الموحدة لأقاليمها ، صرخت الدول التي ضربت بها وصرحت بأن بروسيا تسلك سياسة سلب ونهب حقيقية على حساب الألمان الآخرين ، وتخرق حقوق سيادة الدول ، وتخرق بخاصة المادة ١٩ من الميثاق الاتحادي التي تصرح بوضع نظام عام للجمارك . واحتجت الحكومات على الحكومة البروسية في مؤتمر كارلسباد وفيينا ، ولكن الحكومة البروسية لم تشأ أن تسمع شيئاً تاريخ الحركات القومية (١١)

وتمسكت بتعرفتها . وأمام تشدد بروسيا قامت بعض هذه الحكومات بفتح مفاوضات فيما بينها للدفاع ولمقاومة التعريفات البروسية . وبقيادة وزير هس - دارمشتات ، دوتيل ، أدت المفاوضات أخيراً إلى تشكيل فريقين مؤقتين : فريق دول الراين ، والفريق الذي شكلته بافاريا وفرانكonia (١٨٢٤) .

غير أنه كان لهذه المناطق المحاطة ببروسيا محاذير بالنسبة إلى بروسيا ، لأنها تساعد على التهريب وتعيق الناس الموجودين فيها ، حتى أن دولة سفارتز بورغ - زوندرشاوسن الصغيرة طلبت وحصلت من الحكومة البروسية ، في ٢٥ تشرين الأول ١٨١٩ ، على دخولها في التعريف البروسية . وفي ١٨٢٢ تبعت ثلاث مناطق أخرى المثل نفسه . وحذفت الجمارك بين هذه الدول الصغيرة المشمولة بالتعريف البروسية ، ودفعت الحكومة البروسية ، لها حصتها من الجمارك بنسبة عدد سكانها . واحترمت سيادة كل من هذه الدول الصغيرة ، وكل ما يتعلق بالزيارات والحجوز والأحكام الخاصة بالتهريب وغيرها ظل تابعاً لإدارة هذه الدول . وبقي الأمر عند هذا الحد . وتتضمن هذه المرحلة الأولى تنظيم تعرفه عامة لجميع الأراضي البروسية وبعض المناطق التي شملتها . ولم يذهب التفكير إلى أبعد من ذلك خلال عشر سنوات .

المرحلة الثانية . - ثم افتتحت مرحلة ثانية في تاريخ الاتحاد الجمركي بدخول فون موتر وزارة المالية ، في ١٨٢٥ ، وسلك هذا الوزير حيل الدول الألمانية الأخرى سياسة هجوم جمركي ، إذا صح التعبير : بدأ بتنظيم الإدارات المالية البروسية وتنظيم المالية والموازنة ، وركز جميع الإدارات الاقتصادية الأخرى في المملكة بيد وزير المالية . وعندما تم

هذا العمل الداخلي في التنظيم الإداري ، اهتم بادخال المناطق ، التي مازالت تقاوم بعد ، في التعرفة البروسية ، وظل هذا دأبه من ١٨٢٦ إلى ١٨٢٨ . ودخلت المناطق الواحدة بعد الأخرى في التعرفة البروسية . وهكذا زال التهريب . وعبر عن هذه الإصلاحات بتوفيرات في الإدارة وتبسيطها .

وضرب هذا النجاح المثل للدول المجاورة في تبسيط الإدارة والتعرفة الواضحة واقتصاد الإدارة ، بينما كانت الدول الأخرى ، وبخاصة دوقية هس - دارمشتات الكبرى ، جارة بروسيا ، وكانت تعاني صعوبات مالية . وكانت هس - دارمشتات تتألف من قسمين منفصلين ، ووجدت مأخوذة بين قسمي بروسيا الكبيرين ، بروسيا الرينانية وبروسيا الوستفالية من جهة ، والأقاليم الوسطى من جهة أخرى . وخنقت صناعتها من كل جهة بالجمارك البروسية . وفي تموز ١٨٢٧ اقترحت هس دارمشتات على بروسيا التفاوض بمعاهدة تجارية . وترددت بروسيا ودامت المفاوضات بعض الوقت وكانت سرية تماماً وأدت أخيراً إلى معاهدة وقعت في ١٤ شباط ١٨٢٨ . ولكن هذه المعاهدة لم تكن معاهدة تجارية ، وإنما كانت معاهدة وصول هس - دارمشتات إلى النظام الجمركي البروسي . وشكلت رابطة جمركية للدولتين . وكان قانون الجمارك البروسي لعام ١٨١٨ أساساً للتعرفة الجمركية في الدولتين . وتفاوضت الدولتان على أساس المساواة بالمثل وحافظتا على استقلالهما الإداري الذاتي ، وحق الرفض لكل منهما ، ومناقشة كل تغيير في التعرفة . ووقعت المعاهدة لسنة أعوام . وهكذا نرى أن ما كان حتى الآن تعرفه جمركية بروسية فحسب قد أصبح اتحاداً جمركياً للدولتين ، تسو لفران .

وكانت نتيجة هذه المفاوضة اثارة الاستياء في باقي ألمانيا ، وهذا الاستياء أدى إلى اتحاد جمركي بين بافاريا وفرنمبيرغ ، وكانت المفاوضات جارية بشأنه من قبل ، ووقع أخيراً في ١٨ كانون الثاني ١٨٢٨ . ومن جهة أخرى ، تألف اتحاد جمركي ثالث متوسط ووقع في فرنكفورت في ٢١ أيار ١٨٢٨ ، لمدة عشرة أعوام وضم سبع عشرة دولة ، وكانت الدول الهامة فيه هانوفر ، ساكس ، هسن - كاسل .

كان رد فعل موثر شديداً حيال هذه الحالة : فقد صرح بأنه سيقوم ضد هذه الاتحادات الجمركية الأخرى « بحرب جمارك وطرق دون هواة » . وسرعان ما رأت دول الجنوب ان اتحادها غير مجد كثيراً . وكان اقتصاد بافاريا واقتصاد فرنمبيرغ متشابهين جداً ولذا لم يكن الاتحاد ملائماً لهما . وكانت الحصيلات الجمركية ضئيلة وجبايتها تنص حتى ٤٤٪ منها . ووجدت بالاتينا البافارية المنعزلة في يسار الراين ، في حالة سيئة لأنها كانت منفصلة عن باقي الاتحاد . ولهذا الأسباب المختلفة قررت بافاريا وفرنمبيرغ المفاوضة مع برلين ، وأبدت برلين استعدادها عن طيب خاطر . وبدأت المفاوضات في كانون الثاني ١٨٢٩ وأدت إلى معاهدة ٢٧ أيار ١٨٢٩ . وكانت هذه المعاهدة معاهدة تجارية ، ولم يكن القصد اتحاداً جمركياً بعد . وتضمنت المعاهدة تخفيض الجمارك تدريجياً وعلى مراحل ، بانتظار الوصول إلى الحذف الكامل للجمارك بين الفريقين . واهتمت بروسيا حيال دول الاتحاد الجمركي المتوسط بتحويل العقبة وثقب هذا الحاجز الذي يمتد على جوانبها نحو جنوب ألمانيا . وتقاهمت مع دولتين صغيرتين خارجيتين عن بروسيا ولكن وجدت بينهما منطقة بروسية ، وكانتا ترغبان بالارتباط معاً للقيام بالتجارة بسهولة ويسر ، وهما : دوقية ساكس - كوبورغ دوقية ساكس - ماينينغن . وتم التفاهم على شق

طريق على نفقة بروسيا وهاتين الدولتين . ويذهب هذا الطريق من بروسيا إلى لانغن - سالزا ويمتاز الدولتين والمنطقة البروسية لينتهي ، من جهة ، إلى فرتزبورغ ، في بافاريا ، ومن جهة أخرى ، إلى بامبرغ في فرتامبرغ . وعلى هذا النحو يصل هذا الطريق ، عبر الاتحاد المتوسط ، الأرض البروسية بأراضي الجنوب . وعدا ذلك ، تفاهت بروسيا مع ميكلامبورغ ، أي مع هذه الدوقية الكبرى الواقعة في شمال ألمانيا على الضفة اليمنى لنهر الايلب ، لإنشاء طريق بحاذي الايلب ، على الضفة اليمنى حتى هامبورغ . وبهذين الطريقين نحو الجنوب ونحو هامبورغ حصلت بروسيا على خط مواصلات تجاري مستقل عن الاتحاد المتوسط . وهكذا حولت العبء التي وضعها الاتحاد المتوسط بين بروسيا والبحر ، من جهة ، وبين بروسيا ودول الجنوب ، من جهة أخرى . وتعزز الاقتصاد البروسي بقوة بهذا العمل الذي قام به فون موتز ، وعادت الحالة الاقتصادية إلى نقطة انطلاقها .

المرحلة الثالثة : مرحلة تشكيل الاتحاد الجمركي الأكبر . - لقد ضم الاتحاد الجمركي حتى الآن الدولة البروسية وهس - دارمشتات . أما في هذه المرحلة الثالثة فيمتد إلى الدول الألمانية الأخرى

كانت ساكس تشكو في ذلك العهد من انحطاط اقتصادي خطير . ومن جهة أخرى ، ان الحركات التي تلت الثورة الفرنسية عام ١٨٣٠ أزال بعض الوزارات الرجعية بخاصة في الدول الألمانية المعادية لكل نوع من أنواع التجديد . فمن ذلك ان استسلمت دولتان من دول بحر الاتحاد المتوسط ، وهما : ساكس - فيمار في ١١ شباط ١٨٣١ ، وهس الناخية ، في ٢٥ آب ١٨٣١ . وكان ادخال هس الناخية ، أو هس - كاسل ، في الاتحاد الجمركي البروسي ، هاما بصورة خاصة ، لأن هس - كاسل

كانت تلامس الأقاليم البروسية : من جهة ، الأقاليم اللبنانية ، ومن الجهة الأخرى ، الأقاليم الوسطى ؛ وبدخلها الاتحاد الجمركي أقامت رابطة بين جزأي الدولة البروسية .

دامت المفاوضات مع دول الجنوب ثلاثة أعوام وأدت أخيراً إلى معاهدة ٢٢ آذار ١٨٣٣ ، وبموجبها دخلت بافاريا وفرانكفورت في اتحاد جمركي مع التسولفران لمدة ثمانية أعوام . ثم دخلت ساكس بدورها في الاتحاد ، في ٣٠ آذار ١ٸ٣٣ ، وبضم ساكس ، دخلت دول تورنجه في ١٠ أيار ١٨٣٣ ، ابتداءً من تاريخ الأول من كانون الثاني ١٨٣٤ . ثم انضمت إليه أيضاً ، في السنوات التالية ، دوقية باد الكبرى ، في ١٢ أيار ١٨٣٥ ، ودوقية هس - ناسو ، في ١٠ كانون الأول ١٨٣٥ . وأخيراً مدينة فرانكفورت الحرة في ٢ كانون الثاني ١٨٣٦ . وضم التسولفران عندئذ خمساً وعشرين (٢٥) دولة تمثل ستة وعشرين مليون نسمة ، ويخص بروسيا منها ثلاثة عشر مليوناً . ويؤلف هذا المجموع فريقاً جمركياً موحداً . وتقوم فيه حرية التجارة ، ووحدة الحصائل وتقسم بنسبة السكان . وكان على بروسيا في السابق ، في ١٨١٩ ، ان تقوم بحراسة حدود تبلغ ١٠٧٣ ميلاً ، على حين أن كامل التسولفران ، في ١٨٣٦ ، كان عليه حراسة حدود جمركية تمتد على ١٠٦٤ ميلاً أي أقل مما كان لبروسيا وحدها في السابق .

علاقة الاتحاد الجمركي بالقومية الألمانية . - إن هذه النقطة تهتمنا بالذات . ونسأل بعد هذا لاي حد تجاوب التسولفران مع القومية الألمانية أو نشط الحركة القومية .

إن أول ملاحظة نبديها في هذا الشأن هي أن التسولفران لا يشمل ألمانيا

كلها . فقد بقيت ثلاث عشرة دولة خارجة عنه . وتؤلف هذه الدول الثلاث عشرة جماعتين مختلفتين :

الأولى : شكلت فيما بينها نوعاً من اتحاد جمركي ، شتويوفران ، أي اتحاد ضرائب ورسوم . وتتألف من هانوفر ، برانشفيك ، اولدانبورغ بريم ، هامبورغ ، أي الاقاليم البحرية المتصلة ببحر الشمال التي كانت على صلات هامة بالتجارة الانكليزية .

الثانية : الدول الاخرى التي ظلت مستقلة عن التسولفران والتشتويوفران .

أما دول التسولفران نفسها فقد حافظت ، مع ارتباطها فيما بينها باتحاد جمركي ، على نظمها الخاصة بالضرائب غير المباشرة ، وعلى أوزانها ومكاييلها المختلفة ، وعملة مختلفة ، ورسوم المرور . وعوض عن التفاوت الذي يحدثه هذا الحفاظ على سعر البضائع باختلاف الرسوم . وهكذا لم تشكل المانيا ، حتى ولا التسولفران نفسه ، دولة موحدة من الوجهة الاقتصادية والتجارية . وهذا الواقع يضيق القيمة القومية للتسولفران .

وهناك نقطة أخرى ، تبدو لنا ذات أهمية أساسية بالنسبة للنتائج التي نبحث عنها ، وهي أن التسولفران لم تساعد حركة رأي أو نهال له ، وعلى العكس ، اثار التسولفران عداءاً مرأ في جميع الدول : ففي هس - دارمشتات ، توجب تأجيل دعوة المجلسين لانه كان من الممكن أن تطرح المعاهدة . وفي ١٨٢٩ لم يقبل بالمعاهدة إلا مكرهين . وفي بافاريا وفرتامبرغ بدت الأوساط الوطنية الرجعية من جهة ، والأوساط التجارية من جهة أخرى ، معادية لابرام الاتحاد . وفي هس الناجبية اثار توقيع المعاهدة اضطرابات خطيرة ، وأراد الجمهور أن يقبض على موظفي الجمارك

البروسيين . وفي ساكس قام احتجاج أصحاب الأقطان ، واحتجاج تجار درسدن وليبزيغ وتجار مدن نهر الايلب ، واحتجاج مالكي الأقطان . وفي دوقية باد الكبرى كانت ثلاثة أرباع الجمهور معادية ، وعندما وافق المجلس على مبدأ المعاهدة ، عقدت الحكومة مجلساً من النبلاء فأبدى عدم رغبته بـ ٣٦ صوتاً على ٦٥ عضواً . وأخيراً ، دخلت فونكفورت التسولفراين متوردة وآسفة ، فقد لاحظت أنها منعزلة في وسط الجميع ، ولا تستطيع أن تعمل غير ذلك ، فاستسلمت . وبصورة عامة ، اضطرت الحكومات أن تضغط لأسباب سياسية على الطبقات البورجوازية والطبقات الاقتصادية بخاصة لتجعلها تقبل بالمعاهدة . ولذا يبدو لنا أن التسولفراين لم يكن نتاج حركة وجدان الجماعة الألمانية ، لأن النعرة الخاصة ما زالت موجودة والعداء للاتحاد عظيم . ولكن التسولفراين سيرى في الآجل البعيد عودة الرأي وتقديره ، وما ذلك إلا للنتائج الاقتصادية الملائمة التي عادت على الجميع بالفائدة . والنقطة الأخيرة التي يجب أن نقولها هي الآتية : هل شجع الاتحاد الجرمني على وحدة ألمانيا السياسية ؟ ان هذا المفهوم شائع ، ونجده في جميع الكتب ، وعند كثير من المؤرخين . فقد قبل على العموم ان التسولفراين كان مقدمة للوحدة الألمانية ، وان الالمان بدؤوا اتحادهم السيامي بتحقيق هذا الاتحاد الجرمني . فلنحاول أن نرى الامور عن كتب : الواقع أن بعض الالمان علقوا الآمال على الاتحاد الجرمني في سبيل الاتحاد السياسي . حتى ان موتز واضع مشروع الاتحاد كتب غداة المعاهدة مع هس - دارمشتات ، في ١٨٢٨ إلى مراسليه : « الحقيقة الواضحة هي أن الجرمن لم تكن إلا نتيجة للفصل السياسي بين مختلف الدول ، ومن الصحيح أيضاً أن اتحاد هذه الدول في كتلة جرمنية واحدة يجب أن

يؤدي إلى اتحادها في نظام سياسي واحد ، . وأضاف : « إن بروسيا ترغب في تفاهم وثيق مع الامارات التي تمثل بحق المصالح الالمانية . وفي الحالة ، التي ينحل فيها الكونفدراسيون الجرمانى ويعيد تشكيل نفسه باخراج العناصر اللامتجانسة ، يكون لنظامنا التجاري أهمية عظمى . ومن هذا الاتحاد ، الذي يبنى على المصالح الطبيعية ويجب أن يمتد بالضرورة على دول الوسط ، تولد المانيا الجرة والقوية في الداخل والخارج ، . ومن هنا نرى أن مؤتمر كان يتصور أن الاتحاد الجمركي يمكن أن تكون له نتائج سياسية آجلة ، ولكن يجب أن نلاحظ احتياطين في هذا النص .

١ - إن مؤتمر يتكلم عن اتحاد العناصر الالمانية الخاصة ، وهذا يعني ، في تفكيره ، أنه يخرج النمسا من هذا الاتحاد .

٢ - انه يتصور أن بالامكان أن تكون لهذا الاتحاد الجمركي نتائج سياسية آجلة . ولكن في أي اتجاه ؟ في الحالة التي ينحل فيها الكونفدراسيون الجرمانى ويعاد فيها تأليف دولة أخرى . وهذا ما يربنا أن النتائج السياسية للاتحاد الجمركي ، في فكر مؤتمر ، كانت بعيدة وغامضة .

وأثار الاتحاد الجمركي ، بنتائجه السياسية الممكنة ، مخاوف أشخاص آخرين : فمن ذلك ان ووميني القائم بالاعمال الفرنسي في مونيخ كتب إلى حكومته في ٤ نيسان ١٨٢٩ غداة انشاء الاتحاد الجمركي الاول : « ان هذا الاتحاد أعظم حادث مر في ألمانيا منذ الاصلاح الديني » . وخشي نتائجه وقال : سيعطي هذا الاتحاد بروسيا أهمية عظيمة جداً : « وستارس هذه الدولة على شريكاتها تفوقاً يتجاوز كل ما وجد من هذا النوع حتى هذا اليوم وكل ما يمكن تصوره » . ولكن الحكومة

البافارية طمنت بسرعة الحكومة الفرنسية بقولها بان لا خوف من الوجهة السياسية من الاتحاد الجمركي المرتقب ، لأن القصد هو الحصول على تسهيلات تجارية فقط ، وان الحكومة البافارية تحرص باهتمام على علاقاتها الطيبة مع فرنسا . واطمان روع روميني . وفي شهر كانون الثاني ١٨٣٠ كتب الى حكومته بالأ تعلق على الاتحاد الجمركي الأ أهمية ثانوية . وهذا يربنا أن الخطر الذي يمكن أن يتأتى عن الاتحاد الجمركي لم يتصور في ذلك الحين ، وان لأنكلا ولا فرنسا ، ولا النمسا ، أي الدول الثلاث التي يهملها بصورة أساسية ألا تتحول ألمانيا من الوجهة السياسية ، لم تر في الاتحاد الجمركي خطراً سياسياً يدفعها ، بغية تجنبه ، إلى القيام بتنازلات في الجمارك ، وبتغيير سياستها الجمركية .

ولنلاحظ انه إذا كان للاتحاد الجمركي نتائج سياسية على تشكيل الوحدة الألمانية ، فيجب أن تنتظر هذه النتائج طويلاً ، لأن كونفدراسيون ألمانيا الجديد ، تحت هيمنة بروسيا ، لم يتشكل إلا في العام ١٨٦٧ أي بعد أكثر من ثلاثين عاماً . وبالعكس لم يمنع الاتحاد الجمركي ، خلال ثلاثين عاماً ، بقاء النعرات المحلية الألمانية ؛ لأن هذا الاتحاد لم يقم بأي عمل في ثورة ١٨٤٨ لا في هذا الاتجاه أو ذاك . وأخيراً ، لم يمنع الاتحاد الجمركي جميع الدول الألمانية في عام ١٨٦٦ ، من أن تعلن بأنها مع النمسا ضد بروسيا ، وأن تحارب بروسيا . ويبدو لنا ، في هذه الظروف ، أن القول بأن الاتحاد الجمركي هيا وعجل وحدة ألمانيا السياسية ، أو انه كان سبباً أو نتيجة للحركة القومية الألمانية ، غير مطابق للوقائع .

رد الفعل الليبرالي والنعرة الاقليمية . - أمام هذه الحكومات القوية - المستبدة والمدعومة بعقائدية فلسفية جديدة ، وأمام هذه الحكومة

البروسية التي عززت وضعها السيامي والاقتصادي بالانحداد الجمركي ، لم يكن رد الفعل الليبرالي شيئاً مذكوراً . ومهما يكن هذا الانحداد الجمركي في المستقبل فقد كانت نتائجه المباشرة ، على أي حال ، تعزيز النعرات الاقليمية ، واعتبره الألمان مشروعاً بروسياً ضد ألمانيا الاتحادية . وكان معزراً للنعرة الاقليمية لأنه وسع قوة بروسيا الداخلية وقوى ، برد الفعل ، روح النعرة عند الدول الأخرى ، وبالتالي أسهم في فصل الأحرار الألمان عن بروسيا بعد أن خيبت آمالهم بتخليها عما كانوا يعتبرونه رسالة بروسيا في ١٨١٣ و ١٨١٥ .

وهذا التخلي من الرأي الألماني عن بروسيا يلاحظ في أفول جامعة برلين : لقد خسر أساتذة جامعة برلين الشعلة التي حركتهم عام ١٨١٣ و ١٨١٥ ، وأصبحوا دون حياة ودون عمل . ولم يعد للاهوتين الدور الذي كان لهم في السابق . فقد شاخ شليرماخر ولم يبق له نفوذ وتجاوزت حركة الرأي زملاءه مثل نياندر . ووجد بين الفقهاء في اللغة رجال مشاهير مثل بوخ ولاخمان ولكنها اختصاصيان وليس لهم أي تأثير سياسي . ولم يكن المؤرخان داومر ورائكه حرين ليبراليين . وخارجاً عن هيغل ، وكان عظيم التأثير ، فقد أساتذة جامعة برلين التأثير الذي كان لهم في ألمانيا ، فضلاً عن أن الناس الذي فتحته جامعة برلين مع الروح الألمانية والقوة المبدعة التي تنشطها قد ذهباً هباءً منشوراً .

مانتزل . - وهذا الحادث هام لأن الحرية ، أمام الحواجز السياسية التي كانت تمنع كل حياة عامة في ألمانيا ، لجأت إلى العالم الفكري . إن النزعة الابداعية ، الليبرالية والقومية معاً ، التي كانت نزعة ١٨١٣ مازالت مستمرة وبمثلة بكاتب اسمه مانتزل ، وكان كاتباً ناشئاً وأحد مؤسسي اتحاد الطلاب (البرشنشافت) . وقد طرد بسبب ذلك والتجأ في سويسرا

حيث أسس في العام ١٨٢٤ جريدة « الصحف الأوربية » ، ثم عاد بعد بضع سنوات إلى شتوتغارت بعد أن عفي عنه ، وكانت شتوتغارت في ذلك العهد أهم مركز فكري في ألمانيا. والتقى فيها بخاصة بالبارون كوتس وكان ناشرًا كبيراً ، نشر غوته وشيلر وجمع حوله كل أنواع الكتاب الألمان من مختلف النزعات ، وحتى الكتاب التقدميين . وأسس كوتس وأدار عدة مجلات منها : « الجريدة العامة » التي ظهرت في اغسبورغ وكانوا يسمونها في فرنسا « صحيفة اغسبورغ » ، و « الحوليات السياسية » وهما مجلتان سياسيتان ، وأيضاً « جريدة الصباح » وهي أدبية يديرها شاعر يسمى شواب ، وكانت دارها مركز اجتماع لكتاب ألمانيا الجنوبية . وهناك مجلة للاقتصاد السياسي تدعى « هسيروس » وكانت يديرها اقتصادي ليبرالي يسمى شولتز . وقد عهد الناشر وصاحب المكتبة كوتس إلى ماننزل ، في شهر تموز ١٨٢٥ ، بإدارة ملحق أدبي لجريدة « الصباح » ، يسمى « الصحيفة الأدبية » ، وقد أصبحت بسرعة ، تحت إدارة ماننزل ، جريدة نقد تسمع في ألمانيا أكثر من غيرها . وفي ١٨٢٨ ، نشر ماننزل مؤلفاً أحدث كثيراً من الضجة ، وكان أول مؤلف جامع في « أدب ألمانيا المعاصر » . ولاقى هذا الكتاب نجاحاً كبيراً يتجاوب مع الروح الجديدة ، ويجمع الاتجاهات الليبرالية للمدرسة الأدبية الناشئة . وفي جماعة ماننزل الليبرالية نجد الروح نفسها التي كانت سائدة في البرشنشافت أي الليبرالية والوطنية والروح الدينية . وكان ماننزل يريد أن يقيم علاقة وثيقة بين الحياة والكتب ، ويوحد الأدب والسياسة ؛ ويقول : « اليوم تحمل الأفكار محل الرجال ، ولا ينازع من أجل سيد ؛ بل يناضل في سبيل مبدأ . الحرية وحدها خصبة ، والعبودية عقيمة ، والقتال في سبيل الحرية واجب كما هو حق »

بوونه . - كان من ظروف الحياة الأدبية الشديدة ، ومن الرقابة ، التي تمارسها السلطات ، توجيه الأفكار نحو الليبرالية . وأوضح مثال على ذلك الكاتب بوونه وكان أبوه يهودياً وصاحب مصرف في فرنكفورت ولد في ١٧٨٦ ودرس الطب ثم الحقوق ودخل الإدارة وكانت فرنسية آنذاك ، وشكرته السلطات الألمانية الجديدة على ذلك في العام ١٨١٣ . وباعتباره يهودياً كافع في سبيل حقوق أبناء جلدته وطالب بحرية الصحافة بشكل خاص . وفي العام ١٨١٨ صاباً بغية الحصول على وظيفة يحسن بها وضعه . ولكنه وضع جانباً وتابع كفاحه في سبيل حرية الصحافة ، ونشر بخاصة في ١٨١٩ كراساً ضد الرقابة . وبسببه حذفت نبأاً جريدتان كان يعاون فيها أو أسسها . عندئذ أخذ يقوم برحلات إلى هايدلبرغ ، باريس ، وهامبورغ ، وفيينا . وفي هذه المدينة عرض عليه متزينخ : وظيفة على أن يدفع سكوته ثمناً لها ، فرفض ثم ذهب إلى باريس ونشر عن رحلته الأولى إلى باريس « لوحات باريس » وهي وصف لباريس السياسية والأدبية وغير ذلك في السنوات ١٨٢٢ - ١٨٢٥ . وأسس جريدة «الميزان» . وفي بداية عام ١٨٣٠ استقر في باريس وأراد أن يعيش فيها . كان بورنه شغفاً بحب كل ما هو عميق وحر وصحيح . كافع للحرية الألمانية ، وكان رجلاً متحمساً ، عنيفاً ، ساذجاً ومملوءاً حرارة . يحسن التحكم ، ويناضل به ضد الرجعيين الألمان . وإذا رجعنا إلى أصله رأينا فيه الواقع الأول الذي سنراه مرات عديدة وهو الاتجاه السياسي الذي خرج من ظروف الكاتب الشخصية وحياته .

الحزب الدستوري . - وكان هؤلاء المفكرون الليبراليون كثيراً ومنتشرين في ألمانيا كلها . وكانت ألمانيا بلداً فقيراً وزراعياً بعد ، وبورجوازيته قليلة وحركة المفكرين الأحرار فيه دون تأثير كبير . وحل

محل هذه الحركة حركة الأحرار السياسيين في ألمانيا الجنوبية . وقد تأثر هؤلاء بالأفكار الفرنسية وشكلوا مدرسة دستورية مقابل المدرسة التقليدية ومدرسة الحقوق التاريخية اللتين رأيناهما . وكانوا ينادون ، على الطريقة الفرنسية ، بالحق الطبيعي وسيادة الشعب . وكان يمثلهم ممثلان هامان من رجال دوقية باد - الكبرى وهما دوتيك وكان استاذاً في جامعة فريبورغ ، نشر في ١٨١٩ كراساً اسمه « أفكار في مجالس الدولة » وفيه يقول : « الدولة تمثل الشعب ، وليست الحكومة إلا مندوباً عن الشعب ، فعلى الدول اذن أن تأخذ جميع السلطات من الشعب لتراقب الحكومات » . ونشر بعد قليل « القاموس السياسي » ، وكان بمثابة دليل للأحزاب الدستورية .

والمثل الآخر لهذه المدرسة فيلكر ، مؤلف « التاريخ العام » ، وكان آثارياً ومؤرخاً معاً ، واستاذاً في جامعة بون ، ثم أصبح بعد ذلك نائباً في دوقية باد الكبرى . وكان هذا الحزب يطالب بدستور يضمن الحرية والمساواة للمواطنين ، ويمنع تجاوز الحكومة والاكليروس والطبقة النبيلة . ويجب أن نلاحظ بأن الحرية لا تستطيع أن تتوطد في ذلك الحين ، في ألمانيا ، إلا في الدول الصغرى : ولكن هذه الدول الصغرى كانت ذات نعة اقليمية فظيعة .

وكان هذا الحزب الدستوري يمارس تأثيره عن طريق نواب مجالس الدول التي لها دساتير : وكان هؤلاء النواب يفخرون بالحالة الاجتماعية المتقدمة وبالحرية التي كانت عندهم وحرم منها المان الشمال . وكانوا يحتقرون المان الشمال . وكانت هذه المجالس في كالسروه وشتوتغارت ومونيخ وفيسبادن . وكان هؤلاء السياسيون من أعضاء مجالس ألمانيا

الجنوبية أناساً متواضعين وأقرباء وشرفاء ومسالين جداً ويتذوقون الدخول في التفصيل والعناد ، وينقصهم الاشعاع كثيراً وليس لهم مذهب . وفي الحقيقة لم يكن عندهم طبقة مثقفة كافية لتغذية جهاز سياسي . وكانت الكثير من أعضاء هذه المجالس في ألمانيا الجنوبية يساقون من بين الموظفين ، ولذا لم يكونوا أحراراً بالمعنى الصحيح للكلمة . ومع هذا فقد استطاع هؤلاء السياسيون في ألمانيا الجنوبية أن يقوموا بعمل مفيد ، لأنهم كافحوا في سبيل الكرامة البشرية وتمسكوا بحقوق الوجدان وحاولوا أن يقيموا كثيراً من الاخلاق في الحياة السياسية . وحصلوا برقابتهم وبملاحظاتهم للحكومة على تحسين مالية الدولة ، وتحسين في العدالة ، وبعض التقدم الاجتماعي ، مثل الغاء السخرة والاعشار الدائمة (ضريبة الكنيسة) ونمو الملكية الصغيرة . واستطاع هذا الحزب الدستوري ، رغم قلة شأنه ، أن يحصل على منع محاكمة الليبرالية . ولم يستطع رجاله ابداء مطالب رصينة ، ولكنهم حافظوا على المفهوم الليبرالي . وماهمنا بخاصة هو انهم لم يرتفعوا إلى الفكرة القومية بل كانوا يرون أن الحرية هي الشيء الاساسي ، وان الحرية قبل الفكرة القومية ، وقبل فكرة القوميات ، على عكس ما رأيناه في ١٨١٣ و ١٨١٥ .

هذا ولم تقصر ثورة ١٨٣٠ ، في ألمانيا ، كما في كل مكان ، في تشجيع حركة الأفكار السياسية . وكانت حكومتا روسيا والنمسا منهنكيتين بمشاغل السياسة العامة والتدابير التي يجب اتخاذها للحيولة دون ثور الثورة ، ولهذا السبب لم تهتما بألمانيا وتركنا الحكومات المحلية لنفسها . وكانت بإمكان الأحرار القيام بعمل مباشر . وقد أعطي هذا العمل الدليل على فقدان التربية السياسية الكاملة عند الشعب الألماني ، وانحطاط الروح

القومي ، الذي ظل في الواقع محدوداً جداً وضئيلًا ، وعلى نقص القوة والافكار عند الالمان . ولم تكن هنالك الا مظاهرات صاخبة قليلاً أو كثيراً ، حتى ولا محاولات ثورة كما رأينا في ايطاليا .

وكان طبعياً أن يمل الأحرار بالاجماع للثورة . وفي بعض المدن ذهب هذا التهليل حتى التظاهرات المدوية : ففي هامبورغ ، مثلاً غطيت المدينة بالاعلام الفرنسية ، وحملت النساء الشعار المثلث الألوان على قمصانهن . وفي دول الشمال ، في ساكس ، وهانوفر ، وهس - كاسل وبرانشفيك كان أساتذة الجامعات يوجهون المظاهرات مع الطلاب والموظفين ويساندون بعض القضاة المحليين في المدن الصغيرة . واستطاعوا أن يحصلوا على تنازلات من الحكومة وأحياناً على دستور دون كبير مقاومة ، أو على الأقل ، على تغييرات في الوزارة ، والاستعاضة عن الوزارات الرجعية المتطرفة بوزارات أقل رجعية . وفي الواقع ما أن تمضي المفاجأة إلا وتعمل الحكومات دون حسنية على استرجاع الامتيازات التي منحها في أوقات الخوف والهلع ، وتعاود القمع . وبقي من كل ذلك بعض تدابير مثل : زوال تجاوز النظام الاقطاعي عموماً ، والحياة الفكرية النشطة ، والطرق الاقتصادية الجديدة ، وبنتيجة هذه الاصلاحات تقل التفاوت بين دول الشمال ودول الجنوب .

الحياة السياسية في المانيا الجنوبية . - وكانت الحياة السياسية في دول الجنوب أكثر صخباً منها في دول الشمال . وكانت الانتخابات توصل إلى المجالس أحراراً أكثر حماساً واندفاعاً من أسلافهم ، بل وحزباً راديكالياً . وتكثر الجرائد رغم الرقابة ، وتقيم الحكومات عليها الدعاوى وبالتدريج تزول هذه الصحف . وتعيش البورجوازية في المانيا الجنوبية خلال بضعة أسابيع ، وربما بضعة أشهر ، كما يقول ادنست دوني « في حالة سبات

مضطرب ، : كان يصوت على عرائض لصالح بولونيا ، وتنظم وتغني أشعار على شرف البولونيين ، وينادي باخاء الشعوب ، رغم الرقابة التي تحاول منع هذه المظاهرات ، ورغم قرار الديباط المؤرخ في ٣٠ تشرين الاول الذي يحرم العرائض الجماعية . ونجد في كل هذا يقظة للحياة السياسية لا تنطفئ في السنوات التالية وذلك في الحدود التي تستطيع فيها هذه الحياة السياسية أن تظهر بالرغم من تدخل الحكومات . ولقد ساعد اتحاد الصحافة الأحرار على دعم وزن الدعاوى التي أقيمت على الصحف وقامت مظاهرات أعم من هذه الاضطرابات المحلية : ففي ٢٧ أيار ١٨٣٢ نظم احتفال سياسي كبير في قصر هامباخ ، في بالاتينا البافارية ، ورفع على أبراج القصر علم اتحاد الطلاب (البرشنشافت) ، وشربت الانتخاب ، وخطبت الخطب على سيادة الشعب والدول الحرة المتحدة في ألمانيا وأوربه . وتجدر الإشارة في هذه المظاهرات الألمانية إلى حضور فرنسيين وبولونيين وتشيكين . واستطاعت جنود الماريشال دو فويده أن تبثر هذه المظاهرات بسهولة ، وتوقف بعض المتظاهرين . ونظراً لتدابير القمع التي اتخذتها الحكومات اضطر غلاة الأحرار إلى تشكيل جمعيات سرية لمتابعة حركتهم ، وحاول المتحمسون منهم أكثر من غيرهم ، مختلطين بالبولونيين ، وكانوا طلاباً على العموم ، ان يقوموا بضربة قوة بالمهجوم على فرنكفورت ، في ٣ نيسان ١٨٣٣ ولكن هذه الضربة اخفقت ووقع فيها تسعة قتلى وأربع وعشرون جريحاً . وبالأجمال لانجد في كل هذه الاضطرابات شيئاً رصيناً ، كما نلاحظ أن الدول البروسية فيها ظلت دون حراك تماماً .

ما هو المكان الذي تشغله الفكرة القومية في هذه الاضطرابات ؟
كان ضئيلاً وتافهاً تقريباً : طلب هنري دوغاغيون ، نائب هس - كاسل .
الى مجلس هس ، أن تتحد المصالح المادية والفكرية في ألمانيا بحرية .
ويبين أن اتحاد هذه المصالح الألمانية ضروري لمقاومة اطماع فرنسا وقوة روسيا .
وطلب نائب باد ، فيلكر ، في كارلسروه ، اجتماع مجلس الكونغرسيون .
وفي مظاهرة هامباغ كان الدكتور فيوت ، الرجل الوحيد الذي كانت عنده
فكرة واضحة ، وكان يتصور وحدة ألمانية بشكل اتحادي . ونشر
كاتب ناشيء من أصل برومي ومقيم في ساكس ، يدعى موندت ، في
العام ١٨٣٢ ، كراماً يسمى « وحدة المانيا في النمو السياسي والروحي »
وأراد اتحاداً سياسياً يفسح مجالاً لأشكال دستورية يحافظ فيها على الطبع
الخاص لكل شعب . ونجد في ذلك رغبة في وحدة قومية أقوى وفي الحفاظ
على النعرات المحلية .

وعلى العموم ، يمكن القول أن الفكرة الليبرالية في حركة ١٨٣٠ ،
كانت فوق الفكرة القومية . فمن ذلك أن زعيم أحرار الجنوب ، روتيك ،
قال في خطاب له في ١٨٣٢ : « أنا مع الوحدة الألمانية ، وأتمناها ،
وأريدها ، وأطالب بها ، لأن الوحدة وحدها ، في القضايا الخارجية ،
تعمل من ألمانيا دولة قادرة على ابقاء الاحترام ، وتمنع وقاحة الاجنبي
من الاغارة على حقوقنا القومية » . ونجد هنا أن المطالبة بالوحدة مرتبطة
أساساً بفكره بعظمة ألمانيا الخارجية أكثر بكثير من ارتباطها بالتحويل
الداخلي . ويتابع : « ولكنني لا أريد وحدة تجرنا إلى حرب ضد أعز
مصالحنا وعواطفنا الخاصة ، أو تضطرننا ، في القضايا الداخلية ، نحن
سكان الراين ، إلى الاكتفاء بالحرية التي تكفي بوميرانيا والنمسا . أريد
الوحدة ، ولكن مع الحرية وأفضل أيضاً الحرية دون وحدة على

الوحدة دون حرية . ولا أريد حرية تحت أجنحة النسر النمساوي أو
النسر البروسي ،

وأبان هاین الكره الذي كان يكنه ضد التعصب وبخاصة ضد المتعصبين
الرجعيين : « أما ما يتعلق بفريسي القومية الذين يتآخون اليوم مع
كراهية الحكومات ، ويتمتعون بحب الرقابة واحترامها ، فاني احتقر
غمة هؤلاء الخدم الذين يسلكون مسلك الابطال باللباس الأسود والأحمر
والذهبي » .

ان كل ذلك سبب القطيعة مع بروسيا : لقد كان الأحرار جميعاً
معادين لبروسيا بعد أن أصبحت رجعية وأثانية . ان أحرار الجنوب ،
بالرغم من أن روتيك من جانبه مازال يفكر بإمكانات بروسيا
الدستورية ، والكتاب الذين سيؤلفون آجلاً جماعة « المانيا الفتاة » ،
ومدير « الهسبيروس » ، مجلة الاقتصاد السياسي ، شولتز ، الذي نشر
عام ١٨٣٣ ، الكراس « وحدة ألمانيا بتمثيل قومي » وصرح فيه بأن
بروسيا لا يمكن أن تكون الدولة المركزية للوحدة الألمانية لأنها أصبحت
مكروهة من ألمانيا ، ان هؤلاء جميعاً قطعوا صلتهم بروسيا ، وولوا ظهورهم
نحوها . ومن النادر أن يرى حر مثل الفرثامبورجوازي بفيتسر ، الذي
نشر عام ١٨٣١ كراساً باسم « تبادل الرسائل بين المانيين » وطالب فيه
بفصل ألمانيا والنمسا ، لأن هذا يضع بالبداهة ألمانيا تحت ضغط بروسيا .
وعلى العموم ، يمكن القول بأن كل هذه الحركة الليبرالية دارت صراحة
ظهرها لبروسيا الرجعية . وظلت هذه الفكرة القومية المختلطة بالفكرة
الليبرالية غامضة جداً وملتبسة جداً . وأدت الحركة الليبرالية ، التي هي
الأساس ، إلى إبعاد المائتين الدولتين الكبيرين الألمانيين : بروسيا

والنمسا . وإذا انفصلت ألمانيا عن حكومتى الدولتين الأساسيتين ، فما كان ليرى في ذلك الحين من سيضع ألمانيا أو كيف يمكن صنع ألمانيا .

ود الفعل الرجعي . - وكانت نتيجة هذه الحركة الليبرالية تقدماً لرد فعل جديد وانتصاراً للاستبداد والتحكم . وقد اتخذ الديباط تدابير اتحادية بعد مظاهرة هامباخ وبعد ضربة الهجوم على فرنكفورت . وعدد بروتوكول ٢٨ حزيران ١٨٣٢ المبادئ والتدابير القابلة للتطبيق في ألمانيا كلها ، نذكر منها :
١ - ان العامل لا يمكن أن يكون مرتبطاً بدستور يقر التعاون مع المجلسين .

٢ - ان التشريع الداخلي للدول يجب الا يلحق ضرراً بأهداف الكونفدراسيون .

٣ - ان لجنة من الديباط ستأخذ علماً بمناقشات مختلف المجالس الخاصة بالدول .

٤ - الا يسمح في كل دولة بهجوم على الكونفدراسيون ، وللديباط وحده الحق في تفسير صك الاتحاد .

٥ - يختص الديباط بحق التدخل العسكري في الدول عند الحاجة .

٦ - يطلب الديباط إلى جميع الدول أن تقمع ، تجاوز الصحافة بشدة .

ان هذا البروتوكول المؤرخ في ٢٨ حزيران ١٨٣٢ يؤلف سلاحاً لتدخل مستمر للديباط في داخل كل دولة . وفي ١٢ حزيران ١٨٣٢ ، بعد واقعة فرنكفورت ، اتخذت مقررات في فينا لانهاى التدابير ضد الصحافة والجامعات ، وشكلت لجنة تحقيق في فرنكفورت للكشف عن فروع الحركة الثورية في ألمانيا كلها .

وفي الدول الخاصة اتخذت عدة تدابير مشددة ضد الأحرار . وظلت اللجنة الاتحادية تعمل حتى ١٨٣٦ ، ولاحقت ١٨٠٠ شخص وحكم على ٢٠٣ طلاب منهم ، وأوقف شولتز مدير « الهسيروس » في دار-مشتات وحكم بالسجن خمسة أعوام ، واستطاع أن يهرب ومات في المنفى ، كالدكتور فيرت . وفي دوقية باد الكبرى ، أحيل الأستاذان الحران روثيك وفيلكر على التقاعد . والغى قانون الصحافة . وفي هس أوقف زعيم الأحرار سيفلستر جوردان ، أحد واضعي الدستور ، وانهم وحكم بخمسة أعوام بسجن القلعة ، بعد دعوى دامت أربعة أعوام . وأوقف الكاتب الناشئ دويتر ، الشاعر المعروف ، لأنه كان في شبابه ، وهو طالب ، مشتركاً في جمعية سرية . وأقيمت بحقه دعوى مع ٢٠٤ شبان آخرين . ودامت الدعوى ثلاثة أعوام ، وحكم عليه بالموت ، ولكن عقابه خفف إلى ثلاثين عاماً سجنًا ؛ وسينشر آجلاً مثل سيلفيوبيليكو كتابه « سنوات الاعتقال » . وفي كل مكان تزعم الوزراء الأقوياء الحكومات . وهكذا توصل إلى السلطة : في بافاريا ، فالرشتاين وآبل ؛ وفي هس ، هاسنبفلوغ ؛ وفي باد ، بليتر سدورف ؛ وفي بروسيا ، جهاز ثان من الرجعيين مثل تشوبيه وكومبست . وعلق دستور هانوفر في العام ١٨٣٣ .

وبعد حركة الاضطراب هذه عادت ألمانيا من جديد فسقطت بسرعة في حالة خور واعياء دامت حتى قبيل ١٨٤٨ . ولم يكن هنالك من رصيد فعال من وجهة النظر السياسية . وظلت ألمانيا حتى عام ١٨٤٧ في نفس الحالة التي كانت عليها في العام ١٨١٥ .

٢ - الحياة الفكرية واتجاهها القومي

لقد ظلت الحياة السياسية ضعيفة في ألمانيا ، ولكن الحياة الفكرية فيها كانت ، على العكس ، نشطة ، وبهنا منها بالنسبة لموضوعنا اتجاهها القومي .

كانت الحياة الفكرية كثيفة ومضطربة ، ونجد فيها اتجاهات متناقضة ، ونظماً مختلفة ، بعضها منفصل عن كل حركة سياسية ، وبعضها الآخر يتصل أحياناً بمحركات فكرية رجعية . وهذه الحياة الفكرية وإن لم تمس الحياة السياسية ، كانت ذات لون سياسي ، وكانت لها نتائج سياسية بسبب التباين بين نشاطها وبين جهود العالم السياسي من جهة ، وبسبب الضغط السياسي الذي كان يعيق حرية توسع الحياة الفكرية ويوجه عالم الفكر نحو حلول أخرى . وكان لهذه الحياة الفكرية ، بالرغم من كل ذلك ، نتائج هامة في خلق الروح القومية وفصل الألمان عن النظام الذي كان عائقاً للحياة الفكرية والروحية في كل مكان .

الجامعات الألمانية . - كانت الحياة الجامعية في ألمانيا حية ونشطة ، وتؤدي واجباً قومياً رفيعاً ، وكان تأثير الأساتذة في ألمانيا أعمق بكثير من تأثير الصحافيين أو رجال السياسة في فرنسا . وكانت الجامعات عديدة ؛ ثم أضيف إليها جامعات أخرى كجامعة بون التي تأسست عام ١٨١٨ لتجعل الأقاليم الجديدة التي ورثتها عن مؤتمر فينا بروسية ؛ وجامعة مونينغ عوضاً عن جامعة لاندشوت القديمة التي حلت محل جامعة انغولشتات اليسوعية ؛ وجامعة زورينغ عام ١٨٣٣ وجامعة بون ١٨٣٤ اللتين أضيفتا إلى جامعة بال القديمة ، ولم تكن هذه الجامعات الأخيرة جامعات ألمانية ، ولكن لغتها ألمانية ، وكانت ملجأ للأساتذة الأحرار الذين طردوا من

ألمانيا أو الذين غادروا ألمانيا ، ولها تأثير كبير في ألمانيا الجنوبية . وقد عني الألمان بالحياة الجامعية كثيراً واهتموا بها ؛ حتى إن الحوادث التي كانت تمر في هذه الجامعات كانت تؤثر فيهم وتستهوهم أكثر من أي حادث يجري في مجلس سيامي ، وكان الجدل بين المدرستين الفلسفتين ، مدرسة شلير ماخر ، ومدرسة هيغيل ، أو الجدل بين اللاهوتيين الكاثوليك ، وعقلاني مدرسة هرمس من جهة ، والأحناف الذين أصبحوا بابويين متطرفين بتأثير الإبداعية والبابوية من جهة أخرى .

كانت هذه المنافسات الجامعية أو الفكرية تجتذب ألمانيا كثيراً ، ولنذكر تأييداً لذلك هذا المثال :

في عام ١٨٣٧ ألغى ملك هانوفر الجديد أرنت أوغوست الدستور الذي سبق أن منحه أبوه لها نوفر فاحتج سبعة أساتذة من جامعة غوتنغن ، فعزلهم الملك . وهؤلاء الأساتذة هم : الأخوان غريم ، فيبر مخترع السيليغراف الكهربائي ، والمستشرق ايفالد ، وأستاذان في التاريخ أو العلوم السياسية ، غوفينوس ودالمان . وقد أثار عزل هؤلاء الأساتذة هياجاً كبيراً في ألمانيا ، وبالطبع من غير الحكومات ، عندما رفض الديباط طلب التدخل الذي قدمه هؤلاء الاساتذة . وفي ليزيغ تأسست حلقة لجمع المال لمساعدة الأساتذة . وفي كل مكان صوت على عرائض على شرفهم . وقدمت إليهم كراسي في جامعات أخرى أو دكتورات شرف .

قضت تدابير القمع هذه قضاءً تاماً على الحياة السياسية في الجامعات إما بعزل الأساتذة وإما بالرقابة على الطلاب ، حتى ان الطلاب الذين انتسبوا إلى البرشنشافت لم يستطيعوا الحصول على وظائف في الدولة والكنائس والمدارس ، وحرّم عليهم أن يكونوا أطباء ومحامين . هذا

ولما لم تكن الحياة السياسية سوى جزء ضئيل جداً من هذه الحركة الجامعية ، ولذا لم يكن لها من أهمية .

وإذا كانت الحياة الجامعية ضعيفة من وجهة النظر السياسية فقد كانت لها دواع أخرى للاعتزاز والفخر . لقد كانت الحركة العلمية عظيمة : في الرياضيات ، والكيمياء ، وعلم الحياة ، وعلم النفس الفيزيائي ، وفقه اللغة ، والتاريخ . ونبغ عدد من المؤرخين مثل دويسن المختص بالتاريخ القديم . فقد نشر « تاريخ ماكدونيا » وتكلم فيه عن فيليب ماكدونيا ومحاولة توحيد إغريقية ، كما يتضمن هذا التاريخ تلميحات لتاريخ ألمانيا الحاضرة ؛ والمؤرخ وانكه ، فقد نشر عام ١٨٣٤ « تاريخ الشعوب الرومانسية والجرمانية » . وهو مؤرخ متهن ، وجداني ، واسع المعرفة ، موضوعي لم يشتغل بالسياسة . ولكن تلاميذه خرجوا على هذا الموقف الموضوعي مثل زيديل عام ١٨٣٨ عندما طالب « بحق المؤرخ في المهوى » وطلب من الجامعات أن تتأثر بروح العصر . وبين فقهاء اللغة نذكر لاهمان . فقد نشر في عام ١٨٢٦ ، نشرة نقدية لللمحة النيبيلونغن ، وجاكوب غويم ، نشر عام ١٨١٩ « علم النحو الألماني » ، وفي عام ١٨٢٨ « الحقوق القديمة الألمانية » ، وفي عام ١٨٣٥ « علم الأساطير الألمانية » . وإلى جانب هؤلاء نجد ما هو خاص بألمانيا ، وهو مفسرو الكتاب المقدس . فقد تشكلت مدرسة بكاملها تهتم بالكتاب المقدس ، وتدرس النصوص البدائية والتاريخ البدائي للكنيسة في توبنغن حول كريستيان باور . وخرج من هذه المدرسة بعد بضع سنوات كتاب ترك أصداء كبيرة وهو « حياة يسوع » لمؤلفه دانييل يواكيم شتراوس . فقد طبق شتراوس الطرق النقدية والتاريخية على تاريخ يسوع ، وأراد أن يستخلص من هذا التاريخ ما هو تاريخي حقاً ، وما هو أسطوري ببساطة ، وفي آخر تحليله

لم يبق شيء تاريخي من حياة يسوع . فقد فسر يسوع بكامله بأساطير .
وأثارت هذه المدرسة التفسيرية حركة حملت على الدين على يد آرنولد دوغان ،
وفويرباخ ، وهذا الأخير تلميذ يساري لهيغل نشر عام ١٨٤١ مؤلفاً يدعى
« جوهر المسيحية » . وانتهى هؤلاء الهياغلة إلى نفي الدين .

وأخيراً تحقق الاتصال بين هؤلاء العلماء بعقد مؤتمرات اختصاصيين
وخبراء : ففي ١٨٢٢ بدأت مؤتمرات علماء الطبيعة والأطباء ، وفي ١٨٢٨
مؤتمرات فقهاء اللغة ، وفي السنوات التي سبقت الثورة أصبحت هذه
المؤتمرات ، كما في إيطاليا ، وسيلة سياسية لنشر الفكرة القومية . وفي
١٨٤٦ بدأ الجرامنة يعقدون المؤتمرات .

ولاشك في أن هؤلاء العلماء لبسوا رجالاً سياسيين ، ولكن هذا
النشاط الذي قاموا به كانت له أهميته ، لأنه ينمي روح البحث والنقاش
النقدي الذي أخذ يصطدم بنظام الرقابة السياسية ، وسبب ذلك ،
انقلب إلى استياء من النظام . وعلى نقض الجمود السياسي كانت هذه
الحياة الفكرية نشيطة وأصبحت أما لروح معارضة . على أن هؤلاء
العلماء والفقهاء في اللغة والمؤرخين ، وإن كانوا يعملون بصورة منعزلة
كل واحد منهم في حقل اختصاصه ، فقد ساهموا في 'خلق روح قومية
متماسكة . و صرح جاكوب غريم في خطاب له عن أعماله في فقه اللغة :
« لقد اعتبرتها دوماً عملاً كريماً ورصيناً ، موضوعه معين جداً وهو وطننا
المشترك وتغذيته بالحب » . وهكذا كانت هذه الحياة الفكرية والجامعية
تغذيان الفكرة القومية كما تصورهما هرذر أكثر بما تصورهما العقلائيون
الفرنسيون ؛ وعلى أي حال فإن هذا العمل الذي قام به العلماء الألمان
كان عملاً طويلاً الأجل .

الحركة الأدبية . - إن ما يلفت النظر كثيراً هو أن حركة الآداب كانت ذات أهمية كبرى لدى الجمهور وأوسع بكثير من الحركة العلمية . لقد كانت الآداب نشيطة آنذاك ولكن دون كبير قيمة . فقد وجدت مدرسة شعر ، ومدرسة قصاصين ، ومؤلفين مسرحيين . ولكن العظيم في هذه الآداب هو أنها قطعت الصلة بالإبداعية واتجهت نحو ملاحظة الواقع ونحو الطبيعة . والمهم بالنسبة لموضوعنا تشكل جماعة أخذت اسم « ألمانيا الفتاة » ، وبدأت تسهم في حركة جديدة حرة قومية تختلف كثيراً عن حركة ١٨١٣ . لأنها كانت حركة فكرية محضة وليست حركة عمل ، وهي من جديد ، كما في القرن الثامن عشر ، حركة مواطنة عالمية وغير مناوئة لفرنسا كحركة عام ١٨١٣ .

لقد وجد هذا العالم الفكري غداة أعمال القمع التي قامت من عام ١٨٣٢ إلى عام ١٨٣٥ في كامل الاضطراب والفتور والخور ، وبدأ أن ذل ألمانيا أمام الحكومات شجب الليبرالية بشكل قطعي . وظهر أن الشيء الوحيد الذي يمكن الأمل به هو انقاذ بعض الحريات التي بقيت في ألمانيا الجنوبية ، وانه ، قبل الحصول على نتيجة في الحقل السياسي ، يجب تحويل ألمانيا معنوياً واجتماعياً . وللقيام بهذه الثورة المعنوية كان هؤلاء المفكرون الشبان الألمان بحاجة لمؤثرات خارجية ظهرت في الحرية الفرنسية أو ، وهذا هو الجديد ، في السن - سيمونية . فقد قامت مدرسة السن - سيمونية في ألمانيا منذ كانون الثاني ١٨٣١ بدعاية كبرى عن طريق الكراريس العديدة الوافدة من فرنسا . حتى ان صحيفة « الغلوب » التي أصبحت جريدة السن - سيمونية أخذت تهتم كثيراً بالشؤون الألمانية ، وفي ألمانيا بالذات . ووجد أدب سن - سيموني لعرض السن - سيمونية أو الرد عليها . ومن هذه السن - سيمونية

احتفظ الألمان ، أو على الأقل بعضهم ، ببعض الأفكار ، مثل : معارضة الأغنياء والفقراء ، التي غزت في ألمانيا حركة ديموقراطية جديدة ومحبة للاشتراكية ، ويمثلها شاب يدعى بوختر ، فقد شكل جمعيات سرية في إقليم هس^١ ونشر رسالة تدعى « الفلاح الهسي » ضد الأغنياء وضد الأمراء ، وطالب بالثورة الاجتماعية ، وصرح بأن الذي يسيطر على العالم المعاصر إنما هو « مشكلة المعدة الكبرى » وأنشأ في هس « جمعية حقوق الإنسان » مقلداً الجمعية الفرنسية ، وضمت هذه الجمعية أربعين عضواً ، ونشر في عام ١٨٣٤ درامة « وفاة دانتون » وسجن وفر من السجن والتجأ في ستراسبورغ .

وهناك فكرة أخرى ظلت آنذاك نظرية أكثر من غيرها وهي أن الحياة الاجتماعية أهم من الحياة السياسية البرلمانية بكثير ؛ وكذلك فكرة قوة الحركة الصناعية والأهمية التي يجب تعليقها على هذا الشكل من النشاط البشري ؛ وفكرة المواطنة العالمية وإخاء الشعوب اللتين يجب أن تتحدوا في رابطة كبرى ، أو تجمع كبير ، لاستغلال العالم . وقد أخذ الألمان عن ذلك نوعاً من صوفية وأفكاراً في تحرير المرأة . وقامت حركة نسائية كبرى متأثرة بالسن - سيمونية لصالح حقوق المرأة وتحريرها من نير الرجل .

وهكذا ساعدت السن - سيمونية في ألمانيا على تشكيل عقائدية جديدة ، وبادرت في تحقيقات مادية في حياة الألمان الصناعية . وظهرت هذه الروح أو المدرسة الجديدة في حركتين : حركة منتشرة في ألمانيا كلها وتسمى « ألمانيا الفتاة » ، وحركة موضعية في الغرب ، في المناطق الريفانية وهي « الليبرالية الريفانية » .

ألمانيا الفتاة . - هذا ويجب ألا نخلط « ألمانيا الفتاة » مع فرع

« أوربة الفتاة » التي أنشأها ماتزيني . لقد تم الخلط بين الحركتين على حساب الكتاب الشبان الألمان . وفي الحقيقة ، لم يكن أحد من هؤلاء الكتاب الشبان على صلة بتمأمري ألمانيا الفتاة المتشكلة في سويسرا . لقد كانت حركة « ألمانيا الفتاة » في أساسها حركة فكرية وأدبية انتشرت في ألمانيا . وتعتبر من الوجهة الأدبية قطيعة مع الإبداعية الصوفية والمثالية للعودة إلى الواقع المشخص المحسوس ، إلى العقل ، إلى الشعب ؛ ومن الوجهة السياسية حركة تنزع إلى تحرير الأفكار والناس ، وتحرير الحقوق من الهوى ، وتحرير الأمم ابتغاء الحرية والسعادة والسلام .

لقد أتى كتاب ألمانيا الفتاة من مختلف الجهات : كان بعضهم من جماعة الكتاب الوطنيين والأحرار الذين كانوا يلتقون حول مانتزل وجريدة « الصباح » (مورغنبلات) وخاصة حول غوتزكو ، وكانوا يرون بوجوب تقريب الأدب من الشعب . ووجد آخرون منعزلون أتوا من مختلف الآفاق الفكرية مثل الشاعر لاوبه الذي تأثر بالليبرالية الاجتماعية بتأثير السن - سيمونية وبتأثير ليست . كما وجد فريق أتى من الجامعات مثل فينبارغ وكان استاذاً حراً في جامعة كيل . نشر مجلداً يسمى : هولندا في ١٨٣١ و ١٨٣٢ ، ونشر خاصة في ١٨٢٤ مؤلفاً اسمه « حملات جمالية » أهداه إلى ألمانيا الفتاة ، وعلى اثر ذلك أطلق هذا الاسم على مجموع هذا الفريق الأدبي . وأخيراً وجد بينهم أناس أخرجوا ، بسبب وضعهم العائلي أو أصلهم ، من الأطر العادية في ألمانيا ، مثل بورنه ، وهابن ، وهما من أصل يهودي ، ويعتبران زعيمين لحركة ألمانيا الفتاة وقد عاشا في فرنسا ، وكان برنامجها السيامي برنامج الأحرار العادي ، برنامجاً لم يتقدم ، برنامجاً مطبوعاً بطابع جدلي ونقدي ، وهو أكثر نشاطاً وجرأة في الميادين الأخرى منه في الميدان السيامي .

ونتساءل بعد هذا ما هي قيمة « ألمانيا الفتاة » من وجهة النظر القومية ؟ لقد عرف هذا الفريق بتخليه عن كره فرنسا ورجعته إلى المواطنة العالمية ، بل ومدحه فرنسا ، حتى ان هذا المديع أثار استياء ألمانيا ورد فعل من حافظوا على روح ١٨١٣ وبخاصة مانتزل . وكانت رجال « ألمانيا الفتاة » يهاجمون مانتزل بجرارة . وقام هذا بجملة بمائة ضد أولئك وحرص السلطات عليهم .

وكان طبعياً أن تستاء الحكومات الألمانية من روح « ألمانيا الفتاة » النقدية ومن الاضطراب الذي أثارته في عالم الفكر . وأعطيت الأوامر ضد المسؤولين عن هذه الحركة وهم : هاين ، غوتزكو ، لاوبه ، فينبارغ ، موندت ، ولاحقهم ، فضعف نشاطهم . وظلت حركة « ألمانيا الفتاة » بالجملة حركة سطحية جداً ، باعتبارها قليلة العدد ، ولا تؤلف مدرسة منظمة جيداً . وقد وجد فيها اتجاهان : اتجاه جذري . واتجاه معتدل . على أن الشيء الذي أضر برجال « ألمانيا الفتاة » هو محبتهم الصريحة لفرنسا ، في وقت كانت تبحث فيه ألمانيا عن الإيمان بنفسها وإيجاد رسالتها وثقتها بذاتها . وكانت نتيجة حركة « ألمانيا الفتاة » إزالة التعصب ، الذي لازم روح ١٨١٣ ، بظواهره المختلفة . ثم ان الحركة الوطنية التي قامت عام ١٨٤٠ انتهت بتشتيت « ألمانيا الفتاة » وقضت عليها نهائياً .

الليبرالية الالمانية . - وكان يوازي حركة « ألمانيا الفتاة » حركة أخرى أغنى بنتائجها وهي حركة الليبرالية الالمانية .

لم يبق في ألمانيا بعد تدابير القمع التي اتخذت عام ١٨٣٢ إلا مركزان للمنشورات الليبرالية وهما : شتوتغارت وناشرها كوتا ؛ وهامبورغ وناشرها كامبه ، مع المنطقة الالمانية التي تؤلف دوماً ، في مجموع ألمانيا ،

كتلة متميزة على حدة ، لأنها تختلف عن باقي ألمانيا اختلافات محسوسة جداً . فقد ظلت عشرين عاماً منفصلة عن ألمانيا وألفت جزءاً من الامبراطورية الفرنسية وتأثرت إلى حد بعيد بالإدارة والنظم الفرنسية وتشكلت فيها صناعة نشيطة وطبقة بورجوازية غنية ومستنيرة وكانت متعلقة ، بتأثير الأفكار الفرنسية ، بفكرة المساواة وضمانات الحرية الفردية وحرية الصحافة .

في العام ١٨١٥ وثق الرينانيون ببروسيا هاردنبورغ وشتاين حتى ان بنزانبورغ أحد المؤلفين الرينانيين طلب دمج المنطقة الريمانية ببروسيا بموجب دستور حر يمتد على هذه المنطقة . ولكن الرينانيين وجدوا أنفسهم أمام بروسيا جديدة تختلف عن بروسيا التي أعلنت عنها بيانات هاردنبورغ وشتاين ، بروسيا المتعلقة بتقاليدها الشخصية ونظام الضابطة القاسي ، بروسيا التي تحاول الحكومة فيها أن تستعيد امتيازات الطبقة النبيلة وإعادة الأطر الإقليمية القديمة التي تعطي كامل السلطة لهذه الطبقة مع السياسة الرجعية وسياسة التمدد بالبروتستانتية . يضاف الى ذلك الازمة الصناعية التي ترجع خاصة الى منافسة المنتجات الانكليزية التي تدخل عن طريق الراين وهانوفر . ولهذه الاسباب المختلفة كلها ولى الرأي الريناني وجهه بسرعة عن الحكومة البروسية التي دخل في جسمها .

بدأ الرينانيون بمقاومتهم في عدة نقاط : كانوا يطالبون بالحق الريناني الذي أخذوه عن التنظيم الفرنسي ، وبالتنظيم البلدي الذي وضع زمن فرنسا دون ما تميز بين البلديات المدنية والبلديات الريفية على خلاف النظام البروسي الذي يميز بين المدن والبلديات في الأرياف ، كما أن أوساط الأعمال شابت بروسيا ولكنها ما لبثت أن أعربت عن امتيائها من البوروقراطية البروسية واستبدادها .

وانقلب هذا الاستياء إلى حركة مقاومة ولدت نعمة رينانية تقاوم أي حركة صهر وذوبان مع بروسيا . وجدت هذه النعمة تعبيراً لها في مؤلفين : ففي ١٨٣٩ نشر ريناني في فرنسا بسمى جاكوب فينيدي كراساً بعنوان : « بروسيا والبروسية » ، اتهم فيه بروسيا بعنف وصرح بأن بروسيا الرجعية لا يمكن أن تكون وطن الرينانيين . والكراس الآخر يتعلق بكراس فينيدي ، وقد ظهر في فرنسا أيضاً على يد فرنسي يسمى فايي ويحمل هذا العنوان « بروسيا وسيطرتها على ضوء العلاقات السياسية والدينية وخاصة في الأقاليم الجديدة » ، وفيه عرض لنظريات الرينانيين عن ميزة النظم الفرنسية والحق الريناني التي تعارض نظم بروسيا . ويؤكد المؤلف على وجود ليبرالية خاصة ذات نعمة أمام بروسيا ، ويقول : « توجد سيطرة بروسية ، ولكن لا توجد أمة بروسية » . حتى ان الرينانيين لا يعتبرون بروسيا دولة ألمانية بل دولة سلافية ويعارضون هذا العرق غير النقي « بالعرق الألماني النقي القديم لضفتي الراين » .

وهذه النعمة الرينانية وإن كانت تشعر بتعاطف مع فرنسا ، فهي لا تعني بأن الرينانيين لا يشعرون بأنهم ألمان ، حتى ان فينيدي نشر في بدء عام ١٨٤٠ كراساً : « فرنسا وألمانيا الرينانية » ، وفيه يؤكد النعمة الرينانية وتعاطفها مع فرنسا ، ويدل مع ذلك على أن الرينانيين يحسون بأنهم ألمان . و تأسست في رينانيا مجلة « الحوليات الرينانية » ، وغرضها جمع الذكريات والوثائق المتعلقة بالحضارة الرينانية .

ومكثدا يرينا تطور الأفكار في ألمانيا استمرار وجود عاطفة قومية وقد حافظت هذه العاطفة عند بعضهم على روح ١٨١٣ - ١٨١٥ ، ولكن هذه الحركة القومية تفوقت عموماً بالعاطفة الليبرالية وبالمطالبة بالحرية ،

حتى ان الليبرالية الألمانية ، في مجموعها ، عادت إلى الافكار الفرنسية . وإن سياسة الحكومات الرجعية ، وبخاصة سياسية بروسيا ، قوت النعرة الاقليمية في الحكومات نفسها وعززتها بالحقد الذي أثارته بروسيا وسياستها ، وبضرورة الحصول على حريات قبل كل شيء : وهذا هو المهم ، لأن المطالبة الليبرالية مرت قبل المطالبة القومية ، وهذه الحريات لا يمكن الحصول عليها إلا في النطاق المحلي . وبالتالي نزعّت القومية الألمانية بين ١٨٣٠ و ١٨٤٠ إلى استعادة الشكل القديم لعاطفة ثقافة عامة مشتركة في كل ألمانيا ولا شك ، ولكن دون أن تبغي تحقيق ذاتها بشكل وحدوي على الصعيد السياسي .

٣- العناصر الجديدة في القومية الوطنية

يرى بعد ١٨٤٠ تشكل عناصر جديدة في العاطفة القومية الألمانية . لقد جرى تطور مماثل لما شهدناه في إيطاليا ، وتغيرت الافكار وتسارعت الحوادث ، ولم توضع القومية في ألمانيا فحسب ، بل أصبحت قضية أوروبية وكان الجو المعنوي يتحول واتجاه الآراء يتغير وراء الجمود الظاهر الذي نراه في النظام السياسي .

الازمة المصرية عام ١٨٤٠ . - إن أول عنصر في هذا التحويل خارجي وهو الازمة الدبلوماسية التي كادت تضع أوربة عام ١٨٤٠ في حرب بسبب القضية الشرقية ونزاع عزيز مصر محمد علي مع الحكومة العثمانية .

لقد كانت ألمانيا أمام هذه القضية في أول الأمر هادئة تماماً وغير مبالية ولا تضرع عداء أو إرادة سيئة لفرنسا ، وحاولت حكومتها النمسا

وبروسيا الوساطة بين الزعيم بالمرستون والحكومة الفرنسية ، وأعلنت الحكومة البروسية بأنها لا تريد أن تخرج في خلاف ، ووضعت شرطاً لتعاونها مع الحكومة الانكليزية في القضية الشرقية وهو الحياد في السياسة العامة . إلا أن الأزمة الشرقية أشعلت في فرنسا ثورة في الرأي ، وولدت عند الحكومة الفرنسية سياسة جرأة متعذلة متكلفة وبلغاً عسكرياً يوجهه تيير ، وغير بعضهم عن الدفع القومي والحربي ببطالة فرنسا بالضفة اليسرى لنهر الراين . وكان لمقالات جريدة «القومي» بخاصة مغزاها في هذا الصدد .

أمام هذه الحركة الفرنسية في الرأي ، كان رد الفعل الألماني مباشراً ، فقد استيقظت ، بعد فترة الحور والجمال ، روح ١٨١٣ . وشعر ألمانيو الغرب خاصة بالقلق ، لأن ألمانيا الغربية كانت منزوعة السلاح تقريباً ، والحصون الاتحادية غير موجودة ، وألمانيا الجنوبية مفتوحة للغزو . وكانت بروسيا وحدها تستطيع أن تتخذ ، وقد اتخذت ، احتياطات عسكرية . وقد أثار هذا القلق حركة رأي عنيفة للغاية وعاد العسكريون مباشرة إلى روح ١٨١٥ . وأكد شارنهورست بأن الحرب حتمية بين فرنسا وألمانيا ، وستؤدي إلى تقسيم فرنسا وقال : « يجب إبادة فرنسا وإلا فلن يكون الله في السماء » . وكان الضابط ، الذي سيتكلم عنه في المستقبل ، وهو الكيونت فون مولتكه ، يطالب بالالزاس : « إن كل ما أضافته فرنسا إلى حدودها الشرقية منذ القرن الثالث عشر إنما هو نهب من ألمانيا » . واستيقظ أدب يذكر بأغاني حرب ١٨١٣ وأشهر هذه المظاهرات أغنية نيقولا بيكر في « الراين الألماني » التي تليت في مسرح فرنكفورت في ١٥ تشرين الأول ١٨٤٠ وسط حماسة لا توصف ، تاريخ الحركات القومية م (١٣)

وأخذ مائتا مؤلف موسيقي يلحنون شعر بيكر . وهناك أغنية ثانية أصبحت شهيرة وهي « حرس الراين » ألفها شنيكنبورغ وزلحها الموسيقي شارل غليوم وأصبحت أغنية القومية الألمانية عام ١٨٧٠ ، وأخيراً أغنية ثالثة أصبحت في ألمانيا أغنية الحرب عام ١٩١٤ وهي نشيد « ألمانيا فوق الجميع » لمؤلفه هوفمان فون فاللوسلين . وفي ١٨٣٠ انتهى بناء كاتدرائية كولونيا وكانت مناسبة لعيد كبير لم يكن رينانياً فحسب ، بل وقومياً ، وفيه شرب ملك بروسيا وملك فرتامبرغ الانتخاب على شرف « الوطن المشترك » .

إن ما يميز بصورة خاصة هذه الرجفة الوطنية والعودة إلى روح ١٨١٣ - ١٨١٥ هو قيام المظاهرات في بلاد الراين ، أي في هذه البلاد التي تأكد فيها في السنوات السابقة التعاطف مع فرنسا ، ولا ننسى أن بيكر كان رينانياً ومسجلاً في محكمة كولونيا . ونشر ريفوس ، وكيل جامعة بون رسالة بهذا العنوان : « رسالة برومي ريناني إلى السيد موغن » وكان موغن هذا زعيم يساري فرنسي وأحد الوطنيين الذين يطالبون بصفة الراين اليسرى ، وكتب فيها : « وهل من الممكن أن تعتقدوا بأقل بقية تعلق من قبل سكان الاقليم الريناني بفرنسا ، وبأمنيتهم بالعودة تحت سيطرتها » . وقال : « لقد وجد في المنطقة عطف على فرنسا منذ عشرة أعوام ، ولكن هذا لا يمنع من أن الرينانيين ألمان ويحسون بأنهم ألمان ، وكيف يمكن أن تتعاضى عن شرفنا القومي وعن مصالحنا المادية والمعنوية لنرغب في الانفصال عن أمة نشاطها الذكريات منذ قرون عديدة » .

وهناك شواهد كثيرة عن هذه الحركة في الرأي ضد فرنسا في تقارير حكام كولونيا ودوسلدوف وتريف ، أو في حملات الصحف الرينانية

آنذاك ، ولنذكر أن فينيدى في باريس اضاف الى كراسه السابق كراساً ثانياً يسمى : « فرنسا وألمانيا وحلف الشعوب الأقدس » ، وفيه يوسع هذه الفكرة وهي أن الأطماع الفرنسية في الراين عقبة في مصلحة الشعوب . ويقول : هذه الاطماع وهمية لأن الأقاليم الالمانية الألمانية بالغة والعادات والأفكار والعواطف .

وهكذا كانت أزمة ١٨٤٠ في المنطقة الالمانية ، نقطة انطلاق لتغيير مفاجيء لصالح بروسيا وبالتالي تغييراً في اتجاه الليبرالية الالمانية .

ولم تدم هذه الشعلة الوطنية الألمانية . ولكنها كانت هامة ، لأن الأزمة أيقظت الوطنية بعد أن كانت تبدو منطفئة ، وبرهنت على وجود حقد على فرنسا يعيش بغموض في الأفكار والقلوب الألمانية . وفي الحقيقة ، ان هذه الوطنية المناوئة للفرنسيين كانت دعامة حقيقية للعاطفة القومية في ألمانيا . وهكذا قتلت أزمة ١٨٤٠ نهائياً المواطنة العالمية في ألمانيا وصفت نهائياً حركة « المانيا الفتاة » .

القومية الاقتصادية . - والعنصر الآخر في تحويل الأفكار هو ظهور شيء جديد تقريباً وهو القومية الاقتصادية . لقد كان هذا الدور دور نهضة اقتصادية في ألمانيا ، ونهضة المناطق الالمانية خاصة . فقد بدأت مكنكة الصناعة ، وازداد عدد أنوال نسيج القطن وعدد الآلات البخارية في ظل النظام الاقتصادي الجديد . وبدأت الصناعة المعدنية الكبرى تظهر في المنطقة . فقد شيد أول فرن عال على الكوك - عام ١٨٤٠ وشرع باستغلال حوض الرور ، وازداد عدد السكان بشكل مريع ، وأصبحت القرى في هذه المنطقة مدناً ، والمدن الصغرى مدناً كبرى ، مثل كولونيا ، البروفيلد . واتسع نطاق استخدام الآلة والمواصلات بإنشاء

الخطوط الحديدية في مناطق ألمانيا الغربية ، ومع هذا فان حركة تجديد الصناعة والنظام الاقتصادي لم تكن الا في بدايتها . وبصورة خاصة كان النظام المصرفي غير كاف جداً . ولم يقتصر هذا النمو الصناعي على الأقاليم الرينانية ، بل وجد أيضاً في ساكس ، حيث تمت صناعة الأقمشة والأجواخ والانسجة القطنية وصنع الآلات الموسيقية . وأصبحت ليبزيغ مستودعاً من مستودعات أوربة الكبرى ، وغدت كمنيتز وزويكاو مدينتين كبيرتين لصناعة النسيج والصناعة المعدنية . وكذا الحال في تورنجه وفي فرانكونيه . وبدأت برلين بنموها الصناعي . ففي ١٨٣٧ أسست المعامل الكبرى للمنشآت الميكانيكية وخاصة القاطرات البخارية « بورسيغ » ، وأنشئت معامل كبرى لصهر المعادن في ضاحية برلين القريبة .

وكان هذا النمو الاقتصادي سبباً في اعتزاز الالمان . واعتبروا أنفسهم أنهم أعطوا بذلك مثلاً للعالم . وتكلم الوزير البروسي بونسن عن « أكبر اكتشاف في العصر أي عن وجود قومية ألمانية وكونفدراسيون شعوب قائم عليها » ، وشارك جميع الأمراء الصغار بهذا التمجيد . على أن الشيء الذي يلفت النظر مباشرة ، وحتى من وجهة النظر الاقتصادية ، هو أن هذا الاعتزاز عبر عنه برغبة التوسع في الخارج وخاصة من جهة بلجيكا .

فريدريك ليست . - كان نظري هذه القومية بشكلها الجديد فريدريك ليست . فقد كان نائباً عام ١٨٢٠ وتعرض مركزه للخطر بسبب حرية . ونفي وعند عودته حكم عليه بالسجن . ثم ذهب إلى أمريكا حيث رافق لافاييت في ١٨٢٥ ومنها عاد إلى ألمانيا عام ١٨٣٢ أي حين تحقق الاتحاد الجمركي (تسولفرلين) الذي امتدحه عام ١٨١٩ ،

ولكنه تحقق بشكل مختلف عما تصوره ، لأن هذا الاتحاد كان ناقصاً ، ولأنه كان اتحاداً جبركياً صنعته بروسيا ضد النمسا ، بينما تصوره منظمة عامة لألمانيا محتوية النمسا ، وكانت تعرفات هذا الاتحاد الجمركي منخفضة وتقدر وسطياً بنسبة ١٠ ٪ ولذا كانت الأوساط الصناعية تطالب لتشجيع نموها ، بالحماية الجمركية . وعندما أريد تجديد الاتحاد الجمركي قامت هذه الأوساط بحملة لصالح تعرفات حامية ، واشترك ليست في هذه الحملة فنشر عام ١٨٤١ مؤلفاً عظيم الأهمية بعنوان : « نظام قومي للاقتصاد السياسي » . وهذا المؤلف ليس مؤلفاً مذهبياً أو فلسفة اقتصادية ، بل هو مؤلف يتوجه إلى السواد الأعظم من الناس وصادر عن نظرات عملية وواقعة . وفيه ينطلق المؤلف من هذه الفكرة : ما هي الشروط الضرورية ، من وجهة النظر الاقتصادية ، لبلد ناشيء ، بلد آخذ بتكوين صناعته التي هي شرط عظمة المستقبل ، أمام منافسة دولة تسعقه بفضل تفوق آلاتها وقوتها الاقتصادية ألا وهي انكلترا ؟ لقد انطلق ليست من وجهة النظر هذه وأراد أن يفيد الألمان من التجربة الاقتصادية التي علمتها إياها ملاحظة فرنسا وملاحظة الولايات المتحدة ، وبخاصة هذا الحل الذي تبنته فرنسا والولايات المتحدة لتنمية صناعاتها الناشئة ، وهو الحماية الجمركية . وأراد أن تستفيد ألمانيا من التجربة التي رآها في الولايات المتحدة .

انتقد ليست مدرسة الاقتصاديين الأجرار ، لأن هؤلاء لا يرون في العالم الاقتصادي اثنين : الأفراد والمصالح الفردية ، في أساس الاقتصاد السياسي الذي يتصور نقطة انطلاقه في غنى الأفراد ورفاههم ، وفي الطرف الآخر ، جماعة الناس ، التي ترى العالم الاقتصادي كلاسيكياً الحرية والوحدة الاقتصادية العامة التي تفترض الحرية والسلام . ولكن ليست يرى أن نتيجة الحرية الاقتصادية ليست ألا تضحية العالم كله لصالح

بلد يجد نفسه متقدماً اقتصادياً ، واقتصاده فاتحاً . ولذا ، كما يقول ليست :
يجب أن ندخل بين الفرد ومجموع العالم الاقتصادي ، حداً وسطاً وهو الأمة
التي صرف الاقتصاديون الأحرار نظرهم عنها ، ومع هذا فإن كل إنسان
يؤلف جزءاً من أمة ، والرفاه الفردي يتعلق بقوة الأمة السياسية والاقتصادية .
وعليه يجعل ليست الأمة هدف الاقتصاد السياسي ، لا الفرد أو الرفاه
للعام كما يريد الاقتصاديون الأحرار . وهو يرى أن الدولة أو الأمة
ليست تجمعاً سياسياً أو أخلاقياً معنوياً وحده التاريخ ، بل هي أيضاً
تجمع اقتصادي ، وهذا التجمع الاقتصادي يعطي الدولة درجة قوتها
وسياستها .

يبد أن جميع الدول ليست في درجة ميسية واحدة ، ولا تستطيع
جميعاً أن تصل الى درجة اقتصادية واحدة . ولذا يرى ليست تسلسلاً
وتعاقباً في الدرجات الاقتصادية بعضها بعد بعض ، أولاً : « الحالة المهيمنة » ،
ثم « الحالة الريفية » ، ثم « الحالة الزراعية » ، ومن بعد « الحالة الزراعية -
المصنعية » ، وأخيراً في الذروة ، رأس التسلسل الاقتصادي ، نقطة وصول التاريخ
الاقتصادي كله « الحالة الزراعية المصنعية التجارية » . ان السياسة الاقتصادية
والتجارية لبلد من البلدان يجب أن تخدم المثل الأعلى التاريخي والسياسي ،
وأول ضرورة له هي وجود مصانع ، ووجود تنمية صناعية . وان هدف الدول
يجب ألا يكون فقط في أعاشة الأفراد الحاليين ، والغنى الحالي لهؤلاء
الأفراد ، بل يجب أن يتصور المستقبل ويسعى الى تنمية « القوى المنتجة » ،
وقد يتطلب هذا تضحيات في الحاضر ، ويجب عند الحاجة ، تضحية مصالح
الحاضر لتنمية المستقبل .

ويرى ليست أن القوى المنتجة في بلد من البلدان مختلفة الأصل .
ويأتي أولاً النظم الحرة المعنوية والسياسية ، ولذا يلحق بنظرياته برنامج

الليبرالية ويدمجها . ولكن الى جانب هذه المجموعة من النظم المعنوية الحرة تبقى الصناعة المصنعية شيئاً أساسياً في القوى المنتجة . ولا تقتصر هذه الصناعة على خلق ثروات ، بل يكون لها نتائج معنوية . فالصناعة في الواقع تنمي عند الأفراد الرغبة في زيادة دائمة ، والتنافس بين الناس ، والرغبة في الحرية ، على حين أن الزراعة ، على العكس ، تولد الكسل وتعود الفكر على الجمول ورتابة العيش . وأخيراً الصناعة قوة تخلق الرأسمال والعمل معاً . وفي هذا المعنى المزدوج يجب أن تعمل الأمة ، منمية حرياتها الداخلية والمعنوية والسياسية ، ومنمية صناعتها قبل كل شيء .

ولتنمية هذه الحريات والصناعة يرى ليست تبني نظام الحماية الجمركية ولكن حماية ليست مطلقة لأن هدف الحماية تربية الأمة على الصناعة ، ويمكن أن تكون أيضاً دفاعاً عن أمة متأخرة ضد منافسة أمة أقوى منها وأكثر تطوراً . وعلى هذا النحو تكون وسيلة دفاع ألمانيا ضد انكلترا . ولكن هذه الحماية يجب ألا تدوم إلا إلى الحين الذي تبلغه التنمية الضرورية للصناعة . وليس هذا من قبيل القول المطلق : فتمت تشكلت الحركة الصناعية وانطلقت يجب أن تكف الحماية . وأخيراً يجب ألا تطبق هذه الحماية على الزراعة وعلى إنتاج السلع الضرورية للحياة .

وتابع ليست حملته لصالح الحماية التي دشنها مذهب القومي ، ونشر عدة كراريس في السنوات التالية ولا سيما مجلة خاصة أسسها عام ١٨٤٣ وتسمى « صحيفة الاتحاد الجمركي » . ووسعت هذه المنشورات حملة الحماية . وليست التعرّف الجمركية في نظره إلا وسيلة تنمية صناعية ، غير أنه يتصور وسيلة أخرى وهي تنمية الخطوط الحديدية .

وهكذا ينسب ليست للدولة دوراً هاماً في الحركة الصناعية . فكما

أن الدولة مكلفة بتحقيق الوحدة السياسية في البلاد والبقاء عليها ، كذلك عليها واجب في خلق وحدتها الاقتصادية والحفاظ عليها . وعلى الدولة أن تسهر على إلحاق المصالح الخاصة الفردية بالصالح العام ، وأن توطد حرية المبادلات الداخلية وأن تنشئ على الصعيد القومي ، شبكة المواصلات ، وأن تسهل أمر انتقال النقد بطريق مصارف الدولة ، وعليها مهمة توحيد التشريع الاقتصادي . ويعطي ليست الدولة ، على عكس الاقتصاديين الأحرار ، سلطة تدخل كبرى في الحياة الاقتصادية ، ويرى أن الدولة قوة قومية حركية نشيطة ، ودورها فاعل في الاقتصاد وغير جامد .

وكان لنظريات ليست هذه تطبيقاتها الخاصة في ألمانيا . فهو يرى أن ألمانيا تضم في الواقع ، وفي أسمى درجة ، عناصر القوة الاقتصادية ، ولكنها ، لتحقيق هذه القوة الاقتصادية ، بحاجة لأن تتوحد وتدافع عن نفسها ضد الأجنبي . وهي تستطيع ، وبالتالي عليها أن توسع نطاقها الاقتصادي . ويقول ليست : « ان هولندا والدانمارك وبلجيكا ما يجعلها تربع بتشكيل دولة بحرية واحدة ، وعليها أن تعتبر اندماجها في قومية كبرى أمراً مرغوباً وضرورياً » . فهو يرى ألمانيا تشمل في نطاق اقتصادي وحيد ، وحتى في دولة وحيدة ، هولندا والدانمارك وبلجيكا . ولكنه ينظر إلى جهة الشرق أيضاً فيرى أن هونغاريا ضرورية لألمانيا ، لأنها المفتاح الذي يفتح لألمانيا تركيا والشرق ، وعندئذ « تنعش النار الهونغارية برودة المزاج الألماني » . فهو إذن يعطي ألمانيا ، من وجهة النظر الاقتصادية ، رسالة : « إن العناية الإلهية ، بما لا يدع مجالاً للشك ، قد اختارت العرق الجرمانى بسبب طبيعته وطبعه ، لحل هذه القضية الكبرى وهي : توجيه شؤون العالم كله وتحضير البلاد الممجيبة والبربرية ، واستيطان البلاد التي مازالت خلواً من السكان .

يوجد إذن في نظريات ليست أصالة . فهو يتصور الاقتصاد بظهر القوة ويريد أن يبني الوحدة الألمانية على اقتصاد صناعي . وهو في هذه النقطة أصيل ، ولكنه يدخل أيضاً في تماس مع المفكرين والفلاسفة والادباء ، أو مع الفصحاء السياسيين ، الذين رأيناهم ، عندما يجد فكرة رسالة مسيطرة تدعو الحكمة الإلهية لألمانيا لها . ويبدو ، كما في الوحدة السياسية ان مفهوم الوحدة الاقتصادية في ألمانيا ، في أصله ، امبريالي ، ومن عجب في هذا المضمار ، كما في المضمار السياسي ، أن تخامر الأفكار الألمانية الأحلام الواسعة في الوحدة والسيطرة السياسية والاقتصادية على العالم ، في وقت كان فيه ضعف ألمانيا وعدم وجودها سياسياً واقتصادياً حادثاً واقعياً .

رسالة القومية الألمانية . - إن الرغبة الوطنية التي تملكته الألمان عام ١٨٤٠ ، أدخلت الفكرة القومية ثانية في برنامج الأحرار . غير أن هذه الحركة لم تكن خاصة بألمانيا وحدها . فقد تمت العاطفة القومية في إيطاليا ، وفي دول النمسا . ولم يعد هنالك موضع لبحث في « ألمانيا الفتاة » ، أو في المواطنة العالمية التي أدخلتها هذه الجمعية ثانية في الحزب الليبرالي . إن الجامعيين هم الذين يتزعمون الحركة الألمانية وينطلقون لنشر الرسالة القومية ، ونخص بالذكر المؤرخين والحقوقيين ، وعلى رأسهم أستاذين جامعيين وهما : دالمان وغرفينوس .

دالمان (١٧٨٥ - ١٨٦٠) . أصله من إقليم مكلامبورغ ، وقضى شبابه في الدانمارك ، وأتم دراسته الثانوية في كوبنهاغن ، ثم عاد إلى الدانمارك بعد بضع سنوات قضاها من جديد في ألمانيا أستاذاً في جامعة كيل ، عام ١٨١٢ . وفي عام ١٨١٥ أصبح أميناً لنواب شلزنفيغ -

هولشتاين . وفي بضع سنوات ظهرت وطنيته الألمانية بدعاية حقيقية فأثارت الشعب الألماني في الدوقيتين ، وبخاصة هولشتاين ، ضد الحكومة الدانماركية . ثم عين دالمان أستاذاً للتاريخ والعلوم السياسية في جامعة غوتنغن عام ١٨٢٩ ، وصادف وجوده فيها عندما احتج الاساتذة على تعليق الدستور من قبل الملك الجديد ، فعزل من منصبه مع ستة آخرين من زملائه عام ١٨٣٧ ، واستقبلته جامعة بون حيث عين أستاذاً للعلوم السياسية أيضاً .

بدأت شهرة دالمان عندما نشر في عام ١٨٢٢ و ١٨٢٣ « أبحاث في مظهر التاريخ الألماني » . وهذا العنوان يعني اتجاهاً خاصاً ، لأن دالمان يحاول فيه أن يبين الامتداد الأرضي لألمانيا التاريخية . ثم فرض دالمان نفسه بمرجع كبير أصبح كلاسيكياً ، في « مصادر تاريخ ألمانيا » في ١٨٣٠ . ويؤمن دالمان بأنه يحتقر الأحكام « المسبقة » ولا يعتمد إلا على الحوادث التاريخية ، وعلى الوثائق ، وبالتالي بأنه غير نظري وتجريدي ، وبأنه على العكس واقعي . ونجد في أفكاره التاريخية تقليداً أو إلهاماً من بعض أفكار وطرق أغستين تييري وغيزو في تفوق الطبقات الوسطى .

وكان في الوقت نفسه صاحب مذهب لأنه يعتقد بأهمية النظريات : وعنده شعور سام جداً برسالته ، وقد أوحى إليه هذه العاطفة بتعنت مذهبي وخاصة في السياسة . فهو لا يقبل بالحل الوسط أو التسوية . وقد نشر في ١٨٣٥ مؤلفاً خرج فيه عن التاريخ واسمه « السياسة على أساس الحالات المعطاة وقدرها » . وهذا الكتاب ، كما يرى من عنوانه ، نوع من مذهب سياسة تجريبية ، كما نقول اليوم ، وفيه يرى دالمان أن بروسيا

قد تحولت إلى دولة ليبرالية ، ولذا يجب أن تكون مبدأ لتجمع الدول الألمانية حولها . ومنذ العام ١٨٤٠ اشتغل دالمان بالسياسة والتاريخ معاً ونشر من ١٨٤٠ إلى ١٨٤٣ « تاريخ الدانمارك » في ثلاثة مجلدات ، وهذا التاريخ مفعم بالروح القومية الألمانية ، ثم أصدر بعد ذلك مؤلفات تبسط ذات أهمية سياسية مثل : « تاريخ الثورة الإنكليزية » في ١٨٤٤ ، « تاريخ الثورة الفرنسية في ١٨٤٥ .

غرفينوس (١٨٠٥ - ١٨٧١) . - كان غرفينوس هسياً من دارمشتات ، ومن أصل شعبي غير بورجوازي مثل دالمان . اشتغل في البدء مستخدماً تجارياً وأتم دراساته بنفسه ، وانتقل من الدكان إلى الجامعة ودعم أطروحة الدكتوراه عام ١٨٣٠ وأصبح أستاذاً في جامعة هايدلبرغ ثم أستاذاً في جامعة غوتنغن ، وعزل مع دالمان عام ١٨٣٧ . وكانت دروسه في جامعة هايدلبرغ أساساً لعمله الأصلي ودراسه . وقد اقترح على ناشره أن يختار ، كما يريد ، « تاريخ الأدب » أو « تاريخ السياسة » في ألمانيا . وأخيراً غلب الأدب ، ونشر من ١٨٣٥ إلى ١٨٤٢ خمسة مجلدات في « تاريخ الأدب الشعري الألماني » ، وهذا التاريخ قدح حقيقي ، ودراسة سياسية وجدلية تتوجه خاصة إلى الشبهة الألمانية ، هدفها توجيه الشبهة نحو الواقع ونحو السياسة . ويقول غرفينوس . لقد انتهى زمن الأدب المحض ، وغرضه من هذا التاريخ الضخم أن يبين أهمية ألمانيا في الحركة الفكرية ، وأن يقيم بأنه يجب أن يكون لألمانيا في العالم السيامي مكانة تتفق مع المكانة التي عرفتها في عالم الفكر . وفي عام ١٨٤٢ نشر مختصراً لهذا التاريخ وجعله في متناول الجمهور ، وبعد ١٨٤٥ أخذ ينشر رسائل سياسية في موضوعات مختلفة .

ينقص غرفينوس الموهبة والشعلة ، ولكنه فكر قوي متين ،

متحذلق عنيد في مفاهيمه أكثر من دالمان ، وأقل اندفاعاً منه ، ولكنه أكثر تعلقاً بالحرية وسيرفض ، أثناء سياسة بسمارك ، أن يضحى بالحرية في سبيل الوحدة ، على أنه يقبل بأن تصنع بروسيا ألمانيا ولكن شريطة أن تكون بروسيا ليبرالية .

لقد كان تأثير هذه الدعاية بالأساندة وبالتاريخ في ألمانيا أكثر منها في أي بلد آخر ، والألمان يؤخذون بالتاريخ أو على الأقل بالتاريخ المصطنع ، ففي عام ١٨٤٣ نجد المؤرخ في التاريخ القديم دروبسن ، الأستاذ في جامعة كيل ، يلقي خطاباً عظيماً بمناسبة الذكرى الألفية لمعاهدة فردن ، وفيه يجري مقارنة محزنة بين عظمة جرمانيا في زمن معاهدة فردن وفي السنوات التالية وبين حالتها الحاضرة : « إن اخوتنا في الألزاس ينكروننا ، إن اخوتنا في بلاد النظام (الرهينة) التوتوني لا يؤلفون جزءاً من الكونفدراسيون الجرمانى ، وإن اخوتنا الألمان في الشرق البعيد مهددون في نبتة حياتهم القومية . ولكنه لم يياس ، وأهاب بالجهد الضروري من جميع الألمان لصنع ألمانيا الموحدة من جديد .

وكان هؤلاء المفكرون يلحون على القومية الألمانية أكثر مما يلحون على الحرية . وقد التف حول هؤلاء الزعماء الجامعيين الكبار كتاب من مختلف أجزاء ألمانيا ، للعمل معاً ، وجمعهم معاً كرههم للاستبداد وهوام القومي . وأسس غرفينوس في هايدلبرغ ، في تموز ١٨٤٧ ، جريدة باسم « الجريدة الألمانية » للتعبير عن آراء هذا الحزب . وكان يوجهها مع ثلاثة كتاب آخرين : هوسر ، ماتي ، ميتلماير . وكان الكتاب والجريدة يفضلون في كتاباتهم اتحاداً كونفدرالياً لجميع ألمانيا وفي الوقت نفسه حكماً دستورياً في كل دولة ، وفي ذلك ما يرينا اختلاط الحرية والقومية

وعلى يسار هذه الحركة تشكلت حركة راديكالية ذهبت حتى الاشتراكية وقد خرجت من جناح هيغيل الأيسر ، وكان لسان حالها جريدة تسمى « حوليات هاليه » التي يديرها دوغنه ، وفي بعض الوقت « الصحيفة الرينانية » التي تأسست لتكون بديلاً لـ « حوليات هاليه » في الشرق وكان لهؤلاء الراديكاليين ناد في برلين ويسمى « نادي الرجال الأحرار » وتعلقوا بفلسفة فروينباخ وشتراوس ، وكانوا ينادون المسيحية . وهم ، على عكس المؤرخين ، نظريون ، متكلمون يريدون إصلاح الدولة والمجتمع طبقاً للنظريات ، ولأفكار هيغيل في التقدم . وكان المحرك لهذه الحركة الراديكالية في خارج ألمانيا أكثر بما في داخلها ، وبضم اللاجئين الألمان في فرنسا . فقد أصدروا في باريس جريدة تسمى « إلى الأمام » وألفوا نوادي مثل « نادي العادلين » عام ١٨٣٦ ، واهتموا قبيل ثورة ١٨٤٨ بتشكيل « عصبة الشيوعيين » وانتظموا حول ثلاثة رجال : فايتلنغ ، وآنغلز الذي نشر عام ١٨٤٠ مؤلفاً يعتبر أساساً في الدراسة العلمية للاشتراكية ، وهو « وضع الطبقات العاملة في انكلترا » ، وأخيراً كارل ماركس ، وكان في ذلك الحين مجهولاً . وكانت باريس وبروكسل نقطتي انطلاق هذه الحركة الراديكالية .

وهؤلاء الرجال وإن أقسموا اليمين على كره فرنسا ، وإن كان حزبهم في أصله يرجع إلى الحق على فرنسا ، فقد كانوا مشبعين بالأفكار الليبرالية والقومية الفرنسية . لقد ترك الدوق أرنست دوساكس كوبورغ مذكرات هامة جداً عن هذا الدور ، وخاصة عن أصول الوحدة الألمانية وسياسة بسمارك ، وكتب في مذكراته : « لا يمكن تكوين فكرة عن النفوذ والسيطرة اللذين كانت تمارسها فرنسا في حياة ألمانيا السياسية قبل ١٨٤٨ . لقد كان لـ لوي بلان جمهور من القراء وربما كان بقدر ما كان له في فرنسا .

وكانت الكتابات الراديكالية أكثر من غيرها تنفذ حتى الطبقات الدنيا في الشعب ، واذكر بوضوح انني دهشت ، في رحلة قمت بها في شباطي ، عندما رأيت كيف يجد الإنسان بوسائل مواصلات ضعيفة ، حتى في القرى النائية ، كتباً وكراريس يقلق وجودها الشرطة ، . وقد ساعدت الأزمة الاقتصادية التي بدأت عام ١٨٤٦ هذه الحركة الراديكالية المشربة بالاشتراكية والمدموغة باضراب مدو قام به الحياك في سيليزيا وأظهر قيمة المشكلة الاجتماعية .

ولكن هذه الحركة الفكرية التي تنزع إلى التجديد لم تبق في أوساط المفكرين . فقد نفذت أيضاً إلى أوساط السياسيين ، مع بقائها في هذا الوسط الجديد أكثر خجلاً في خططها بما كانت في أوساط المفكرين . لقد كانت فكرة وبرنامج السياسيين ، في هذا الحزب القومي والليبرالي ، إصلاح الكونفدراسيون الجرمانى وإحلال دولة فدرالية محله . وكان زعيمهم نائباً هسياً وهو هنري دوغاغرن وسيصبح رئيساً لبرلمان فرنكفورت ، وأحد زعماء حركة ١٨٤٨ . وكانت فكرة إصلاح الكونفدراسيون في دولة اتحادية أكثر الحلول انتشاراً في الجهاز السيامي في ألمانيا الجنوبية .

ومن جهة أخرى ، وجد في بعض الأوساط المحافظة اتجاه قومي يتم جملة مدرسة هالر التقليدية ويعتمد على التعليم التاريخي للأستاذ رانكه من جامعة برلين . وكان هؤلاء المحافظون القوميون يتصورون إمكان توحيد ألمانيا دون تبني العقيدة الثورية ، ودون ليبرالية ، وذلك بالاعتماد على الطبقة النبيلة وعلى الإدارة . وهم بالتالي يخلطون بين الفكرة القومية الألمانية والفكرة القومية البروسية . وهذا التفكير هو بالإجمال تقليد عسكري بروسيا ونبلائها منذ عهد نابليون ، ويدخل فيه الإداريون الجدد في الأطر البروسية ، ويريدون من ذلك أن تمتد بروسيا على ألمانيا كلها ،

وأن يجعل من بروسيا ألمانيا بقدر ما يراد إقامة وحدة ألمانية . وكانت هذه الحالة الفكرية الجديدة تتمثل في رسالة رادوفيتز ، وكان كاثوليكياً ومشاوراً حياً لفريدريك - غليوم الرابع وسيكون زعيم حزب كاثوليكي برومي عام ١٨٤٨ . كتب في ٢٠ تشرين الثاني عام ١٨٤٧ إلى الملك : « لقد ترك بين أيدي أعداء النظام أقوى سلاح في الحاضر وهو : القومية . إن جميع النفوس مريضة بالحنين إلى ألمانيا موحدة وقوية ومشرفة في الخارج . وهذه هي الفكرة الأكثر شعبية والأكثر قوة والوحيدة التي تستحوذ على الأحزاب وتناط بها اختلافات المنطقة والسياسة والدين » . ونصح الملك أن يكون على رأس هذه الفكرة القومية ليضم الألمان جميعاً حول بروسيا . وهذا يفترض المصالحة بين الرأي القومي وبروسيا بعد أن تمت القطيعة معها اثر سياستها الرجعية . وقد ساعد على ذلك اعتلاء فريدريك - غليوم الرابع عرش بروسيا .

اعتلى فريدريك - غليوم الرابع العرش في ٧ حزيران ١٨٤٠ أي في الوقت الذي نشبت فيه الأزمة الحربية . وكان في هذه الأزمة في وحدة أفكار مباشرة مع الروح الألمانية . فهو يكره فرنسا وقد كتب : « لا يوجد في فرنسا دين ولا أخلاق ، إنها دولة فاسدة تماماً ، كدولة روما قبل سقوط الامبراطورية . واعتقد بأن فرنسا ستتهار بالشكل نفسه » . وشارك مباشرة بحركة ١٨٤٠ الحربية ، ومنح بىكر مرتباً شكراً له على أغنيته « الراين الألماني » . وفي العام ١٨٤٢ عندما أقيم الاحتفال لتدشين كاتدرائية كولونيا شرب على « نخب الوطن الألماني » ، وأعرب بجميع الأشكال والصور عن تعلقه بتقاليد العصر الوسيط وفكرة الامبراطورية الجرمانية الرومانية المقدسة . ومن جهة أخرى ، لقد أقام فريدريك طويلاً في المناطق الريفانية وهو وارث للعرش ، واتصل

فيها بالمجتمع الجديد . ودلت أعماله الاولى على انفتاح حكم ليبرالي : فقد أنهى النزاع الديني بين الحكومة البروسية وأسقف كولونيا ، وأصدر العفو عن الاحرار الموقوفين أو المحكومين منذ زمن طويل ، وهذا ما ساعد الشاعر العجوز آذندت على الخروج من السجن ، وخفف الرقابة ، وفي ايلول ١٨٤١ خول الديابات الإقليمية حق الإعلان . وبدى بوضع محضر للمناقشات يبلغ للصحافة ليتعرف الشعب على القضايا المطروحة ويتخذ موقفة منها ويدعم الاحرار بحركة مشايعة . و وعد بدعوة الديابات دعوة منتظمة للانعقاد كل عامين . ورأى أن يرسل كل عامين مفوضين من هذه الديابات إلى برلين ليرفعوا للملك أماني الاقاليم وإرشاداتها . وأعطت هذه التدابير الالمانيين والبروسيين أملا بسياسة ليبرالية في بروسيا و متجهة نحو القومية الالمانية .

الليبرالية الرينانية الجديدة . - ونحت تأثير هذا الأمل تألفت ليبرالية رينانية جديدة مع فكرة تقول بأن بروسيا تستطيع ان تكون دولة ليبرالية . وانمحت بعد ازمة ١٨٤٠ فكرة النعرة الاقليمية في المنطقة الرينانية . وبعد ان كان الرينانيون يلحون بخاصة على نظمهم الفرنسية أصبح دارجاً على لسانهم اظهار الطباع والصفات الجرمانية في النظم . وبعد أن كانوا يدافعون عن سيانهم الخاصة ويعارضون الدولة البروسية ، اخذوا يحرصون على النمو في نطاق الدولة البروسية . وبعد ان كانوا يعيشون منفردين ، بدؤوا يعقدون العلاقات الفكرية مع بروسيا ، ويتابعون مناقشات الديابات في الأقاليم الألمانية الأخرى ، ويقبلون على قراءة كرايس الاحرار التي تصدر في باقي بروسيا وبخاصة كراس اسمه « المشاكل الأربع » نشره عام ١٨٤٢ طبيب من كونيكسبرغ يدعى جاكوبي ، و كراس آخر لرئيس دياط بروسيا شون واسمه « من اين والى اين ؟ »

نشر أيضاً في العام ١٨٤٢ . وقد لاقى هذه الكراريس نجاحاً عظيماً في بروسيا الشرقية واستقبلت بحفاوة في البلاد الرينانية . وكانت تطالب ببرلمان بروسي باسم حقوق الأمة ، وتمجد مستقبل بروسيا الليبرالية . وبدأ الشعور بالتضامن مع باقي الرأي البروسي . وقرئت جرائد بروسيا الشرقية بعد ان كانت تحتقر في السابق ، وبخاصة «صحيفة كونيغسبرغ» . وهكذا نرى ان الرينانيين ، الذين ظلوا حتى الآن انفصاليين ، يدخلون في الدولة ولا يفكرون بالعيش منعزلين في المانيا الغربية

كتب هانسيان رئيس غرفة تجارة ايكس - لا - شابل ، في ١٨٤١ ، « مذكرة الى الملك ، لتوجيه الملك الجديد وبين فيها ان الضرورة السياسية والاجتماعية والاقتصادية تقتضي تبني الحرية ، ووضع كل فاعليته كرجل أعمال واداري في خدمة الدولة : في الجمارك ، وفي مفاوضات لعقد معاهدات تجارية مع بلجيكا ، وفي ١٨٤٤ في ، دراسة التعريفات المختلفة التي تشجع الصناعة البروسية أمام الصناعة الخارجية . و اراد هانسيان ان يشرك البورجوانية الرأسمالية في الدولة ووسع هذا البرنامج في التعاون بين الأحرار والحكومة في جريدة كبرى ليبرالية ووطنية معاً وهي « صحيفة ايكس - لا - شابل »

الاهتمام بالقضايا الاجتماعية - . وخرجت مدرسة أخرى من اليسار الهيجلي والسان سيمونية معاً . وكان زعيم هذه المدرسة ريناني يدعى ميفيستن . وكان هذا الفريق ، وبخاصة ميفيسن ، يعلق أهمية خاصة على القضايا الاجتماعية . وكان ميفيسن ، في البدء ، على صلة بكارل ماركس . انشأ « رابطة رفاه الطبقات العاملة » وبشر بالتنظيم النقابي للعمال وبينما كان الأحرار يكرهون تدخل الدولة في الأعمال ، أخذوا الآن

يشايعون هذه الفكرة وينادون بها : وكان ميفيستن يريد ان تقوم الدولة بتنظيم عام للاقتصاد السيامي . وباختصار كان منشئاً لما نسميه اليوم « الاقتصاد الموجه » . واندفع في مكافحة نزعات الاحرار القديمة الخاصة . وكان لسان حزب الاقتصاد الموجه « صحيفة الراين » ، بيد انها كانت لساناً موقوتاً . وكان هؤلاء الاقتصاديون يهتمون بالاخلاق والمثالية ، وهما من طباع الرينانين ، ويطالبون الدولة ان تحكم في بروسيا العقل والاخلاق كما تقتضيه المصلحة العامة .

الليبرالية القومية البروسية . - وهناك مفهوم مثالي وعملي معاً ظهر في اوساط التجار وأصحاب السفن على الراين . وكان هذا المفهوم ليبرالياً في السياسة وحر المبادلة في الاقتصاد معاً . وقد تجمع انصاره حول كامفاوزن رئيس غرفة تجارة كولونيا ، ويمثل مصالح أصحاب السفن وتجار الراين . وكان هؤلاء بحاجة الى حرية المبادلات على الطريق النهري الكبير . كان كامفاوزن يناضل ضد افكار الحماية الجمركية التي قال بها ليست . ولكنه كان يتفق معه في رؤية الأهمية القومية التي يجب اعطاؤها للقضايا الاقتصادية . والفكرة التي تجب متابعتها هي توسع المانيا الاقتصادي والوحدة الداخلية على أساس اقتصادي . وكتب بهذا في رسالة الى صديقه كون ، وكان مدير وزارة في برلين ، في ٢٦ كانون الأول ١٨٤٦ : « منذ القرن السابع عشر ومانيا ساحة قتال بين الأمم الأوروبية . ولا يمكن لهذه الحالة ان تنتهي الا باتحاد البلاد الألمانية ، ولكن بشكل آخر يختلف عن الكونفدراسيون الجرمني بعد أن بدا عاجزاً . وإعطاء الاتحاد الجمركي وسيلة تحقيق الوحدة الألمانية ، يجب تشجيعه بشكلين : أولاً اعطاؤه حدوداً بحرية واسطولاً تجارياً ؛ ثانياً توثيق الروابط التي توحد البلاد في داخل الاتحاد الجمركي نفسه . يجب أن تعملوا يا صديقي

العظيم ، يجب أن تقفوا حياتكم ليخفق العلم الألماني فوق جميع البحار ،
ولثلا تستطيع انكثرا ولا فرنسا اقامة مزاعمها على قطعة من الأرض
الألمانية ، وليكون الاتحاد الجمركي صلباً دون انقطاع ، ولتأخذ الامبراطورية
الألمانية في أوربة المكان اللائق بها وتجاهه بربرية الشرق وامبريالية البلاد
الغربية النعمة ، . ومن هنا نرى أن فكرة القومية الألمانية مرتبطة دوماً
بفكرة التوسع الامبريالي . ولم يكن لألمانيا علم بعد ، ولذا أراد
هؤلاء الألمان أن يروا هذا العلم خففاً على أوربة كلها ، وارتبطت عندهم
دوماً فكرة القومية الألمانية بفكرة عظمة ألمانيا الخارجية . وأوحت
فكرة العظمة هذه بفكرة الوحدة . وكان لسان حال هذه الليبرالية
القومية البروسية « صحيفة كولونيا » القديمة التي شابت هذه الفكرة
ابتداءً من ١٨٤٥ .

وهكذا تغير تماماً وضع الرينانيين السياسي . وفي اللاندتاغ الريناني
لعام ١٨٤١ لم يكن لهم بعد إلا بالقضايا الاقليمية . ولكن ، تشكل
فيه بالتدريج حزب قومي خارجاً عن الطبقة النبيلة والكاثوليك . وفي
١٨٤٣ حلت قضية البلديات والحق الريناني ، وزالت النعرة الاقليمية
المذهبية الدينية . وفي ١٨٤٥ طالب كامفاوزن بدعوة برلمان بروسى
وفي ١٨٤٧ كان الرينانيون متهمين للدخول في الحياة العامة في بروسيا
الدستورية إلى جانب الأقاليم الاخرى . وفي « صحيفة كولونيا » كتب
بيكبرات ، في شباط ١٨٤٨ « أصبحت العاطفة الوطنية للأمة البروسية
حادة حتى ان كل عنصر للاقليمية غدا شائناً . وان جميع الاقاليم تمدها
بأمل لبلوغ درجة راقية للقومية السياسية » . وهكذا أصبحت الليبرالية
الألمانية ، وبخاصة الليبرالية الرينانية ، مستعدة الآن للسير قدماً مع
بروسيا لصنع ألمانيا .

ولكن هذا المثل الأعلى اصطدم بسرعة بخيبة أمل . لأن فريديريك - غليوم الرابع لم يكن بالملك الذي يعتمد عليه الرينانيون : فقد كان غامضاً وافكاره دخانية وبعطي الكلمات معنى خاصاً ، حتى ان محدثيه لا يفهمون ما يقول . ولكن هذا لا يسوؤه ، لانه يعتبر ان من علامة التفوق لفكرة الآ تفهم . وكان ، من جهة أخرى ، ابداعياً ، كان خطيباً ويجب القاء الخطب وعندما يتكلم يندفع بكلماته إلى أبعد مما يذهب فكره . ويحدث سوء تفاهم بينه وبين الرأي ، ولكنه لا يلبث أن يزول بعد أيام . ولم يكن فريديريك - غليوم ليبرالياً . كان تلميذاً لهالراً ، ولا يرى الاشياء الا بالتاريخ ، ويخشى الدساتير النظرية ولا يريد ان يتلاقى قصاصة ورق بينه وبين شعبه ، كما يقول . وظلت سلطته الملكية مريعة التأثير جداً وحساسة .

وكان في الوقت ذاته مناصراً للقوميات ، ولكن مفهومه خاص عن المانيا ويختلف عن مفهوم الاحرار . لقد أظهر وطنية حارة ، وكان مقتنعاً عن حق بعدم كفاية الكونفدراسيون الجزماني ، ولكن مفهومه عن الريخ يختلف تماماً عن مفهوم الاحرار ويعتمد دوماً على أساس تاريخي . وأراد الاحتفاظ بالنمسا على رأس المانيا ، لأن النمسا ، بموجب الحق التاريخي ، قائد المانيا منذ الأزل . وكان يحترم النمسا احتراماً يمازجه الخوف وهذا ما منعه في ١٨٤٨ و ١٨٥٠ من القيام بمبادعات مناوئة للنمسا . ومن جهة أخرى ، كان يشعر بصعوبة الابتعاد عن الرقابة المألوفة والافكار التقليدية ، ولا يرى في الرايخ ، بالنسبة لبروسيا ، الا مهمة عسكرية ، وأن الحل الممكن في نظره يأتي من اتحاد بروسيا والنمسا الذي يضمن الوحدة الألمانية ويصنع عظمة المانيا . لقد كان متعلقاً بالماضي ولا يريد أن يقوض البناء التاريخي البروسي أو البناء التاريخي النمساوي .

وخيب سلوك الملك آمال الليبراليين الألمان . وظهرت هذه الحقيقة على صعيد السياسة الداخلية ، وستظهر عندما تريد الأحداث في العام ١٨٤٨ على الصعيد القومي . والواقع ان الملك أبدى مقاومة عنيفة في إعطاء دستور لشعبه . وقد قال : « يجب أن يكون الملك في بروسيا نقيباً في السلام كما هو في الحرب » . وكان يضع باستمرار مشاريع إصلاح قد ترضي الرأي الليبرالي دون أن تؤثر على حقوق الملك . ولكن هذا العمل كان صعب القيادة والوصول إلى غايته . وكانت نتيجة كل هذه التعاطلات وكل هذه المشاريع التي يبنها ويهدمها ، ادخال الاضطراب في الادارة البروسية ، وأضعاف الحكومة فيها ، بعد أن ظلت تعمل جيداً حتى ذلك الحين ، وبالطبع ازدياد الاستياء ومطالب الخصوم . وأخيراً انتهى الملك باصدار براءة ٣ شباط ١٨٤٧ التي انشأت اللاندتاغ المتحد .

اللاندتاغ المتحد . - وكان اللاندتاغ المتحد يضم في برلين مجلس جميع الديابات الاقليمية التي تنعقد وتنظر في القضايا المالية وتنقسم من أجل القضايا الاخرى إلى هئتين : هيئة الأمراء وهيئة الطبقات الثلاث الدنيا . وفي هذا اللاندتاغ المتحد كما في الديابات الاقليمية ، كانت الطبقة النبيلة متفوقة : وجد لها (٣٠٠) صوت تمثل عشرة الاف مالك ، على حين أنه لم يكن للطبقات الباقية الاخرى الا (٨١) صوتاً تمثل أربعة ملايين رجل . وكانت سلطات هذا اللاندتاغ ضعيفة ، سلطة التصويت على الضرائب الجديدة وتقديم عرائض . واختص الملك بمشاوره اللاندتاغ في القوانين . وأخيراً لم يكن لهذا اللاندتاغ دورة انعقاد ، وإنما لجنة من ثمانية أعضاء ، عضو عن كل اقليم ، تنعقد كل عام لسماع التقارير التي تعرضها الحكومة عليها . كان هذا الاصلاح ضعيفاً ووهماً . وقد أكد الملك في خطاب افتتاح المجلس ، في ١١ نيسان ١٨٤٧ ، مفاهيمه الاستبدادية التي يرجع

العهد بها إلى العصر الوسيط ، وحقوق التاج ، وأنكر حقوق الشعب .
أثار الإصلاح البروسي خيبة أمل كبرى . وبدأت في المجلس الجديد
المعارضة الليبرالية وغرضها توسيع الامتيازات والتنازلات التي خولها الملك .
ومها يكن من أمر فان انعقاد اللاندتاغ أمام الملك كان قرينة على أن
بروسيا الملكية العجوز الارستقراطية والنبيلة ، التي لا تفهم تعاون البلاد
مع الحكومة ، كانت ميتة . وكان أخو الملك ، الأمير غليوم ، وامبراطور
ألمانيا في المستقبل ، يشكو بآلم زوال بروسيا القديمة ، بروسيا العجوز .

قضية شلزيغ - هولشتاين . - وفي الوقت الذي ارتسمت فيه حركة
الإصلاح في بروسيا اثرت في ألمانيا ، في ١٨٤٦ ، قضية الدوقيتين
الدانماركيتين أي قضية شلزيغ وهولشتاين . وكانت هذه القضية معبرة
عن طموح الحزب القومي الألماني وطرقه . ان كراهية شعب الدوقيتين
وبخاصة شعب هولشتاين ، للحكومة الدانماركية ، ومطالبة الجماعة
الألمانية على يد هذا الشعب ، كان من عمل الجامعيين في كيل بالمبادهة
التي قام بها من قبل الاستاذ دالمان . وابتداءً من ١٨٤٠ تعززت هذه
الدعاية الألمانية بأساتذة آخرين من الجامعة نفسها ، ونخص بالذكر منهم فالك
ودويسن وقد أثار هؤلاء الحقوقيون او المؤرخون الألمان قضية الحق الوراثي:
وفي الواقع لم يكن لملك الدانمارك كريستيان الثامن الانجل واحد ، ولم يكن
لهذا النجل نفسه وارث . ولذا أثار الألمان قضية الترشيع للوراثة ، وعلى الأقل
من أجل الدوقيتين . ورشحوا لها أي للدوقيتين أميراً من أسرة اوغستانبودغ
وأمام حركات المطالبة الألمانية فكر ملك الدانمارك بأشعال النار .
وتحت تأثير حزب دانماركي بخاصة ، حزب من الرجال السياسيين ،
يسمى حزب الأيدو ، والآيدر نهر صغير يفصل الدوقيتين عن باقي الدانمارك ،
ذكر الملك في رسالة مفتوحة ، في ١٨٤٦ ، حلاً ممكناً : وذلك بأن

ربط بشكل وثيق الشلزيغ واللاونبورغ بالدانمارك ، ولكن صرح بأنه على استعداد للتخلي عن هولشتاين ، ليجعل منها بالتالي وحدة سياسية المانية أمام باقي الدولة الدانيماركية أصلاً .

ولكن ، أمام هذا الحل ، الذي يقسم الدوقيتين ويتخلى عن الشلزيغ نهائياً ، كان رد فعل الألمان في هولشتاين وفي الكونتفدراسيون الجرمانى عنيفاً : احتج أساتذة كيل على الرسالة المفتوحة ، ودعم احتجاجهم برسائل أتت من مختلف الجامعات الألمانية وتناصر الماني الدوقيتين . وطرح دالمان بذلك كراساً ، وكذلك آرندت الشاعر العجوز ، وذكر بأن بحر الشمال والبالطيك ، منذ ثلاثمائة عام ، بجران ألمان ، وإن الانكليز والبلجيكيين والهولانديين انتزعوا بحر الشمال من الألمان . وإن التخلي عن هولشتاين يعني المخاطرة بضباع البالطيك أيضاً . ونظمت أغاني شعبية وكانت إحدى هذه الاغاني شعبية بخاصة في العام ١٨٤٧ كما كانت أغنية بيكر « الراين الألماني » في العام ١٨٤٠ . وللدلالة على أن ألمانيا كانت تعتبر الدوقيتين قطعتين من ألمانيا ، عقد في لوبيك ، في ١٨٤٧ ، مؤتمر جرامة وفقهاء لغة ومؤرخين المانيين . وفي هذا المؤتمر طالب الاخوان غريم والأستاذ دالمان بالدوقيتين لألمانيا . وهذه القضية ، التي افتتحت في ١٨٤٦ و ١٨٤٧ ، كانت فاتحة للجامعة الجرمانية التي ستظهر عنيفة في العام ١٨٤٨ في برلمان فرنكفورت .

وهكذا كان اضطراب الأفكار عاماً قبيل ثورة ١٨٤٨ : في بروسيا للحصول على اصلاحات سياسية جهورية . وفي ألمانيا لصالح الوحدة الألمانية . وتجمعت الأحزاب المختلفة : عقد الراديكاليون (الجذريون) مجلساً في اوفامبورغ ، في ١٢ ايلول ١٨٤٧ ، وعقد الودويوت المعتدلون مجلساً آخر في هينهايم في ١٠ تشرين الأول . ووضع هؤلاء

المعتدلون برنامج مطالبهم في الوحدة . واختلطت المطالب القومية بالمطالب الليبرالية ، وكانت هذه المطالب أكثر تعقيداً بما رأينا في إيطاليا . وتعددت مفاهيم القومية . ووجدت الفكرة القومية مرتبطة أيضاً بعناصر محافظة . كما ظهرت العقائدية القومية الألمانية أكثر لبساً وأكثر تنوعاً من العقائدية القومية في إيطاليا .

وعدا ذلك كانت الحالة الاجتماعية في ألمانيا معقدة جداً . فقد وجد في ألمانيا توزيع طبقات اجتماعية لا نجده في إيطاليا . يوجد أولاً في الأسفل : طبقة الشعب الجامدة التي لم تشترك في هذا الاضطراب وهذه المطالب كما في شبه الجزيرة الإيطالية . وتأتي فوقها الطبقة البورجوازية ، وهي مستنيرة جداً وتتمتع بثروة اقتصادية هامة وقد بدأت بتصنيع البلاد وبخاصة في الغرب وفي ساكس وفي سيليزيا ، وهذا ما لم يوجد في إيطاليا . ثم تأتي الطبقة النبيلة ، وكانت تتمتع بالامتيازات الاقطاعية ، إلا في الغرب ، وعلى أي حال كانت لها ملكية الأفيان في كل مكان . إذن يوجد في ألمانيا ثلاث طبقات متميزة . ولكن يوجد ، بالإضافة ، بين البورجوازية والطبقة النبيلة ، طبقة معترضة لا نجد مثلها في إيطاليا ولا في فرنسا ، وهي طبقة الألقاب والمناصب ، وتتألف من كبار الموظفين ، وأساتذة الجامعة ، وكبار القضاة المحليين ، وتدور في فلك الحكومات ، وتحصل من هذه الحكومات على الألقاب والمرتبات ، وتريد أن تختلط بالطبقة النبيلة وتشكل عنصر انتقال بين البورجوازية والطبقة النبيلة . وأخيراً ، تستحكم في ألمانيا نعرات محلية نشطة جداً وحية جداً . ونجدها أولاً في الحكومات وفي مجموع جهازها الإداري . وهي لا تريد أن تموت بل ترغب في الحفاظ على إطار الدول المستقلة المنفردة . وتوجد هذه النعرة أيضاً في الشعب ، في أحزاب الشعب الألماني الذي يشعر في كل

دولة بوطنيته الاقليمية. وعندما يتكلم عن الوطنية في بروسيا ، انما يراد بذلك عاطفة البروسيين الخاصة بروسيا ، وكذا الحال في بافاريا ، ولا يراد وطنية عامة لكل المانيا . وإلى جانب هذه النعرات السياسية والحكومية نجد في ألمانيا لا مركزية فكرية لا نجدها مثلاً في فرنسا ، وبذلك ينقص المانيا الرأس المنسق ، لأنه لا يوجد فيها هذا الدماغ الوحيد الذي هو باريس في فرنسا. ويمكنه أن يفرض مبادئه على جميع البلاد . وأخيراً ، نجد في الصعيد الخلفي لكل هذا التعقيد ، في السياسة وفي الدبلوماسية معاً ، عمل دولتين كبيرين أوروبيتين ، تمتزجان بألمانيا وهما : النمسا وبروسيا .

وعندما يتاح للامان المضي في تحقيق هذه الوحدة التي يطالبون بها بحماسة وحرارة ، أي حين ثورة ١٨٤٨ ، نرى انطلاق المصالح والنظريات المتناقضة التي تعمل في اتجاه معاكس ، حتى ان تحقيق الوحدة ، في الوقت نفسه ، وهذا ما يلفت النظر ، يفجر جميع القوى التي تفتت المانيا .

الفصل الخامس

الثورة الأوربية

عام ١٨٤٨

لقد انتهى بنا المطاف إلى ختام تحقيقنا الطويل عن تشكل الروح القومية في أوربة، أي إلى ثورة ١٨٤٨ ، وغرضنا الآن ان نرى، في هذه الثورة ، مكان حركة القوميات . ولكن يجب ، قبل كل شيء ، أن نلقي نظرة على الثورة نفسها ، ومن ثم ندرس بخاصة الحركات القومية في ايطاليا ، والنمسا ، والمانيا .

إذا استثنينا اليونان وبلجيكا نجد أن البلاد الاوربية الأخرى في ١٨٤٨ لم تتغير منذ ١٨١٥ . ولكن الانقلاب المعنوي ، الذي حدث في الثلاثين سنة الماضية ، كان عظيماً وفي العام ١٨٤٧ ، يمكن القول ان فوران الأفكار بلغ درجة أصبحت فيها أوربة العجوز بالية ، ولم تعد أكثر من واجهة ، وان التوازن الاوربي بات ضعيفاً للغاية . ونجد الدليل على ذلك في تفاوت النسب بين الأسباب المباشرة لمختلف الثورات، التي كانت على العموم حوادث تافهة ، وبين سعة الانقلاب الذي تمثله هذه الثورات نفسها التي حدثت بتأثير عوامل عميقة .

لقد ضربت جميع الأسس العقائدية للنظام السيامي الذي وضع عام

١٨١٥ ، وغدت الحالة تتضمن تبايناً بين نظام الحكومات القائم وبين القيم الروحية التي تحرك رعاياها . وهذه العقائدية ، كما رأينا ، معقدة ، وهي اجمالاً مزدوجة : فمن جهة ، فكرة الحرية ، ومن جهة أخرى ، فكرة القومية . تقتضي الاولى تغييراً في نظام الدول الداخلي ، وتتضمن الثانية تغييراً في أساس هذه الدول نفسه ، وفي توزيعها ، وبالتالي انقلاباً أعظم وأعمق من الأول بكثير . ولكن السبق كان للحرية ، في ١٨٤٧ ، لأن النهوض العام للحركة الفكرية جعل منها ضرورة . وهكذا ظهرت الحرية في كل مكان شرطاً أولياً لتحقيق القومية . ولا بد لنا من أن نذكر أن هنالك اختلافاً عظيماً في مفهوم القومية ، وتفاوتاً كبيراً في درجة المطالب التي وصل اليها وعي القومية . ولذا يوجد بعض الصعوبة في عزل ما هو حر ليبرالي وما هو قومي في حركة ١٨٤٨ .

١ - بوادر الثورة

لقد نشبت الثورة في بداية ١٨٤٨ ، ولكنها سبقت ، في الواقع ، بسنة اضطراب كاملة ، وفي وقت ضعفت فيه مقاومة الحكومات أمام الشعوب ، ولم يبق اتفاق بين الحكومات للحفاظ على الحالة التي وجدت في ١٨١٥ وكانت قاعدة السنوات الاولى من العهد الرجعي . لم يكن الحلف المقدس الا بين حكومات الدول الثلاث : روسيا ، النمسا ، بروسيا ؛ ولكن اعيد انشاؤه في ١٨٣٣ ثم جدد ، وآخر تجديد كان في ١٨٤٨ . وفي الواقع ، ان الحكومات الثلاث لا تتفاهم إلا عندما تقتضي المصلحة العامة هذا الاتحاد ، كما في مشكلة بولونيا . والشخص الوحيد الذي حافظ بحق على مذهب الحلف المقدس ، هو قيصر روسيا نيقولا الأول وقد ضعف مترنيخ بتأثير السن والعجز وهوجم في حكومة

فينا نفسها ، وفي حلقات البلاط ، حتى انه قبل نفسه ببعض التغييرات في نظام الدولة ، وبعض التطلعات في الحركة القومية . اما الثالث ، فريدريك - غليوم الرابع ، فلقد رأينا أنه كان شخصاً رخواً متقلباً لا يستقر على حال ، وفي حالة غنج مع بعض تطلعات العصر ومن الممكن القول ان حكومات الحلف المقدس لا تؤمن بعملها في ذلك العصر . اما الحكومات الاخرى ، كفرنسا وانكلترا ، فقد اضطربت منذ ١٨٤٦ بسبب الزواج الاسباني . ويبدو أن سياسة بالمرستون كانت متجهة نحو ضرب سياسة لوي - فيليب وغيزو ، باعتبارهما محافظين ، لتجعل من نفسها محرراً في أوربة . ومع ذلك فان اتفاق فرنسا وانكلترا كان ضرورياً لتوجيه الشعوب وتغيير حالها تدريجياً وسامياً .

الأزمة الاقتصادية . - ان حركة التطلعات الليبرالية والقومية التي حللناها ، قد حلت في الطبقات الفكرية ، وفي البورجوازية وفي الطبقات العليا في المجتمع ، ولم تتغلغل في الجماهير ، حتى في البلاد التي كان تطور هذه الافكار مندفعاً فيها أكثر من غيرها ، مثل فرنسا . ومع هذا فإن الأزمة الاقتصادية وضعت موقفاً هذه الجماهير تحت تصرف النخبة ، وان ظهور الجماهير على المسرح السياسي ضرب الحكومات بالذهول والعجز . ولا مجال هنا لتحليل هذه الأزمة الاقتصادية . حسبنا ان نرى لأي درجة وجهت حركات ١٨٤٨ . ان الازمة الاقتصادية التي خيمت آنذاك كانت أزمة من نوع سابق ، وأساسها زراعي . ولم تكن بعد أزمة فيض انتاج كالأزمات التي عرفتها حركة الصناعة الكبرى فيما بعد وأولها كانت أزمة ١٨٥٧ . لقد كان اصل الازمة الجذب والقحط وفقدان المواد الغذائية ، فهي أزمة زراعية سببها مرض البطاطا الذي قضى على محصول ١٨٤٥ كاملاً وبخاصة في ايرلنده وفي الفلاندر والبلاد المنخفضة

وألمانيا . وفي السنة التالية ، في ١٨٤٦ كانت النكبة في الحبوب : فقد أباد الجفاف المفاجيء والحرارة الاستثنائية المحصول ، في وقت لا توجد فيه الاكداس من العام الفائت . وفي بداية ربيع ١٨٤٧ ، ظهرت أزمة المواد الغذائية بشكل محسوس ، وكانت خطرة بخاصة في اوروبا الشمالية وفي ألمانيا . وكانت نتيجة هذه الأزمة الزراعية الجذب وغلاء الحياة ، وبالتالي بؤس الطبقات الشعبية في كل اوروبا .

وكان المظهر الثاني للأزمة تقديماً ومالياً ، ويرجع إلى مبالغة الاستثمارات والمشاريع التي طرحت في العشر سنوات الاخيرة . وفي آخر ١٨٤٦ وفي ١٨٤٧ بدأت المشاريع الاستثمارية بالانهيار ، فسبب ذلك توقفاً في العمل في كثير من النقاط . فقد انهارت بعض الشركات الكبرى في انكلترا وفرنسا وألمانيا واضطرت أن تقلص اعتمادها ، وفي كل مكان تقريباً ، أصيبت الأشكال الصناعية الأخرى بالأزمة . وارتفعت الأزمة الصناعية فوق الأزمة النقدية . وكانت حالة الصناعة ضعيفة ، بسبب الانقلاب الذي أحدثه استعمال الآلة في العالم الاقتصادي ، والمرور التدريجي ، الذي بدأ حديثاً ، من الصناعة البدوية الحرفية إلى الصناعة الرأسمالية . حدث الضيق في المنتجات قبل غيره ، وكان التوقف عن العمل نتيجة له ، وبالتالي التسريحات ، والبطالة التي أثرت بخاصة على البلاد المتصنة ، بشكل طبيعي ، أي انكلترا وفرنسا ، وبلجيكا وألمانيا . ولقد أصابت هذه الأزمة الصناعية الصناعات الريفية في أعماقها فلكت عموماً في هذه القضية ..

وتجلت هذه الازمة بشكل طبيعي باضطرابات اجتماعية ، وهذا ما يهنا في الموضوع ، وهذه الاضطرابات الاجتماعية كانت على نوعين :

حركات معاشية وحركات صناعة عمالية . وكانت سنة ١٨٤٧ مفعمة بالاضطرابات الاجتماعية . أما الحركات التي سببها فقدان الأرزاق ، وحلت في الأرياف ، فقد ظهرت ، في فرنسا ، بما كان يسمى قديماً « هيجانات » أي حركات فلاحين بسبب الجوب وبسبب الأسواق ، الخ ... وقد جرت خاصة ، في وسط فرنسا وغربها ، وكانت خطيرة خاصة في الفلاندر الفالونية التي لم تنهض من هذه الأزمة ، وفي البلاد الرينانية وفي فرتامبرغ ، وأخيراً في إيطاليا ، في شمال لومبارديا ، وفي جنوة ، ورومانيو ، وتوسكانه . وفي النمسا ، سببت الأزمة في ١٨٤٦ ثورة الفلاحين الغاليسيين الذين قتلوا عدداً من الأمراء والبورجوازيين . وإلى هذه الأسباب الاقتصادية في حدوث الاضطراب يضاف أيضاً الحقد العرقي الذي كان يملك الفلاحين الروتنيين ضد الملاكين البولونيين ؛ وفي ربيع ١٨٤٧ حدثت حركات مشابهة في فينا .

وإلى جانب اضطرابات الأرزاق قامت حركات عمال الصناعة ، من اضطرابات ومظاهرات مختلفة ، كانت تنقلب قليلاً أو كثيراً إلى ثورة . وكانت الحركات في فرنسا بسيطة ومنعزلة ومتفرقة ، بينما كانت حركات العمال خطيرة في انكلترا ، وفي المناطق القطنية والمعدنية في الفلاندر ، وفي ألمانيا ، وفي سيليزيا ، وفي براندنبورغ ، وفي وستفاليا . وفي الواقع لا يوجد بعد في الأزمة الصناعية والعالية هذا الدواء التي سينتظم بعد ١٨٤٨ ، وهو الهجرة . لقد كان الناس ، في أوربة الوسطى ، متعلقين بالتراب بسبب النظام الاقطاعي أو بسبب التشريع الذي يمنع الهجرة . وباستثناء إيرلنده ، حيث كان لانكلترا تشريع حر ، لم تكن الهجرة دواءً للأزمات الصناعية ، كما ستكون عادة في السنوات

التالية . ومن الواضح في هذه الظروف ، التي لا يستطيع فيها العمال والفلاحون البائسون أن يهاجروا ، ان تتجلى الحركة بالاضطرابات والثورات . وفي ألمانيا ، كان للحوادث مغزاها ومعناها : فقد بلغ غلاء السلع في العام ١٨٤٧ ، بالنسبة للسنوات العادية ، نسبة ٨٣٪ ، ونقصت الأجور ، بسبب الأزمة ، بنسبة ١٥٪ . وتشكلت رابطات عمال في كل مكان ، وفي شتاء ١٨٤٧ - ١٨٤٨ كان باستطاعة الأزمة الصناعية ان تضع في خدمة الثورة عشرين ألف عامل تقريباً . ولم تكن الأزمة الاقتصادية سبباً في الثورة ، ولكنها توضع سعنها وعموميتها ، وتساعد على انتشار النظم الهدامة . ولذا وجد الثوريون جميع التسهيلات لتجديد الجماهير الشعبية ضد الحكومات .

العوامل الدولية . - لقد نشبت الثورة في كل مكان عام ١٨٤٨ وبالأجمال في كل مكان في وقت واحد ، ولم تكن من عمل منظمة دولية . إن وحدة الأسباب ، وتقليد البلد للآخر توضحان لنا تواجد هذه الحركات معاً . كان لكل واحدة منها أسبابها الخاصة ، وكل واحدة منها اتسعت بشكل منعزل عن الأخرى . وفي ذلك الحين أيضاً وجدت منظمة ثورية دولية آخذة بالتشكل ، ولكن لم يكن لها من الوقت ما يجعلها تلعب دوراً ، وكانت من عمل الشيوعيين الألمان : وذلك ان عمالاً ثوريين ألمانين لجؤوا إلى فرنسا بعد ١٨٣٠ وأنشؤوا في عام ١٨٣٦ جمعية سرية تسمى « عصابة العادلين » ومن الطبيعي أن يكون شكلها شكل المنظمات الثورية المعاصرة . فهي تتألف من جماعات أساسية تسمى « القومونات » ، وتتحد هذه فيما بينها في منظمات أوسع تسمى « الدوائر » ، وهذه تتحد في منظمة أكبر تسمى « المؤتمر » وهو يسمى « اللجنة القومية » . وكانت عصابة الألمان العادلين هذه على اتصال بالجمعيات العمالية الألمانية الموجودة

في ألمانيا ، كجمعية المطالعة (القراءة) ، وهي جمعيات نقاش بسيط ، وتكثر بخاصة في المنطقة الريفانية . وكانت أيضاً على صلة بالجماعات الألمانية في سويسرا وبلجيكا ؛ ومن جهة أخرى ، على صلة بالجمعيات السرية الثورية في فرنسا ، والحركة الميثاقية في إنكلترا . وكان المحركون لعصبة العادلين عمالاً ألمان مثل فايتلينغ ، وكان عاملاً خياطاً ، وكذلك شاير وياور . وعندما نشبت ثورة ١٨٣٩ في باريس واخفقت وأثارت تحقيقات وتدابير انتقامية ، نقل هؤلاء الرجال مقر حركتهم إلى لندن في العام ١٨٤٠ ، وإلى بروكسل ، وكان مذهبهم شيوعية مسالمة وعاطفية . وفي هذه السنة كان عملهم في سبات . الفوا أول جمعية دولية (أممية) في لندن وسموها « الديموقراطيون أصدقاء كل أمة » ، بعد قليل على وصولهم ، في ١٨٤٤ ، ولكن نشاطهم كان ضعيفاً جداً .

ثم قامت في هذه الجمعية ثورة داخلية ، على يد مفكرين ألمان ، مثل آنفلز وكارل ماركس ، ولم يشترك بها العمال ، وحولت الحركة : وأعدت في ١٨٤٦ خطة منظمة دولية ونظمت لجانها في بلجيكا وفرنسا وألمانيا وإنكلترا في آخر ١٨٤٦ و ١٨٤٧ . وفي صيف ١٨٤٧ انتظمت الحركة نهائياً وأخذت اسم « العصبة الشيوعية » ، وفي أيلول ١٨٤٧ بدأت بنشر مجلة تسمى « المجلة الشيوعية » ، وفي هذه الحركة الجديدة خلع آنفلز وماركس فايتلينغ ، وأخذوا على عاتقها القيام بمهمة تحرير برنامج الجمعية الجديدة . وأقاما ، مقام شيوعية العمال - الألمان السابقة ، مذهبهم الخاص بهم أي جماعية وسائل الانتاج ، والفكرة التي لا يمكن اجتنابها ومن الضروري توطيدها في كل مكان ، بسبب الحركة الصناعية ، إلا وهي نزاع الطبقات الذي يؤدي إلى شكل جديد للمجتمع . وطالبا بترك

الطرق المتبعة حتى الآن في البحث عن تحسين حالة العمال ، هذا التحسين الذي لا يمكن أن يكون الاجزئياً ، وقالوا : ان الطريقة الجديدة يجب أن تكون في التخلي عن الحركات الثورية المحلية ، للانصراف إلى تهيئة دائمة لثورة شاملة تغير المجتمع كلاً وتم ، دون اعتبار لبلد ، على أساس فصل الطبقات ، وتؤدي إلى دكتاتورية الطبقة الكادحة . وأخذوا على عاتقها تحرير بيان للمجتمع ، ولكن هذا البيان لم يعد إلا في آخر كانون الثاني ١٨٤٨ . وفي الوقت الذي نشبت فيه الثورة في كل مكان كانا في سبيل تجليد الكراس ، ولم يصدر البيان الشيوعي إلا بعد الثورة ، ولذا لم يكن له تأثير ملحوظ في الحركة الثورية . وهذا البيان ينكر ، فيما يهمننا ، وهذا الحادث هام ، المفاهيم القومية وينتهي بالعبارة الشهيرة . « يا عمال جميع البلاد اتحدوا » .

وهناك عنصر رابطة دولية بين البلاد ، وبين الحركات الثورية ، وهو اللاجئون السياسيون ، الذين طردوا من بلادهم ، اثر المؤامرات أو الأعمال الزجرية الحكومية ، واستقروا في فرنسا ، وسويسرا ، وانكلترا ، وبلجيكا . وكثيرون منهم عادوا إلى وطنهم بعد أن فتحت حركات ١٨٤٨ الحدود واشتركوا عندئذ بنزاع الأحزاب في داخل بلادهم . وبعضهم ، وهم أكثر حماسة ، تبنا صيغاً جمهورية ، وقاموا بمجهود ، في الخارج ، لتنشيط ثورة بلادهم ، ليعودوا اليه والسلاح بيدهم ، وليحاولوا استلام السلطة أو تحويل الثورة بغزو المهاجرين القدامى . وهكذا تشكلت عصابات مسلحة « جوقات » مختلفة حاولت خاصة أن تدخل المانيا ، حيث ظلت الحكومات على شكها القديم ، وكبحت بالتالي جماح الثورة . انطلقوا من فرنسا وسويسرا وقاموا بمحاولات تاريخ الحركات القومية م (١٥)

عديدة مختلفة : قاموا على باجيسكا بمحاولتين هزيلتين لم تؤديا إلى شيء :
في ٢٥ آذار على كويشيفون ، وفي ٢٩ آذار بالقرب ، من موسكوفون
على قرية ديسكون - تو . وحركة السافرازيين على شامبري ، من ٣٠
آذار إلى ٤ نيسان ١٨٤٨ . وأخيراً قامت في ألمانيا الغربية والجنوبية ،
حركة اقترنت بثورة الفلاحين والعمال ، في آخر نيسان ١٨٤٨ . وكان
بين هؤلاء اللاجئين من لم يكن لهم وطن ، مثل البولونيين ، وليس لهم
بلد يرجعون إليه ، ولذا كانوا يشتركون بجميع الثورات . وهكذا
نرى البولونيين من جنود ومن قادة في جميع هذه الجيوش المؤلفة من المتطوعين
في ١٨٤٨ و ١٨٤٩ .

وبالأجمال ، إذا استثنينا الجو العام والفرص التي تتيحها هذه الثورات
بعضها لبعض ، أمكننا القول بأنه لا يوجد عوامل دولية في أساس ثورات
١٨٤٨ . لقد سبقت الثورة باضطرابات عامة تقريباً في أوربة الوسطى
في ١٨٤٧ اشتبكت فيها الحكومات مع شعوبها وفيما بينها . وكانت هذه
الحركات على نوعين : دولية وداخلية .

القضايا الدولية . - كانت المشاكل الدولية مزدوجة : الثورة
البولونية والحرب الأهلية في سويسرا ، وقد أدت كل من هاتين الحركتين
المحليتين إلى أزمات دولية .

الثورة البولونية . - أفاد البولونيون من الليبرالية التي أقرها في
بروسيا فريدريك - غليوم الرابع لتشكيل مركز ثوري في دوقية
بوزن . وحاول هذا المركز أن ينظم ثورة في بولونيا البروسية والروسية
والنمساوية . وعندما اندفع تنظيم البولونيين طلبوا زعيماً من الهجرة
البولونية في باريس ، وكان هذا الزعيم الذي أتى اليهم به ضابطاً قديماً في
حركات الثورة عام ١٨٣٢ ، واسمه ، ميروسلاوسكي (١٨١٤ - ١٨٧٨) ،

وكان في الوقت ذاته صحافياً ، نشر في ١٨٣٣ باللغة الفرنسية « تاريخ الثورة البولونية » ، وترجم هذا الكتاب إلى البولونية في العام ١٨٤٣ . وكان ميروسلاوسكي رجلاً جريئاً ، مفعماً بالآيمان ، خطيباً ، وقائد رجال ، ولكن ينقصه روح المتابعة والصلابة والكفاءة العسكرية . وكانت التعبئة العسكرية لهذه الثورة غير كافية وحدد قيام الثورة في ٢٢ شباط ١٨٤٦ ، ولكنها أخفقت بحالة يرثى لها .

في بروسيا ، أعلنت السلطات سلفاً ، واستطاعت ، قبل انفجار الحركة ، أن توقف ميروسلاوسكي وسبعائة مشبوه ، وأجري تحقيق أدى إلى القبض على مجموع المنظمة . وفي ١٨٤٧ حكم على ميروسلاوسكي وعشرة من شركائه بالموت ، ولكن عفي عنهم وزجوا في السجن . وقد ألقى ميروسلاوسكي للدفاع عن نفسه ، في ٥ آب ١٨٤٧ ، خطاباً ، طبع ووزع كراساً ، وفيه يجد الفكرة الثورية البولونية ، ويصرح بأن الحركة موجهة في الأساس ضد روسيا واختتم خطابه بقوله : « يوجد مؤامرة دائمة في بولونيا » ، ونشر خطابه في جريدة « الإصلاح » في باريس .

في غاليسيا ، قامت الضابطة النمساوية بتوقيفات وقائية في لامبرغ ووافقت الحركة من أصلها . وكان البولونيون في هذه المحاولة ضحية نظرياتهم الاشتراكية : وذلك أن الفلاحين الووتينيين ، الذين اضطهدهم الملاكون وتألّموا من الأزمة الزراعية ، فهموا هذه المذاهب الاشتراكية وألقوا بأنفسهم على ملاكهم ، وكان يحرضهم في الخفاء ، على ما يبدو ، الضباط النمساويون الذين أعطوا حتى عشرة فلورين على رأس كل ملاك ؛ وهكذا قتل ١٦٢ ملاكاً بولونياً على أيدي فلاحهم .

ولجأ هؤلاء الثوار البولونيون إلى أرض جمهورية كرا كوفيا الصغيرة ، أي

القطعة الوحيدة من بولونيا التي مازالت موجودة، وأطاحوا بالحكومة الديمقراطية. ولذلك قامت الحكومات الثلاث المجاورة برد فعل مباشر، واحتلت الجيوش الروسية والنمساوية والبوسنية أرض جمهورية كراكوفيا، كما فعلت ذلك من ١٨٣٦ إلى ١٨٤١ اثر حركة مماثلة. وأكدت الحكومات للدول الأخرى بأنها تريد القيام بعملية ضابطة مؤقتة. وسجل غيزو وبالمستون هذا التعهد الرسمي الصريح باسم معاهدات ١٨١٥. غير أن الشقاق بين بالمستون وغيزو كان فرصة بالنسبة إلى متونينغ، فانتهازها لتحويل هذا الاحتلال إلى انضمام. وبعد أن تفاهم مع القيصر وسد اطماع بروسيا ببعض امتيازات اقتصادية، وجه، في ٦ تشرين الثاني، إلى فرنسا وانكلترا مذكرة تشير إلى أن النمسا ضمت جمهورية كراكوفيا لتوطيد نظام التملك السابق لعام ١٨٠٩، وبذلك لوضع حد لحالة التآمر الدائم في أرض كراكوفيا. وهكذا زالت آخر قطعة من بولونيا. وكانت قيمة هذه الأرض رمزية أكثر مما هي حقيقية، ولكن هذا الضم أثار هياجاً عظيماً، بالطبع، لدى الدوائر الليبرالية في أوربه، وخاصة في فرنسا: حاول غيزو أن يتباحث مع انكلترا بشأن تدخل للاحتجاج على هذا الضم، ولكن بالمستون لم يكن منهيئاً لذلك، ولم يكن للمذكرتين، مذكرة انكلترا، في ٢٣ تشرين الثاني، ومذكرة فرنسا، في ٣ كانون الأول، إلا قيمة افلاطونية. وكانت اخفاق هذه الثورة البولونية آخر اخفاق قومي، في أوربه، قبل ثورة ١٨٤٨.

الحرب الاهلية في سويسرا. - أما الحرب الأهلية في سويسرا، فقد نجمت عن حركة معقدة وكانت في آن واحد خلافاً سياسياً، بين المحافظين والديموقراطيين المسمين هنا «الحزب الراديكالي»، وخلافاً

دينياً بين البروتستانت والكاثوليك ، وكان كل من الطرفين مندفعاً في نظرياته ، بعضهم في اتجاه الفكر الحر ، وآخرون في الاتجاه الروماني البابوي الكاثوليكي (حركة ما وراء الجبال) الذي نما منذ بضع سنين . وكانت أيضاً حركة قومية . وما يهمنا هنا في هذا الاتجاه ، هو أنها أعربت عن رغبتها في سويسرا بتعزيز الروابط الاتحادية ، وخلق وحدة سويسرية بما لم يكن سوى جمع من الكانتونات المتحدة ، وبالمجمل استعادة تقاليد الوحدة السويسرية التي تمت على يد فرنسا من ١٨٠٣ إلى ١٨١٤ . وقد تجلت هذه الحركة نحو الوحدة بما سمي « حركة التجديد » التي بدأت غداة ثورة ١٨٣٠ ، والتي أصلحت بموجبها تدريجياً دساتير مختلف الكانتونات على أساس العقلانية والمساواة ، والتي بموجبها أيضاً وضع مشروع اصلاح الدستور العام ، الدستور الكونفدرالي وأخفق هذا الاصلاح في ١٨٣٣ ، ولكن الحركة لصالح وحدة سويسرا استمرت على يد جمعية « الاتحاد القومي » وهو اسم معبر وله مغزاه . وكانت حركة الاحرار القوميين السويسريين هذه بالطبع على صلة بجميع الحركات الليبرالية في الدول المجاورة ، وبخاصة بالأحرار الألمان الذين النجؤوا في معظمهم إلى بال وخاصة إلى زوريخ حيث أعطت السلطات الكانتونية كراسي جامعية واطباء ووظائف عامة إلى رجال مثل بوخو أو شتاوس . ولعلنا نذكر أن جمعية « أوربة الفتاة » التي أسسها ماتزيني في العام ١٨٣٤ كانت في سويسرا ، وان عدة حوادث قامت على يد اللاجئين في سويسرا وضعت الحكومة السويسرية في نزاع مع الحكومات المجاورة ، وقد دعم الراديكاليون السويسريون رفقاءهم الاجانب ، باسم استقلال سويسرا والمبادئ الديمقراطية. هذا فضلاً عن أن تحريض الأفكار

سبب في ١٨٣٣ خلافات محلية عديدة ، بل وبعض ثورات في داخل الكانتونات .

وتجسدت هذه المنازعات أخيراً بنضال لأجل المدرسة ، ولأجل التعليم الابتدائي بين الراديكاليين ، أنصار التعليم العلماني ، والكاثوليك الذين يريدون أن يعهدوا بالتعليم الابتدائي إلى اليسوعيين . وارتبطت مشكلة المدرسة على هذا النحو بمشكلة الجمعيات الرهبانية ، وولد هذا النزاع ، في هذه المرة ، أحزاباً قومية تجاوزت حدود الكانتونات التي تهم السويسريين جميعاً .

قام المتطوعون الراديكاليون بمحاولتي هجوم على لوسرن في آخر ١٨٤٤ وبداية ١٨٤٥ ، فسببتا تشكل عصبة دفاع مؤلفة من السبع كانتونات السويسرية الكاثوليكية ، وكما يقول بيانها بغية « الدفاع عن حقوق سيادتها وأراضيها » . وأخذت هذه العصبة اسم « الزوندربونند » . وكانت لها مجلس حربي وتعتمد على ضريبة تسجيل تدفعها الكانتونات السبع . وانتقلت القضية ، على هذا النحو ، إلى الصعيد القومي ، إلى صعيد السلطات العائدة للكانتونات والحكومة الاتحادية . وكان نجاح أحد الحزبين منوطاً بالأكثرية في المجلس الاتحادي : وقد كسب الراديكاليون الكانتونين اللذين يعطيانهم أكثرية اثني عشر كرسيّاً وهما كانتون جوفيف بثورة صغيرة ضد الباتريشيا قامت في ١٨٤٦ ، وكانتون القديس - غال بنتيجة انتخابات أيار ١٨٤٧ . وبعد أن حصل الراديكاليون على الأكثرية في المجلس الاتحادي ، اتخذوا ، في تموز ١٨٤٧ ، في الديايط ، قراراً مبدأ .

١ - ان الزوندربونند يناهض الوحدة الاتحادية .

٢ - إعادة النظر في الدستور الكونفدرالي .

وفي الدورة التالية ، دورة تشرين الأول ١٨٤٧ قرر الديباط .

٣ - حذف الزوندربونند بالقوة .

أمام هذا التهديد الراديكالي ، وجه الكاثوليك نداء يستجدون بساردينيا والنمسا وفرنسا . وبينما كانت الدول ، بناء على اقتراح متونيخ تتناقش فيما بينها على صيغة التدخل ، باسم الحقوق التي تخولها إياها معاهدات ١٨١٥ ، منشئة الكونفدراسيون السويسري ، حاول بالمرستون جهد المستطاع أن يطيل هذه المفاوضات ما أمكن . وقام الراديكاليون السويسريون بعمل قوي وسريع : الفوا على عجل جيشاً ، وسلموا قيادته إلى الجنرال دوفور ؛ وخذل اللوسرنيون في رتامبرغ ، في ٢٣ تشرين الثاني ١٨٤٧ ؛ وخضعت الكانتونات الأخرى . ودامت الحملة ستة وعشرين يوماً . وهذا النصر الذي أحرزه الجنرال دوفور جعل التدخلات الدبلوماسية الصرفة ، التي قامت بها الدول ، غير مجدية . وارتبطت بهذه الإرادة القومية ثورة قامت في كانون الثاني ١٨٤٨ ، في إمارة نوشاتيل التابعة لملك بروسيا ، وأطرحَت السيادة البروسية ، وانتظمت في كانتون سويسرية . وهكذا انتصر المبدأ القومي في الوحدة والاستقلال في آخر ١٨٤٧ وبداية ١٨٤٨ ولم يبق في هذا الاتجاه إلا إصلاح الدستور الكونفدرالي .

الثورات الداخلية في أوردبة الوسطى . - أما الثورات الأخرى التي سبقت ثورة ١٨٤٨ ، وكانت من طلائعها ، فقد كانت داخلية ، وقامت في أوربه الوسطى دون أن تتجاوز حدود الدول التي حدثت فيها .

الثورة في ألمانيا . - لقد أثار دفع الفكرة القومية قضية دوقيني .

شلفينغ - هولشتاين التي ألحقها إليها سابقاً . ولندكر أن المؤتمرات الجرمانية التي بدأت قبل عامين كانت تطالب بتشكيل برلمان ألماني ، وأن جريدة ألمانية أنشئت في تموز ١٨٤٧ ، في كولونيا ، واسمها « الصحيفة الألمانية » ، لمد هذه الحركة القومية ، وأن العاطفة العامة ، في أن إصلاح الكونفدراسيون الجرمني ضروري ، كانت واسعة ومنتشرة حتى أن الملك فريدريك - غليوم الرابع اعتقد بضرورة اقتراح هذا الإصلاح ورأى في ذلك وسيلة لتوجيه الأفكار إلى القضايا القومية ، وعلى وجه التفضيل إلى قضايا الإصلاح الدستوري . وفي ٢١ تشرين الثاني ١٨٤٧ ، أرسل إلى مونيخ مشروعاً بإصلاح حكومة الكونفدراسيون يتناول من جديد تنظيم الديار بشكل تتخذ فيه القرارات بتصويت الاكثوية ، وإنشاء محكمة اتحادية ، ووحدة التشريع الاقتصادي ، والاشتراك معاً بإنشاء خطوط حديدية ، وإصلاح الجيش الاتحادي .

أن ما نراه بخاصة هو أن الأحزاب أخذت تعرف نفسها بشكل أوضح على صعيد الليبرالية . ولقد كان اللاندتاغ المتحد في بروسياء فرصة للأحرار للاعراب عن مطالبهم البروسية الصرفة :

عقد الراديكاليون الديموقراطيون مؤتمراً في أوفنبورغ في ١٢ أيلول ١٨٤٧ ، وعرفوا فيه مطالبهم وهي : حرية الصحافة والجمعيات ولجنة محلفين في القضايا الجنائية ، والحرس القومي ، والضريبة التصاعدية على الدخل ، ومجلس قومي ألماني إلى جانب الديار .

وبعد بضعة أيام عقد الواحدويون المعتدلون مؤتمراً في هينهايم ، في ١٠ تشرين الأول ١٨٤٧ ، وعرفوا أنفسهم بدورهم : طالبوا ببرلمان للاتحاد الجرمني تسولفراين ، وقرأ باسمهم الطلب باسمهم على مجلس كالمسروه كما قرأ هنري فون غاغيرن في مجلس دارمشتات .

انطلقت حركة الاضطراب السياسي حتى الثورة في بافاريا : فقد وقع الملك لويس الاول تحت تأثير الراقصة الاسبانية ، لولا مونتز ، ورأت هذه ان تزج نفسها في معترك المشاكل السياسية ، وبلغت النظر بخاصة تدخلها في تسمية الأساقفة ؛ فرفضت الوزارة البافارية هذا التدخل واستقالت في ١٨٤٧ . ثم دخلت لولا مونتز في نزاع مع الجامعة وتحزب الطلاب لاساتذتهم ضدها وأهانوها في الشوارع ، واشترك الشعب في القضية ودعم الطلاب . وقامت مشادة اضطرت الملك في كانون الثاني ١٨٤٧ إلى طرد الراقصة ، ولكن حياة العزلة بدت له كربة ، وعند أول حركة للثورة بادر بالتنازل عن العرش لصالح ابنه والسفر إلى الجانب الآخر من جبال الالب . ولم تكن هذه الثورة ، كما نرى ، رصينة ، ولكنها تدل ، لحد ما ، على هياج الافكار في المانيا الجنوبية . واضطر دوق باد الاكبر في الوقت نفسه تحت معارضة المجلس أن يستدعي وزارة ديموقراطية . وقامت ثورة في شتوتغارت في ١٨٤٧ واضطر الملك أن يأخذ على عاتقه الأمر ويتزعم حركة الضرب على يد هذه الحركة . وفي ساكس حرض المدرب الشعبي ووبر بلوم العمال ؛ وفي دريسدن قامت ثورة عمال . وهكذا نرى في كل مكان اضطراباً متطرفاً . وفي المجالس السياسية ، في كل مكان تقريباً تشكل جهاز متحمس للنضال السياسي ومقاومة السلطة ، ومدرب على الحياة البرلمانية . ولقد أصبح الآن على درجة كافية من القوة ليرفع صوته ويطالب بالاصلاحات التي تسمح الثورة بالقيام بها .

الثورة في ايطاليا . - ذهب الاضطراب في ايطاليا إلى أبعد مما في المانيا ، على اثر حادث أهاج ايطاليا وقلبها وهو : انتخاب البابايوس التاسع في ١٦ حزيران ١٨٤٦ والأعمال الليبرالية الاولى ، وبخاصة العفو

السيامي العام ، التي طبعت تسلمه العرش الحبري . وكان ينظر إلى البابا الجديد إلى أنه البابا المصلح ، كما أخبر بذلك جيوزي ، وقد تعلق الناس به تعلقاً عجيباً ، وأخذ يتمتع مباشرة بشعبية عظيمة ، حتى وجد نفسه مكبلاً بهذه الشعبية التي دفعته إلى اصلاحات ليبرالية أكثر مما كان يريد نفسه . وأصبح نشيد بيوس التاسع نشيداً وطنياً إيطالياً في نفس الوقت الذي ألف فيه ماميلي نشيده ، في العام ١٨٤٧ ، مع موسيقى فودي ، بمناسبة أعياد الذكرى المثوية لطرد النمساويين من جنوة . وامتدت حركة الاصلاح الرومانية إلى توسكانا ، حيث وجدت في ١٨٤٦ حركة اضطرابات قام بها أساتذة وطلاب جامعة بيزا ضد الجمعيات الدينية ، ومن توسكانا امتدت إلى المملكة البيموننتية - الساردية . وكان هؤلاء الأحرار يطالبون بحكوماتهم بحرية الصحافة ، وتشكيل حرس قومي ، وحرس أهلي . وقد ألغى بيوس التاسع الرقابة في شهر آذار ١٨٤٧ ، وفي شهر نيسان ، وعد بمجلس دولة ، وفي شهر تموز ١٨٤٧ ، وافق على تشكيل حرس أهلي . وحذا حذوه دوق توسكانا الأكبر في شهر ايلول . وبعد هذه المطالب ، التي كانت بمثابة مسكنات تقريباً ، طالب الأحرار بشي أخطر وأصرح : وهو دساتير تمثيلية .

أخذت الحركة طابعاً قومياً ومناوئاً للنمسا أمام رد الفعل الذي قامت به حكومة مترونيخ حيال هذه الحركات الليبرالية . احتلت الجيوش النمساوية فرااره ، بحجة الفوضى ، في شهر آب ١٨٤٧ وفرضت معاهدة حماية حقيقية على دوق مودينا في شهر كانون الأول . وارسلت نجدات إلى ميلانيا ، وهددت الحكومة النمساوية باجتياح دوقيتي بارما وتوسكانا لقمع الحركات الليبرالية فيها . وبلغ التهديد النمساوي ، في شهر ايلول ١٨٤٧ ومرة أخرى في كانون الثاني ١٨٤٨ ، حدّاً جعل البابا ودوق

توسكانا يقومان بمفاتيحات مع ملك بيمونت - سادينيا لتشكيل عصبة دفاع ضد النمسا . وكتب ماتزيني رسالة مفتوحة إلى البابا يطلب فيها منه ان يتزعم الحركة القومية الايطالية ، وقدم له مساعدة جميع اشياءه .

وفي الدولة اللومباردية - البندقية ، اخذ الاضطراب شكل ثورة : فقد قامت مظاهرات وحدثت اصطدامات مع الجيوش بمناسبة الذكرى السنوية لوفاة الزعيم الميلاني ، كروتفالونييري في كانون الأول ١٨٤٨ ، ثم أثناء اعياد تنصيب مطران ميلانو الجديد الذي كان في هذه المرة ميلانياً لا نمساوياً كما في ايلول ١٨٤٧ . ولما زادت الحكومة الرسوم على الاستهلاك وخاصة على التبغ قرر الميلانيون مقاطعة التبغ ابتداء من أول كانون الثاني ١٨٤٨ . وفي ٢ كانون الثاني قامت حركات بلغت حد الثورة ، وتسمى هذه الثورة : « ثورة التبغ » (السيغار) وهاجم الثوار الضباط النمساويين الذين يدخلون في الشارع جهاراً ؛ ودامت المناوشات يومين ، من ٢ كانون الثاني إلى ٤ منه ، وقع خلالها ٥٩ قتيلاً .

وفي البندقية ، أثار الاضطراب رجلاً ، الهامي مانين والكاتب تومازيو الدلامي الأصل . وكان سخط العسكريين النمساويين عظيماً حيال هذه الحركات الثورية . فقد أعلن واديتسكي ، قائد الجيوش ، الاحكام العرفية في ميلانو في ١١ شباط وطلب النجدة للاحقاد الاضطراب بالقوة . وتفاقمت الحالة بالأزمة الاقتصادية التي عمت البؤس وتجلت في كل مكان في ايطاليا بثورات شعبية تشكو الجوع وبخاصة في ليفورنه وجنوة وفلورانس .

وأخيراً ، في صقلية نشبت ثورة ذات نبرة خاصة . فقد قامت أول محاولة للثورة في ايلول ١٨٤٧ في مسينا ، ولكنها أخفقت . وفي ١٢

كانون الثاني ١٨٤٨ ثارت بالرمو بدورها . وفي ثمانية أيام قتالاً ، طرد الصقليون الحاميات النابولية ؛ وفي ٢٧ كانون الثاني اقلعت الجيوش ؛ ولم تحتفظ الحكومة الا بقلعة مسينا وحدها . واقامت حكومة مؤقتة في بالرمو ونادت بوضع دستور ١٨١٢ موضع التنفيذ . ولم يكن في هذه الثورة الصقلية بالطبع شيء قومي لأنها كانت ، على العكس ، ثورة انفصالية ذات نبرة خاصة اقليمية ؛ ولكن كان من نتيجتها أن سببت ، بالعدوى ، انتصار الحركات الليبرالية في ايطاليا الأصلية (غير شبه الجزيرة) . وهنا نرى أول مثل لما سنراه في حركات ١٨٤٨ نفسها ، وهو التنافس بين الثورات .

وقامت ثورة في نابولي واجبرت الملك فرديناند الثاني على منع دستور لشعبه في ٢٩ كانون الثاني . وأثار الاحرار في تورينو وفي جنوة مظاهرات واضطرابات اجبرت الملك في ٨ شباط على أن يقطع وعداً بدستور . وفي فلورنسا ، أجبر الدوق الاكبر في ١١ شباط على اعطاء وعد بدستور واذاعة هذا الدستور في ١٧ منه . وفي روما ، كانت المطالبة بالدستور حارة . ولكن البابا بيوس التاسع ظل متربداً . وهذه الدساتير التي اضطر الملوك ، في نابولي ، وبيفوننت ، وتوسكانا ، إلى اعلانها أو الوعد بها ، لم تكن الا تقليداً للميثاق الفرنسي ، ميثاق لوي - فيليب ، ولم يكن لها تلك الصفة الديمقراطية التي ستكون لها في عام ١٨٤٨ . وهكذا نرى أن الثورة الليبرالية الأصلية بدأت قبل الثورة الفرنسية نفسها ، في ٢٤ شباط ١٨٤٨ ، وان المشكلة القومية ، خارجاً عن هذه الثورات الليبرالية ، وضعت في الصعيد الاول بالنسبة للسياسة الايطالية ، وما ذلك الا بسبب الحقد على النمسا ، الذي أخذ يشتعل في جميع الجهات .

٢ - ثورة ١٨٤٨

لقد كانت الحركات الثورية عام ١٨٤٨ أوسع بكثير من هذه الحركات الغامضة والناقصة التي أتينا على ذكرها. والحادث الحاسم فيها كان في ثورة باريس في ٢٤ شباط ١٨٤٨ التي كان من نتائجها تقوية الحركات التي بدأت من قبل في إيطاليا ، وبخاصة في ألمانيا ، وبأني بعد ذلك يوم ١٣ آذار ١٨٤٨ في فيينا ، الذي اسقط مترونيخ ، ودك الجهاز الذي أمسك بأوربة الرجعية ، أوربة الوسطي ، في السلاسل والأغلال . وكانت الحركة عامة ، وكانت الثورات في آن واحد ليبرالية وقومية معاً . وايقظت مشاكل دولية قامت في وثبة الايمان ، وأحياناً في جو الحب الغض الندي ، جو « ربيع الشعوب » كما أطلق عليه . ومن الطبيعي ان كل شيء فيها لم يكن لهم حركة القوميات ، ولكن من المفيد أن نأخذ عنها لمحة عامة ونسجل ارتباط هذه الثورات فيما بينها ، ومن ثم نستطيع أن نعود ، في هذا الاطار العام ، إلى دراسة الحركات القومية الأصلية .

الحركة السياسية . - هناك عدة مراحل يجب تمييزها . لقد كانت اضطراب الأفكار بالغاً أشده حتى ان نبدأ ثورة ٢٤ شباط ١٨٤٨ في باريس دفع الحركات التي بدأت من قبل دفعة واسعة . وكان رد فعل الحكومات بالطبع الوقوف على الدفاع : فقد خافت بلجيكا مباشرة من أن تضمها فرنسا اليها ، وأخذت تبحث عن مساعدة لها من الخارج وحاولت حكومات الشرق عقد تألب على الثورة ، ولكن هذا التألب أخفق اثر رفض انكلترا ، وبسبب لباقة مارتين الذي حالت تصريحاته المطمئنة دون تشكل هذه العصبة .

أما من جهة الشعوب ، فعلى العكس ، كان من رد الفعل الذي أثارته الثورة أن عجل الحركات التي بدأت بنجاسة في إيطاليا : ففي هآذار أذاع شارل - البير د النظام الأساسي ، وهو اسم الدستور اليموني ؛ وفي ١١ آذار شكل بيوس التاسع وزارة علمانية ووعده بدستور . وفي النمسا أعربت الحركات القومية عن مطالبيها : مثل دياط برسبورغ والديايط المونغارتي تحت تأثير كوسوط ، والبوهيميون في اجتماع عام كبير في براغ ، في ١١ آذار . وفي ألمانيا اتسعت الحركة في عدة اتجاهات : أولاً ، في دول الجنوب - الغربي ، حيث وجدت من قبل مجالس ، اجبرت مطالبات المجالس الحكومات على منح حريات جديدة ، ووزارات مسؤولة أمام المجالس ، وتشكيل حرس قومي ، في دوقية باد ، وفي الثلاث هسات ، وفي فرانكفورت ، وفي فورتامبرغ . ونحولت هذه الدول الدستورية الصغيرة إلى دول ديموقراطية . وكذا الحال في الشمال ، في المدن الحرة مثل لوبك وهامبورغ ولم تتجاوز الحركة في برورسيا الرينانية والوستفالية حركة عرائض لدى السلطات المحلية ، ولم تؤد إلى شيء .

الحركة الاجتماعية - . وإلى جانب هذه الحركة السياسية في الدول الدستورية ، نرى ظهور حركة اجتماعية خرجت من البؤس الناجم عن الأزمة الاقتصادية . فقد نشبت ثورة زراعية في وادي ليكار في هآذار وامتدت تدريجياً إلى بريسفاو ، وإلى كويشفاو في اودهلفالد ، وفي الغابة السوداء ، حتى بحيرة كونستانس : هوجت القصور ، والممتلكات الخاصة ، وهوجم اليهود في المدن الصغرى . ثم هدأت هذه الحركة بتأثير الجيوش البادية والفرتامبرغية ، وبإلغاء النظام الاقطاعي الذي صوت عليه في المجالس .

حملة اصلاح دستور الكونفدراسيون الجرمانى . - وقامت حملة لاصلاح دستور الكونفدراسيون الجرمانى . فقد نوقش الاصلاح بناء على

اقترح بروسيا ، في ٢٨ شباط ، وملك بافاريا ، بين الأمراء . وفي ٢٧ شباط نظمت الحكومات الثلاث : باد ، هس ، ناسو ، بناء على اقتراح هنري غاغيرن نوعاً من مهمة وعهد بها إلى رجلين سياسيين للانتقال ، من عاصمة إلى عاصمة ، ودراسة مشاريع اصلاح الكونفدراسيون . وسمع الديباط نفسه بالغاء الرقابة في الدول . والحق به سبعة عشر رجلاً كانوا مواضع ثقته لدراسة الاصلاحات الممكنة في الكونفدراسيون . وفي الوقت نفسه ، اجتمع سبعة زعماء أحرار في هايدلبرغ وقرروا دعوة كل من أسهم في مجالس ألمانيا السياسية إلى الاجتماع في « برلمان تحضيرى » لدراسة امكان انعقاد مجلس قومي .

وهذه الحركات ، التي كانت انعكاساً مباشراً لثورة باريس كانت متواضعة في ألمانيا الغربية وفي إيطاليا الوسطى ؛ وتناولت مطالب سياسية دون ثورة بالمعنى الأصلي للثورة ؛ الا أنها أثارت قضية الاصلاح الكونفدرالى في ألمانيا ووضعت القضية القومية في النمسا ، وهذه النتائج التي حصلت عليها هامة حقاً .

ثورة فيينا (١٣ آذار ١٨٤٨) . - والحادث الأخطر أيضاً والذي كانت له نتائج عميقة جداً ، هو ثورة فيينا ، اثر المظاهرات الشعبية التي سببت الاصطدام مع الجيوش ، في اليوم الذي انعقد فيه ديباط النمسا ، في ١٣ آذار ١٨٤٨ . فقد اضطر مترنيخ إلى الفرار ، وفي يوم ١٥ منه منح الامبراطور حرية الصحافة ، وتشكيل الحرس القومي ، ووعد بدستور ونظم الهيئة الوزارية . إن انهيار الحكومة الرجعية في النمسا عمم الحركة الثورية وفجر الثورة في كل مكان ، تولى فيه المفكرون قيادة الشعب . ولقد أخذت الحركة بالحال طابعاً متطرفاً ، سواء في شكلها السياسي أم في شكلها القومي . وقد أجرت الثورة في هذه المرة تحويلاً تاماً في أوربة

في أجزائها وفي نظامها العام . وكانت الثورات تجري على شكل شلال ، وتثير الواحدة الأخرى ، بتنافس حقيقي بين البلاد .

في النمسا ، كانت حكومة الامبراطورية تتحول ، عندما ظهرت القوميات . فقد تحولت حكومة الامبراطورية ، في ٢٥ نيسان ، بدستور منحه الامبراطور ، ولكن عدم كفايته ، في نظر الشعب ، كان سبباً في قيام ثورة جديدة في ١٥ أيار ؛ واضطر الامبراطور إلى الاعتراف بأن المجلس التأسيسي هو الذي سيسن الدستور النمساوي . وطلبت القوميات الاعتراف باستقلالها الذاتي . واضطرت الحكومة إلى التنازل وأعلنت في ٨ نيسان ، ميثاق بوهيميا ، وفي ١١ نيسان ، نظام هونغاريا . وإلى جانب هاتين القوميتين ، اللتين فرضتا الاعتراف بحق حياتهما ، وجدت القوميات الأخرى ، التي ظلت حتى الآن فكرية صرفاً ، فاثارت مطالب سياسية : فمن ذلك ان الكرواتيين ثاروا تحت قيادة الجنرال يلاشيش وهو شاعر من التخوم العسكرية سمي بان كرواتيا في ١٤ نيسان ، واعقد الديباط الكروات في ٥ حزيران ؛ وحركة الصربيين المائلة على التخوم العسكرية التي عقدت مجلساً قومياً في كارلوفيتز في ١٣ أيار ؛ وعقد الرومانيون في تونسلفانيا مؤتمرهم في بلاج في ١٥ أيار . وطالبت هذه الحركات الثلاث بالاعتراف بمساواتها مع قوميات الامبراطورية الأخرى .

وصل نيا يوم ١٥ آذار في فينا إلى برلين في ١٦ منه . وفي الـ ١٧ بدأ الاضطراب . وفي ١٨ انفجرت الثورة ، كما في باريس وفينا ، اثر صدام بين الجيش والمتظاهرين . حتى ان فريدريك - غليوم الرابع نفسه ، بعد أن عرته الثورة من سلاحه ، ودفعته المظاهرات البورجوازية والشعبية ، بعد أن حاول أن يحول الأفكار نحو مطالب

قومية ألمانية ، اضطر إلى تنازلات متتابة انتهت بالتصويت في اللاندتاغ المتحد على القانون الانتخابي لانعقاد مجلس تأسيسي . وفي بحر آذار وبداية نيسان انتصرت الحركة الدستورية في كل ألمانيا الوسطى ، وخاصة في ساكس وفي بافاريا .

الثورة القومية في ألمانيا - وإلى جانب هذه الثورات السياسية الداخلية تحققت الثورة القومية في ألمانيا كافة وانعقد البرلمان التحضيري في ٣١ آذار ؛ وسن قانوناً انتخابياً وعين لجنة دائمة من خمسين عضواً وسمى « رجال الثقة » السبعة عشر الذين سيمثلون الشعب لدى الديباط . ودرست هذه الهيئات الثلاث ، كل من جانبها ، خطط الحكومة لكل ألمانيا. وفي ١٨ أيار ١٨٤٨ انعقد في فرنكفورت أول برلمان ألماني .

. وأخيراً ارتسمت حركة ثالثة ، حركة متطرفة ؛ جمهورية تشكلت في غربي ألمانيا وأدت إلى ثورة نظمت مع غزو اللاجئين القادمين من سويسرا وفرنسا ، في ١٢ نيسان . ولكن هذه الثورة وهذا الغزو المسلح فتنه جيوش باد وهرس وفرتامبرغ التي قاتلت الثوريين في كفاح كاندرن في ٢١ نيسان . واستمرت الحركة ، بعض الوقت أيضاً ، بثورات في البلاتينا ، في هايدلبرغ وفي مانهايم . ولم يكن لهذه الثورات من نتيجة سوى أنها أخافت الأفكار ، وأثارت بالتالي رد فعل محافظ . وأخيراً قامت ، على التخوم الخارجية من ألمانيا حركات قومية في الدوقيتين ، وفي بولونيا . فقد انفجرت ثورة انفصالية في هولشتاين ، في ٢٣ آذار ، وساندها الديباط والحكومة البروسية ؛ وفي بولونيا البروسية ، قامت حركة تمرد في ٢٨ آذار وساندها السلطات البروسية في البدء . وفي كل مكان ، قضت الثورة ، في بضعة أسابيع ، على النظام تاريخ الحركات القومية (١٦)

الاقطاعي ونظام السلطة المطلقة ؛ وفي كل مكان انتصرت معاً قضية الحرية وقضية القومية . ولم يبق في آخر ربيع ١٨٤٨ الا تنظيم الحكومات الجديدة وتسييرها بعد أن وضعت المبادئ وتم العمل الاساسي في إزالة العقبات .

مصير الثورات . - وبعد أن قامت هذه الثورات معاً أخذت تتطور منفصلة عن بعضها ، ما عدا الارتباط المباشر الموجود ، بالطبع ، بين النمسا وإيطاليا الشمالية ، لأن النمسا تملك فيها المملكة اللومباردية - البندقية ، وما عدا التأثير العام الذي كان يجري في كل أوربة ، كالحوادث الطارئة في الوضع النمساوي على ألمانيا . وفي هذا الدور الجديد ، حافظت حوادث النمسا دوماً على قيمة دولية ، وكانت حاسمة على مصير الثورات الأخرى أكثر من سياسة الدول الأجنبية ، مثل سياسة فرنسا وانكلترا أو روسيا .

في إيطاليا . - كان مصير هذه الثورات منافياً بسرعة . فقد سوي مصير الثورة في إيطاليا قبل مصير غيرها : لقد وجدت فيها قضيتان : قضية التحرير القومي من النير النمساوي من جهة ، والتحويل الداخلي في الدول ، من جهة أخرى . في البدء كان الدفع القومي في إيطاليا ، ضد النمسا ، عاماً وحاراً . ولكنه جف بسرعة بسبب سياسة بيمونت الأنانية ، التي لم تصور الافادة من هذه الحركة القومية إلا من وجهة نظر مصالحها الخاصة ، ودلت على عدم كفاءة عسكرية اعقبت نتائج خطيرة . وقد خيبت هذه السياسة الانانية بسرعة القوميين الايطاليين ، مثل ماتزيني ، الذي جاء ، مع غارييلدي ، ليتزعم متطوعي إيطاليا الشمالية ، وادرك ان سياسة بيمونت تحرف الحركة القومية . وان ما كانت تبحث عنه البيمونت ونجحت فيه بمكايدها ، هو أنها استطاعت عن طريق التصويت

ان تظم اللومبارديا والبندقية إلى بيمونت في مملكة ايطاليا العليا ، وأن ملك بيمونت رفض في الوقت نفسه مفاتحات العصبة العسكرية التي تقدم بها البابا ودوق توسكانا الاكبر، وطرح المساعدة التي اقترحها عليه لامارتين ، حتى انه لم ينهياً أو انه لم ينهياً الا بتوردد للوساطة الفرنسية - الانكليزية ، مع أن الشروط التي كانت النمسا مستعدة للتنازل عنها كانت ملائمة جداً ومفيدة .

قلقت الحكومات بسرعة من سياسة بيمونت . ولم يستطع البابا بوصفه اميراً دينياً وزعيماً للكنيسة ان يوافق على حرب بين الكاثوليك ، ولذلك شجب مبدأ الحرب في منشور ٢٩ نيسان . وقلق ملك نابولي من المكاييد التي كانت تحاك في صقلية لاعطاء التاج الصقلي إلى ابن شارل - البير ، ملك البيمونت ، واستدعى جنوده من جيش المتطوعين الذين التقوا حول الجيش البيمونتي بعد أن اتوا من مختلف انحاء ايطاليا وضموا جيش بيمونت حتى بلغ ٨٠،٠٠٠ رجل ، ولكنهم ظهروا ضعافاً : من ذلك ان عدداً منهم غادروا صفوف القتال ، ولم يعرفوا كيف ينازعون الجيوش النمساوية على مدن منطقة البندقية القارية .

وتحولت الحالة العسكرية في الوقت نفسه بسرعة . فقد طرد راديتسكي من ميلانو ، واحتفظ بجيشه سليماً في 'منطقة الشكل الرباعي' وانتظر النجدة ولم يقبل بأي حل الا الحل العسكري . وبانتظار هذه النجدة استعاد فيسانس في ١٠ حزيران ، ومدن السهل البندقي الواحدة بعد الاخرى . وعندما أتته النجدة المنتظرة قام بالهجوم في ٢٣ تموز . وسحق البيمونتيون في كوستوزا في ٢٥ تموز ، وسلمت ميلانو في ٥ آب ، ووقع شارل - آلبر الهدنة في ٩ آب ، وقبل بالجلاء عن البندقية ولومبارديا والدوقيات ، واحتلت الجيوش النمساوية فواره في ١٤ تموز . وبهذه الهزيمة أصبح تحرير ايطاليا العسكري من النير النمساوي مستحيلاً . وبقيت البندقية وحدها منعزلة في مقاومة ضارية تحيط بها جيوش النمسا .

ومن جهة أخرى ، كانت الحياة السياسية في مجالس مختلف الدول غارقة في المنازعات بين الأحرار والديمقراطيين ، وزادت هذه المنازعات حدة بالجدل الذي أثير حول القضية القومية . واشتبكت دعاية الجمهوريين الوندويين بزعامة ماتزيني ، ودعاية الاتحاديين برئاسة جيورتي . وجرت مفاوضات دامت طوال السنة لإقامة اتحاد في إيطاليا الوسطى ، لعدم توفر اتحاد عام ، واقتصرت هذه المشاريع أخيراً على توحيد الدول الحبرية والدول التوسكانية معاً . وفي كل مكان من إيطاليا ، كانت المنازعات السياسية في الدول الإيطالية سبباً في سقوط الوزارات . ولم يكن الأحرار قادرين على تنظيم تجديد رصين في الدولة . وفي روما ، تحطمت جهود وزارة مامباني التي حاولت القيام بأصلاحات اجتماعية ، أمام عداء الكرادلة . وأفادت عناصر النظام القديم في كل مكان تقريباً من هذه المنازعات الداخلية ، لمشايعة الرأي لهم . وهكذا كان الأحرار غير قادرين على التوصل لتأليف نظام حقيقي مرضي ، وظهروا كمناسبات للفوضى والعجز الحكومي .

وفي طرفي إيطاليا عاد النظام القديم حيث كان بسرعة : في المملكة اللومباردية - البندقية القديمة بواسطة دكتاتورية راديتسكي ؛ وفي إيطاليا الجنوبية ، في مملكة نابولي ، تخلص الملك من المجلس الأول في ١٥ أيار ؛ وأجل الثاني إلى بداية أيلول ، وأحمد الثورة ، وأمسك بيده الجيش والإدارة ، وفي شهر آذار ١٨٤٩ أقال برلمانه نهائياً . وفي غضون ذلك استمرت الثورة الصقلية دون أن تهتم بباقي المملكة أو بباقي إيطاليا ولكن دون أن تستطيع تنظيم نفسها بشكل قطعي ، باحثة عن ملك ، وعن توطيد إدارة ودستور . وحصل النابوليون على قاعدة للعمليات بأخذه مسينا ، في ٦ أيلول ١٨٤٨ . وفي آخر شباط ١٩٤٩ ، أرسل

ملك نابولي انذاراً إلى الصقليين ، وفي بداية نيسان ، بدأ الهجوم على الجزيرة . وفي ١١ أيار اضطر الصقليون إلى التسليم . وألف جنوب إيطاليا عصبة جانبية منعزلة ، إلا عندما أسهم بأرسال المتطوعين في الحرب القومية ، وولى ظهره بسرعة عن باقي إيطاليا واعد توطيد النظام القديم . ولم تدم الليبرالية ، في الجنوب ، إلا بضعة أشهر .

لقد كانت من نتيجة الاخفاق في الحقل القومي وفي حقل السياسة الداخلية ان بالغت في التطور السياسي في بعض النقاط . وبالأجمال ، لم يعمل شيء للشعب ، أو لتخفيف آثار الأزمة الاقتصادية التي شكت منها الجماهير الشعبية . وسبب هذا الاخفاق المزدوج ، في آخر ١٨٤٨ وفي بداية ١٨٤٩ ، رعشة في العناصر الديمقراطية التي يساندها الشعب ، وفي بداية كانون الأول توصلت إلى السلطة في ييمونت بتشكيل وزارة يرأسها جيورتي . وفي روما ، قلبت ثورة حكومة البابا الليبرالية وقتلت رئيس مجلس الوزراء ، رومي : ففي ١٥ تشرين الثاني استولى الجمهوريون على السلطة ، وفر البابا من روما والتجأ في غاييت ، وامتدت الحركة إلى فلورنسا فطردت الدوق الأكبر وانتظمت في جمهورية .

وهذه الحركة المتطرفة والقومية جرت الملك شارك - آلبير إلى خرق الهدنة التي وقعها ، وفي ١٢ آذار استأنف اليمونتيون النضال ؛ ولكنهم سحقوا في نوفارو ، في ٢٤ منه ، ولم تنج اليموننت من سحق كلي إلا بتدخل السفير الفرنسي ، الذي حصل على إيقاف الجيوش النمساوية وتوقيع الهدنة في ٢٦ آذار . وتنازل شارل - آلبير عن العرش لصالح ابنه ، فيكتور - عمانوئيل الثاني . وابتداء من هذا الحين ، غرقت اليموننت في منازعات برلمانية عنيفة دون أن تؤثر أكثر من ذلك على إيطاليا .

وهكذا أصبحت روما وفلورنسا مركزاً وملجأً لجميع الثوريين الايطاليين ، الجمهوريين أو القوميين ، المتجمعين تحت نفوذ ما تزييني . وبدأت تصفية هذه الحركات المختلفة بعد نوافارو ، وتمت في بحر سنة ١٨٤٩ . واستطاع النمساويون بنجدهم لدوق توسكانا الاكبر ، ليوبولد ، ان يرجعوه إلى فلورنسا بعد حملة قصيرة من ٥ نيسان إلى ٢٥ أيار . وفي روما ، جرى نقاش ، لأرجاع السلطة الحبرية بحلول مختلفة : من قبل السفراء حول البابا أو من قبل الحكومات فيما بينها ؛ وتصورت عدة حلول في حال عدم وجود الحل الذي يفضلها البابا ، أي الرجوع بواسطة النمسا وحدها . وفي آخر شباط ، تدخل النمساويون في فراره ، ويبدو أنهم أرادوا التدخل ، بناء على طلب البابا ، في الدول الحبرية . ولكن الحكومة الفرنسية اشترقت الحوادث وقررت أن تتدخل بنفسها في ١٦ نيسان : نزلت حملة فرنسية في سيفيتا - فيكشيا ولكنها لم تستطع الهجوم على روما في ٣٠ نيسان ؛ ولذا وجب استئناف العمليات مع التعزيزات . واستولت جيوش الجنرال اودينو على روما في أول تموز ، بينما احتلت النمسا القصادات الرسولية . وأخيراً حوصرت البندقية وحميت بشكل قوي خلال فترة من الزمن ، ببعض السفن الفرنسية ، حتى معركة نوافارو ، ولكن الجيوش النمساوية هاجمتها في ١٣ حزيران واخذتها نهائياً في ١٢ آب . وهكذا كان قمع الحركة الديموقراطية فرصة لتصفية الحركة القومية والحركة الليبرالية معاً في ايطاليا .

في النمسا . - لقد كان نجاح الثورة مديناً لدعر الحكومة وعدم قدرتها أكثر منه لقوة الثوريين نفسها . ولكن الثورة تركت الجيش سليماً لم يمس ، هذا الجيش الذي تكمن فيه فكرة الدولة والقياد

الملكية في النمسا . ومن جهة أخرى ، رفعت الثورة على الصعيد السياسي مختلف القوميات ، وأدخلت بالتالي في الامبراطورية عناصر تفرقة . غير أن هذه القوميات كانت متفاوتة في درجة نموها ، ولم تكن كلها معادية لمبدأ الامبراطورية . لقد كانت تفصلها المنازعات ؛ ولم يكن بين قوميات النمسا ائتلاف أو أي تفاهم . ولذا فإن القوتين ، الجيش واختلاف القوميات ، تساعدان على تنظيم الدولة . وقد بدأ هذا التنظيم في صيف ١٨٤٨ . ولم يتضمن ، في الأصل ، حذف الحرية ولا القومية ؛ بل كان يبحث عن حل جديد ، وقد نهيأ هذا الحل في آخر سنة ١٨٤٨ .

وتجدر الإشارة إلى أن الثورة منذ البدء ولدت عند السلافيين وعياً واضحاً بفرديتهم وتضامنهم ، وخاصة عند سلاف الشمال . وفي الواقع ، انكر البوهيميون فكرة الامبراطورية الرومانية الجرمانية القديمة ، حيث كان البوهيميون ملتصقين بالمانيا ، ورفضوا ، في شهر نيسان ، أن يرسلوا ممثلين عنهم إلى برلمان فرنكفورت ؛ ورأوا ، على العكس ، ان تقوم القومي منوط ببقائهم جزءاً من الامبراطورية النمساوية ، وان تقوم قوميتهم مرتبطة بوجود النمسا ، لأنه يساعدهم على النمو الثقافي والقومي الذي يفقدونه إذا ما امتزجوا بالمانيا : ولقد قال الزعيم بالاتسكي ملخصاً : « إذا لم توجد النمسا فيجب اختراعها » . ونظراً لاختلاف السلاف عن الألمان ، كانوا يشعرون بحاجة إلى معارضة الكتلة الجرمانية بالكتلة السلافية : ففي أول أيار ١٨٤٨ ، دعا التشيكيون إلى مؤتمر عام للسلاف ، وافتتح هذا المؤتمر في براغ في ٢ حزيران . ولسوء الحظ قام ، أثناء انعقاد المؤتمر ، خلاف بين الجنود والحرس القومي في ١٢ حزيران ، وأدى إلى استرجاع المدينة بواسطة الجيش النمساوي ، وفي هذه الحوادث تأجل المؤتمر في ٢٨ حزيران دون أن يعمل شيئاً . ولم تكن هذه القضية في هذا المؤتمر الجامع للسلافيين

إلا مقدمة في تاريخ الثورة النمساوية ، ولم تؤثر في شيء على نظام
الامبراطورية النمساوية .

أخذ تنظيم الامبراطورية النمساوية من جديد عدة أشكال متتابعة .
وأدت التنازلات ، التي أجريت غداة الثورة للبوهيميين والصرم
والكروات ، إلى توجيه الملكية نحو تنظيم فيدرالي يتفق مع الحقوق
التاريخية ؛ ويعتبر هذا التنظيم بالتالي قطعة مع تقاليد النمسا القديمة .
ومع ذلك ، فقد حاولت الحكومة النمساوية ، قبل أن تتخلى عن هذه
التقاليد ، وللمرة الأخيرة ، أن تجرب حلاً ثنائياً أي التفاهم مع هونغاريا: ففي
شهر حزيران ١٨٤٨ صرحت الحكومة النمساوية بسلامة تاج القديس -
إيتين وخولت الارشيدوق البالاتاني ، حاكم هونغاريا ، تفويضاً بسلطات
الحكومة . ولكن هذا الحل اخفق بتعنت الهونغاريين وتملق كوسوط .
وانعقد البرلمان الهونغاري في ٤ تموز ، وحاول على العكس أن يظهر
الاختلاف وفردية الهونغاريين واستقلال هونغاريا الذاتي حيال فينسا ،
وفي الوقت نفسه سيطرة المجر على القوميات الأخرى التابعة لتاج القديس
- إيتين . ولما اخفقت هذه المحاولة الأخيرة في الحل الثنائي تخلت النمسا
عن الحقوق التاريخية ، ودفعتهما الحوادث في اتجاه مغاير للحل التقليدي .

لقد أعاد الجيش السلطة حيث كانت . وكما أرجع الجيش ، الذي كان
في إيطاليا تحت قيادة راديتسكي ، السلطة النمساوية ، فقد أعاد الماريشال
فيند شغروانتز السلطة النمساوية في بوهيميا ، اثر واقعة بين الجنود
والحرس القومي ، في براغ ، في ١٢ حزيران : فقد استولى الماريشال
على المدينة في ٢٧ حزيران ، وبعثر اللجنة القومية في بوهيميا . ودخلت
هذه الأخيرة في نطاق الدولة النمساوية العادي ، دون صعوبة ، لأن

ولاء البوهيميين لتاج فينا ظل سليماً . ثم قامت ثورة ثانية في فينا ، في ٦ تشرين الأول ، وأدت إلى مقتل وزير الحرية ، وكان هذا الحادث فرصة لاستلام الجيش المدينة : فوض فيندشغرائتز بسلطات استثنائية ، واستولى على فينا في ٣١ تشرين الأول وأخذ يعاقب الزعماء الثوريين . وكان بينهم مندوب برلمان فرنكفورت الألماني دوبيوت بلوم ، وأعدم إطلاقاً بالرصاص في ٩ تشرين الثاني . وتشكلت تحت حماية الجيش ، في ٢١ تشرين الثاني ، وزارة يوجهها الأمير فليكس شفارتزنبورغ ، مع وزيرين آخرين من قيمته ، باخ وزيراً للعدلية وشتاديون وزيراً للداخلية . ولتستطيع هذه الوزارة تجديد النمسا وحكمها ، فرضت على الامبراطور فرديناند المريض التنازل لصالح ابن أخيه الشاب ، فرنسوا - جوزيف . والعنصر الثاني في بناء الامبراطورية من جديد ، خارجاً عن عمل الجيش ، كان في اللعبة التي لعبتها الحكومة النمساوية ، ضد الهونغاريين ، بالاتفاق مع القوميات الأخرى : فقد قطع الهونغاريون والكرواتيون العلاقات فيما بينهم نهائياً منذ شهر تموز . وفي ٤ ايلول ' قلد يلاشيش سلطات الحكومة في كرواتيا . وشكلت الحكومة من جديد مختلف الديابات السلافية . ولم يكن الهونغاريون على استعداد لأي تسوية : لذا حاولت حكومة فينا ان تتفاوض مع العناصر الهونغارية المعتدلة ، وارسلت الكونت لامبيرت حاكماً ، وهو ينتسب إلى فريق الماغينات المعتدلين ، ولكن الجمهور قتله في ٢٨ ايلول ١٨٤٨ . وأصبحت القضية بين الهونغاريين وباقي الامبراطورية قضية قوة .

وعبر الارشيدوق جان ، باسم الامبراطور ، عن مفاهيم حكومة فينا في إعادة تنظيم الدولة ، عندما افتتح البرلمان النمساوي ، في ٢٢ تموز ، ومن ثم رئيس مجلس الوزراء الجديد ، شفارتزنبورغ ، في ٢٧

تشرين الثاني ، في البرلمان نفسه : وكان المراد صنع النمسا على أساس دستوري . وقبلت الحكومة الجديدة بذلك وطلبت من المجلس في ٧ ايلول ان يصوت على التحويل الاجتماعي العميق بالغاء النظام الاقطاعي . وهذه النمسا الدستورية تصبح مؤلفة من جميع القوميات على قدم مساواة واحدة ، وبالتالي تشكل كل من القوميات المختلفة اقلية وبنفس الصفة ، شأن كرواسيا في ذلك شأن ترانسلفانيا ، والتخوم ، وهونغاريا وبوهيميا . وكان يراد بذلك توطيد وحدة الامبراطورية بتأسيسها على المبدأ المزدوج في الحرية الدستورية والقومية ، وهذا المفهوم الجديد يوفق بين وحدة الدولة وارضاء المطلوب المزدوج الليبرالي والقومي الدارج . وبدأ عمل تنظيم النمسا على هذا الأساس في برلمان فيينا ثم في كويميزو ، وهي بلدة صغيرة في مورافيا عندما انتقل البرلمان اليها في شهر تشرين الأول ، ثم أخذت الوزارة ، وحدها عمل التنظيم على عاتقها دون الاستعانة بالبرلمان .

كان يجب فرض هذا التنظيم الجديد على هونغاريا . ولكن هونغاريا ، في الحقيقة ، كانت تنساق شيئاً فشيئاً نحو التطرف : انعزل الماغينات المحافظون عن الحياة السياسية ؛ وثبط عزم المعتدلين مثل : دياك ، أوتفوس ، زيشيني ، بعد أن رأوا انحراف هونغاريا بسبب بمالة كوسوط . فقد نظم الهونغاريون أنفسهم في البدء دون أن يقيموا أقل اعتبار لعالم فيينا والقوميات الأخرى . وحتى مقتل لامبيرت ، في ٢٨ ايلول ، الذي يسجل القطيعة النهائية بين هونغاريا وباقي الملكية ، كان كوسوط يوجه هذا العمل باعتباره رئيساً للجنة الدفاع الهونغارية . وفي المرحلة الثانية من النضال ، ذهب الهونغاريون حتى الانفصال : ففي ١٤ نيسان ١٨٤٩ أعلن سقوط آل هابسبورغ واستقلال هونغاريا . وعندما قلد فيلد شغرائتز القيادة العليا ، في ١٢ تشرين الثاني ، أخذ على عاتقه الهجوم على هونغاريا ،

في ١٥ كانون الأول ، منطلقاً من الشمال والشمال الغربي ، بينا كانت يلاشيش يهاجم من الغرب ، والروس ينفذون إلى ترانسلفانيا . وأخذت بودابست في ٥ كانون الثاني ١٨٤٩ . ودحرت لجنة الدفاع ، التي تمثل الحكومة الهونغارية ، إلى الجنوب واستقرت في دوبرتشن .

وشجع هذا الانتصار على هونغاريا سفارتزانبورغ وغير أفكاره ، لا على أساس تنظيم النمسا ، بل على اشتراك الشعب في الحكم : ففي ٧ آذار ١٨٤٩ ، أعلن سفارتزانبورغ حل البرلمان ونشر دستوراً مؤرخاً في ٤ آذار ١٨٤٩ . وهذا الدستور يعلن « وحدة المملكة التي لا تنقسم » وتضم « بلاد التاج » وكلها متساوية ولكل واحد منها سلطات إدارية فقط ؛ والحكومة المركزية صلاحية سياسية عامة ، وشكل دستوري ، وديباط منتخب بالتصويت الضريبي ، ووزارة مسؤولة أمام الديباط . إلا أن تمديد النضال ضد الهونغاريين أجل تنفيذ دستور ٤ آذار ١٨٤٩ . ثم إن الأحكام العرفية ، التي اقتضتها الحرب في بوهيميا وفي فينا ، مددت إلى الأقاليم الأخرى في الامبراطورية . وفي آخر آذار ١٨٤٩ ، تمكن الهونغاريون من استعادة تشكيل جيشهم وعادوا القتال : هزم فيندشغرائتز في غوديلو في ٧ نيسان ١٨٤٩ ؛ واستعاد الهونغاريون بودابست ؛ وفي آخر نيسان ١٨٤٩ تحررت الأرض الهونغارية بأكملها .

أمام هذا التطرف استنجد سفارتزانبورغ بالقيصر الروسي : عبر جيش روسي بقيادة باسكيفيتس جبال الكاربات ونزل نهر تيسزا ، بينا نزل الجيش الامبراطوري بقيادة الجنرال هاغناو نهر الدانوب ، الذي يهاجمه يلاشيش من الجنوب ويهاجمه جيش نمساوي - روسي من ترانسلفانيا . وانهار الهونغاريون تحت هذا الهجوم المركز : أخذت دوبرتشن وبودابست في آخر تموز ، واضطر كوسوط أن يضع سلطاته بين يدي الجنرال

قائد الجيش ، جورجى ، وفر إلى تركيا . واستسلم المونغار يون بين يدي القائد الروسى ، فى ١٠ آب ١٨٤٩ .

لقد أدى إخفاق هونغاريا إلى إخفاق القوميات وإخفاق الدستور . وفى بحر سنة ١٨٥٠ أعطت حكومة فينا الأنظمة الاقليمية التى نص عليها الدستور ، ولكنها ردتها إلى سلطات ادارية صرفة . وظل الحكم المركزى الدستورى معلقاً . وفى ٢٠ نيسان ١٨٥١ ألغى شفارتزانبرغ مسؤولية الوزراء أمام المجلس ، وفى ٣١ كانون الأول ١٨٥٥ علق الدستور . وهكذا سادت الأفكار الجديدة حكومة فينا وسيتم ارجاع النظام المركزى والمجر من فى السنوات التالية .

الفصل السادس

قوميات جنوب شرقي اوروبا

إذا قارنا بين خارطات اوروبا عام ١٨١٥ وخارطانها عام ١٩٢٠ ، مثلاً ، لأن الخارطة السياسية في هذه الآونة تنطبق أساساً على خارطة القوميات ، لوجدنا أن القسم الجنوبي - الشرقي من اوروبا أكثر تحولاً. ففي ١٨١٥ ، كان جنوب - شرقي اوروبا يتشكل من كتلتين كبيرتين : الامبراطورية النمساوية والامبراطورية العثمانية ، وهما امبراطوريتان تاريخيتان ، دون شخصية جغرافية أو دينية . كان شكل هاتين الدولتين شكل سيطرة عرق أو ارسقراطية على جماهير بقيت في القنانة ، وفلاحين ليس لهم حياة خاصة من وجهة النظر السياسية أو الادارية ويختلف عرقهم عن عرق سادتهم . وقد ثبتت الحدود بين هاتين الدولتين بمعاهداتي بلغراد ١٧٣٩ وسيستوفا ١٧٩١ ؛ وهي تجتاز منطقتين عرقيتين ، المنطقة المأهولة بالصرب والمنطقة المأهولة بالرومان . وهما تقومان على نظامين سياسيين ، ومن الممكن أن نقول على حضارتين مختلفتين . وكانت الحكومتان ، العثمانية والنمساوية تشعران باختلاف الشعوب التي تسيطران عليها وتفيدان من هذا الاختلاف لصالح سلطتهما . وقد قال الامبراطور فرانسوا يوماً إلى سفير فرنسا : « إن شعوبي اجنبي بعضها عن بعض . حسن جداً . ولذا لا تصيبهم أمراض واحدة في وقت واحد ! ففي فرنسا ، عندما تأتكم الحمى

تصيكم جميعاً في وقت واحد . اضع هونغاريين في إيطاليا ، وإيطاليين في هونغاريا : كل واحد يحرس جاره ، ولا يتفاهمون . وبكرهوت بعضهم : ومن كراهيتهم ينشأ النظام ، ومن كرههم المتقابل ، السلام العام . أما الأتراك ، فهم يمتازون بسياسة التفريق بين الأجناس . ومن السهل أن نفهم ، في هذه الظروف ، بأن هاتين الامبراطوريتين كانت تهاجمها حركة مزدوجة متآتية ، في شكلها السياسي ، عن أفكار ليبرالية ، وفي وجود الدولة نفسه ، عن حركة وحدوية ، حركة قومية . ولكن لتصل الحركة الليبرالية والحركة القومية إلى تفتيت هاتين الدولتين ، لا بد من مرور زمن : وفي التاريخ الذي نحن فيه ١٨١٥ ، قامت الحركة الصربية وحصلت على استقلال ذاتي لباشوية بلغراد ، والحركة التي أدت إلى الاستقلال الذاتي للأفلاق (فالاشيا) والبغدان (مولدافيا) في الاقليمين الدانوبيين ، غير أن هذه الحركات كانت بمثابة رد فعل ضد فساد الحكم التركي ولم تكن بعد حركات قومية . ومن جهة أخرى ، قامت الحركة الاغريقية التي بدأت في آخر القرن الثامن عشر وامت كما رأينا وحقت أخيراً استقلال اليونان .

وكان نظام الضغط في باقي هاتين الامبراطوريتين يحول ، منذ زمن طويل ، دون نشوء الأفكار الليبرالية الفرنسية والدعاية لها . وقد عرفت أوروبا ، من هذه الأمم المنتشرة في شرقي اوروبا ، البولونيين والهونغاريين . أما مجموعة السلافيين في الامبراطورية النمساوية ، فكانت تلتبس على الرأي الأوربي ، وتختلط في مفهوم غير معين وفي تسمية غامضة ، وكان يدل باسم « اسكلافون » كاسم عام لجميع هؤلاء السلافيين المجهولين تقريباً .

١ - أصل الحركات القومية

لم تخرج الحركات القومية في جنوب - شرقي اوروبا ، كالحركة الاغريقية ، من دفع عفوي وشعبي ، بل كانت على العكس ، ابداعاً فكرياً . ولذا كانت عمل نخبة وأقلية صغيرة . لقد خرجت من حركة علمية نمت نهج ثورة تاريخية ، وكان العمل العلمي والتفقه به في أساس هذه الحركات القومية ، ثم تعلقت به حركة رواج ادبي خرجت عن الابداعية ، واوجدت عندئذ في هذه البلاد ، وفي شعوبها ، روحاً قومية . وعندما لعب هذان العاملان دورهما تعمقت العاطفة القومية واتسعت في الجماهير . ولذا لم تكن النظريات الفرنسية في التحرير في أساس هذه الحركات ، ولتستطيع أن تؤثر أو تعمل عملها ، يجب وجود وعي واضح قليلاً أو كثيراً للروح القومية وحاجاتها . لذا جاءت الأفكار الفرنسية في التحرير رديفاً ونجدة وتعزيزاً ، وأعطت برنامج المطالب ببررته ، أي انها أعطت نظام الوحدة القومية ورضى الشعوب بأن تؤلف جزءاً من هذه الوحدة وتبني سيادتها القومية .

اثر الجامعات في الحركات الفكرية . - ان الأساس الأول لهذه الحركات كان نظريات هردر والدراسات التي حركتها هذه النظريات في الجزء الأخير من القرن الثامن عشر والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر .

كانت الجامعات مراكز تشكل هذه الحركات الفكرية . ولقد كانت شبكة الجامعات في هذا الجزء من اوروبا اكتف منها في اوروبا الغربية . ويرجع بعضها إلى العصر الوسيط المسيحي في شكلها الاكاديمي كما هي حال جامعات هذا العصر ، وفيما بعد إلى حركة الاستبداد المستنير .

ونظراً للتغيرات التي جرت في أوربة في زمن الثورة الفرنسية والامبراطورية زالت ست عشر جامعة منها في عشرين سنة ، ولكن بعضها أعيد انشاؤه في ١٨١٥ ، كما وجدت انشاءات جامعية جديدة . وكانت الجامعات في الامبراطورية النمساوية ، على درجات عديدة ، ولغتها الألمانية أو اللاتينية . ونجد فيها ست جامعات كاملة تضم جميع الكليات : فيينا ، براغ ، كراكوفيا انزبروك ، غراتز ، بودابست ووجدت أربع جامعات لا تضم إلا ثلاث كليات انغرام ، لامبرغ ، شيرنوفيتش ، وكولوسفار . وخارجاً عن هذه العشر جامعات توجد أكاديميات ، مدارس الحقوق أو اللاهوت . وهي أكاديميات ملكية ، وعددها خمس : ثلاث في هونغاريا : في برسبورغ ، غيور ، كاسا ، واثنان في ترانسلفانيا : في ناجيفارادوفي ناجيفوزين . وإلى جانب الأكاديميات الملكية ، وجد أكاديميان اسقفيان وخمس أكاديميات كالفنية . ويجب أن نضيف إليها كيتين للاهوت الكاثوليكي ، في سالزبورغ وفي اولتز . وهكذا نجد في الامبراطورية أربعاً وعشرين جامعة .

تشكل هذه الجامعات مراكز الحياة الفكرية التي ستبشر بالعاطفة القومية ، ولكن عندما تتشكل هذه العاطفة بشكل نهائي ، لأن النظام كان ثقيلاً جداً على هذه الجامعات وظل يمنعها زمناً من أن تلعب دورها الموقظ للأفكار الجديدة . ولقد توجه الامبراطور فرنسوا ، في خطاب له ، إلى أساتذة ليباخ ، في ١٨٢١ ، أثناء انعقاد المؤتمر ، في جلسة معهم بقوله : « سادتي ، لقد استحق طلاب الكارنيول الشناء دوماً ، حاولوا أن يحافظوا على هذه الشهرة . ابقوا دوماً مخلصين لكل ما هو قديم ، القديم صالح ، ولقد كان أجدادنا صالحين ، فلماذا لا نكون كذلك . ومن جهة أخرى ، أرى الاهتمام منصرفاً إلى أفكار جديدة لا احبها

ولن أحبها : إياكم وهذه الأفكار ، ولا نحرصوا إلا على ما هو إيجابي ووضعي . لست بحاجة إلى علماء ، ولا أريد الا مواطنين مخلصين وشرفاء وعليكم أن تشكواهم . ان من يخدمني عليه أن يعلم حسب أوامري . وان من يشعر بنفسه غير قادر على ذلك ويشارك في الأفكار الجديدة ليحسن صنعا إذا ابتعد أو أبعدته بنفسه ، . وفي هذه الجامعات كان استعمال الكتب المقررة رسمياً اجبارياً ، والتعليم مراقباً من مصلحة الرقابة . وكذلك من قبل الاكايوس : وفي الجامعات النمساوية كان على الطلاب أن يعترفوا قبل أن يجتازوا الامتحان ، وانشئت في كل جامعة بورصة أوراق اعتراف للبيع وبتراوح سعر هذه الاوراق حسب صفات المرشحين الذين يتقدمون للامتحانات . ومع ذلك فان الطلاب الانجليين التابعين لتاج القديس - ايتين ، أي لمملكة هونغاريا ، كانوا يمتازون بارتياحهم الجامعات الألمانية التي يستطيع ارتيادها الطلاب النمساويون الأصليون ، لأن النمسا بلد ألماني ويرتبط بالكونفدراسيون الجرمانى ، ومن هذه الجهة تعتبر الجامعات الألمانية مربية للنمساويين ، فبواسطتها انتشرت نظريات هردر ، وهي نظريات تعتمد ، كما رأينا ، على عبقرية الشعوب وعلى الأمة التي تعبر عن نفسها باللغة والأخلاق والعادات والتقاليد الشعبية . من هذه الجامعات الألمانية ينهل مفكرو النمسا المعرفة وتبرير وجودهم القومي ، لينقلوه فيما بعد إلى بلادهم وينشروه بواسطة التعليم والأدب . وعن طريق المانيا اسهمت شعوب النمسا في حركة الفكر الغربي . ولندكر أن الليبرالية التجأت إلى الجامعات الألمانية بعد ١٨١٥ . وفي الوقت الذي كانوا يتعلمون في هذه الجامعات صفات قوميتهم كانوا يتعرفون بالليبرالية الغربية لتنظر إلى سلافي النمسا في الجامعات الألمانية . لقد سادت ، في تاريخ الحركات القومية (١٧)

هذه الجامعات ، نظريات هردر وفيخته . ولعلنا نذكر أن هردر ، في هذه الأفكار عن فلسفة تاريخ البشرية ، يخصص فصلاً كبيراً إلى السلافين ويتنبأ بوصولهم إلى الحرية وعظمتهم . لقد تعلم سلافيو النمسا في هذه الجامعات بأنه يوجد قوميات ، وما يمكن أن تكون هذه القوميات ، وما أضافت إليها الابداعية فيما بعد من حب للماضي وعودة إلى التقاليد القومية . ولقد وجدت بعض المراكز النشطة خاصة التي يرتادها هؤلاء النمساويون ، والتي بالتالي ، علمتهم أن ينظروا في ماضيهم : ففي جامعة ايننا خاصة كان يعلم المؤرخ هاينريك لودن تلميذ هردر وفيخته . ولقد كان هذا الأستاذ في جامعة ايننا في أصل تشكيل برشنشافت الطلاب . وكان يرتاد ايننا أناس نجدهم في أصل الحركة السلافية مثل كولار ، شافاريك ، بالاتسكي ، وهم سلوفاكيون ، وكرواسي يدعى تشيلاكوفسكي . وعن تعليم لودن عرف كولار طرق التفسير التي طبقها على العتيق السلافي . وقد قال شافاريك فيما بعد بأنه مدين الى يان ولودن بتقوية العاطفة القومية عند أبناء وطنه . أما بالاتسكي فيعتبر أنه أخذ الأساسي من نظرياته ومعرفته في التاريخ القومي عن المؤرخين الألمان . وقد اشترك هؤلاء الأجانب الشباب في حركات الشبيبة الألمانية : شوهد كولار وطالبان آخران في اللاهوت من جامعة ايننا وهما هوزنيك وفيرينتسك التشيكيان مثله يشاركون في أعياد فارتبورغ مع رفاقهم الألمان ، وقد سجل لودن نداء هذه الأعياد ، ووصف كولار باللغة التشيكية لمواطنيه وصفاً حماسياً هذه الأعياد التي اقيمت في فارتبورغ ، ومجد فيها امتزاج الدين والوطنية ، هاتين العاطفتين اللتين نقلها إلى بلاده عندما أنهى دراساته . وإلى جانب ايننا توجد جامعة براغ الألمانية حيث كان يعلم فيها حتى ١٨٤٧ مايتر تلميذ هردر المباخر ، وإلى جانبه كان الأب الكاثوليكي

التشيكي دوبروفسكي وكان مربيًا لدى العائلات الارستقراطية في في براغ ، وكان يعرف تقريباً اللغات السلافية ، وتخصص بخاصة في دراسة السلافونية أي لغة الكنيسة . وكان دوبروفسكي خلال أسفاره ، يكتشف المكتبات ويبحث عن المخطوطات . وفي العام ١٨٠٦ أسس جريدة ، كانت مركزاً للدراسات السلافية ، وهي جريدة « السلافان » ، وهي صحيفة أدبية وفلسفية . وهناك مركز دراسات آخر وهو: غوتنغن ويضم الاستاذ الفقيه باللغة شلوزر ، تلميذ هردر أيضاً ، وكانت حلقة مركزاً للدراسات السلافية ، وألف نفسه كتاباً في نحو الشعوب السلافية . ونجد أيضاً جامعتي برلين وهاله وكان يرتادها بخاصة البولونيون والترانسلفانيون . وفيها تكون أحد الفقهاء الذين كانوا في أصل الحركة الزومانية وهو كوغانيسيانو .

ووجدت لهذه المراكز الكبرى فروع : فينا ، ليزيغ ، غواتز . وهي مراكز فرعية وتشكل على طريق الشرق مراحل : ففي فينا ، مثلاً ، يعمل كوبيتار ، وقد تثقف في ايننا ثم جاء إلى فينا وأخذ يعلم ويروي سلافين آخرين نوعية قومية ، وبخاصة محرك الصربيين . فوك قوه - جيش . وكانت ليزيغ المكان الذي استقر فيه كولار أولاً بعد مجيئه من ايننا وقبل أن يعود إلى براغ . وفيها كوث كرواتي آخر يسمى غاج .

وخارجاً عن هذه المراكز الجامعية ، لافجد ، في البلاد غير الألمانية ، الا هنا وهناك بعض علماء منعزلين ومأخوذين بحب الدراسات السلافية : في ١٨٠٤ ، قام طالبان روسيان تلميذان لشلوزر غوتنغن ، وهما الكسيس تورغونيف وكايرازوف برحلة استكشافية نحو الشرق

والجنوب الشرقي ، واكتشفا في البدء لوزاس ، وهي بلاد الصربيين الذين انتقلوا إلى ألمانيا وفقدوا فيها قوميتهم ، وفيها ، في غورليتز ، وجدا الدكتور بانطون وقد نظم مكتبة تضم كتباً سلافية ، وكان يكره الألمان . ووجدا أيضاً في براغ ، حلقة أدبية يديرها رجل يدعى جان نيجيدلي ينشر باللغة التشيكية لا الألمانية . وفي بودابست ، وخاصة في بودا ، وجدا مطبعة تستعمل الحروف السلافية وعمرها يرجع إلى ١٧٩٦ ؛ وفي هونغاريا ، في كارلوفيتز ، الفقيه ستارا تينيروفيش وكان على اتصال بشلوزر غوتنغن وقد دهش هذان الروسيان عندما وجدا ، في بعض النقاط ، هنا وهناك ، اناساً يشتغلون أو يجمعون وثائق أو ذكريات عن حياة السلافين القديمة . ومن جهة أخرى ، نشر بعض العاملين عدداً من المؤلفات : ففي ١٧٩٤ نشر كاهن صربي يدعى واجيتش « تاريخ الصرب » ، في أربعة مجلدات وتعهّد بشرائه ٦١٢ شخصاً . وفي ١٧٩١ ، كانت اللغة الكرواتية تعلم في بعض المدارس الابتدائية في كرواتيا . وعندما كان المارشال مارمون الفرنسي يدير الأقاليم الايليرية ، شجع تعليم الكرواتية ، أي اللغة المحلية ، في المدارس . وانصرف الفقيه اللغوي والراهب الأرثوذكسي اوبرانوفيتش خلال ثلاثين عاماً لدراسة اللغات الصربية والكرواتية ، وكان أول من أشار إلى التشابه بين الصربيين والكرواتيين . ومات في العام ١٨١١ . وفي بلغاريا وجد الراهب بايزي ، وقد تثقف في جبل آتوس وجمع من مكاتب الأديرة ما وجدته عن تاريخ البلغاريين . والف به « تاريخ البلغار » ، في ١٧٦٢ ، ولكن هذا المؤلف ظل مخطوطة ، وقد كتبه باغة الفلاحين ، ولم يعرف هذا التاريخ إلا من بعض نسخ كانت تتداولها الأيدي ولم يطبع إلا في ١٨٤٤ . وكذلك كان الاسقف سوفووف في الارثوذكسي المنعزل في بخارست منذ عام ١٧٩٧ ، يدرس البلغاريين .

ولكن لم يكن بين هؤلاء العاملين أي رابطة تربطهم . كانوا منعزلين عن بعضهم ، وضاعت دراساتهم . أما الأجيال الآتية فستعقد الروابط فيما بينها وبين الالمان .

وباتجاه معاكس ، توطد التضامن بين السلافيين والالمان : فمن ذلك ان رانكه مؤرخ برلين جذبه دراسة السلافيين بالاشعار التي نشرها فوق قره - جيش ، وعلى اثر قراءة هذه الاشعار الشعبية اراد أن يؤلف « تاريخ الصرب » ، ولهذا الغرض ذهب إلى فينا ليطلع على وثائق محفوظاتها ، وعن طريق كوبيتار ، قيم المكتبة ، اتصل بفوك قره - جيش فدله على المعنى التاريخي والسياسي لثورة الصرب ، وعلى اثر ذلك كتب رانكه « ثورة الصرب » ودل في هذه الحركة على تقاليد الصرب الحماسية وعلى معطيات الحالة الحاضرة لنزاع الصرب ضد الاتراك . و اضاف إلى العناصر التي جهزه بها فوك نظريته الشخصية في تبعية الامم الاوربية واختلاط مصير الصرب بالسياسة العامة .

ومن تعليم الالمان انتقلت حركة الفكر الفلسفي واللغوي إلى حركة سياسية . وعندما تنتقل هذه الحركة العلمية إلى الصعيد السياسي ، تأتي الأفكار الفرنسية ، النظريات الليبرالية الفرنسية ، وتعطي هذه الحركة برنامج المطالبة .

البعث القومي - ان الشكل الذي أخذته هذه الحركات يختلف عما رأيناه حتى الآن مع الشعوب الأخرى كالأغريق أو البلجيكيين ، وحتى الايطاليين والالمان . ففي الأصل كانت هذه الحركات حركات فكرية ، علمية وأدبية ، أي غير سياسية . والأساس فيها حب الاطلاع وحب التاريخ لماض مضى ، حتى ان موقفها هذه الشعوب لم يفكروا بأن من الممكن أن يكون لهذه الشعوب مستقبل جديد . إلا أنه بعد ١٨٣٠ ، وخاصة بعد ١٨٤٠ ، أصبح يؤمل شرعاً بأن يرى ظهور هذه القوميات .

وكانوا يذكرون ، من جهة أخرى ، « الحق التاريخي » أو امتيازات عرقهم القديمة ، لا الحق الطبيعي ، حسب مفهوم القرن الثامن عشر . وكانت تقاليدهم ، في الأصل ، تختلف عن تقاليد الثورة الفرنسية . فقد كانوا يعتمدون على وحدة الصفات العرقية ، ووحدة اللغة ، وحتى عندما تبدو هذه اللغة وهذه الصفات مملوغة منذ قرون . إلا أنه في المرحلة الثانية ، أي عندما تتشكل هذه الحركات نهائياً تستعمل النظرية الفرنسية في حق الناس والشعوب الدائم في فرض احترام حرياتهم واراوتها القومية .

هذا ولما كانت هذه الحركات من أصل تاريخي ، فمن الممكن أن نفكر بأنها تختلف وتتفاوت في نموها ، وتنفصل بمنافسات تبعث حية كما وجدت قديماً في التاريخ . ولهذا تجلت الحركة بشكل مختلف حسب البلاد : ففي القوميات الموجودة من قبل والدائمة ، والتي توجد منذ زمن طويل ، لم يكن من الحركة ، التي تمت بعد ١٨١٥ ، إلا تجديد وتعميق وتحويل الحركة القديمة : وهذه حال بولونيا ، لأن الحركة الفكرية الابداعية فيها لم تأت الا لتتوب عن حركة « الأنوار » القديمة وتعطيها شكلاً سياسياً . لقد قام جان بونوكي بعدة دراسات ونشر وثائق عن السلافين ، ووضع ليند معجماً بولونياً ، ودرس تشارنوسكي لهجات فولينيا واوكرانيا . وفي لامبرغ ، جمع اوسولانسكي مكتبة ومحفوظات بولونية ابتداء من ١٨١٧ . وبعد هذه الحركة العلمية ، دخل الشعراء والمؤلفون الدراميون المسرح : فقد نشر نيموفيتش ، في ١٨١٦ ، « أغاني البطولة » ، وقاتل من قبل مع كوسيووسكو ، وأخيراً تأتي الحركة الابداعية الأصلية التي قام بها برودوزيفسكي وميكيفيتش . وقد انتهت هذه الحركة العلمية والفكرية بأعطاء الحركة البولونية طابعها المثالي

وهو الشكل الوحيد الممكن ، لأن البولونيين ، منذ ثورة ١٨٣٠ ، أصبحوا عاجزين ؛ ولأن بولونيا لم تكن إلا روحاً واسطورة تخيم على مجموع أوربة ، مجردة كلياً من كل أرض .

أما هونغاريا ، فقد اكتسبت بالحركة الأدبية والعلمية ما كان ينقصها حتى ذلك الحين ، وهو العقائدية القومية ، وبها دعمت الحركة الفكرية وبرزت المعارضة السياسية التي أخذت تنبعث من جديد .

وخارجاً عن هاتين القوميتين القديمتين اللتين اعطتهما الحركة الفكرية التجسيد والوعي ، بعثت الحركة نفسها من جديد قوميات زائلة في البلاد السلافية التابعة للامبراطورية النمساوية : لقد كان هذا العالم السلافي في النمسا يشكل منطقة تجهلها أوربة : وعندما انشأ فيكتور كوزن ، في العام ١٨٤٠ ، للشاعر البولوني اللاجئ في باريس ميكيفيتش ، كرسياً للتاريخ والحضارة السلافيين في كلية فرنسا ، وذكر في عرضه الأسباب الداعية لذلك ، كان يظن بأن الناس في بوهيميا يتكلمون بالصربية . ولم يكن عند أوائل العاملين ، الذين تخصصوا بهذه الدراسات ، فكرة بأن هذه الشعوب التي يدرسونها يمكن أن تعيش أيضاً وتكتب لها الحياة : لقد كانوا يدرسون لغتهم كما تدرس اللغات الميتة ، ويدرسون علم الآثار وليس عندهم أي فكرة بأن هذه الشعوب مازالت تعيش دوماً ويمكن أن تحيا من جديد . وكان دوبروفسكي في براغ ، وكوبيتار في فينا ، واوبرانوفيتش في كارلوفيتز يعملون منعزلين ولم يفكروا بمحاضر دراساتهم .

قامت النهضة في فريق الشمال ، عند التشيكيين والسلوفاكيين ، الذين يضافون كذلك كما هم كشعوب سلافية إلى البولونيين ؛ وفي فريق

الجنوب ، عند الصرب والكرواتين الذين بعثوا أحياء كالترانسلفانيين أي اللاتين الرومانيين .

ومن هذه القوميات المبعوثة وجدت قوميتان على حدود النمسا وتركيا وهما : باشوية بلغراد والاقليمان الدانوبيان : الافلاق والبغدان . وقد حلت حركة البعث القومي فيها محل المعارضة السياسية والدينية التي يبديها المسيحيون ضد السيطرة العثمانية . وستؤدي الحركتان في الآجل البعيد : حركة البعث القومي عند الصرب وعند ترانسلفانيي النمسا ، والحركة السياسية التي قامت في الامبراطورية العثمانية في الاقاليم الدانوبية وفي صربيا إلى تشكل دولة صربيا ودولة رومانيا . ونظراً للتعقيد الذي يلزم هاتين الحركتين وما يشعر به من تدخل دولي ، فان هاتين الحركتين تدخلان في الدبلوماسية الدولية وتخرجان عن كونها قضيتين سياسيتين داخليتين تهافت بخاصة الامبراطورية العثمانية والامبراطورية النمساوية .

ومع هذا فان هذه القوميات ، التي مستفجر ، أفادت لحد ما من تسامح الحكومة النمساوية ومن بعض نظم الامبراطورية النمساوية . وفي الواقع ، ان أطر الامبراطورية النمساوية كانت بقايا من دول قديمة تاريخية داخلية في النمسا ، ويميز فيها :

- ١ - مملكة القديس وانيسلاس أي مملكة بوهيميا ومورافيا وسيليزيا .
- ٢ - مملكة القديس ايثن ، أي هونغاريا القديمة .
- ٣ - مملكة غاليسيا ولودوميريا التي كانت تؤلف بولونيا القديمة وضممتها النمسا اليها مع هاتين المملكتين السابقتين .

وكان لكل من هذه القطع التاريخية ، في داخل حكومة فينا المركزية ادارة خاصة : وزارة لكل من بوهيميا وغاليسيا وايليريا ؛ ومجلس

خاص لكل من هونغاريا وترانسلفانيا . ووجد لكل اقليم دياط خاص: دياط هونغاريا ، وديايط أغرام وهما موجودان منذ القديم ، وديايط بوهيميا الذي أعيد بعد ١٨١٥ ، وديايط التيرول الذي انشئ عام ١٨١٥ وديايط غاليسيا في ١٨١٧ ، وديايط كارنيول في ١٨١٨ وديايط سالزبورغ في ١٨٢٦ ، وديايط ترانسلفانيا في ١٨٣٤ . وهكذا تقدم الدولة النمساوية بنفسها امكانيات الاطار القومي لهذه الشعوب .

ولم تكن سياسة الحكومة معادية تماماً لهذه القوميات . لان مايشغل حكومة فينا انما هو المعارضة للحكم المطلق السياسي وللاستقراطية لا القومية . وإذا استثنينا الهونغاريين الذين كانوا في نزاع قديم مع الحكومة فان الحكومة النمساوية لم تكن معادية للقوميات . لقد تخلى الامبراطور فرانسوا تماماً عن سياسة الجرمنة التي سلكها جوزيف الثاني ، وكان يحترم الأجناس ، وحكومته تقلده ، وحتى رئيس الضابطة لبلدنيتزكي . وكانوا يعبرون إلى دوبروفسكي وكوبيتار عن رضاهم عن الدراسات التي يقومات بها . وأبدى الامبراطور اهتماماً إلى غاج مصلح اللغة الصربية - الكرواتية ، وقدم له هدايا ، وسمح بتأسيس جرائد باللغة العامية ، باللغة القومية . وكان مترنيخ شخصياً يناصر اللامركزية ويدفع رسم اشتراكه في الجمعيات التشيكية . ولا شك في أن فكرة الحكومة النمساوية ، بتشجيعها القوميات في امبراطوريتها ، كانت ترمي إلى تحويل هذه القوميات عن روسيا ومعارضة ما بدىء بتسميته « الجامعة السلافية » بارتباط السلافيين بالنمسا ، وهذه السياسة تسمى « النمسلافية » . وفي المجتمع النمساوي نفسه كان بعض أعضاء الطبقة الارستقراطية ، يشجعون هذه الحركات القومية : كان الارشيدوق جان يشجع البقطة الأدبية عند مختلف الجماعات ، وقد أسس ، في ١٨١١ ، مدرسة

تعلم فيها اللغة التشيكية . وكانت الطبقة النبيلة الألمانية في بوهيميا تشجع بعث التشيكيين ونخص بالذكر الكونت شتاينبرغ وكوتلي نون . ونشر البارون النمساوي آندريان ، الذي كان يعارض الحكومة معارضة سياسية وليبرالية ، كراساً في ١٨٤٢ اسمه « النمسا ومستقبلها » وفيه يسجل نتيجة الحركات القومية برضى وارتياح .

وفي الواقع ، لم تتصور الحكومة النمساوية أو القوميات ، في الأصل ، ان الحركة القومية يمكن أن تؤدي إلى تفتيت الامبراطورية النمساوية . وهكذا نرى ان هذه الحركات معقدة بنفسها . وزادها تعقيداً اختلاطها بالمشاكل الاجتماعية ، وذلك لأن النظام الاقطاعي مازال حياً في جنوب شرقي أوروبا . ومن جهة أخرى ، لقد توصلت هذه الشعوب المختلفة إلى درجة متفاوتة في النمو المادي والمعنوي ، حتى انه من الممكن أن يرى في العام ١٨٤٨ ، أثناء الثورة العامة ، جهد عام لتشكيل قوميات النمسا ، ولكن في الوقت نفسه اخفاق هذه الحركة بسبب تنافس هذه الشعوب المختلفة .

٢ - الحركة القومية الهونغارية

لقد ترك دور الثورة والامبراطورية والعهد الرجعي عام ١٨١٥ هونغاريا على حالها ، ولم يغير شيئاً في نظمها أو في بنائها الاجتماعي . وسبب النزاع ضد فرنسا ، الذي دام قرابة خمس وعشرين عاماً ، اغفاءة لمطالب الهونغارين السياسية . ودعمت الارستقراطية الهونغارية النمسا في نزاعها ضد الثورة وقابوليون ؛ وامتزجت بالارستقراطية الألمانية ، حتى انه لم يبق في مؤتمر فيينا اختلاف بين كبار العائلات النمساوية والهونغارية . وزالت ، بالنسبة لأوروبا ، فكرة وجود ثنائية يمكن أن يلعب

بها بين النمساويين والهونغاريين . كانت سياسة فينا سبباً في الحفاظ على هذا الوضع الراهن : لم تعد فينا تدعو الديباط الهونغاري ، منذ ١٨١١ ، لأن هذا الديباط ، في ذلك التاريخ ، احتج على افلاس الدولة النمساوية . وقام خلاف دام عدة أشهر بين الحكومة والادارات المحلية « الكوميونات » التي أضربت ووقوفت بعض الوقت أعمال الادارة والعدل . ومن جهة أخرى ، اوقفت التدابير البوليسية كل حركة هونغارية يمكن أن تبدأ بخاصة عقب مؤامرة ١٧٩٤ . ثم ان انشاء امبراطورية النمسا ، في ١١ آب ١٨٠٤ ، البس لقب « ملك هونغاريا » ، الذي يحمله الارشيدوق ، بلقب أعلى ويبدو أن انتصار الحكم المطلق كان يمثل في الوقت نفسه ، زوال هونغاريا .

وبين ١٨١٥ و ١٨٣٠ نرى في هونغاريا ، نشوء حركة مزدوجة ، يقظة فكرية ، من جهة ، ونزاعاً سياسياً حاراً وحامياً جداً ، من جهة أخرى .

اليقظة الفكرية . - خرجت اليقظة الفكرية في هونغاريا في آت واحد من حركة الفقه اللغوي ومن الابداعية التي نشرتها ألمانيا في هونغاريا . وفي الأصل ، نجد دراسات شاب نبيل اسمه كازينسكي سجن على اثر اشتراكه في مؤامرة ١٧٩٤ وظل في السجن حتى ١٨٠١ . وفي عزلة السجن أخذ كازينسكي يدرس النحو الهونغاري ويعمل على تطهير اللغة الهونغارية العامة من خشونتها ومن بربريتها ، ثم شرع يترجم بهذه اللغة الكتاب الألمان : كلوبستوك ، غوته ، فيلاند ، شيلر ، هردر . وحتى الآن كان الأدب ، الوحيد الموجود في هونغاريا ، أدباً بالألمانية واللاتينية .

وظهرت نقطة الانطلاق الاخرى في الاهتمام السيامي الذي ولده استعمال اللغة المجرية في الديباط ، وقد وضعت هذه القضية لأول مرة في ١٨٢٥ ،

لأن استعمال اللغة المحرية كلغة نقاش سياسي في الديباط يتطلب مرونة هذه اللغة وتطهيرها لتحويلها إلى لغة خطابة وسياسة . ولقيام بهذا العمل على اللغة ، انشئت في ١٨٢٥ ، الاكادمية الهونغارية ، وقدم الماغناات الأموال وبخاصة ماغنا شاب اسمه زيشيني ، وقد أعطى دخله خلال سنة كاملة لتأسيس هذا المجمع (الاكادمية) .

بدأ الأدب الهونغاري ، في هذه السنة ١٨٢٥ ، بنشر ملحمة خاصة ببطل مؤسس للسلالة الهونغارية ، آرباد ، للشاعر فوروسمارتي ، وقد ألف هذا الشاعر ، عدا هذه الملحمة ، نشيداً قومياً هونغارياً . وبعد قليل نشأ الشعر الغنائي والمسرح على يد الأخوين كيسفالودي ، ونشأت القصة على يد الكاتبين جوزيكا وكيميني . وفي التاريخ نفسه صور الكاتب الحبيب جداً زيفليجيتي ، في دراماته وفي ملامحه (كوميديات) ، الأخلاق القومية ، وألف مجموعة مسرحية غدت مسارح هونغاريا كلها في العاصمة وفي الأقاليم خلال سنوات . وفي ١٨٣٧ أسس في بودابست المسرح القومي الهونغاري .

ثم انجبت هذه الآداب نحو المشاغل السياسية بتأثير الثقافة الفرنسية التي تمثل الليبرالية السياسية ، واءجب الهونغاريون بالثورة الفرنسية ، وبالأدب الفرنسي المعاصر وبخاصة بأدب الشاعرين فيكتور هوغو وبيوانجيه ، واشتهر اسمان أساسيان في السياسة وفي الأدب وهما :

١ - الشاعر بيتوفي (١٨٢١ - ١٨٤٩) وهو من أصل شعبي ، اهتم في أشعاره بوصف الطبيعة . والبوزتا ، والدانوب ، والتيسزا ، وانهار بلاده وسهولها ، وصور من جهة أخرى الفقراء ، والأشقياء الشعبين ، وألف نوعاً من ملحمة « جالكبونوم » هونغارية تطالب بتحرير

الافئات . وقتل بيتوفي في ١٨٤٩ في النزاع بين الهونغارين والروس .

٢ - والثاني قصاص وكان تأثيره أعظم من بيتوفي ، وهو النبيل اوتفوس وكان ماغنا وثقافته جامعية ، ساح أرجاء أوربة وأتى من أسفاره بتربية سياسية ومؤلف نشره عند عودته إلى هونغاريا في ١٨٣٨ ، في اصلاح السجون ثم ألقى بنفسه في الحياة السياسية وفي الصحافة ، وفي الوقت نفسه في الادارة المحلية في كوميتاه . وفي الأدب : نشر ثلاث قصص : « قصر البطاقات » ، ١٨٣٨ ، و « كاتب عدل القرية » في ١٨٤٦ وهو رائعته ويعتبر أثراً من الآثار الأساسية في الأدب الهونغاري ، و « هونغاريا في ١٥١٤ » ، في ١٨٤٧ . وفي هذه القصص يصور المجتمع المعاصر وبخاصة الحياة المحلية ، من مدن وقرى تثقلها سيطرة الاقطاعيين ، كما يصور البلاد في آخر العصر الوسيط .

تأتي أهمية هذا الأدب الهونغاري من الوجهة السياسية أكثر من الوجهة الأدبية : لقد أعطى إلى اللغة المجرية ، في الوقت الذي يطالب فيه باستعمالها في الادارة ، آدابها النبيلة وحقوقها ، وعمم المطالب القومية وجعلها ديموقراطية . ونظراً لاستعمال اللاتينية والألمانية لغة سياسية ، كانت الحياة السياسية تتركز بخاصة في الطبقات العليا ، وكانت متجهة نحو فينا أو نحو الخارج . وهذا الاتجاه السياسي في الحركة الأدبية شبيه بالاتجاه الذي رأيناه في إيطاليا : كان بيتوفي ثورياً وقد شارك في حركة ١٨٤٩ . كما كانت اوتفوس أحد زعماء المعارضة السياسية في حركة النضال الهونغارية .

الحركة السياسية - كانت الحركة السياسية أوسع من الحركة الأدبية ومباشرة ، لأن الحركة السياسية في هونغاريا كانت موجودة منذ زمن بعيد . وعلى خلاف ما يجري في ألمانيا ، وبالطبع ما يجري للقوميات

السلافية ، كان للحركة السياسية في هونغاريا اطراً وأجهزة . والجديد فيها الآن هو المعارضة لحكومة فينا : فحتى هذا الحين كانت حركة اقطاعية يدافع فيها الأفراد عن امتيازاتهم ضد سياسة الحكومة التسلطية ، أما الآن فقد أصبحت معارضة قومية تشعر بقيمتها . ونجد فيها تركباً من القومية التاريخية ، التي تطالب بحقوق البلاد التاريخية وتقاليدها ، ومن الليبرالية الغربية التي تريد تحويل المجتمع بالغاء الاقطاعية ، والحكم ، بحذف الحكم المطلق . ان ما يعقد الحركة السياسية الهونغارية هو أن هذه العناصر لا تتواجد دوماً . وهكذا نرى معارضة عنيفة من الكوميونات ، أي الادارات المحلية ، حيث تسود الطبقة النبيلة الصغيرة التي تدافع بقوة عن امتيازاتها . ونرى من جهة أخرى ، في الطبقة النبيلة العليا ، عناصر محافظة وليبرالية : محافظة اجتماعياً ، وليبرالية سياسياً . وقد تداخلت الحركات الاجتماعية والسياسية على هذا النحو وجعلت الحركة أكثر تعقيداً من معارضة سياسية بسيطة أو من معارضة قومية بسيطة .

وحتى ١٨٣٠ كانت هذه المعارضة ضعيفة ومحدودة الغرض . ولم تنفذ الحكومة الدستور الهونغاري في ١٨١٥ ، بل ، بالعكس ، حاول الامبراطور الحصول على إعانات مالية وجنود ، وتوجه مباشرة إلى الكوميونات ، لا إلى الديباط ، الذي لم يجمعه . فرفضت الكوميونات تقديم المال والرجال مذكرة بحقوق الديباط الذي يستطيع وحده أن يسمع بذلك ، وأمرت الموظفين أن يرفضوا تقديم الجنود والضريبة للحكومة ، فكسبر الامبراطور قرار الكوميونات ، ولكن العرائض أخذت تتفجر من كل جهة وعندما جمع الملك نفسه مجلس الكوميونات في بست في ١٨٢٠ وأمر بفرض الضريبة والجنود ، رفضت الكوميونات وطلبت دعوة الديباط . فلم يأخذ الامبراطور الملك بذلك ، وعندئذ عارضت الادارة بمقاومة سلبية : أعطت الكوميونات

الموظفين الامر باخفاء السجلات واختام الدولة . ووجدت الحكومة غير قادرة على فرض الضريبة كما ترغب ، ورأت نفسها مشلولة تماماً بسبب مقاومة الادارة ، واضطرت إلى دعوة الديباط في بوسبورغ ١٨٢٥ . طالب الديباط بأن تكون دعوة الانعقاد منتظمة وبتخفيض الضريبة وتحديد سلطات الحكومة على الموظفين ، وتعلق بحرفية الدستور ، فقابله الملك « بحقوق جلالته » .

وإلى جانب هذه المعارضة، التي أدت إلى بعث الديباط ، وضعت مشكلة اقتصادية : ان هونغاريا مازالت بلداً زراعياً والثروة الوحيدة فيه هي ملكية الأراضي ، وهذه الملكية بكاملها في يد النبلاء . ولكن هونغاريا الزراعية كانت تشكو من تأخر التطور العام في البلاد ، وبخاصة تأخر المواصلات الذي يحول دون توزيع أو تصدير انتاج المحصول الجيد ، حتى ان وفرة المحصول أصبحت شيئاً غير مفيد . وكان النظام الجمركي المفروض على هونغاريا مثل نظام المستعمرات في الميثاق الاستعماري القديم الخاص : فقد عمل ليحجز السوق الهونغارية للمنتجات المصنوعة في النمسا ولتقديم المواد الحامية بكل بساطة للصناعة النمساوية . وحددت حكومة فينا الجمارك اعتباراً ، وكان الموظفون يراقبون خط الجمارك مراقبة شديدة . ولوضع حد لهذه الحال كان من الضروري اصلاح الدستور ، ولتستطيع هونغاريا أن تلعب في المملكة النمساوية دوراً سياسياً جديداً كان من اللازم أن تنهض اقتصادياً . وقد طلب ديباط ١٨٢٥ الحكومة بفتح مفاوضات لفرض الجمارك الداخلية ، فرفضت الحكومة . وفهمت بعض العقول المفتوحة الارتباط بين القضية الاقتصادية والقضية السياسية ، ونحس بالذكر منهم ماغنا شاباً من أغني الماغنيات وهو الكونت ايتين زيشيني .

زيشيني . - كان زيشيني ضابطاً من ١٨٠٩ إلى ١٨١٥ في دور الحروب النابوليونية ، ثم ساح في أوربة الغربية وخاصة في انكلترا حيث أعجب كل الاعجاب بالدور الذكي الذي تلعبه الارستقراطية الانكليزية . واستخلص من ذلك وجوب محاولة انقاذ هونغاريا من حالة الركود والعزلة . وأكب على العمل منذ أن عاد إلى البلاد . ولتحقيق ذلك كان من اللازم ادخال الطرق الجديدة في الزراعة ، واستقدام الفتيين الأجانب ، واعطاء الفلاحين الاعتماد الزراعي ؛ ومن جهة أخرى يجب تنمية التجارة والصناعة وانشاء محاكم تجارية ، ومدارس النخ .. ولإذاعة هذه الأفكار ، نشر كتباً بالهونغارية ، وهذا هو الجديد ، : « الاعتماد » في ١٨٣٠ ، « النور » في ١٨٣١ ، « المرحلة » في ١٨٣٣ الخ ... واشتغل في الوقت ذاته بتحقيقات عملية : أسس في ١٨٣٠ شركات ، مثلاً ، لبناء جسر على الدانوب بين بودا وبست ، وشركة لانشاء الملاحة البخارية على الدانوب ، وشركة للقيام بأعمال تنظيم مياهه عند منعطف ابواب الحديد لتخفيض حدة الشلالات في تلك المنطقة . ولكن برنامج زيشيني كان يتضمن اصلاحاً فكرياً ، ولذا تعلق بنمو المجتمع الهونغاري ايضاً . وهو أول من وضع في دياط ١٨٢٥ قضية استعمال المجرية عوضاً عن اللاتينية في الدياط . ورأى ايضاً ان القضية الاقتصادية ترتبط بقضية الاصلاح الاجتماعي والسياسي : فاذا أغنت التنمية الاقتصادية المدن ، وبالتالي ، تمت البورجوازية فيجب أن تجد هذه البورجوازية مكاناً في الدياط ، ويجب ادخالها في التسلسل الاجتماعي ، الذي ظل حتى الآن يحتفظ بطبقتين تعتمد احدهما على الأخرى ، وهما : جماهير الفلاحين الأتقان والطبقة النبيلة التي تسيطر عليها . وفكر بأن التقدم الزراعي غير ممكن ما لم يوجه اهتمام الفلاحين إلى هذا التقدم

ولذا يجب تحرير الفلاحين من القنانة . وأخيراً عرف بأنه لا يمكن الحصول على حذف الجمارك ما لم تقدم إلى الحكومة ضريبة معوضة لها لتقوم مقام فقدان واردات هذه الجمارك . وهذه الضريبة ، هذا التعويض المالي ، لا يمكن وجودها إلا بأجبار النبلاء على دفع الضريبة وحذف الحصانة الضريبية التي تتمتع بها الطبقة النبيلة .

وبرنامج زبشيني واسع وعاقِل ، وهو لا ينطلق من نظريات وليس له أي طابع ثوري . ومن الممكن القول إن هذا البرنامج يمثل وجهة نظر رجل حكم يريد أن يحققه عن طريق الحكومة لا الثورة . وقدفاوض مترونيخ بشأنه وعرضه عليه ، وحاول أن تقبل الحكومة به . وهكذا يمكن القول أنه تم الحصول على نتيجتين في العام ١٨٣٠ وهما : تنفيذ الدستور ووضع قضية الإصلاحات .

وبعد ١٨٣٠ بدأ بحق تشكل الأحزاب السياسية مع انعقاد الدياطات . وفي الوقت الذي وضعت هذه القضايا أمام الرأي ، نشبت ثورة تموز وكانت ضربة سوط اطلقت الحياة السياسية في هونغاريا . ولم يكن دياط ١٨٣٢ جلسة سريعة بل ، على العكس ، نوعاً من « برلمان طويل » دام أربعين شهراً وعقد ٧٠ جلسة ، وامتد حتى عام ١٨٣٦ . وكانت المنازعات السياسية عنيفة جداً في هذه الدورة : ووضع الدياط برنامج مطالب قومية خاصة بالأطوار التقليدي ، واتفق جميع الأعضاء عليه : كان يطالب بحكومة هونغارية صرفة ، وإقامة الملك مراراً في بودابست ، وبدورة للدياط في بودابست ، لا في برسبورغ ، في قلب البلاد لافي مدينة على الحدود . وطالب باستعمال اللغة المجرية عوضاً عن اللاتينية كلغة للنقاش ، وبمساواة الديانتين الكاثوليكية والبروتستانتية ، تأييد الحركات القومية م (١٨) .

والسماح بالزواج المختلط بين الكاثوليك والبروتستانت . وتنازلت الحكومة في هاتين النقطتين الاخيرتين . فقد سمحت باستعمال اللغة المجرية في دياط ١٨٣٣ ، ثم في تحرير (تسجيل) القوانين في عام ١٨٣٦ . ولكنها رفضت كل اصلاح سيامي ، وأثارت قضية تحسين مصير الفلاحين ، وألقت بذور الشقاق في طبقة النبلاء فأضعفت معارضتهم السياسية .

وخارجاً عن هذا البرنامج التقليدي بخاصة ، الذي لا نرى فيه تجديدًا ، نجدنا أمام برنامج جديد وضعه الأحرار وبدل على نفوذ الأفكار الغربية في هونغاريا وعلى تأثير أفكار زبشيني .

قدم أوتفوس هذا البرنامج في عام ١٨٣٤ ، وهو يتضمن سلطات برلمانية خاصة بالديايط الذي لم يعد ، حسب هذا البرنامج ، مجلساً اقليمياً بل مجلساً برلمانياً . وتوسيع حق التصويت بحيث يشمل المهن الحرة والمهن الاقتصادية أي حذف الامتياز السيامي للنبلاء ، وحرية الصحافة ، والغاء الحقوق (الرسوم) الأميرية والحصانة الضريبية .

واخفق هذا البرنامج أمام معارضة كبار الأمراء . فقد أوقف مجلس الماغينات كل اصلاح لأنه يعتبر نفسه مجلساً أعلى ويريد الحفاظ على سلطاته وعلى مبدأ التصويت القديم الذي « يزن » الأصوات عوضاً عن أن « يعدها » ، والاصلاح الوحيد الذي تركه هو تكليف النبلاء بدفع رسوم عبور جسر بودابست الجديد شأنهم في ذلك شأن سائر الناس العاديين . وتكررت هذه المنازعات من جديد في دياط ١٨٣٩ ، ومع ذلك حصل من الحكومة في عام ١٨٤٠ على العفو العام واستعمال اللغة المجرية في الادارة . وكذلك الديايط الذي دام عامين ، من ١٨٤٢ - ١٨٤٤ ، حصل على فائدة مزدوجة : من جهة قبول مبدأ عمومية الضريبة ، ولكن لم

يتفق على شروط تطبيق هذا المبدأ ، ولم يخرج شيء في الواقع ؛ ومن جهة أخرى، استعمال اللغة المجرية في أعمال الحكومة وفي التعليم عام ١٨٤٤ . وهذه المنازعات في الديايط تمثل جهداً لتحويل الديايط القديم التاريخي إلى هيئة تمثيلية دستورية . وقد حصلت على نتائج في ميدان التعريف القومي للنظام .

وإذا تم الحصول على هذه النتائج ، فذلك لأنه تألف في تلك الفترة ، عن هذه المنازعات رأي عام ، بفضل الحركة الأدبية التي تمت واستمرت في نموها ، وبفضل انشاء الصحافة السياسية . وكانت هذه من عمل نبيل شاب فقير يسمى لوي كوسوط .

لوي كوسوط . - ولد لوي كوسوط في ١٨٠٢ ، كان أبوه محامياً . وكان هو محامياً أيضاً ، أولاً في البلد الذي ولد فيه ، ومن ثم في بست في ١٨٣١ . لقد نخل كوسوط ، أثناء ديايط ١٨٣٢ - ١٨٣٦ ان يذيع التعرف بهذا المجلس بنشر الضبوط والتحليل في صحيفة مطبوعة على الحجر ، وغير مطبوعة طبعاً عادياً ، خشية أن تقع تحت نظر الرقابة ، وذلك لتعطي تقريراً عن مناقشات الديايط ابتداءً من تطبيق استعمال اللغة المجرية ، في ١٨٣٣ ، مع تفسيرات نقدية من كوسوط . وما انتهت الدورة إلا ووافقت الحكومة كوسوط وسجنته وبقي في السجن أربع سنوات ، ثم أطلق سراحه بالعفو العام في ١٨٤٠ ، وفي السنة التالية ، ١٨٤١ ، أسس « بست هيرلاب » أي « جريدة بست » وبسرعة ضمنت أربعة آلاف ، ثم سبعة آلاف مشترك ، واغنت كوسوط . ودافع كوسوط في هذه الجريدة عن برنامج الأحرار ودستور هونغاريا التقليدي ، وقام بدفاعه بعقريه كبرى ، وتكشف عن صحافي من الدرجة الأولى . وكان

مولعاً بالجدل ويندفع به بشدة الى بعيد. وكانت الجريدة نشيطة مثل كوسوط وتعتبر عن حقد الطبقة النبيلة الصغرى على الماغنات ، وتطالب بمساواة النبلاء ، دون تمييز تسلسلي . وأخيراً وسعت الصحيفة برنامجاً يلفت النظر في الاستقلال الذاتي الاقتصادي مستوحى من أفكار ليست . وأسس كوسوط « اتحاد الحماية الهونغارية » ، وتعهد فيه المشتركون بالا يشترىوا إلا المنتجات الهونغارية ، وبعد سنوات قطع كوسوط صلته بمجرره الذي لم يشأ زيادة راتبه ، رغم نجاح الجريدة . واهتم عندئذ بالأعمال والتشجير المالي ابتداء من ١٨٤٤ ؛ وأنشأ فيما أنشأ ، « الشركة القومية للمساعدة المتبادلة » ، وكانت نسبة الربح فيها ٥٪ من الوارد ، وانتشرت هذه الشركة في جميع أنحاء البلاد ، وكونت له ، خارجاً عن موهبته الصحافية ، شعبية كبرى .

وهذا النمو في الرأي العام ينطبق مع تراخي الادارة بسبب زوال الامبراطور فرنسوا وقيام ابنه فرديناند مقامه عام ١٨٣٥ . وكان فرديناند رجلاً مسكيناً ؛ ومن جهة أخرى شاخ مترنخ ، ولم تسؤه المنازعات الجدلية بين زيشيني وكوسوط . ويضاف إلى هذا دخول المؤلفات الغربية سرّاً ، والمؤلفات الألمانية ، كتباً أو مجلات ، التي أخذت الضابطة تهمل أمرها وتدعها تدخل . والنتيجة هي ان استعمال اللغة العامية في الحياة السياسية نشر التربية السياسية في مجموع الأمة . وهكذا وضعت الآن القضية القومية والسياسية أمام روح عامة تستطيع أن تقوم برد فعل وتفهم .

قضية الادارة المحلية . - وأخيراً قامت ، في هذا الدور ، قضية جديدة وهي قضية الادارة المحلية : كانت الكومينات دوميناً خاصاً بالطبقة النبيلة الصغيرة ، وكانت هذه الطبقة معادية لكل اصلاح يمكن أن يلغي امتيازاتها .

وهذه القضية هي قضية مصلحة صرفة للطبقة التي تسيروها . وكان أكثر هؤلاء النبلاء الصغار ذكاءً يعتبرون ان خراب امتيازاتهم سيكون خراباً للبناء التقليدي ، وان خراب البناء التقليدي معناه الباب المفتوح للحكم المطلق والجريمة ، وبتعبير آخر تجريد القومية من هونغاريا . وبينما كانوا يدافعون بشدة عن امتيازاتهم كنبلاء ، كانوا يطالبون ، بالعكس ، بحجة بالمساواة مع الماغنيات . وفي الكومينات ، أبعدت الطبقة النبيلة الوسطى تدريجياً من قبل الطبقة النبيلة الصغرى التي تسمى « طبقة نبلاء الصنادل » ، وتمارس سيطرتها في الكومينات بمختلف طرق العنف والإرهاب ، ولقد قال الكونت أبوني في ذلك : ان هذا الحكم هو « حكم العصا » . وكانت المنازعات والعنف في مجالس الكومينات على درجة جعلت دياك ، الرجل السياسي ، في ١٨٤٠ ، يرفض تمثيل كوميناه في الديايط الذي عينه ، بسبب سوء نظام المجلس وعنفه .

وكانت نتيجة هذا النظام في الكومينات ان قسماً من الأحرار اعتنق فكرة الاصلاح الاداري : وتوصل أكثر الأحرار استنارة وثقافة إلى أن تجديد هونغاريا لا يمكن ما لم يقيم ، مقام هذا النوع من الاتحادية الفوضوية التي هي ادارة الكومينات ، حكم قوي مركزي مسؤول وقومي . والف هذا الفريق الحزب « المركزيون » ، وكان اوتفوس ودياك بينهم زعيمين هامين . واتفق ضد المركزيين بالطبع ، من جهة المحافظون ، ومن جهة أخرى ، الديموقراطيون . وفي مجالس الكومينات هذه كانت المنازعات بين مختلف فئات الأحزاب عنيفة متزايدة العنف .

كان تعقيد الوضع السيامي عظيماً ، وانخرط الحزب الحر الليبرالي في انحرافات في معارضته القومية : وتوصل فيها إلى متابعة تحويل الدستور

التاريخي وفي الوقت نفسه تحويل الديباط إلى برلمان وتحويل الادارة المحلية إلى ادارة حديثة ومركزية .

وبعد ١٨٤٥ ، تسارع التطور وتعدد أيضاً . ونرى ، في المطالبة بالدولة القومية في هونغاريا ، ظهور مفاهيم مختلفة :

اولاً : مفاهيم المحافظين ، وبصورة أساسية الماغنيات الذين يريدون الحفاظ على دستور هونغاريا التاريخي في أجزائه ، وعلى هونغاريا معززة بحقوقها ، وفرض أنفسهم على حكومة فينا .

ثانياً : مدرسة زيشيني الاقتصادية ، وقد ثبتت فكرة الاصلاح الاجتماعي وأجلت فكرة الاصلاح السيامي .

ثالثاً : الطبقة النبيلة الصغيرة ، وتطالب بالاصلاح السياسي وتمثيل جميع النبلاء في السلطات السياسية في الديباط ، ولكنها طرحت الاصلاح الاجتماعي والاصلاح الاداري .

رابعاً : الأحرار ، وكان برنامجهم السياسي تحويل الديباط إلى مؤسسة تمثيلية (مجلس تمثيلي) ، وهذا يؤدي إلى اصلاح اجتماعي ، وحذف امتيازات الطبقة النبيلة .

خامساً : المركزيون ، ويريدون ، كما رأينا ، تحويلاً كاملاً في الادارة المحلية .

وعلى هذا نرى خمسة حلول مختلفة في نطاق الدولة القومية الهونغارية التي تريد أن تقرض نفسها على حكومة فينا .

الحزب التقدمي . - غداة ديباط ١٨٤٢ - ١٨٤٤ تعقدت الحالة

بنشوء حزبين آخرين : الأول ، حزب « التقدميين » وهم محافظون اصلاحيون ، ماغنات أذكفاء ، مخلصون للملكية وهونغاريا واناس متفتحون ، مثقفون ، وعلى اتصال بالبلاد الغربية والطبقات العليا الانكليزية

والفرنسية ، ولهم أيضاً ارتباطات ببلاط فينا وحكومتها . لقد كانوا
مخلصين للحكومة ولبلادهم الهونغارية ، ولكنهم يرون ضرورة الاصلاح
لعظمة هونغاريا ولتجنب الثورة ، ووجوب معالجة حالة لا يمكن احتمالها ،
وهذا لا يكون ممكناً إلا إذا جعلت الحكومة من نفسها عامل تقدم ،
واستلمت زمام المبادرة بالاصلاحات وجعلت الديباط يتبنى هذه الاصلاحات.
وكان الموحى والمؤسس لحزب التقدمين ماغناشاب وهو اوريل ديسوفي ،
ولكنه مات بسرعة ، وأتم عمله أخوه وعدة بارونات وبخاصة الكونت
جودج آبوني ، وهو ماغنا ، ولد عام ١٨٠٨ ، وكانت له علاقات
أوربية ، واتفق مع مترنيخ للعمل معاً ، وكان هذا قلقاً من الوضع العام ،
ورأى أن لا مندوحة من الاصلاح للجيلولة دون تفجر الثورة في البلاد .
وسمى مترنيخ آبوني أميناً لسر الوزارة الهونغارية في عام ١٨٤٥ ، وفي
١٨٤٧ انشأ له وظيفة رئيس وزارة هونغاريا .

لقد تعلق آبوني والتقدميون باصلاح الكوميتات وجعلها أداة الحكم ،
ولذا أرادوا أن يستعوضوا عن « الكونت الاعلى » ، الذي تنتخبه الكوميتات
حتى الآن ويمثل الكوميتا ، بموظف ، وأن يجعلوا من الكونت الاعلى
موظفاً وعامل حكومة ، بينما لم يكن حتى الآن الا صاحب منصب
بسيط . أما موظفو الكونتات الذين رفضوا قبول هذا التحويل فقد
استعاض عنهم بمفوضي الحكومة الذين يسمون « مديرين » وهم دائمون ،
بينما كان الكونتات مضطرين إلى مغادرة البلاد ليأخذوا مقاعدهم في
الديباط كسائر مندوبي الكوميتات ؛ وقد انيط بهؤلاء المديرين سلطات
قضائية ، وأخذوا يعملون ، بوسائل الجاذبية أو الرشوة التي تمت تصرفهم
لاحداث أكثرية لهم في مجلس الكوميتا ليسودوا فيها فكرة الحكومة .
ومن غير المفيد أن نقول ان الكوميتات قامت بنضال فظيع ضد المديرين ،

اتحد فيه جميع القوميين والأحرار والمركزيون والمحافظون والديموقراطيون .
وفي كوميتا بست ، اشترك اوتفوس وكوسوط بالنضال معاً ، وفي
كوميتا زالا ، كان دياك على رأس المعارضة . وبدأ للهونغاريين أن
اصلاح الكوميئات عودة الى سياسة جوزيف الثاني المركزية والمجرمنة .

الحزب الديموقراطي . - وإلى جانب هذا الحزب التقدمي تشكل
في التاريخ نفسه حزب ديمقراطي وسار وراء كوسوط . وكانت
تطور هذا الزعيم سريعاً في الواقع : لقد اعتمد في البدء ، من
أجل الاصلاح السيامي في هونغاريا ، على الطبقة التي ينتسب اليها
أي على طبقة النبلاء الوسطى والصغرى . ورأى على ضوء التجربة
أن هذه الطبقة النبيلة الصغرى لا عمل إلا أن تدافع عن امتيازاتها
الخاصة ، ولم يكن عندها أي إحساس بالمصلحة القومية . وهذه الحية التي
مني بها كانت في أساس تطوره ، ولذا يجب أن نضيف دوماً مزاجه
المطلق الذي يدفع تدريجياً أفكاره نحو التطرف الذي يجهل العقبات
وينطلق إلى الأمام دون أن يتم بالواقع . ولذا تخلى عن وجهة نظر
الدفاع عن طبقته واتجه نحو اصلاح أكثر جذرية ، لصالح المعدمين :
طالب بالمساواة الديموقراطية التي تحقق وحدة هونغاريا أمام الحكومة ،
وبتحرير الفلاحين ، وحذف السخرات . ونظراً لموهبته وعمله الشخصي
أصبح ، في بضع سنين ، معبود الشبيبة الهونغارية واستطاع كوسوط على
هذا النحو أن يضع الآن برنامج تحويل ثوري للدولة والمجتمع .

لقد كانت انتخابات الديايط في ١٨٤٧ حملة حقيقية سياسية على طراز
الغرب . وبين الكراريس التي صدرت في تلك الحملة وجد كراس
للبارون ادريان الذي تكلمنا عنه ، وفيه يقبل الآن كضرورة بوجود
وغو القوميات في الامبراطورية . واتحدت المعارضة ، في هذه الحملة ،

وراء برنامج حرره دياك . ويؤكد هذا البرنامج اخلاص الهونغاريين للبراغماتيك سانكسيون ، ولوحد الملكية وأمنها ؛ ولكن هونغاريا لا تريد التخلي عن أي حق من حقوقها التقليدية ، ولا تقبل بان تصفي مصالحها في سبيل وحدة الملكية ، وان تلحق مصالحها القومية بمصالح الدول الوراثة ؛ وان الوحدة الملكية ليست هذه الوحدة الادارية التي تريد الحكومة أن تفرضها . وسيوسع الأحرار هذا البرنامج في دياط ١٨٤٧ ، وكذلك كوسوط . ولكن كوسوط تكشف في الدياط عن خطيب قوي ، ومندفع بمزاجه ، ونسي بسرعة مداراة الائتلاف الليبرالي والحقوقيين مثل دياك ، ليعرض برنامج الراديكالي بصورة تدريجية .

حيال المعارضة ، حرر زيتشن برنامج الحكوميين وقد أبدوا فيه تعلقهم بقوة متساوية بقطبي النظم السياسية : من جهة قوميتنا واستقلالنا الدستوري والاداري ، ومن جهة أخرى ، الملكية ، والاتحاد مع الملكية العامة الذي هيأته القرون وقوته . وان حل القضية السياسية لا يمكن أن يوجد إلا في الثقة المتبادلة وتعاون الملكية والامة .

وظل البرنامجان ، برنامج المعارضة ، وبرنامج الحكومة ، غامضين . دون وضوح ، واقتصر على العموميات ؛ ولا يمكن أن يستخلص منها عرضاً لاصلاحات أو إجراءات دقيقة . وعقب الانتخابات تعادل الحزبان تقريباً في المجلس الأدنى ، ولكن المحافظين كانت لهم الأغلبية في المجلس الأعلى وكانوا سادته . ودعت الحكومة الدياط في آخر سنة ١٨٤٧ ، في تشرين الثاني ، وكما سنرى ، كان الدياط في جلسة عندما نشبت ثورة ٢٤ شباط ١٨٤٨ في فرنسا وأثارت نتائج مباشرة في هونغاريا كما في النمسا .

وهكذا طرحت قضية علاقات هونغاريا والملكية في وضع النهار .
وكان من المستحيل ابقاء الثنائية في شكلها التاريخي ، لأن التناقض موجود الآن
بين النمسا ذات الحكم المطلق ، وبين هونغاريا التي أصبحت أو تريد أن
تكون دستورية . ويبدو انه يجب أحد أمرين : اما ان يفرض الحكم
المطلق نفسه على هونغاريا بحذف دستورها التاريخي ، واما ، على العكس ،
ان هونغاريا الدستورية المنتصرة في هذه النقطة تفرض مثلها وقانونها
على النمسا .

لقد شعرت الآن جميع الأحزاب الهونغارية شعوراً حياً وواضحاً
بقوميتها ، وفهمتها بأشكال سياسية مختلفة ، ولكنها كانت تشعر أيضاً
بعاطفة حية تجاه فينا . ويجب أن نلاحظ أننا لا نجد حزباً من هذه
الأحزاب كان انفصالياً : لقد فهمت جميعاً هونغاريا القومية ، ولكنها
فهمتها في إطار الامبراطورية النمساوية . ولم تفكر بعد بالانفصال عن
فينا . ولا يوجد بعد برنامج استقلال حتى في صفوف الراديكاليين .
وأخيراً لا نجد أي حزب من هذه الأحزاب يفكر ويتصور بأنه يوجد
في هونغاريا أجانب لهم حقوق تعادل الحقوق التي يطالب بها الهونغاريون
حيال فينا ، وبأنه يوجد في هونغاريا قوميات أخرى غير قومية الهونغاريين .
ووصل الأمر في ١٨٤٧ ، إلى حالة أزمة ، ولا بد لها من حل . ولكن ،
في الواقع ، لم تكن هونغاريا ١٨٤٧ الدولة القومية الهونغارية التاريخية ،
أو ما كانت عليه في ١٨١٥ . لأن الحركة الفكرية والسياسية التي غذت
في هونغاريا الوجدان القومي ، قد أيقظت في هونغاريا قوميات كانت
تجهل نفسها ، وهذه الحركة ميزت مملكة القديس - ايتين عن غيرها كما
ميزت الامبراطورية النمساوية عنها . وفي الحقيقة لقد استيقظت القوميات
السلافية في هونغاريا ، كما في النمسا .

٣ - بقطة الوشم السوفية

لقد كانت الأمم السلافية حادثاً جديداً كبيراً في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، لأن هذه الأمم السلافية ، اما انها فقدت وجودها السيامي تماماً ، وهذه حالة التشيك وبوهيميا ، واما أنه لم يكن لها شيء من ذلك في الماضي ، وهذه حال الأمم السلافية الأخرى في الامبراطورية النمساوية .

وعلى خلاف هونغاريا ، يجب أن نشير هنا إلى أن الثنائية الاجتماعية بين الارستقراطية وجماهير الفلاحين ، والثنائية القومية تتوضعان فوق بعض . لقد وجدت الجماهير السلافية في الواقع تحت كبار ملاكي الأفيان ومن هؤلاء من كانوا الماناً في بعض أقسام النمسا ، أو هونغاريين ، في هونغاريا ، ولكن أحياناً أيضاً تحت ارستقراطية سلافية أخرى : وهذه حال فلاحى غاليسيا حيال الملاكين البولونيين . ولذا يجب هنا تحرير مزدوج : تحرير اجتماعي حيال الارستقراطية ، وفي الوقت نفسه تحرير قومي . وهذا يوضح لنا التأخر الذي تجلت فيه حركة القوميات في المضمار السيامي . ولذا يجب ، لبناء الدول ، أن تتشكل طبقة وسطى اهل لتقديم النخبة السياسية والضرورية لتوجيه الدولة ، وهذا يتطلب تحويلاً اقتصادياً ، ومثل هذا التحويل لم يتم إلا بعد ١٨٥٠ .

قامت هاتان الحركتان على الصعيد السيامي من الخارج ، اما لأنها قامت بمعارضة الحكومة ووجدت هذه المعارضة في فكرة القومية اداة وحجة ؟ واما ، على العكس ، ان الحكومة استخدمت هاتين الحركتين ضد المعارضة التي قامت ضدها على الصعيد السيامي . وهكذا انزلت القومية بفضل النضال بين الارستقراطية والحكومة الامبراطورية .

يقظة سلافيتي الشمال . - لقد كان تصاعد الحركة متفاوتاً جداً ، ويجب أن يميز بلاد الشمال وبلاد الجنوب . وكان لسلاف الجنوب الأولية في هذه الحركة السياسية ، لأنهم أقرب إلى ألمانيا ، ولأن تربيتهم السياسية بدأت مبكرة . واليوم يميز في مجموع الشعوب السلافية الشمالية ، التشيكيون والسلوفاكيون . أما في ذلك العصر فلم يكن هنالك ذكر للسلوفاكيين ، وكان هؤلاء فلاحين وجبليين ، وأقناناً عند كبار الملاكين الهونغاريين ، ولا يميز السلوفاكيون من التشيكيين . وأفضل دليل على ذلك ، هو أن أحد موقظي القومية التشيكية ، بل وحتى الكثيرين منهم ، كانوا سلوفاكيين كما سنرى .

في الأصل ، كانت الحركة التشيكية حركة لغوية وآثرية ، أو ولعاً أدبياً بالنظريات الابداعية . وكان طليعة المبشرين الأوائل الأب دوبروفسكي ، وكان مريباً لدى كبار العائلات ، وفي ١٨٠٦ فتح مركز دراسات وبحوث حول المجلة التي أسسها . ثم وسع ابن مثقف لاحد الاقنان ، ويدعى يونغمان (١٧٧٣ - ١٨٤٧) هذا التعليم بدراساته الشخصية ، وخاصة باللغات الأجنبية : نقل آثاراً أدبية أجنبية إلى لغته وبخاصة دانتا ، لسانوبريانو و الفردوس المفقود ، لمتون . ونشر معجماً تشيكياً - ألمانيا في خمسة مجلدات ، وفي ١٨٢٥ ، « تاريخ الأدب التشيكي » وشجع الشبان الذين يهتمون بهذه القضايا . وكان مقتنعاً بأن اللغة التشيكية لغة ميتة . وأعلن ذلك صراحة في ١٨٢٨ .

وبهذه الحركة الآثرية يتعلق انشاء الكونسرفاتوار التشيكي في براغ ، في ١٨١٠ ؛ وفي ١٨١٨ ، تأسيس المتحف القومي ، في براغ أيضاً ، الذي كان في آن واحد مكتبة وجمعية دراسات . ونجد في هذه الحركات ما يذكركرنا بهردر وعمله . لقد كان هذا العمل عمل بحث ، كاللغات الشعبية

التي تجمع من الأرياف ، أو الأغاني ، أو المخطوطات القديمة ، التي يبحث عنها وتكتشف في مكتبات الأديرة . وهذا الولع بالمخطوطات القديمة كان يقوم به مزورون ، لا هنا فحسب ، بل في مناطق أخرى من أوربة . وعلى طراز اوسيان زعم تشيكي يدعى هانسكا بأنه اكتشف ، في ١٨١٧ ، في أحد الأديرة ، قصائد من القرن الثالث عشر كتبت باللغة التشيكية ، ثماني قصائد حماسية ، وست قصائد غنائية . وقبلت هذه المنشورات على انها حقيقية من جميع الناس ، الا الأب دوبروفسكي الذي خامره الشك في حقيقة هذه القصائد . وعلى العكس ، في كل مكان ، أثار اكتشاف القصائد القديمة ، التي تكتشف عن أدب العصر الوسيط والحضارة التشيكية ، كبير حماسة ، حتى عند غير التشيكيين ، مثل غوته ، في ألمانيا . غير أن هذا الغش اكتشف أخيراً ، مثل غش اوسيان . وفي ١٨٢٢ نشرت مجموعة فولكلورية تدعى «الوردة ذات المائة ورقة» ومؤلفها سيلاكوفسكي . وفي هذا العمل الآثار واللغوي بدأ من سيكونون في الآجل القريب أبطال القومية التشيكية ، وهم ثلاثة : بالاتسكي ، شافاريك ، وكولار ، وقد تثقفوا جميعاً في برسبورغ . وكانوا متعاصرين ، ويمكننا التأكد من تواريخ ميلادهم .

بالاتسكي (١٧٩٨ - ١٨٧٦) . - كان ابناً لمعلم بافاري ، وتربى في المدرسة الثانوية (ليسيه) في برسبورغ ، وتعلم فيها اللغات الأجنبية وأصبح مربياً عند عائلة نبيلة ألمانية في فينا ، وكسب فيها علاقات وحماة سهلوا له عمله . بدأ أولاً بأثر شاعر وجمالي ، ونشره من ١٨١٧ إلى ١٨٢٣ ثم أقام في براغ ، في ١٨٢٣ ، حيث وجد له حماة ووظيفة في المتحف القومي ، وأدار خلال عشر سنوات ، من ١٨٢٧ إلى ١٨٣٧ ، المجلة التي ينشرها هذا المتحف . وهذه الصدقة في العمل وجهته نحو

التاريخ وفي ١٨٢٩ عينه دباط بوهيميا مؤرخاً قومياً وخلف الأب دوبروفسكي في أكاديمية العلوم . وانصرف فيها إلى القيام بدراسات متنوعة في تاريخ بوهيميا ، ونشر في ١٨٣١ ، « تاريخ فالانشتاين » ، وأخذ بمهنة المؤرخ التي جمعتها الصدفة بها ، وشرع يوثق نفسه بجهد في هذه النقطة .

شافاريك (١٧٩٥ - ١٨٦١) . - أصله من أصل بالاتسكي ، وقد حصل دراساته في المدرسة الثانوية (جنار) في برسبورغ ، ثم في جامعة ايننا . وقام فيها بدراسات رصينة في فقه اللغة ، ونشر عام ١٨٢٦ ، « تاريخ اللغة والأدب السلافيين في جميع اللهجات ، وبين القربى الموجودة بين اللغات السلافية التسع . وأصبح استاذ فقه اللغة في براغ عام ١٨٣٣ . وهذه المؤلفات التي وضعها بالاتسكي وشافاريك نشرت بالألمانية لا التشيكية .

كولار . - وعلى عكس ذلك كتب كولار (١٧٩٤ - ١٨٦٢) باللغة التشيكية ، وكان سلوفاكياً وتربى أيضاً في المدرسة الثانوية الألمانية في برسبورغ ، وأتم دراساته في جامعة ايننا . وفي ايننا حُبب إليه استاذُه لودن الطرق الألمانية ، فأخذ بها ، وأدرك بسرعة قوميته التشيكية . ولم يكن في ذلك العصر تمييز بين الجنسين التشيكي والسلوفاكي . ولم يكن اثره الأول اثرأ أدبياً ، بل قصة باللغة التشيكية لمظاهر قصر فارتبورغ التي شهدا في ١٨١٧ . ثم أصبح راعياً لوثرياً في بودابست حيث كان شاهداً وضحية لاحتقار المجر للسلافيين . غير أنه عاد أخيراً إلى فينا استاذاً للعتيقات السلافية في الجامعة . وفي ١٨٢١ نشر قصائده الاولى باللغة التشيكية . وفي ١٨٢٤ ، نشر مجموعة تتألف من سبعين سوناتة ومماها « بنت سلافيا » . وخصص هذه القصائد لتاريخ شهادة السلافيين الذين سحقهم الألمان والهونغاريون . ولاقت هذه

المجموعة نجاحاً عظيماً : واعد طبعها ثانية في ١٨٣٢ وزيدت بعدة قصائد أخرى على نط « الكوميديا الآلهية » لدانتي ، وفيها وضع الشاعر في جهنم جميع أعداء جنسه ، وفي الجنة ، على العكس ، جميع الابطال القوميين . ويجب أن ننتبه هنا إلى مهنة كولار كراع لوثري ، لأننا نرى فيه روح يوحنا هوس القديمة ، وفيه تظهر لأول مرة فكرة المعارضة الأساسية ، المعارضة القومية بين التشيكيين والألمان .

ومن هذه الحركة نجمت على الصعيد القومي ، بعد ١٨٣٠ ، حركة أوسع وأدق ، لأسباب عدة : أولاً بسبب الدفع العام لليبرالية التي أثارها في أوربة نجاح ثورة تموز في باريس ، ثم الظروف السياسية الخاصة التي أوجدتها في النمسا موت الامبراطور فرنسوا ، ومن بعده جلوس فرديناند على العرش في ١٨٣٥ . كان الامبراطور فرديناند مريضاً وغير قادر على الحكم ؛ وقد ضعفت الادرة والحكم في عهده فشجعاً مطالب المعارضة . ونشأت الارستقراطية في بوهيميا من انصار الطبقة النبيلة الالمانية والطبقة النبيلة التشيكية اللتين اندجتا وذابتا معاً ، وخاصة منذ سياسة ماريا تيريزا في القرن الثامن عشر ؛ وكانت ارستقراطية غنية ومتغطرة ، وتوغب ، عندما يكون الحكم ضعيفاً ، في أن تلعب دوراً سياسياً ، ولهذا ، ان تضع موضع التنفيذ حقوق الديباط التاريخية ، ولهذا السبب شجعت حركة النهضة وقدمت لها المساعدات بإيجاد وظائف للمفكرين التشيكيين . وشيئاً فشيئاً وضعت التعاملات والأعراف القومية موضع الشرف : ففي ١٨٤٠ ، مثلاً ، ولأول مرة ، اقامت حفلاً راقصاً في صالة مزينة بأعلام بوهيميا القديمة : وظهر الناس باللباس القومي ، وكتبت قائمة طعام العشاء باللغة التشيكية . وفي ١٨٤٢ ، طلب هؤلاء النبلاء من بالاتسكي ان يعطيهم محاضرة عن دستور بوهيميا القديم . ومن هؤلاء النبلاء الألمان الذين شجعوا

الحركة التشيكية نذكر الأخوين الكاثوليكين ، الكونتين تون ، ولنا عليها عودة . وجاءت مشجعات أخرى من ألمانيا . فقد كانت ليبزيغ مركز لجوء للنمساويين الأحرار ، ومن ليبزيغ انطلقت دعاية ، في النمسا ، لصالح الأفكار الحرة والقومية ، بواسطة كتب ومجلات دخلت إلى النمسا رغم الرقابة .

وتوسعت الحركة التشيكية ، وفي ١٨٣١ ، تأسست دار للنشر « لاماتيك » أي « الحلية » لنشر كتب عن الحركة البوهيمية حتى أنها نشرت بعد ١٨٤٠ ، كتاباً بالتشيكية . وفي ١٠ آذار ١٨٣٤ بدأت بنشر مجلة « الأزهار التشيكية » . ووجدت الحركة جنوداً في الشباب ، وهذه الشبيبة الفكرية هي التي حاولت فيما بعد أن تعمل الشعب لصالح الحركة القومية . وبالرغم من الرقابة انتشرت الكراريس والمجلات شيئاً فشيئاً في المجتمع . وطالب كبار الزعماء بحقوق الأمة بوضوح ، حتى أن آثارهم ، التي كانت حتى ذلك الحين أدبية أو لغوية محضة ، أصبحت آثاراً للدعاية السياسية .

فقد نشر شافاريك ، في ١٨٣٧ ، « العتيقات السلافية » باللغة التشيكية ، في هذه المرة ، لا بالألمانية : وهي مديح للجنس السلافي ، ليعطي التبرير والاحلال للفصل الشهير الذي ألفه هرذر عن السلافيين . وأعطى لوحة مثالية للمجتمعات السلافية البدائية . وفي ١٨٤٢ ، نشر « الاثنوغرافيا السلافية » وعدد فيها جميع الشعوب السلافية في أوربة : وجد ٧٨ مليوناً ، منهم ١٦ مليوناً في النمسا خاصة . وكان لهذا الكتاب نجاح عظيم . فقد ترجم وانتشر في روسيا وفي بولونيا .

ونشر بالاتسكي ، بأعمال تاريخية أخرى ، في العام ١٨٣٣ ، دراسة عن دوبروفسكي ، وفي ١٨٣٦ ، بدأ بنشر « تاريخ بوهيميا » وأخرج منه ستة مجلدات ، وتوقف عند السنة ١٨٢٦ . وقد طبعت هذه المجموعة

باللغة الألمانية ، وترجم تاريخ بالاتسكي ، في ١٨٤٨ ، إلى اللغة التشيكية . وتعاون بالاتسكي وشافاريك في العام ١٨٤٠ على نشر « أقدم اوابد اللغة البوهيمية » .

وانخرط كولار في الحركة ولا سيما بكراس نشره بالألمانية ليعطيه أكبر انتشار ممكن ، في ١٨٣٧ ، ويسمى « العلاقات الأدبية بين جماعات الأمة السلافية ولهجاتها المختلفة » . وأكد ، في هذا الكراس ، وحدة ما يسميه « الأمة السلافية » ، وما يمكن أن يسمى الجنس السلافي وضرورة خروج السلافيين من النقص الذي ظلوا فيه حتى الآن ؛ ولذا يجب ، كما يقول ، على السلافيين ان يتعلموا اللغات الأربع الأساسية ، أي التشيكية والالمانية والبولونية والروسية ، ويجب نشر وتبادل المؤلفات الأدبية ، وعمل مجموعات للأغاني الشعبية ، وانشاء كراسي في الجامعات ، وتطهير اللغة لتنتقل من مرحلة اللهجة إلى اللغة الأدبية . وهذا ما يسميه « تقابل » السلافيين . وهذه المقابلة الأدبية تعتبر شكلاً أولاً لما يسمى فيما بعد الجامعة السلافية ، ولكنها لما تزل بعد أدبية وغير سياسية .

وصحب هذا البعث للامة ، قيل ١٨٤٨ ، وضع برنامج سياسي بأشكال مختلفة . وجهت الطبقة النبيلة ، في ١٨٤٥ ، إلى الامبراطور ملتمساً طالبت فيه تحويل الديايط إلى مجلس (لاندتاغ) تمثيلي ؛ وطالبت بذلك « بموجب العقد الأسامي » . وفي السنة نفسها نشر الكونت مائياس دوتسون كراساً طالب فيه بحقوق الأمة التشيكية وشجب المحاولات التي يراد منها فرض الثقافة الألمانية على التشيكيين . وطالب البوهيميون بأن يكون التعليم تاريخ الحركات القومية (١٩)

باللغة التشيكية في المدارس الابتدائية . وانشئت صحافة سياسية قومية كرد فعل ضد السلافية الغامضة والأدب العاطفي الذي ساد حتى الآن . وقام بهذا العمل صحافي يدعى هافليتشيك (١٨٢١-١٨٥٦) (وتاريخ ولادته هذا يدل على أننا الآن أمام جيل آخر) . كان هافليتشيك رجل عمل ، ولم يكن مفكراً محضاً كاسلافه : وقد قال : « انني مقتنع بأن الموت في سبيل الوطن أسهل وأبهج من قراءة هذه الكثرة المملة للكتابات الوطنية » . وفي ١٨٤٥ ، انشأ « صحيفة براغ » ووسع فيها برنامج مطالب سياسية وديموقراطية وقومية . ولما لم يكن باستطاعته نشر مثل هذا البرنامج ، بالطبع ، في وضع النهار ، في جميع تفاصيله ، فقد اتخذ قناعاً لذلك سرد تاريخ ايرلنده ، وإعطاء أخبار عنها . ومن السهل في هذه اللوحة التي أعطاها عن القومية الايرلندية ، التي يضطهدا الانكليز ، ان يفهم أن القصد هو التشيكيون حيال النمساويين . ثم اتسعت هذه الحركة ، وانتقلت إلى صعيد المطالب السياسية ، وتنوعت في الوقت ذاته . وان من مميزات حركة القوميات هو أنها تفجر في كل يوم قوميات جديدة في داخل القديمة ، وذلك ببعث الفرديات التاريخية التي وجدت في الماضي خلال فترة من الزمن . وعلى هذا النحو تشكلت الحركة السلوفاكية بدورها وتميزت عن التشيكية ودافعت عن اللهجة السلوفاكية ضد اللغة التشيكية . وكان الاكليروس الكاثوليكي يدعم هذه الحركة في آن واحد ضد بحيرة السكان أو جومنتهم بل وتشيكتهم . وفي ١٨٣٤ ، نشر الشاعر توماسشيك نشيداً أصبح نوعاً من نشيد وطني ويدعى « وقوفاً ، أيها السلوفاكي ! » . وفي ١٨٤٣ نشر كاتب آخر اسمه شتور (١٨١٥ - ١٨٥٦) برنامجاً لبعث الأمة السلوفاكية . وفي ١٨٤٥ أسست « الصحيفة السلوفاكية » . وبنفس الشكل تميزت في غاليسيا ،

حركة روتينية ضد البولونيين ، وبخاصة كبار الملاكين البولونيين . بدأت هذه الحركة في جامعة لامبرغ ، واعتباراً من ١٨٣٢ ، وجدت تعبيرها في الكاتب ساشكيفيتش ، وقد نشر في ١٨٤٣ مجموعة أغاني شعبية اكرانية . إن الطابع المميز لكل هذه الحركة التشيكية يبقى ، بصورة أساسية وسط جميع الحركات القومية الأخرى في النمسا ، في استغلال فكرة التضامن بين السلافيين . وهي لا تتصور هذا التضامن تحت زاوية سياسية ، ولا تراه الا تحت زاوية أدبية وجنسية . ولن يصبح هذا التضامن دليلاً سياسياً الا عندما تتخذه الحكومة الروسية وسيلة دبلوماسية ، أو ، على العكس ، إلا عندما يشهره الألمان « بعبعاً » : ففي ١٨٤٦ يقوم في دباط باد ، ولأول مرة ، النائب هيكو ويصرح علناً بأن الجامعة السلافية خطرة على القومية الألمانية .

يقظة سلافي الجنوب . - وفي الوقت نفسه ، ولكن مع كثير من البطء والتأخير بالنسبة إلى سلافي الشمال ، استيقظ سلافيو الجنوب أيضاً للحياة القومية . ونلاحظ في هذه الجماعة السلافية وحدة الجنس أكثر من غيرها : وفي الواقع ان الصرب والبوشناقين والكروات والسلوفين كلهم من جنس واحد ، ولكننا نجد فيهم اختلافاً سياسياً كبيراً : كان سلافيو الجنوب كتلاً كثيرة : مثل الكتلة التركية وهي أكثر من غيرها ، وفي هذه الكتلة أيضاً نجد أن القسم الشمالي ، باشوية بلغراد ، كان له وضع خاص به ، فقد بقيت فيه آثار من الاحتلال النمساوي في القرن السابع عشر . وفي النمسا الأصلية ، توجد جماعة سلوفية في اقليم كارنيول ، والدالماسيين . وفي مملكة القديس - ايبن ، أي هونغاريا ، توجد ما تسمى بملكية كرواسيا الاسكلافونية ، ومن جهة أخرى ، التخوم العسكرية ، أي منطقة الجنوب الملامسة لتركيا . وكان لهذه التخوم العسكرية نظام

اداري خاص . وكانت الهجرات الصربية الآتية من تركيا تغذي السكان الصرب في هذه المنطقة التي حافظت على كنيستها الأرثوذكسية وتتألف من بطريكية وتوسع اسقفيات . وكان لها نظام عسكري خاص ، باعتبارها ثغراً أمام الترك ، وفي الامبراطورية النمساوية ، أعطيت نوعاً من استقلال اداري مع كونغرس ، أي نوع من دباط و د كنيزات ، أي شيوخ الضيع (عمد القرى) . وكان نظام الثغور على صلات فكرية متطورة مع روماني بانات تيميسفار وترانسلفانيا ، فقد كانت المبادلات بين الاقليمين جارية بصورة عادية . ويتضح هذا التفتت في الكتلة السلافية الجنوبية بالظروف التاريخية التي أحاطت بها : إن عامة سلافي الجنوب تؤلف في الواقع نقطة اتصال حضارتين أتت احدهما من الشرق ، من بيزنطة ثم من الترك ؛ والأخرى ، من الغرب وهكذا تعارضت ، في الجنس الواحد ، حضارة ارثوذكسية تستعمل الابجدية الاغريقية والحروف السيريلية أي الحروف السلافية التي تنسب إلى القديس سيريل حواري السلافيين (المتوفى في ٨٦٩) ولكن أصلها مازال موضع جدل ، وحضارة كاثوليكية تستعمل الأحرف اللاتينية وعلى صلة بالغرب . وتتضح الاختلافات الدينية والاختلافات الفكرية بهذا الانقسام السياسي . أما عاطفة الوحدة فلم تنطفئ مع ذلك ، أو أنها ظلت منتعشة بسبب بعض الظروف كالتقاليد التاريخية ، وبخاصة ، ذكرى جمهورية راغوز ، التي كانت ، في العصر الوسيط ، مركزاً لتجارة وحضارة حقيقية مع مدرسة فكرية . وهناك ظرف آخر ايقظ عاطفة التضامن ، بين هذه الأجناس ، وهو وجود الفرنسيين ، أثناء دور الأقاليم الايليرية ، في عهد الامبراطورية الفرنسية . ومن جهة أخرى ، تقاربت هذه الأجناس بواجب مشترك وهو النضال ضد مضطهدها من الترك ، بالنسبة لسلافي الجنوب ، وضد

النمساويين والهونغارين ، بالنسبة لسلافي الشمال . وهذا النضال ، مع النفي والفرار ، انتج تمازجاً بين شعوب الحدود النمساوية - العثمانية . الا أن الوضع الاجتماعي لم يتهاً للوعي القومي : فقد كان السكّان يتألفون من فلاحين يعيشون عيشة الاقنات ، ولا توجد الارستقراطية إلا في كرواسيا ، ويعملون بالجهل التام بكل ما يحدث في الخارج وظلوا عدة سنوات يجهلون قيام ثورة ١٨٣٠ ؛ ولا يعرفون التحويل الصناعي الذي جرى في أوربة الغربية كلها ؛ وعرفوا وجود الخطوط الحديدية صدفة من منديل اشترى في معرض موسمي رسمت عليه صورة قاطرة . ولا يوجد مركز فكري يمكن أن يساعدهم على النهوض ؛ وكل ما وجد ، في البلاد ، مدرستان ثانويتان يشرف عليهما اليسوعيون في كرواسيا وتعلم فيها اللاتينية والألمانية دون السلافية ، وابتداءً من ١٨٣٧ ، الهونغارية .

ان استحكام أو نهضة هذه الفكرة في الوحدة ستجد مثلاً له مغزاه في حياة وكتابات دوزيته اوبرادوفيتش : وهو راهب ارثوذكسي ولد في بانات وعاش بين الرومانيين ، مربيّاً ، في فوكساني ، لأبني أخ المتروبوليت ، ثم ذهب للدراسة والاقامة في ليزبغ ، وعاد منها ليصبح مربيّاً لأولاد قره - جورج ، بطل الثورة الصربية ، وشارك بنفسه في ثورة الصرب . وقضى حياة متحركة متموجة في مختلف الأقاليم التي يعيش فيها اليوغوسلافيون ، ووقف ثلاثين عاماً من حياته على دراسة اللغات السلافية كلها ، واعترف بتشابهها . وقال إن الانقسامات الموجودة ليست إلا نتاج التعصب الديني . غير ان الاكليروس الارثوذكسي الأعلى أنكر هذا الراهب الغريب الأفكار . ومات عام ١٨١١ . ولكنه عاش نبياً منعزلاً للفكرة اليوغوسلافية .

تمت بقظة هؤلاء السلافين في مكانين ، على طرفي الجماهير ، في الشمال والجنوب : في الشمال ، في كارنيول ، وهو اسم الاقليم الذي يسمى اليوم سلوفينيا ، في الامبراطورية النمساوية وهو القسم الأقرب من أوربة الغربية أي القسم الذي يمكن أن تظهر فيه الأفكار السائدة في الغرب . وهو ، من جهة أخرى ، مكان ارتياد للألمان الذين يأتون ومعهم أحدث الأفكار . وبين هؤلاء الألمان من وجد عنده بعض الولع لصالح الأجانب من غير أبناء البلاد ، وكان أكبر مثال على ذلك الارشيدوق جان الذي أسس ، في ١٨١١ ، متحفاً - مكتبة عرف باسم « يوهانيوم » حيث تجمع مجموعات المؤلفات الشعبية والذكريات المحلية . ثم حصل الارشيدوق جان ، فيما بعد ، من مترنيخ على السماح لجمعية لياخ الزراعية بإصدار نشرة اسبوعية باللغة السلوفينية ، وهي نشرة ، في الأصل ، فنية صرفاً ، ولكنها أصبحت بالتدريج على يد أمين سر الجمعية بلايفاييس مجلة أدبية سلوفينية . ولقد أفاد دور السيطرة الفرنسية في خدمة اليقظة السلوفينية : فمن ذلك ان المارشال مارمون ، حاكم الجزر الايليرية في عهد الامبراطورية ، سمح بتعليم اللغة السلوفينية ، في المدارس الابتدائية ، والفت ، لهذا التعليم ، كتب ابتدائية ، مثل المجموعة التي كان يوجهها الأب فودنيك .

كوبيتار . - اما العالم الرئيسي الأول الذي عمل في خدمة السلوفينية فهو كوبيتار (١٧٨٠ - ١٨٤٤) . فقد تثقف ، ككل هؤلاء التشيكيين الذين رأيناهم ، في جامعة ايننا . وعاد إلى الامبراطورية وأصبح قياً للمكتبة الامبراطورية في فينا ، وهذا ما ساعده على تأمين حياته وامكان حماية أبناء وطنه السلوفين ، وبصورة عامة ، السلاف المثقفين . نشر في ١٨٠٨ ، باللغة الألمانية ، كتابه في « نحو اللغة السلافية في كارنيول وكارانتيا وستيريا » . وكان على صلة مستمرة بالأب

دوبروفسكي ، حتى عام ١٨٢٨ ، ويتبادل وإياه الاخبار والأعمال الأدبية . وتشكل حول كوبيتار مركز توثيق لجميع أنصار السلافية في الامبراطورية النمساوية . وكان كوبيتار يفكر في وحدة اللغة ، ويرى لظهور هذه الوحدة ضرورة توحيد أبجدية مختلف اللهجات وكتابتها .

وكان يعاصر كوبيتار العالم شاعر شعبي يسمى بشرن ، وقد لفت آثاره انتباه الالمان في فينا وترجمت إلى اللغة الالمانية . ويجب أن نلاحظ أن أن الحركة السلافينية لم تولد أي اتجاه سياسي ، بل ظلت فكرية وأدبية صرفاً .

فوك قره - جيتش (١٨٢٤ - ١٨٧٧) . - واستيقظت قومية سلافية الجنوب في صربيا والتخوم العسكرية على يد كاتب هام يدعى : فوك قره - جيتش ، وهو من أصل ريفي ، ولد بالقرب من نوفيزاد (أو نويزاتز بالألمانية) على نهر الدراف . درس دراسة شخصية وأصبح فقيهاً باللغة عظيماً . وكان على صلة بكوبيتار الذي عرفه بفقهاء اللغة الألمان ، بالأخوين غريم والمؤرخ رانكه . وهذه العلاقات الألمانية توضع انتشار اسم قره - جيتش وآثاره في أوروبا الوسطى . وقد انتخب فوك قره - جيتش ، من بين مختلف اللهجات الصربية ، اللهجة التي برهنت على قوتها الأدبية في القديم ، والتي تستطيع بالتالي ان تولد من جديد آثاراً قيمة ، وهي لغة راغوز ومدرستها الأدبية القديمة . وفي ١٨١٤ نشر كتاباً في النحو الصربي ، وأول مجموعة للأغاني الحماسية الملحمية التي كان يغنيها الصربون في السهرات وتسمى « البسمة » . ثم نشر مجموعة ثانية في ١٨٢٣ . وفي ١٨١٨ نشر معجماً صربياً - المانياً ثبت فيه الكتابة وأصوات الأسماء الصربية . وفي ١٨٢٦ أسس في بودابست داراً للنشر باسم « مانیکا » (الحلية) ثم قلدت فيما بعد ، كما رأينا ، في براغ . ونشر خلال عدة

سنوات تقوياً شعبياً باللغة الصربية . ولكن الاكليروس الارثوذكسي قام عليه وآخذه على تخليه عن لغة الكنيسة ، السلافونية ، وأخذه لغة راغوز ، كما آخذه على ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العامية . وكان من الخطر عليه أيضاً ان يذهب أو أن يبقى في أمانة ميلوش أو برينوفيتش الصربية ، فاضطر إلى اللجوء إلى هونغاريا ، وانتشرت أفكاره وآثاره بخاصة عند الصرب في هونغاريا ، واستخلص من منشوراته ودراساته اللغوية وجود قرابة الهام ، وقرابة لغة بين الآثار الشعبية في صربيا وكرواسيا ودالماسيا وسلوفينيا . وهكذا كان فوك قره - جيتش أول من أيقظ القومية اليوغوسلافية .

ثم اتسعت الحركة بعده . أما الآن فيبدو أن كل هذا بقي نظرياً تماماً ، ودراسة بذخ ، دون امتداد سياسي أو شعبي . وأدت الحركة ، بعد ١٨٣٠ ، إلى نتيجة عملية وانهشت كرواتيا التي تعتبر جزءاً أساسياً من البلاد اليوغوسلافية وقد بذلت بعض جهود ، ولكن غير مثمرة ، لصالح اللغة الكرواتية من قبل بعض كهان البلاد ، في ١٨٢٥ . وكذلك أخفقت المحاولة التي قام بها سبودير ، تلميذ كوبيتار ، في ١٨١٨ ، لانشاء جريدة بعد أن حصل على السماح من متريخ ، ولم يستطع أن ينفذ مشروعه .

لويس غاي (١٨٠٩ - ١٨٧١) . - ثم تناول هذا العمل لويس غاي واندفع به . نشأ غاي في كرواتيا ، وكانت أمه مثقفة وقوية ، فتحت عينه على حب الوطن والوطنية الكرواتية . وفي ثقافته نجد دوماً العناصر نفسها : ارتياد المدارس الثانوية (جمناز) الألمانية في غراتز وفيينا ثم الجامعات الألمانية . وكان طالباً في ليبزيغ ، ثم عاد إلى بست حيث تعرف بكولار وتأثر به ، وأصبح غاي نظيراً لكولار من أجل جهوده

لسلاف الشمال . وقف نفسه للعمل في توطيد وحدة أبناء قومه . وكان يفكر في أن يصل إلى التفاهم المتبادل والذوبان الروحي لمختلف عناصر سلاف الشمال . ولم يكن هذا منه وجهة نظر فكرية ، بل وجهة نظر رجل عمل ، وكان يدعمه في محاولته نبيل وهو الكونت جان دراسكوفيتش الذي كفه ودعا لأفكاره في أوساط المجتمع الراقية .

استقر غاي في أغرام ولم يتخذ لدعايته اللغة الكرواتية ، التي ستكون لغة البلاد ، بل لغة راغوز التي بدأ فوك قره - جيتش بيعها ، وسماها اللغة الايليرية . وأدرك أن أداة اليوم هي الجريدة . وأن الجريدة واسطة للعمل ؛ ولكن السلطات الكرواتية رفضت الترخيص الضروري لذلك فتوجه عندئذ ، في ١٨٣٤ ، مباشرة إلى فينا ، وقبل متوئخ وجهة نظره وهياً له مقابلة مع الامبراطور فرنسوا . وحصل على ترخيص بخوله انشاء جريدة . وقد ظهرت الجريدة في ١٨٣٥ تحت اسم « الجريدة الكرواتية » وأخذت في السنة التالية ١٨٣٦ الاسم الذي بقي لها « الجريدة القومية الايليرية » . بدأت هذه الصحيفة تبت وتنتشر استعمال اللغة الايليرية ، كما يقول غاي ، أي لغة راغوز ، لغة اليرغوسلافيين الأدبية . وبعد قليل ، أضاف إلى جريدته ملحقاً أدبياً اسمه « دانيكا » ، أي « نجم الصبح » ، وأنشأ مطبعة قومية . وفي رأيه أن ايليرية واسعة جداً ، وتمتد من بلغاريا حتى كارانثيا . ونشر مصورات لكل ما تصوره في ذهنه بأن سيكون هولة الصرب . وكانت زبائنه من الشباب والاكليروس الأدنى . وكان المجتمع الراقى في البدء مقاوماً له ، ولم يستسلم الاكليروس الأعلى والطبقة النبيلة الا تدريجياً . وكانت نتيجة دعايته تشكيل مراكز أدبية صغيرة ، في اغرام ، نوفي زاد ، ليباخ ، راغوز ، بلغراد . ونشأ

أدب درامي تاريخي ، وشعر ملاحم وشعر غنائي . بيد أن كل هذا ظل في دائرة ضيقة ولم ينفذ إلى جماهير الشعب .

ولكن هذه الحركة الأيليرية وضعت مشكلة سياسية . والواقع ، ان المعارضة التي أبدتها الهونغارون أعطت هذه الحركة مظهرها السياسي . وذلك لأن الهونغارين يحتقرون بشدة كل ما ليس من جنسهم . وهناك أمثال هونغارية لها معناها في هذه النقطة مثل : « لا يوجد شيء خارج هونغاريا » ، أو « ليس السلافي رجلاً » . وبينما كان المجر يدافعون بشدة عن قوميتهم ضد الألمان ، كانوا يرفضون حقوق الوجدان القومي نفسها للشعوب التي كانت تحت سيطرتهم . فقد وضعوا جميع الصعوبات الممكنة أمام كولار واللوثريين الذين يطالبون باستقلالهم الذاتي المعنوي . كتب مفتش الكنائس اللوثرية السلوفاكية ، الكونت زاي في بلاغ له « ان بحيرة السلافيين أقدس واجب على كل وطني هونغاري حق ، وعلى كل بطل من أبطال الحرية والعقل » . وكان الرعاة اللوثريون السلافيون مضطهدين ، حتى ان كولار اضطر أخيراً أن يغادر بودابست بعد أن تقدم ماثا زميل هونغاري له إلى الملك بعريضة لطرده .

تفجر الخلاف بين المجر والسلافيين على استعمال اللغة في دياط برسبورغ ، عندما حصل الهونغارون على استعمال اللغة المجرية في الدياط وأرادوا أن يفرضوها لغة وحيدة . ولكن ممثلي كرواتيا في الدياط لم يشاؤوا الكلام باللغة المجرية ، وزعموا أن لهم الحق في الاستمرار بالكلام باللغة اللاتينية . وكذلك انفجر الخلاف في دياط أغرام عندما سمحت الحكومة النمساوية ، في ١٨٤٤ ، باستعمال اللغة اللاتينية في الدياط إلى جانب اللغة الهونغارية ، وعندما طالب الكرواتيون بحق استعمال اللغة الكرواتية دون الهونغارية واللاتينية . واعتبرت الحركة الكرواتية حركة ثورية في

في الكوميونات الهونغارية عام ١٨٤٢ ، في الوقت الذي كان فيه بك البوسنة يشكو إلى امبراطور النمسا من الدعاية التي كانت تقوم بين الصرب في اقليمه ، حتى ان الحكومة النمساوية في ١٨٤٣ اتخذت قراراً منعت فيه التكلم بـ « الإبليرية » وفرضت عبثاً على القوميات المختلفة في الامبراطورية ، الاحترام المتبادل . وكان الهونغاريون ، الذين وقفوا موقف التقام حيال الصرب وحيال الكرواتيين أو سلاف الجنوب ، بشكل عام ، نادرين جداً . وكان زيشيني متساهلاً : نشر في ١٨٣١ و ١٨٣٣ مذكرات قبل فيها أن يكون ، للشعوب السلافية في المملكة ، الحق في الحياة القومية ، ووسع وجهة النظر هذه في خطاب له في ١٨٤٢ . وبالمقابل ، كان كوسوطة مناوئاً للسلافين بشكل عنيف ، وبشاركه هذا الرأي أكثرية المجر تقريباً . وربما كان هنالك شيء حقيقي في اتهام المجر الكرواتيين بالخيانة : ويبدو أن غاي قام ببعض المحاولات لدعم الروس له : ففي ١٨٣٨ وجه إلى القيصر مذكرة ضد المجر وأراد أن يظهر فيها للقيصر الفائدة التي تحصل عليها روسيا بتناسها مع كرواتيا بالحق البوسنة والهرسك وصربيا بالروسيا . ثم تناول الاغراض نفسها في مذكرة أخرى ، في ١٨٤٠ ، ونشر مصوراً جغرافياً ذهب فيه بما نسميه اليوم بـ « يوغوسلافيا » من كلانشيا حتى بلغاريا . ولكن القيصر أبعد هذه الفكرة ، ويبدو أنه ، على العكس ، حذر فينا من غاي . ووجه غاي تهديدات إلى الهونغاريين ، وكتب : « لن يكون المجر يوماً ما الا جزيرة عائمة في المحيط السلافي العظيم . ولم أخلق هذا المحيط ، ولا هذه الامواج ، ولكن على المجر أن يحدروا من اثاره هذا المحيط لئلا يطغى الموح فوق رؤوسهم وتنغمر الجزيرة ! » . وفي ذلك نرى أصل العداء بين القومية السلافية والقومية الهونغارية ، وسيظهر هذا العداء في ثورة ١٨٤٨ .

ورغم هذا النشاط الفكري الحي ، الذي نجده عند يوغوسلافي امبراطورية النمسا ، لم تتفجر نواة الدولة الصربية في النمسا ، بل في تركيا . إن المكان الذي تألفت فيه هذه الدولة الصربية هو القسم الشمالي من الاقاليم التركية ، باشوية بلغراد ، أي المنطقة التي كانت في السابق تحت السيطرة النمساوية ، حتى ١٧٣٩ . وقد بقيت في هذه البلاد ذكريات ادارة منظمة ، مسيحية . وكان العسكريون الذين انخرطوا في جسم الجيش النمساوي قد تشكلوا في البلاد . وكانت الشروط الجغرافية ، من جهة ثانية ملائمة لحركة ثورة : كلنت شوماديا ، الاقليم الواقع في شرق بلغراد ، تتألف من جبال مغطاة بالغابات ، مع بعض السهول الصغيرة المستغلة المزروعة بالذرة ، مع بعض البساتين والكروم ، حيث تربي الخنازير وتوجد كتلة فلاحين ملاكين بشكارون مجتمعاً ديموقراطياً . وكان لهم اكليروسهم الأرثوذكسي ، و « كنيز » القرى ، أي بلدياتهم ، وتقاليدهم الادبية ، والاغاني الملحمية (بسمة) التي تغنى في السهرات . وكان بين التخوم النمساوية وباشاوية بلغراد حركة هجرة متبادلة ، وكما كان الكلفت في اليونان ، كان الخارجون عن القانون ، الاشقياء الذين يعتصمون في الجبال ، ينضمون إلى الحركة ، ويسمون هنا « هايدوك » ولكن لا يوجد هنا أي نوع للحياة الفكرية . وكان الرهبان والكهان الارثوذكس جاهلين تماماً وضعافاً . الا أنه كان يوجد في فينا وبودابست ، أو في البانات ، عناصر فكرية .

نشبت الثورة في الاقليم عام ١٨٠٤ ، على يد قره - جورج ، ضد اعتداءات الانكشارية المقيمين في البلاد ، الذين يسمون « الداهي » ، وطردهم الصرب الثائرون ، وانتزعوا منهم بالتدريج الحصون ، بعد أن قاتلهم في ميشار في ١٨٠٦ ، دون أن يفكر هؤلاء الثائرون باطراح

السيادة التركية حتى ولا سلطة الباشا . وكانت ثورتهم موجهة فقط ضد الانكشارية الذين يضطهدونهم . وكان قره - جورج ، الذي يقود النضال ، ضابط صف قديم في الجيش النمساوي ، وبهذا الشكل ثقف المهنة العسكرية ، وكان يساعده مجلس الكنيز ، عمداء القرى . وحاول هؤلاء الثائرون أن يتصلوا بسان - بطرسبورغ وفيينا ، ولكن الأتراك استرجعوا قوتهم واخضعوهم بعض الوقت ، وظلوا كذلك إلى أن أفادوا من الحرب الروسية - التركية من ١٨٠٦ إلى ١٨١٢ التي انفجرت دون أن يكون لها أي علاقة مع الصرب ؛ وقد أفادت هذه الحرب لأن الأتراك اضطروا أن يواجهوا الروس ويتخلوا عنهم . ولكن الروس ، عندما بدأت حملة نابليون على روسيا ، تخلوا عن الصرب وعقدوا الصلح مع الأتراك في ١٨١٢ . ووعد الأتراك ببساطة في معاهدة بخارست د بمعاملة الصرب معاملة رحيمة وكريمة ، وبفرض ضريبة د معتدلة ، وبالعفو العام . وعادوا سيطرتهم على البلاد كلها . واضطر الزعماء إلى الفرار بعد أن قاموا بتدابير انتقامية فظيعة ، وبدل على ذلك برج الجماجم في نيش في ١٨٠٩ . ولا يوجد في هذه الثورة الصربية من ١٨٠٤ إلى ١٨١٢ أي نوع لطابع قومي : بل كانت حركة صربية ، حركة فلاحين أخذوا نماذجهم من تقاليدهم الشعبية القديمة في المنازعات بين ماركو كوانيوفيتش ضد الأتراك ، ولم يكن لديهم أي فكرة يمكن أن تتشكل بموجبها دولة صربية .

ميلوش اوبرينوفيتش . - قهرت الحركة للمرة الاولى ، ولكنها عادت وتحولت في عام ١٨١٥ ، وانفجرت الثورة في ٢٥ نيسان على اثر الفظائع التركية ، وكان على رأسها كنيز من البلاد ، وهو ملاك ومربي خنازير ، اسمه ميلوش اوبرينوفيتش ، ولد عام ١٧٨٠ . وكانت منطقة بلغراد

مقر الحركة ، وقد تخلصت تدريجياً من الأتراك ، باستثناء الحصون ، وسمى الناثرون ميلوش «اوبور كنيز» أي العمدة الأعلى في فاليفو . وتلخص مطالب الصرب في عدم بقاء الأتراك خارج حصن بلغراد ، وعدم وجود حامية تركية الا في بلغراد ، وان تجمع الضرائب التي تدفع للسلطان في مبلغ عام على ان يجمعه الصرب بأنفسهم . وفاوض ميلوش الأتراك بمهارة وظهر هؤلاء معتدلين وخافوا من تدخل الروس لصالح الصرب الناثرين . وحصل الصرب على ما يريدون من الأتراك : فقد اقيمت ادارة مسيحية تمثل الأمة الصربية لدى الباشا ، وأقر على هذا النحو نوع من تسوية بين الصرب والأتراك في القرى : فمن جهة وجد الكنيز الذي يوجه الشعب الصربي ، ومن جهة أخرى ، يمثل الباشا ، « المتسلم » الذي تدفع اليه ضريبة القرية . وتمت هذه التسوية في كانون الأول ١٨١٦ . وبعد موت قره جورج ، الذي عاد إلى البلاد وتخلص منه ميلوش في ٢٤ حزيران ، وتنحية رئيس الدائرة الصربية ، وموت الأسقف نيبيتش المفاجيء الذي كان يعارض سلطة ميلوش ، اعترف السلطان بميلوش كنيزاً اعلى في ٦ تشرين الثاني ١٨١٧ . وهكذا أعطي لأول مرة الاستقلال الذاتي لباشوية بلغراد ، وهو نظام يمتاز في الامبراطورية العثمانية .

وسعت سياسة ميلوش هذا الامتياز الأول الذي تنازل به الأتراك . وحاول ميلوش أن يؤمن سلطته الشخصية على مختلف الكنيوزات وعلى الطبقة المسيطرة التي ظلت حتى ذلك الحين محاربة عند الحاجة ، وذلك بالضرب بشدة على يد كل ثورة ، وبأظهار سلطته بفضاعة . واتجه صراحة إلى جانب الأتراك ، ودفع الضريبة المحددة بانتظام ، وضريبة الخراج ، وضريبة الأراضي ، واغدق على الباشا الهدايا . وعندما ثار الاغريق على تركيا ، وقف ميلوش والصرب موقفاً متحفظاً جداً ، وموقفاً حيادياً أثناء

الحرب الروسية - التركية من ١٨٢٧ إلى ١٨٢٩ . وبفضل هذه المفاوضات وهذا الموقف حصل ميلوش على فوائده : ففي ١٨٢٠ ، أخذ لقب أمير صرب باشوية بلغراد ، . وفي ١٨٢٦ ، نص اتفاق آكرمان ، الذي سوى الحالة في الأقاليم الدانوبية بين القيصر والسلطان ، على إعطاء الصرب الحرية الدينية ، والاستقلال الإداري ، وعلى ضريبة وحيدة ، والسماح بأن تكون لهم مدارس ومستشفيات ، وبالانتقال والتجارة في الامبراطورية ؛ وحرمت على الأتراك الإقامة في خارج حصن بلغراد ، وصفوا أملاكهم في البلاد . وأخيراً وعد الصرب بتصحيح حدود الباشوية لصالحهم . وفي ١٨٢٩ ، ايدت امتيازات اتفاق آكرمان بمعاهدة أدرنه . وفي ٥ شباط ١٨٣٠ استطاع ميلوش أن يعقد مجلساً قومياً للكنيزات ، سكوبتشينا ، لإعلان الامتيازات التي حصل عليها من السلطان ، وما كان من المجلس المعترف بالجميل الا أن انتخبه أميراً وراثياً للصرب في باشوية بلغراد . واستطاع ميلوش الحصول على موافقة السلطان على هذا الانتخاب ، بعد أن وزع الهدايا على الديوان السلطاني وحصل على الموافقة على لقب أمير وراثي في ٣٠ ايلول ١٨٣٠ .

بقيت مشكلة الحدود : لم يقرر الأتراك الوفاء بوعدهم في تعديل الحدود ، غير أن ميلوش ، في الواقع ، احتل مناطق الجنوب الست التي كان يطمع بها ، وبنفس الطريقة اشترى الديوان بالهدايا ، فتخلى له عنها في ١٨٣٣ . وفي هذا التاريخ وجدت الدولة الصربية على صعيد أقل رقعة . بما كان عليه الجنس الصربي ، ولا شك ، وتحت السيادة التركية ، ولكنها كانت ، على الأقل ، دولة تتمتع بالاستقلال الذاتي ، أول دولة صربية .

وهذه الدولة الممتازة ، التي لم تنحزج من حركة وعي قومي أصلي ،

بل من أناس يبحثون عن دفاع وعن ضمانات ضد طغيان الإدارة التركية ، وجهت أنظار الصرب إليها من مختلف أنحاء الامبراطورية ، فتوافدت عليها حركة الهجرة من البوسنة وبلغاريا وخاصة من منطقة بيروت ونيش ، وأحدثت في باشوية بلغراد مركزية سلافية حقيقية آخذة بالنمو . ورغم أن ميلوش كان أميراً آمياً تماماً ، وان الصرب كانوا فلاحين فظاظاً فقد تمت لصالحهم حركة التفاف من جميع العالم اليوغوسلافي . فحتى الآن ، في الواقع ، كانت المراكز الفكرية في خارج صربيا ، في النمسا : ففي نوفيغراد وجدت مطبعة صربية ، وفي بودابست كانت تنشر جريدة «الأخبار الصربية» ، وفي بودابست أيضاً كانت تطبع مجلتان صربيتان . وتنشر فيها القصص الشعبية وبخاصة قصص فيداكوفيتش الصربي . وقد انتشر عمل فوك قره - جيتش كله ، كما رأينا ، في الارض النمساوية . وشيئاً فشيئاً انتظمت الحركة الفكرية الصربية في الباشوية نفسها : انشئت مدرستان ثانويتان (جمناز) احدهما في كراغويفاتش في ١٨٣٢ (لأن كراغويفاتش ظلت حتى ذلك الحين عاصمة الأمانة لا بلغراد التي ظلت مدينة تركية ؛ وفي ١٨٣٨ ، انشئت الاخرى في بلغراد . وأُسست في بلغراد ، في ١٨٤١ ، حلقة دراسة مع مطبعة يديرها بورغمان ، ثم جمعية أدبية ومسرح في ١٨٤٢ . ومع نمو الصرب الفكري ظهرت مطالب عامة وضعت ، أمام سلطة ميلوش أو برينوفيتش الاستبدادية ، برنامجاً ليبرالياً ، واضطر ميلوش ، في العام ١٨٣٥ ، أن يلجأ إلى التفاهم والتسوية .

وهذه الدولة الصربية الصغيرة التي لم تنل استقلالها التام بعد ، وظلت تحت سيادة السلطان والأتراك ، مازالت غير معرفة بنصوص حقوقية . لقد كانت موجودة في الواقع ، ولكن لم يكن لها دستور كساتر دول الغرب ، لقد كانت منظمة تسير معتمدة على التسامح المتبادل بين

الأتراك والصرب . وكان الصرب أول من حققوا لأنفسهم ترتيباً سياسياً قبل أن يكون لهم وعي قومي محدد . وهذا عكس ما شهدناه عند الاغريق الذين كان لهم وجدان قومي واضح جداً قبل أن يستطيعوا تحقيقه بشكل سيامي .

وهكذا نجد درجات مختلفة للوجدان القومي عند الشعوب السلافية في امبراطورية النمسا ، وخاصة في الجنوب ، حيث كانت العناصر على درجات متفاوتة من النمو . ولكن حتى ١٨٤٨ ، باستثناء رد فعل الهونغاريين ضد الكرواتيين ، لا يوجد عداً بين هذه القوميات المختلفة في امبراطورية النمسا ، بل ، على العكس ، كانت تدعم بعضها بعضاً ، وبينها مجاملات متبادلة في داخل الامبراطورية النمساوية ، وفي خارجها عندما تفيد من مجاملات الخارج . وكان الألمان والايطاليون والسلافيون والهونغاريون يتابعون بعطف تقدم ورفي كل منهم ، ويتعاونون من وجهة النظر العقائدية والواقعية أيضاً . غير أننا نراهم ، في ثورة ١٨٤٨ ، متنازعين متخاصمين .

٤ — رومانو ترانسلفانيا والأمارات الدانوبية

وأخيراً ، لا بد لنا ، في جنوب شرقي أوربة ، من دراسة حركة روماني ترانسلفانيا والأمارات الدانوبية . وكانت ظروف هؤلاء مختلفة من حيث الأصل والنمو . فجنسهم لاتيني وغير سلافي ، ويظهر هذا الجنس باللغة المشتركة ، وكانوا منعزلين ومنفصلين عن أوربة بالكتلة التركية وبكتلة الامبراطورية النمساوية ، ولم يفيدوا من هذا التضامن الذي أوجدته وحدة السلافيين بين الآخرين . ومن جهة أخرى ، وضعت بشأنهم قضية

دبلوماسية منذ منتصف القرن الثامن عشر ، منذ توسع روسيا نحو الجنوب ؛ وأصبحت قضية الأقاليم الدانوبية عنصراً من عناصر السياسة التوسعية لروسيا على حساب الامبراطورية العثمانية . وحسب الأحوال ، كان الرومانيون يلقون التشجيع أو يلقون الصعاب في السياسة الروسية . وتم في هذه المجموعة نوع من فصل بين تحرير البلاد السياسي والوعي القومي . ولم يكن بالتالي حركة التحرير الرومانية نفس الخطم البسيط الذي شهدناه عند الشعوب الأخرى : فقد سبق النظام السياسي صحوة الوعي القومي ، وأظهرت الحركة القومية الرومانية صفة خاصة وهي ان الرومانيين حصلوا على الحريات السياسية قبل أن يشعروا بأنهم قومية ، في قسم فقط من هذا الجنس ، لأنهم كانوا منقسمين بين امبراطورية النمسا والامبراطورية العثمانية .

في الامبراطورية النمساوية . - كان القسم الروماني هو ما يسمى امارة ترانسلفانيا التي تؤلف جزءاً من تاج القديس - ايتين . وكان الرومانيون شعباً قروبياً قناً . وان التعبير « افلاقي » يعني « د القن » . واقامت فوقهم « أقوام » شكلت ثلاث جماعات :

١ - الغزاة ، الذين ردوا الشعب الروماني إلى القنانة ؛ وكانوا من كبار الملاكين المجريين النبلاء .

٢ - المعمرون ، وهم من اصل هونغاري أيضاً ، ومن أصل عسكري ، ويشكلون طبقة من صغار المالكين الذين يسمون الزكلر .

٣ - الالمان/البروتستانت الذين أقاموا في وسط البلاد ، ويدل عليهم بالاسم « الساكسونيون » .

وهذه الأقوام الثلاثة ، المجر ، الزكلر ، الساكسونيون ، لها وحدها حقوق سياسية ، وكان لها دباط بموجب دستور ١٦٩١ ، ولم تعقده حكومة النمسا ، في هذا العصر الذي تتكلم عنه ، منذ ١٨٠٩ .

في الامبراطورية العثمانية . - كانت المنطقة الرومانية تتألف من الأمارتين الدانوبييتين : مولديا (البغدان) والأفلاق (فالاشيا) . ولم يحتلها الاتراك اثناء الفتح العثماني ، بل كانتا تابعتين للامبراطورية العثمانية . وبقيتا بلدين مسيحيين ارثوذكسين يضمن ارسقراطية من كبار المالكين النبلاء الذين يؤلفون الأطر الاجتماعية وأصحاب المناصب ويسمون « البويارد » ويعيشون في بعض المدن : ياسي - ونجارست ، وتتألف نفوس هذه المدينة من مائة الف نسمة ، وموافي نهر الدانوب . وكان هؤلاء البويارد يتكلمون على العموم الفرنسية يأخذون نماذج حياتهم وبذخهم من باريس . ونجد تحتهم كتلة الفلاحين في القناة ، تعيش عيشة بائسة . وكانت الجيوش الروسية والتركية تنهبها بشكل دوري اثناء مرورها . وفي ١٨٣٥ ، مرت بها الكونت مولتكه في طريقه الى تركيا ليكون مدرباً للجيش العثماني الجديد ، فوصف ، في رحلته ، البلاد والحياة البائسة التي يجيها هؤلاء الفلاحون في اكواخ حقيرة متجمعة في قرى ، وليس عندهم اثاث أو ادوات للطبخ أو اسلحة . وكانت حكومة الاقليمين تدار من قبل هوسبودارين (اميرين) يسميها السلطان ، وكانا غريبين عن البلاد ، لاجتناب علاقات خطيرة مع الروس . ومنذ ١٧١٦ أخذ السلاطين يعينون الاميرين من اغريق حيي الفنار في القسطنطينية ويقومون قليلاً من الوقت ليحولوا دون تأصلهم في البلاد . ومن ١٧١٦ إلى ١٨٢١ وجد سبع وثلاثون هوسبوداراً في الأفلاق وثلاث وثلاثون هوسبوداراً في البغدان . وكانوا يأتون الى البلاد ومعهم عمال الادارة من الاغريق ايضاً الذين يقومون بفرض الضريبة . وكان الرؤساء يستغلون الوضع ليشروا على حساب غيرهم ، وكان العمال يرتشون ، ولكن لم يكن هنالك اضطهاد خاص من قبل الاتراك للسكان . وكان هذا الوسط

بمختلف اجتماعياً وسياسياً عن أوربة . ولكن الدفع الروسي ، منذ كاترينا الثانية ، أخذ يظهر في هذا الاتجاه ويشجع بالتالي اطماع الهوسبودارين الذين يريدان زحزحة سلطة حكومتها لينشأ لانفسها امارتين شخصيتين . وبعد قليل وصل المهاجرون الفرنسيون الذين أتوا معهم بأفكار القرن الثامن عشر الفلسفية ، وبعدها بأفكار الثورة الليبرالية : ففي عهد حكومة الديركتوار (حكومة الادارة) قامت دعاية ليبرالية في البلاد بواسطة القنصل الفرنسي او العمال الذين ارسلهم الديركتوار . وكان الاقليم الدانوبيان موضع مخاطرة الحروب الروسية - التركية ، ومراقبة السياسة النمساوية التي لا تريد ان تتوكل روسيا تستولي على هذين الاقليمين

لقد اثرت الحرب الروسية - التركية عندما استبدل الباب العالي الهوسبودارين ، قسطنطين ييسلانتى وموروسى برشحين فرنسيين ، بناء على طلب الجنرال سياستيانى . وبسبب الحرب احتل الروس الاقليمين ، ثم اضطروا الى التخلي عنها عندما دعتها التعقيدات الاوربية مع نابليون الى توقيع صلح بخارست مع الأتراك : الا انهم حصلوا ، في هذه المعاهدة ، على قطعة من مولداقيا (البغدان) عندما نقلت الحدود الى نهر البوت وأصبحت بسارايا روسية . واتخذ الروس وضع الحماة والضامين للحريات في الاقليمين الدانوبيين . وفي الواقع كانت هذه الحماية وسيلة للتغلغل والنفوذ في الامبراطورية العثمانية التي اعترفت للروس في عام ١٧٧٤ ، بمعاهدة كوشوك فينارجي ، بحق حماية الاكليروس الارثوذكسي في تركيا .

وعندما قامت ثورة الاغريق في العام ١٨٢١ على يد الجمعية السرية ، الهييتيري ، وجد تشكل الهييتيري بعض المشايخين في الطبقة النبيلة في الامارتين الدانوبيتين ، مثل آل ييسلانتى ، وآل ستوردزا ، وبعض اعضاء الاكليروس

في الأفلاق . وفي التاريخ نفسه انفجرت ، مع ثورة الهيتيري ، ثورة الفلاحين في البغدان ، في وادي الآلوتا في اولتينيا ، في كانون الثاني ١٨٢١ ، وكان يتزعم الحركة تيودور فلادييريسكو . ولم تتصل هذه الحركة بثورة الهيتيري ، بل كانت معادية لها . وكانت نتيجة هذه الحركة المزدوجة إيقاف تنفيذ البنود الاقتصادية لمعاهدة بخارست ، وهذا ما أثار استياء الروس الذين قطعوا العلاقات الدبلوماسية مع السلطان ، والوساطة الفرنسية لتهدة الحلاف التي أدت الى اتفاق آكرمان ، في ٢٦ تشرين الأول ١٨٢٦ وألزم السلطان بموجيها الى التباحث مع الروس عند تسمية الهوسبودارين .

غير ان هاتين الثورتين عادتتا بالفائدة على الرومانيين : من ذلك ان الباب العالي ، في حزيران ١٨٢٢ ، بعد ان حذر من اغريق حي الفنار الذين ينتخب من بينهم الهوسبودارين ، سمى هوسبودارين من ابناء البلاد من الرومانيين : غريغور جيجا في الأفلاق . وجان ستوردزا في البغدان . وابتداء من الآن أصبح الهوسبوداران رومانيين في الاقليمين الدائبيين ثم ان الحرب الروسية التركية من ١٨٢٧ الى ١٨٢٩ التي انتهت بمعاهدة ادرنة ، في ١٤ ايلول ١٨٢٩ ، خولت الأمارتين فوائد جديدة : وهي ان الهوسبودارين أصبحا يسميان مدى الحياة ، لا لسبع سنوات . وحصل الأقلان على الاستقلال الذاتي في ادارتهما الداخلية ، وتعهد السلطان بالموافقة على النظام العضوي (الأسامي) الذي سيدرسه الروس . وبقيت الجيوش الروسية في البلاد حتى ١٨٣٤ . وحكم الأقلان ، في الواقع ، من قبل الجنرال كيسيليف الحر الذي طلب من مجلس البويارد الموافقة على النظام الأسامي لعام ١٨٣١ . وهذا النظام الذي هو نوع من دستور ، يؤيد امتيازات البويارد على الفلاحين ، وسلطانهم الاقطاعية ، وحصاناتهم ،

واملاكهم الأرضية ، وينشئ في كل امانة ، في البغدان وفي الافلاق مجلساً يصوت على الضريبة والقوانين ، وينتخب الهوسبودارين . وفي الواقع ، ظل الروس والاتراك متفاهمين على تسمية الهوسبودارين دون تدخل الانتخاب ، وعلى مراقبتها من قبل القناصل الروس . وتوطد في الاقليمين الدانوبيين نظام ارستقراطي ، ولكنه ، مع ذلك ، مصبوغ بالصبغة القومية لأن الرومانيين انفسهم كانوا يؤلفون هذه الادارة .

ولم تكن السياسة الروسية ، التي ادت الى هذه النتائج ، في هذين الاقليمين الدانوبيين مستوحاة من وجهات نظر رومانية ، بل من المصلحة الروسية وحدها . ومع ذلك فإن هذا التدخل حول الرومانيين توسع امتيازاتهم : فقد شكلوا اقليمين يتمتعان بوضع خاص مفيد وسيكون هذان الاقليمان اطاراً للدولة القومية في المستقبل .

نشوء القومية الرومانية - ولكن ليس في كل ذلك شيء قومي . لقد كان الهوسبوداران وادارتها قبل ١٨٢٢ من حي الفئار بمن ليس لهم مفاهيم رومانية . وكانت هدف طمعهم تشكيل دولة تشمل الاغريق والرومان (من رومانيا) تحت السيادة التركية دون التفكير بأي دولة قومية رومانية . وكانت البطيركية والاساقفة الارثوذكس معادين للحركة الرومانية . أما البويارد فقد تهللنوا أو تغربوا ، وفقدوا سيادتهم الرومانية ، ولم تكن بينهم وبين الشعب روابط روحية . وهكذا بقي الشعب لامبالياً تماماً أثناء ثورة ١٨٢١ . وكان الفلاحون الرومانيون في منطقة اولتينا يناوؤون حركة يبسلانتي ؛ وصرح فلاديميريسكو : « لست مستعداً مطلقاً لاهراق دم الرومانيين في سبيل اغريقية » . وقال في نداء آخر : « ماذا يمكن أن يكون عند الداسين والهيلانيين من شيء مشترك ؟ » .

ان مايين لنا تعارض الحركتين هو ان يبسلانتي قبض على فلاديميريسكو وأعدمه . ولذا يجب لتشكيل القومية الرومانية أن يتحرر الرومانيون معنوياً من هذه المهينة بقدر تحررهم السياسي من ربقة الترك .

ونلاحظ في نداء فلاديميريسكو كلمة « الداسيين » التي استعمالها للدلالة على هذا الشعب معارضاً بذلك « الهيلانيين » . لقد نشأت الحركة القومية ، في الواقع ، في ترانسلفانيا ، وكانت في أصلها آثارية ، ولم تخرج من الطبقة الارستقراطية . ويجب ألا نخدع في الواقع من معارضة ترانسلفانيا ، أو ، على الأقل ، من المعارضة التي ارتسمت في ترانسلفانيا ضد الحكومة ، تحت غطاء إرجاع حقوق الترانسلفانيين التاريخية ، إذ لا يوجد في هذا حركة قومية رومانية ، بل نزاع نفوذ بين الطبقتين الارستقراطيتين ، الساكسونية والمجرية ، في ترانسلفانيا . لقد كان الساكسونيون ، وهم ألمان ، مواليين لحكومة فينا ويدعمون سياسة تسلط الحكومة ، وكانوا يناصرون انفصال ترانسلفانيا عن هونغاريا للاحاقها مباشرة بفينا . أما المجر ، على العكس ، فقد كانوا يعادون الحكومة لأنها لا تقيم اعتباراً لحقوقهم التاريخية . وسلكوا سياسة إرجاع الحريات التاريخية لترانسلفانيا وربطها بشكل وثيق ببودابست . واستطاعوا ان يفرضوا على الحكومة انعقاد دياط ترانسلفانيا في ١٨٣٤ ، الذي وجه اللوم الى « الغويبرنيوم » ، أي الادارة ، لأنها لم تنتخب بل كانت من تعيين فينا ، واراد أن يشكل سلطة مستقلة مسؤولة أمام الناخبين . وطبع ضبوط الجلسات ووزعها ، كما فعل كوسوط فيما بعد في الدياط الهونغاري . وكان من الطبيعي أن تحمل حكومة فينا هذا الدياط بسرعة . ولا نجد في هذه المعارضة السياسية التي استيقظت ، في ترانسلفانيا ، شيئاً قومياً ، حتى ولا ليبرالياً ،

أنها معارضة ارستقراطية نبلاء ألمان ومجر ضد فينا ، وليست حركة رومانية ، ولذا لم يعلق الشعب الروماني أي فائدة على هذا النزاع .

لم يكن أصل الحركة في معارضة النبلاء ، بل ان أصلها ديني : ففي ١٧٠٠ تألفت في ترانسلفانيا الكنيسة « الموحدة » أي ان قسماً من الكنيسة انفصل عن الارثوذكسية ، عن بطريركية القسطنطينية والتحق من جديد بروما ، وبالتالي ، دخل في الكاثوليكية ، وألف الرومانيين الكاثوليك المتحدين مع روما . وهذا ما يوضح لنا كيف أنهم أرسلوا من ترانسلفانيا بعض خريجي المدارس الاسقفية الى روما ليتموا ثقافتهم الدينية والمسلكية ويعودوا كهناً . وقد اطلع هؤلاء الخريجون في روما على الحضارة الغربية واكتشفوا بأن أصل الرومانيين من روما ، وانهم متحدرون من انسال الداسيين ، جنود تراجان ، وأخذتهم عظمة ماضيهم قبل أن يغمرهم الترك ، وعندما عادوا الى بلادهم ألفوا تدريجياً في بلاني « المدرسة الترانسلفانية » حيث يدرس ماضي داسيا والعلاقات اللغوية بين الرومانيين واللاتينيين .

وفي آخر القرن الثامن عشر ، انشأت هذه الحركة كتاباً فخص بالذكر منهم صاموئيل كلاين ، فقد نشر في ١٧٨٠ كتاباً في النحو الروماني ؛ وفي التاريخ نفسه ، أعطى جوج سينسكاي مجموعة مصادر تاريخ ترانسلفانيا القديم ، ونشر بيير ماجور « تاريخ أصل الداسيين في ترانسلفانيا » . وفي بانات تيميسفار كان هؤلاء الرومانيون على صلة بالصرب . وتشكلت على هذا النحو مدرسة ادبية مشتركة ؛ وبدأ الأدب الروماني بترجمة الكتب الصربية : نشر الكاتب الخرافي الروماني ، تسيشينديال قصصاً خرافية باللغة الصربية . وكان المؤلفون الرومانيون يأخذون في الغالب أسماء

صربية ، مثل النحوي بروجوفسكي . وظلت معظم مؤلفات التاريخ وفقه اللغة الرومانية مخطوطات ، ولكن الشعب كان يتداول منها بعض المقطوعات . ونجد هنا منطقة أدبية صغيرة تبدو منعزلة ، ولكنها نشيطة . وهذه المدرسة الصغيرة الرومانية في ترانسلفانيا وبانات ستؤثر على الاقليمين الدانوبيين وتوقظ فيها الفكرة القومية . لقد كانت العلاقات صعبة بين ترانسلفانيا والاقليمين الدانوبيين : كانت الطرق قليلة ، وكانت الحدود مغلقة بالمهاجر الصحية لتجنب انتشار الأوبئة الوافدة من تركيا ، ومع ذلك فان الأفكار كانت تمر عبر الجبال لتدخل في الاقليمين الدانوبيين ، ولا أدل على ذلك من قول فلاديمير يسكو عن أبناء وطنه انهم « داسيون » .

كان المبادء الاسامي استاذ من سيبو (وهو الاسم الروماني للمدينة الترانسلفانية هرمانشتات) وهو جورج لازار (١٧٧٩ - ١٨٢٣) . ينتمي هذا الاستاذ الى اسرة فقيرة من ترانسلفانيا ، وقام بدراسات تامة جداً . وفي ١٨١٦ وصل الى بخارست ، حيث فتح ، بناء على طلب البويارد ، مدرسة هندسة لتشكيل مساحين ، لأن كبار الملاكين كانوا بحاجة الى عدد منهم على أراضيهم . وكانت هذه المدرسة نقطة انطلاق لتعليم أوسع وأشمل كالتاريخ والفلسفة والسياسة . وكان في هذا العمل رسالة رومانية كاثوليكية وجدت تعبيرها الاسامي في مدرسة دير القديس سابا . وقامت حركة بمائلة في ياسي حيث فتح الاستاذ آواشي مدرسة للتعليم باللغة الرومانية ، وتبعه آخرون . وحصل في الاقليمين الدانوبيين ، في المجتمع الراقي ، رواج حقيقي للأساتذة الترانسلفانيين . وكان هؤلاء يتخذون مربين في الأسر النبيلة على حين أنهم ، حتى ذلك الحين ، كانوا يؤخذون عادة من الاساتذة الاغريق . وعلى هذا النحو حلت بالتدريج الحضارة

الرومانية اللاتينية محل الحضارة الهلنية - البيزنطية التي ظلت حتى الآن تحتل مكانة الشرف . .

لقد كانت ميزة هذه الحضارة الرومانية ، إذا أريد القول ، هذه الحركة الرومانية ، الاستلham من فرنسا . فقد كانت علاقات الطبقة النبيلة في الاقليمين الدانوبيين مع فرنسا قديمة ، وكانت اللغة الفرنسية فيها شائعة ، واستعملها جبار ، والشباب الرومانيون يذهبون الى باريس للدراسة . فقد وجد فيها ، في ١٨٤٥ ، تشكّل لفيف من الطلاب الرومانيين ، تحت ادارة ووزيتي وكوغالنيسيانو والاخوين براسيانو . وبالمقابل كان الاساتذة الفرنسيون يذهبون الى الاقليمين الدانوبيين ، في رومانيا ، ويقيمون فيها ، وكانوا من أصل متنوع جداً : ونذكر على سبيل المثال عضو المؤتمر الوطني القديم كاد ، أو ، بالعكس ، مهاجر وهو الاستاذ فايان الذي أدار كلية القديس - سابا ونشر بالفرنسية ، في ١٨٤٤ ، كتاباً يسمى « رومانيا » لتعريف أبناء وطنه بها . وكان الجيل الروماني الناشئ يتلقى عن طريق هذه التربية الفرنسية الشغف بالحرية والعظمة القومية .

وفي رومانيا ، كما في المانيا وايطاليا ، كانت الليبرالية والقومية مترابطتين . وكان أم تلاميذ جورج لازار وناشر أفكاره هليادوادوليسكو . أسس ، في ١٨٢٩ ، جريدة « البريد الروماني » ، في الافلاق ، وبعد قليل ، أسس آراشي ، في البغدان ، جريدة بمائلة وهي « النحلة الرومانية » . وقبل ذلك ، في ١٨٢٢ ، قام رومانيون بتكييف « اعلان حقوق الانسان والمواطن » في تعاملهم . وبعد ١٨٤٠ كان نهوض الحركة عاماً . وتم بشكل متواز في ترانسلفانيا ورومانيا : ففي

كرونشتات أسس الاستاذ جورج باديت ، في ١٨٣٧ ، مجلة التعليم العام وكانت تعالج موضوعات علمية وأخلاقية بأسلوب سهل يفهمه الجميع وباللغة الشعبية . وفي المعهد الديني المتحد في بلاي تربي أحد أبناء الاقنات ، بادنوت ، وأصبح مؤرخاً وخطيباً . وشجع الاكليروس الأعلى الحركة وبخاصة الكنسي ساغونا ، الذي أصبح أسقفاً ثم رسم رئيساً للأساقفة في كانون الثاني ١٨٤٨ . وأخذت الحركة في رومانيا شكل حركة أدبية قومية : فقد كان كوغالينسيانو مؤرخاً ، تثقف في لونيڤيل وفي برلين ، وكان حوارى « رومانيا الكبرى » ، وإتجاهاته مناصرة للروس . وإلى جانبه وجد شاعران كبيران : الشاعر غويفوار الكسندر يسكو الذي تغنى بماضي رومانيا القومي ، والشاعر الغنائي اليساندري . وهكذا توصل الرومانيون في وقت واحد الى فكرتين عميقتين : الوعي القومي ، ووحدة قوميتهم في الاقليمين الدانوبين وفي النمسا معاً .

هذه هي نتيجة حركة الأفكار في جنوب - شرقي اوروبا قبل ١٨٤٨ لقد زالت فكرة التضامن الداخلي في الامبراطورية النمساوية تماماً . وعقدت روابط روحية غير سياسية خارجاً عن نطاق الدول الموجودة ، اما بين بعض أقاليم تاج القديس - ايتين وأقاليم النمسا الأصلية ، واما بين أقاليم الامبراطورية العثمانية وأقاليم امبراطورية النمسا . ومن عجب أن تطور الأفكار الحديثة قد استطاع أن يمحو العمل السياسي الذي أوجدته الأزمنة الحديثة ، ويبعث ، عوضاً عن الامبراطوريتين الكبيرتين ، امبراطورية النمسا والامبراطورية العثمانية ، توزيعاً للدول شبيهاً بتوزيع القرن الخامس عشر ، حتى وكأن الاتجاه الحديث في هذه البلاد ينزع نحو نحو ثلاثة قرون من التاريخ . ولكن يجب ألا يظن بأن النتائج

السياسية لحركة القوميات في جنوب - شرقي أوربة قد شوهدت بعد :
لأن كل شيء مازال على الصعيد الفكري ، ولا مجال للقول بأن وجود
هذه القوميات التي وعت نفسها كان خاصاً بوجود امبراطورية تشملها في
منظمة اتحادية . ومن المؤكد ان وجود هذه القوميات لم يعد يتلائم مع شكل
رد الفعل الذي اتخذته امبراطورية النمسا في عهد فرنسوا الأول وحكومة
مترونيخ . ويبدو ، أن الادارة النمساوية القديمة ، التي كانت في السابق
قوية وناجعة ، قد منبت بالعجز ؛ فقد بدت منهزمة ، وآخذة بالتفتت ،
ويكفي ثورة ١٨٤٨ ان تربتها رتبة خفيفة على كتفها حتى تنهار ، وتنشأ ،
عندئذ ، على الصعيد السياسي ، حركة القوميات التي رأينا تشكلها
على الصعيد الفكري .

الثورة الالمانية . - يشاهد في الثورات الالمانية تشابك ثلاثة أحداث
يؤثر بعضها في بعض ويجب تمييزها : الحركة السياسية الداخلية في مختلف
الدول ، والحركة الاجتماعية العمالية ، التي تحاول أن تنظم نفسها ، وأخيراً
الحركة القومية في سبيل الوحدة .

الحركة السياسية . - لقد استحكمت الأزمة الاقتصادية بعد الثورة
وتفاقمت بها ، وانهارت هيئة (التسليف) كلها عقب أيام الثورة . وقد عبر
عن هذه الأزمة ، كما رأينا في البدء ، بانتفاضات اجتماعية . وغدت الأزمة
تشكل أحزاب ثورية ، متطرفة ، جمهورية ، واشتراكية اوضحت عن
نفسها في برلمان فرنكفورت وفي اندية العمال في المدن الكبرى ، في
برلين ، مثلاً ، تحت ادارة العامل دودن ، في بريسلاو ، في المنطقة
الرينانية ، حيث يلاحظ تأثير الشيوعيين أعظم بما في غيرها ، وخاصة في
كولونيا ، حيث أسست ، في أول حزيران « جريدة الراين الجديدة »
وفي فرنكفورت .

وعبرت الأزمة عن نفسها أيضاً بحركات ثورية عديدة ، ومشادات ، في برلين في ١٥ حزيران ، وفي شفايدنيتز في ٣١ تموز . وقامت في المنطقة الرينانية في شهر ايلول ، حركة اضطراب واسع وخطير ظهر في ثورة فرنكفورت في ١٨ منه : واضطرت الجيوش البروسية أن توطد النظام ، ووقع مائتا ضحية . وقد رافق هذا الاضطراب غزو اللاجئين الذين أتوا من سويسرا ووضعوا أنفسهم تحت قيادة جمهوري المالني يدعى شتروف . وكان برنامجهم يتضمن تقسيم ألمانيا إلى ثلاث وعشرين جمهورية متحدة ونادوا بـ « الجمهورية الاجتماعية الألمانية » . وأخضعت الجيوش البادوية والفورتامبرجوازية جيش شتروف . وفي ٣١ تشرين الأول أيضاً نشبت ثورة جديدة في برلين ، واقامت فيها المتاريس كما رفع العلم الأحمر . وفي نيسان ١٨٤٩ بدأت حركة اخطر أيضاً في بروسيا الرينانية ، وفي بداية أيار ، في ساكس ، وفي بالاتينا ، وفي دوقية باد الكبرى . وجرت في هذا الشهر أيضاً محاولة حقيقية لثورة جديدة مع تشكيل حكومة مؤقتة ودامت الحركة شهرين ونصف ، وقمعها الجيوش البروسية بشدة . ولم يكن هذا الارتباط بين القضية العمالية والحركات الثورية حادثاً خاصاً بألمانيا ، بل كانت هذه حال فرنسا أيضاً . وفي ألمانيا ، كما في فرنسا ، كان للحركة الثورية نفس النتيجة وهي تشجيع رد الفعل المحافظ وتبريره .

تنظيم الطبقات . - وخارجاً عن هذا الشكل ، وهذا التعبير الثوري للحركة العمالية ، قامت ، في ألمانيا بخاصة ، محاولة تنظيم الطبقات ، وتمت هذه الحركة خارجاً عن الشيوعيين ، وكان برنامجها يهدف مع ذلك إلى تنظيم الطبقة العاملة . وانخرط الشيوعيون في الأصل ، خلال بعض الوقت ، في صفوف الثوريين . ومن الطبيعي أن تحويل الصناعة الألمانية في ذلك

العهد كان في بدايته ؛ وسينمو في السنوات التالية . وفي الواقع ، وجد ، في ذلك الحين ، عالم مزدوج للعمال ، وأخذ كل واحد منها ينظم نفسه ليدافع بعضهم ضد أرباب العمل ، والآخرون ضد النظام الاقتصادي الجديد الذي يجرهم ، فمن جهة وجد الحرفيون ، ومن جهة أخرى وجد عمال المصانع . ووجدت محاولة التنظيم عند الفريقين معاً .

حركة الحرفيين . - أرسل المندوبون عن الأصناف العمالية في ساكس إلى رفقاتهم في ليبزيغ ، في ٢٢ نيسان ١٨٤٨ ، نداءً للتجمع ضد المبدأ : « آت من فرنسا ، أي مبدأ حرية المشروع . » وانهقد مؤتمر تحضيري في هامبورغ ، من ٢ إلى ٦ حزيران ، يماثل ، في هذا المضمار ، المؤتمر التحضيري السياسي (الفور. بارلمان) وكانت مهمته تسمية لجنة لتقوم بتحضير نظام لأصحاب الحرف . وهو النظام الذي طوّل به في برلمان فرنكفورت ، وفي الوقت نفسه ، طالب بشجب مبدأ حرية المشروع . وعندما انتهى هذا العمل التحضيري ، انعقد في فرنكفورت « البرلمان الاجتماعي » ودام من ١٥ تموز إلى ١٥ آب وحرر « الميثاق الحرفي » وطالب فيه بتنظيم المهن على أساس الأصناف المهنية الاجبارية ، وتحديد عدد المعلمين والعمال ، وحذف المشاغل (الورشات) العامة ، وتدابير أخرى هدفها تعزيز التنظيم النقابي . وعرض البرلمان الاجتماعي هذا « الميثاق الحرفي » على برلمان فرنكفورت .

حركة عمال المصانع . - وفي الوقت نفسه نظم عمال المصانع أنفسهم : ففي ١٩ نيسان انعقدت « اللجنة المركزية للعمال » في برلين ، حيث تأسست جريدة للعمال تدعى « الجريدة الاجتماعية السياسية » ، ونظمت . « برلمان العمال » الذي انعقد في برلين من ٢٣ آب إلى ٣ ايلول . وهذا البرلمان العمالي هيئة وبرنامجا . وتتألف الهيئة من فرق بعضها فوق

بعض على درجات ، وعلى رأسها لجنة مركزية ومجلس سنوي ؛ ويتضمن البرنامج عدة مطالب اجتماعية : يوم العمل عشر ساعات ، ضمان الأجور ، إلغاء عمل الأولاد في المعامل ، التعليم الشعبي ، إعادة تنظيم المشاغل (الورشات) الخ وكما فعل الحرفيون ، عقد عمال المصانع مؤتمراً في فرنكفورت ، في شهر آب وفي شهر ايلول ، ووجد في هذا المؤتمر ، إلى جانب الألمان ، فينوازيون (من فينا) ، وهونغاريون ، وبوهيميون ، وغيرهم . وجهد فريق الحرفيين وفريق عمال المصانع ، أثناء دورة برلمان فرنكفورت ، في دفع المجلس على التصويت لصالح كل منها على اصلاحات اجتماعية .

وهكذا نرى أن عالم العمال ، الذي وجد نفسه مبعداً عن التمثيل السياسي بسبب شروط التصويت وبسبب التركيب البرجوازي للمجلس ، قد وجد بنفسه شكلاً للتمثيل الخاص ، دون أن يتوصل ، في الواقع ، إلى نتائج جدية .

الثورات المحلية . وإلى جانب هذه الحركة العمالية قامت حركة الثورات المحلية ، والتحول الليبرالي في كل دولة المانية . ولم يتفق تطور الدول دوماً مع تطور القضية الاجتماعية . وإذا أردنا الوقوف على هذه الثورة في مختلف الدول الألمانية ؛ فلا نخرج منها . غير أن الجدير بالملاحظة في مختلف برلمانات المانيا هو تشكل كل أنواع الأحزاب التي نجدها في جميع مجالس العصر السياسية ، والنزاع العادي بين الأحزاب . ومع ذلك كان الانقسام السياسي في المانيا يتعقد أحياناً بأوضاع خاصة حيال القضية القومية ، وذلك لأن النزعات المحلية ما زالت ، في الواقع ، حية ونشطة جداً في المانيا ، حتى ان الحكومات المحلية ، في الغالب كانت تلعب بهذه النزعات لتعارض تجاوزات حكومة فرنكفورت . وبصورة عامة ،

كانت مرتبطة بعناصر يمينية ، ولكن ليس دائماً ؛ وكان لها ، في أكثر الوقت ، جذور عميقة جداً في الجماهير الشعبية . كتب الدوق اوفنست دوساكس - كوبورغ في مذكراته : « حقاً لقد كانت فكرة الوحدة أقوى في الدوائر الحكومية منها في كتلة الشعب الكبرى » . والمراد من الدوائر الحكومية هنا ، هو الجهاز السياسي . ولندكر على سبيل المثال أن نعمة الشعب البروسي كانت بخاصة أكثر حذراً وخوفاً من نعمة الملك نفسه ، وقد وجد اليمين السياسي في هذه النقطة بالذات قوة عظيمة . وكان على معظم الحكومات أن تقبل بتقسيم السلطة مع المجالس ، ولم تستطع التخلص من رقابة الرأي وضغطه على الأقل قبل أن تظفر حكومة النمسا ، من جانبها ، على دولها وتقوي رد الفعل العام في ألمانيا .

الحركة الليبرالية في بروسيا . - وفي بروسيا ، وهي الدولة الكبرى والوحيدة التي يمكن أن نتكلم عنها ، كانت الليبرالية في البدء أنشط فيها وأطغى من أي بلد آخر في ألمانيا ، ولكن الحكومة اخمدتها وحذفتها بسرعة . إن المجلس التأسيسي البروسي ، الذي منحه الملك ، اقتنع في برلين في ٢٢ أيار ؛ وكان يتألف بخاصة من أناس من الطبقة الوسطى ؛ وصرعان ما سيطرت عليه عناصر اليسار والوسط الأيسر ، وكان برنامجهم يتضمن سيادة الشعب ومجلساً وحيداً ، وحكومة برلمانية . وانطلق هذا المجلس البروسي في مناقشات حادة سياسية ، بينما كانت لجانه الخاصة تحضر الدستور لعرضه على المجلس . وقد رافقت هذه المناقشات الحادة ، كما رأينا قبل قليل ، اضطرابات ثورية في الخارج ، وكانت نتيجتها ضعف الوزارات الليبرالية التي سميت عقب الثورة : من ذلك ان البرلمان حذف وزارتين متواليتين ، أو اضطرتا إلى مغادرة السلطة أمام معارضته . وعندما بدأت مناقشة الدستور ، اعتباراً من ١٢ تشرين الأول ١٨٤٨ ، أخذ المجلس

يصوت على قرارات مبدأ من شأنها تهديم نظام بروسيا التقليدي القديم ، وبخاصة الجيش ، وأراد تطهيره ، وحذف حق الملك الالهي ، والغى القاب النبيل ، وباختصار ، كسر كل ما كان يؤلف أساس بروسيا القديمة . ومن غير المفيد أن نقول انه أثار بذلك معارضة العناصر التقليدية اليمينية والملك نفسه .

رد الفعل الرجعي . - ومنذ شهر أيار بدأت تتشكل قوى اليمين وقوى رد الفعل الرجعية . وتتألف من نبلاء الأرياف الذين يعتمدون على الفلاحين وعلى المدن الصغيرة . وكانوا ماهرين في تقليد المنظمات الليبرالية وتشكيل جمعيات محلية ، والاعتماد على الأرياف بصراحة تاركين المدن . وكانت لهم جرائدهم ، وبخاصة « جريدة الصليب » وهي جريدة لوثرية . أرادوا ارجاع تقليد الدولة البروسية ، واستطاعوا أن يستولوا على الملك ، الذي أقام في بوتسدام ولم يرجع إلى برلين إلا نادراً . وحصلوا منه ، في بادئ الأمر ، على تسمية الجنرال فوانجل قائداً أعلى للجيش ، وكان يقود الجيوش في الدوقيات الدانماركية ، ثم حصلوا على تشكيل وزارة محافظة معتدلة يوجهها الجنرال فون بفول ، في ١٣ ايلول . ثم حل محل هذه الوزارة ، في ٢ تشرين الثاني ، وزارة يمينية بصراحة ، يوجهها عم الملك ، الجنرال فون براندبورغ ، وهو رجل قوي الشكيمة . وكان من نتيجة الاضطرابات الاجتماعية أيضاً أن عطفت البورجوازية نحو صفوف اليمين : وهكذا ، بعد مشادة ٣١ تشرين الأول ١٨٤٨ ، نقل براندبورغ المجلس الوطني إلى مدينة براندبورغ ولما لم يشأ النواب ، أو على الأقل ، قسم منهم الخضوع إلى هذا النقل ، فرقم بقوة الجيش ، في ١٥ تشرين الثاني .

تاريخ الحركات القومية (٢١)

موقف الملك الرجعي . - ولما رأى الملك نفسه مدعوماً باليمين وبهذه الوزارة القوية قام بانقلاب . ، في ٥ كانون الأول ١٨٤٨ ، وأعلن حل المجلس وأذاع دستوراً منحه بنفسه ، وكان هذا الدستور تقليداً للدستور البلجيكي الذي كانت ، في ذلك الحين ، أكثر الدساتير الملكية حرية في أوربة . ويعترف هذا الدستور للبروسيين بكل الحريات السياسية العادية : حرية الصحافة ، العبادة ، الاجتماع ، الخ . ويقر التصويت العام ، ويحول البرلمان مبادأة القوانين ، وينظمه بمجلسين : المجلس الأعلى ويتألف ثلثه من أعضاء يسميهم الملك ، والثلثان الآخران يسميان بالتصويت العام الضريبي . والسلطة الملكية مطبوعة بأصل الدستور نفسه الذي كان في جوهره ملكياً وغير صادر عن الشعب ، وبحق الرفض الذي خص الملك نفسه به ، باعتبار أنه يستطيع إصدار براءات أثناء العطل البرلمانية ، وأخيراً بالمبدأ الذي أعلن فيه عن دوام الضريبة ، الذي يبعد ، بالتالي ، موارد الدولة عن التقلبات البرلمانية .

وكان دستور ٥ كانون الأول حلاً مقبولاً .. فقد خول البروسيين قطعاً جميع الحريات التي طالبوا بها في البدء . وفي الواقع ، قبلت المعارضة الليبرالية هذا الدستور ، بالرغم من أصله الملكي ، لأنها لم تحتاج مطلقاً على تطبيقه واشتركت بالانتخابات . وقد جرت الانتخابات بهدوء ، في كانون الثاني ١٨٤٩ . واستطاعت الحكومة بهارة أن تجرد المعارضة الراديكالية من سلاحها ، وأن تنهي قرارات الإصلاحات الاجتماعية في وستفاليا وسيايزيا ، وأسفر الانتخاب عن ١٨٤ محافظاً مقابل ١٦٠ مغاضاً ليبرالياً . أما ثلثا المجلس الأعلى اللذان يجب تسميتها بالانتخاب ، فكانا يتألفان من موظفين وأصحاب أطيان مصممين على الدفاع عن مصالح الزراعة وكبار الملاكين . وهكذا انقلب الاتجاه السيامي في البرلمان

البروسي . وهذا ما أعطاه طابعه في التباين الذي أبدته حكمة العالم
السيامي البروسي مع الثورات الديمقراطية التي ظفرت ، في الوقت
نفسه ، في إيطاليا وهونغاريا ، ومع النكسة الثورية التي وقعت في فينّا ،
ومع تجربة الثورة الديمقراطية والاجتماعية في ألمانيا الغربية . أما بروسيا ،
على العكس ، فقد اتجهت نحو حلول معتدلة ومحافظة .

ولكن الملك تشجع أيضاً في موقفه الرجعي ؛ موقف رد الفعل .
وفي الواقع ، كان فريدريك - غليوم الرابع متأثراً بعقائديه الخاصة ،
ومحيطه ، وهو بطانة الضباط النبلاء والاقطاعيين ، ومن الوضع السياسي
الذي اتخذته ، ووضع اليميني وقناعاته وفلسفته السياسية ، وهذا
ما ذهب به إلى تجنب الفرصة التي أتاحت له ، في شهر آذار ١٨٤٩ ،
وهي لبس التاج الامبراطوري الذي قدمه اليه برلمان فرنكفورت ، وأيضاً
إلى التسبب بانحيار الحل القومي ، وإفادة النمسا دون أن يريد

لقد بدا ملك بروسيا وسيلة تستطيع ، في الواقع ، تخلص ألمانيا
من الثورة الاجتماعية . وقد تبرر موقفه عندما بين أن الراديكالية خطر ،
لأن هذه الراديكالية سببت ثورات خطيرة في ألمانيا الغربية ؛ وهذا
ما شجعه على اتخاذ تأمينات ضد بقضة الرأي الليبرالي في بروسيا . وفي
الوقت الذي كانت الثورة الاجتماعية تتوطد فيه على الراين ، في شهر أيار
١٨٤٩ ، اتخذ تأمينات جديدة ضد شعبه ؛ فمن ذلك أن القرار ٢٧
نيسان يصحح التصويت العام بإقامة نظام الطبقات الثلاث . وبوجه وزع
الناخبون إلى ثلاث فئات تدفع جملةً رقماً متساوياً من الضرائب وبشكل
يكون فيه في الطبقة الأولى ، حيث يصطف كبار المكلفين ، أقل عدد
يمكن من الناخبين ؛ وفي الطبقة الثانية ، عدد من الناخبين أكثر مما
في الأولى ، ولكنه أعلى بقليل مما في الثالثة ؛ وأخيراً في الثالثة ، كل

صغار المكلفين من كتلة الناخبين . وكل فئة من هذه الفئات الثلاث تسمي عدداً واحداً من النواب ؛ وهكذا كان هذا الترتيب العائى يحافظ على التصويت العام وفي الوقت نفسه يشجع العناصر الغنية في الشعب .

وانعقد المجلس الثالث ، الذي انتخب بالتصويت العام المصحح ، في ٦ آب ١٨٤٩ . وكانت الأكثرية فيه محافظة ولينة وتساعد الملك في الواقع على ممارسة الحكم الذي يريده ويرثاه . وقد أفاد من ذلك ليصحح بنفسه دستوره الخاص ، وليقرر بعث « الماجورات » ، أو بتعبير آخر إعادة صنع نوع من اقطاعية ، ليختص بحق التشريع ببراءة ملكية ، عندما تقتضي الضرورة ، وليمنع البرلمان من رفض الضريبة ، وأخيراً ليحول المجلس الأعلى إلى مجلس وراثي . وقد وافق المجلس على هذه التغييرات في آخر ١٨٤٩ ، ونشرت على اعتبار أنها نوع من دستور جديد ، في شهر كانون الثاني ١٨٥٠ .

إن القوة التي وجدها الملك في تنظيمه الداخلي حثه على أن يحاول حل القضية القومية لصالحه ، بواسطة الأمراء ، دون البرلمان ، وهذه المحاولة هي محاولة « الاتحاد الضيق » ، التي كانت موجهة بروضى الدستوريين الألمان ودستوريي بروسيا ، ولكن ، بالعكس ، بمعارضة أحزاب اليمين ، وستخفق هذه المحاولة كما سنرى ذلك . وهكذا أصبحت بروسيا ، بواقع الثورة ، دولة دستورية ، ولكنها أنكرت الديمقراطية ، النظام البرلماني ، وولدت نوعاً من نظام هجين ، متوسط بين سلطة الملك الشخصية والتمثيل الوطني .

محاولة الوحدة . - أما الحركة الثالثة ، التنظيم القومي لألمانيا بواسطة برلمان فرنكفورت ، فهي بحاجة إلى دراسة كاملة ، وسنقوم بها فيما بعد .

وكل ما نريده الآن هو أن نضع الأحداث الكبرى لهذا التطور القومي في توقيت الثورة .

لا شك في أن تشكل الوحدة الألمانية مر يبضع مراحل كبرى تجدر ملاحظتها . فقد انعقد البرلمان في ١٧ أيار : وافاد في البادىء من اقليم ملام استثنائي . وقد اذهلت الثورة الحكومات وما من أحد ينازع سلطات برلمان فرنكفورت . وكانت حركة الرأي ، لصالح الفكرة القومية في صيف ١٨٤٨ ، قوية جداً في ألمانيا . وفي الوقت نفسه ، شلت الثورات الداخلية الحكومة النمساوية والحكومة البروسية . وكان بإمكان برلمان فرنكفورت ان يحقق الوحدة الألمانية لو اشتغل بسرعة وافاد من الظروف الملائمة الا ان البرلمان لم يستطع الا في ٢٠ حزيران تسمية نائب الامبراطور ، أي رئيس حكومة كل ألمانيا ، ولم تنظم الوزارة الا في آخر تموز . وعوضاً عن ان يعمل برلمان فرنكفورت بسرعة على تشكيل الوحدة الألمانية ، ضاع في مشاريع لا تتناسب مع قواه ، اما خارجية في سياسة نسميها جامعة جرمانية ، واما داخلية ، في عادة تشريع آلت الى ابعاد الحكومات الداخلية في ألمانيا عنه .

ولم يستطع البرلمان الا في ١٩ تشرين الأول ١٨٤٨ النقاش في الدستور الذي يجب اعطاؤه لألمانيا ، أي بعد خمسة أشهر على انعقاده ، في الجلسة المائة من جلساته . وبدأ بمناقشة الحقوق الأساسية التي انتهت واذيغت في ٢٨ كانون الأول ١٨٤٨ . وفي كانون الثاني ١٨٤٩ كان عليه ان يواجه تنظيم السلطات ، هذه القضية الخطيرة ، لأن كل شيء يتعلق بتنظيم الحكومة المركزية وتعريف ألمانيا التي يراد صنعها ، سواء من الوجهة الأرضية ، أم من الوجهة السياسية . يضاف الى ذلك ان الدور ، الذي ناقش فيه برلمان فرنكفورت الدستور الألماني وحاول فيه تنظيم ألمانيا ،

كانت بالضبط الدور الذي تمسكت فيه بروسيا والنمسا واستعادتا سلطتهما الداخلية وحذفتا ثوراتها الخاصة .

كانت أزمة البرلمان الكبرى ، وبالتالي ، أزمة الوحدة الألمانية ، في شهري آذار - نيسان ١٨٤٩ ، عندما اراد البرلمان تقديم تاج الامبراطور الى فريدريك - غليوم الرابع . ولكن فريدريك - غليوم الرابع في هذا الوقت نظم دوله نهائياً ، وكانت فيه النمسا مشغولة خلال بضعة أشهر ، بسبب الثورة الهونغارية ؛ وان رفض التاج الامبراطوري ، في آخر نيسان ، من قبل ملك بروسيا ، يعني في الواقع ، موت برلمان فرنكفورت . وابتداءً من رفض ملك بروسيا للتاج ، لم يكن عمل البرلمان سوى اطالة حياة في حالة نزاع ، وستنتهي أخيراً ببعثته ، في شتوتغارت ، في ١٨ حزيران ١٨٤٩ . وفي الحقيقة لم يكن لبرلمان فرنكفورت سوى قوة معنوية ، لأن السلطة التنفيذية ظلت في يد مختلف الحكومات . وكان يتوجب عليه بسرعة ، في الأيام الاولى من الثورة ، تنظيم المانيا وتشكيل حكومة قوية ، غير ان الثورة في هذا البرلمان كما في مجموع المانيا ، كانت فرصة لبعث انواع من المنافع والمفاهيم المختلفة المتناحرة . وكان هؤلاء السياسيون الألمان مفكرين وغير أهل للعمل . ولذا افسد برلمان فرنكفورت بنفسه قضيته وخسر الصفقة القومية .

اما المحاولة البروسية في الاتحاد الضيق الذي تابعته في ١٨٤٩ ، وفي بداية ١٨٥٠ ، فبالرغم من ان قسماً من القوميين الألمان دعموها ، فلم يكن لها في الحقيقة الا قيمة مكيدة ، ولم تنجح الا جزئياً ومؤقتاً ، لأن النمسا لم تتخلص بعد من الثورة الهونغارية ولم تكن قوية بصورة كافية لتملي من جديد قانونها على المانيا . وهكذا أفلست في المانيا الفكرة القومية في نطاق اكبر بكثير من النطاق الذي أفلست فيه الفكرة الليبرالية .

٥ - فرنسا والثورة الأوربية

في هذه اللوحة التي أتينا فيها على مجموع ثورة ١٨٤٨ ، نرى عدم ظهور السياسة الفرنسية . وقد يبدو ذلك غريباً ، لأن السياسة الفرنسية أمام ثورة ١٨٤٨ ، كانت قضية موضوعية وهي ان أصل الثورة كان في الأفكار الفرنسية ، وان فرصة هذه الثورة كانت ثورة فرنسية ، ومن الممكن القول ان قضية السلام الأوربي تعتمد على الموقف الذي تتخذه فرنسا حيال الثورات الأوربية . ولقد وضعت هذه القضية من قبل في ١٨٣٠ ، والأحرى ان توضع في ١٨٤٨ ، عندما انفجرت الثورة في كل مكان وأصبحت أعمق بما كانت عليه في ١٨٣٠ ، حيث ظلت قاصرة على بعض الدول . ففي ١٨٣٠ حقق موقف فرنسا استقلال بلجيكا واغريقية ، ويبدو بالتالي أساسياً بالنسبة للسياسة الفرنسية ان تختار موقفها في اوروبا في ١٨٤٨ ، فضلاً عن ان المعارضة الجمهورية كلها ومعارضة اليسار قد أخذتا على لوي - فيليب انه لم يعرف كيف يتزعم الحركة الليبرالية في اوروبا ، وان الرجال السياسيين في هذه المعارضة بالضبط هم الذين أخذوا على لوي-فيليب هذا الحجل ، وهم الذين صعدوا الى السلطة بفضل ثورة ٢٤ شباط ١٨٤٨ .

مبادئ السياسة الفرنسية . - يوجد اذن في فرنسا ، غداة الثورة ، دفع عام نحو سياسة ثورة اوربية ، إن في الأوساط الحكومية ، أو في خارجها : وقد تفوقت الصوفية الثورية ، مثلاً ، عند لودو و دولن ولوي بلان عضوي الحكومة ، وعند كوسيديو ، صاحب الشرطة او عند رجل مثل باربس ، بلانكي ، راسباي . وكان هذا العالم كله يشير بكفاح الشعوب ضد الملوك ، و به اخاء الشعوب . وكانت جميع الاندية تطالب فرنسا بأن تتزعم الثورة الأوربية . وقد كتبت جريدة

« القومي » ، وهي أكثر الجرائد نفوذاً ، في ٢١ آذار معبرة عن أملها بتحقيق قريب للجمهورية الأوربية : « لقد مضى زمن الملوك وحن زمن الديمقراطية » ؛ « وجريدة المناقشات » التي كانت بورجوازية ومحافضة ، شابت ، هي ايضاً ، في ٢٨ آذار ، فكرة الثورة الأوربية . وكان جميع الزعماء السياسيين في ١٨٤٨ مقتنعين بضرورة دور فرنسا العام ، ويعبرون عن ذلك ، وبسذاجة أحياناً ، في الأسباب الموجبة ، في حيثيات قراراتهم : من ذلك ان القرار المؤرخ في ٢٥ شباط ، الذي يلغي عقوبة الموت لأسباب سياسية ، قد سبق بتصريح مبدأ . « ان كل ثورة يقوم بها الشعب الفرنسي تؤدي للعالم تكريس حقيقة فلسفية ايضاً » . وفي القرار ٨ نيسان الذي يعترف ، في فرنسا ، للعمال الأجانب بحقوق بمائلة لحقوق العمال الفرنسيين ، نقرأ هذا : « بالنظر الى ان المبدأ الذي دشته الثورة الظافرة هو مبدأ الاخاء ، فقد كافحنا وغلبنا باسم الانسانية كلها وحسابها » . وانخرط فرنسيون في مختلف الجوقات الأجنبية في اوروبا ، وبخاصة في جوقه هوفينغ الألمانية .

والى جانب هذه العقيدة وهذا الكفاح للأحزاب الحكومية الفرنسية ، نرى ، في الاتجاه نفسه ، ضغط اللاجئيين السياسيين الذين اخذوا يؤلفون مباشرة ، غداة الثورة ، نوادي . مثل نادي المهاجرين الايطاليين ، « نادي الهجرة البولونية » ، « جمعية غروتلي السويسرية » ، « الجمعية الديمقراطية الألمانية في باريس » ، وكانت اعظم الجمعيات ، وقد انتهت رسالتها في ٦ آذار بهذا الصوت : « لتحيى الجمهورية الأوربية » . وأمام التظاهرة التي قاموا بها أمام كويميو وزير العدل ، أجاب « بأن جميع الأمم شقيقات » . ونظم هؤلاء اللاجئون ، لدى الحكومة ، عرائض ، ومظاهرات ،

ومواكب ، واستقبلت الحكومة بالتوالي : البولونيين ، الايرلنديين ،
الابطالين ، الهونغاريين وحتى النورفيجيين . واستقبلهم لامارتين ، عضو
الحكومة المؤقتة ووزير الشؤون الخارجية عام ١٨٤٨ ، وهذا من روعهم
في خطابه ، دون تعهد واضح . وفي الوقت نفسه بذل هؤلاء اللاجئون
جهداً للعمل في بلادهم الخاصة ، مستفيدين من الحرية التي تركها النظام
الفرنسي لهم .

وهكذا اتبعت ثورة ٢٤ شباط بانفجار روح ١٧٩٢ - ١٧٩٣ الذي
أصبح قريب التحقيق .

كان لامارتين في الحكومة المؤقتة ، مكلفاً بخاصة بالشؤون الخارجية .
وكان موقفه في عهد ملكية تموز مسالماً صراحة : ففي العام ١٨٤٠ ، كان
وحده يطالب بالسلام اثناء التحريض على الحرب ، ويعارض الأشعار
الوطنية « بارسيزالسلام » ، ومع ايمانه بالسلام كان يعطف على قضية الشعوب
وحقوق الشعوب ، حتى انه هاجم قبيل الثورة ، من وجهة النظر هذه ،
سياسة غيزو الخارجية في خطاب مؤرخ في ٢٨ تشرين الأول ١٨٤٧
لصالح ايطاليا او في مناقشة الرسالة الموجهة الى الملك ، في ٢٥ كانون
الثاني ١٨٤٨ . ثم اتخذ لامارتين ، في الحال ، باسم الحكومة الفرنسية
موقفاً واضحاً جداً ، في المبادئ وفي الوقائع . وأعلم السفراء ، في
٢٧ شباط ، تسلم الحكومة الجديدة السلطة ببلاغ قال فيه : « ان الشكل
الجمهوري للحكومة الجديدة لا يغير مكانة فرنسا في اوروبا ، ولا استعداداتها
الصادقة والمخلصة في ابقاء علاقاتها في انسجام طيب مع الدول التي تريد ،
مثلها ، استقلال الأمم وسلام العالم . ومن دواعي سعادي أن أبادر بجميع
الوسائل التي هي في سلطتي ، الى اتفاق الشعوب على كرامتها المتبادلة ، وان

أذكر أوربة بأن مبدأ السلام ومبدأ الحرية قد ولدا في يوم واحد في فرنسا . وبعد بضعة أيام ، القى بيلاغ الى سفراء فرنسا في الخارج ، في ٤ آذار ، ونشر في ٥ منه ، بياناً عرض فيه السياسة الخارجية للجمهورية ، وكان هذا البيان يطالب عالياً بحقوق الحكومة الجديدة ، دون ان تكون هذه الحقوق بحاجة الى اعتراف الدول الأخرى بها : « ان فرنسا جمهورية ، وان الجمهورية الفرنسية ليست بحاجة الى الاعتراف بها لتكون موجودة ، انها من حق طبيعي ، انها من حق قومي ، انها ارادة شعب عظيم لا يطلب لقبه الا من نفسه . وهكذا رمع مبدأ الحق العام القديم وهو ان الحكومة لا تكون شرعية الا اذا اعترفت بها الدول الأخرى كافة .

لقد جعل لامارتين السلام هدف سياسة الحكومة الجديدة وقدم الجمهورية دولة منظمة ، لا حادثاً مخلاً بالنظام الاوربي . ولذا فان الجمهورية الفرنسية لا تعارض مبدأ الأنظمة الأخرى . وقد قال ، : « ليست الجمهورية والملكية مبادئ مطلقة ، وخاصة ، بل هما واقعان مختلفان ويمكن ان يعيشا وجهاً لوجه ، متفاهمين محترمين . » ان فرنسا لا تفكر اذن بتهديم الشكل السياسي للحكومات الأخرى . وان حاجات الشعب الفرنسي ، الشعب الذي صنع الثورة ، هي العمل ، التعليم ، الرخاء ، الحضارة بكلمة واحدة . وقال لامارتين : « الشعب والسلام كلمة واحدة ، و لن نحارب فرنسا أحداً . »

ولكن فرنسا كانت أمام أوربة المبنية على مبادئ تغاير مبادئها . فكيف يجب أن يكون سلوكها ؟ ان « معاهدات ١٨١٥ » لا توجد حقاً في نظر الجمهورية الفرنسية . وهذا يعني انكار الأثر الذي خلقه مؤتمر فينا ؛ ولكن لامارتين يضيف : « ومع ذلك ، فان التقسيمات الأرضية لهذه المعاهدات واقع تقبله الجمهورية كأساس وكنقطة انطلاق في علاقاتها مع الأمم الأخرى . » . ويعتبر ، مع ذلك ، ان هذا النظام غير قطعي :

انه واقع يمكن تغييره باتفاق مشترك . وان فرنسا لن تقبل بنفسها اوروبا ، بل تقبلها كما هي ، واذا توجب حدوث تغييرات ، فلن يتم ذلك الا باتفاقات دبلوماسية .

واذا قبلت فرنسا باوروبا كما هي فيوجد بعض نقاط تجد مصلحتها بخاصة محشورة فيها ، وعند مقتضى الحال ، تستطيع أن تخرج من سياسة السلام . ومن الطبيعي أن نحارب في الحالة التي تهددها الدول الأخرى . وأشار لامارتين إلى بعض نقاط خاصة : سويسرا ، دول إيطاليا المستقلة . وبين ان فرنسا ستذهب للدفاع عنها في حالة غزو أو اذا « توزعت بقوة السلاح على حقها بالتحالف فيما بينها لتقوية الوطن الايطالي » ، وفي هذه الحالة « تعتقد الجمهورية ان من حقها أن تسلم نفسها لحماية الحركات الشرعية في غم الشعوب وقوميتها » .

وفي هذا البيان الذي اتينا على تحليله يوجد قسمان ، مبدآن : من جهة ، مبادئ الحق العام الجديد المعتمد على حرية الشعوب : « إن فرنسا تعلن انها حليفة فكرية ومعنوية للأمم التي تريد أن تعيش بنفس المبدأ الذي تعيش به فرنسا . ومن جهة أخرى ، إلى جانب التصريح بهذا المبدأ ، وجد برنامج عملي : وهو أن سياسة الجمهورية هي سياسة سلام ومؤسسة على مبدأ عدم التدخل ؛ وتعين مع ذلك المناطق الأكثر حساسية للمصلحة الفرنسية والتي تستطيع أن تعمل بها . ونرى في هذه النقطة أن الموقف الذي اتخذته لامارتين لا يختلف تماماً عن موقف لوي - فيليب غداة ثورة ١٨٣٠ .

يضاف إلى ذلك أن الظروف الدبلوماسية لا تختلف تماماً عن الظروف التي لاقتها في تموز ١٨٣٠ : كما في ١٨٣٠ ، حاولت الحكومات الأوروبية

أن تعقد ثالياً ، ولكنه ما لبث أن زال بسرعة . غير أن الشيء الذي يلفت النظر هو أن لامارتين لا يفهم أسس السياسة الفرنسية بشكل مختلف تماماً عن الشكل الذي يفهمها به غيزو : ان سياسة لامارتين في السلام تفترض ، كسياسة غيزو ، تعاوناً مع انكلترا ؛ وان أساس السلام الاوربي هو ، بالنسبة للامارتين ، « التفاهم الودي » . وقد أكد ذلك منذ البدء إلى السفير ، اللورد نورمانبي ، وكانت بينهما صلات مجاملة . وفي ٨ أيار ، قال إلى السفير اثناء المحادثة : « اذا كانت انكلترا تعبر بسرعة ، وبشكل يمكن أن يكون عاماً ، عن عواطفها التي تنطق بها اليوم ، فسننقذ هنا جميعاً ونطرح أسس حلف دائم وفريد بين أمتين يجب أن تكونا دوماً صديقتين » . ولم تكن هذه الفكرة فكرة لامارتين وحده ، بل كان يشاركه فيها الأمين العام لوزارة الشؤون الخارجية ، باستيد ، الذي خلفه وزيراً للشؤون الخارجية أثناء تشكيل اللجنة التنفيذية عوضاً عن الحكومة المؤقتة ؛ وقد كتب ، في ٢٤ آب ١٨٤٨ ، إلى السفير الفرنسي في انكلترا ، بومون : « إن الدولتين الاوليين اللتين ستتحدان وستصرحان علماً بأن الهدف الوحيد لتحالفهما هو المحافظة على السلام الضروري للجميع ، ستصنعان قانون أوربي ، وستقدمانها خدمة واسعة . فلتشأ انكلترا ذلك مثلنا ، والنجاح مؤمن » . وأجابت الحكومة الفرنسية الايرلنديين ، الذين جاؤوا يطلبون مساندتها ، في ٣ نيسان ، جواباً مشبطاً لهم ، وصرحت بأنها لن تتدخل ، بأي حال من الأحوال ، في شؤون انكلترا الداخلية . وفي الواقع ، حاول لامارتين ، ومن بعده باستيد ، ان تشترك سياسة فرنسا مع سياسة انكلترا ، أما لأنها تحاولان الحصول على مساندة انكلترا لسياسة فرنسا ، وأما لوضع هذه السياسة في دعم سياسة ما وراء المانش : في قضية الدوقيتين الدانيار كيتين وقضية

إيطاليا الشمالية ، وقضية صقلية ، وقضية الامارتين الدانوبيتين . ومع ذلك فقد حافظت الحكومة الفرنسية على شيء من حرية العمل ، وعلى حق العمل الشخصي ، وظهر اثر ذلك عند الحاجة : فلم تخش أن تتخذ ، في اغريقية ، موقفاً مستقلاً عن السياسة الانكليزية داعمة الاغريق ضد بالمرستون ؛ وكذلك ، في اسبانيا ، في حزيران ١٨٤٨ ، مثلاً عندما خافت الحكومة الاسبانية من الضجة التي مرت بأن انكلترا قد تقوم بعمل ممكن في الآتيل أو في جزر الباليار ، فاجاب لامارتين السفير بأن فرنسا لن تبقى لامبالية اذا وقع مشروع انكليزي ، وبخاصة ضد الباليار ، وستساعد اسبانيا في الحفاظ على حقوقها .

هذه هي مبادئ السياسة الفرنسية كما عرفها لامارتين وباستيد . وفضل هذه السياسة هو انها أمنت السلام في اوروبا ، لأن فرنسا منذ عدلت عن تبني سياسة التوسع في اوروبا ، لم يعد السلام في خطر ؛ وحيثما وجدت حروب محلية في اوروبا ، كانت الحكومة الفرنسية تسعى لتهديتها .

سياسة التدخل الفرنسية . - وفي اطار هذه السياسة التي عرفناها وجدت منطقتان قامت فرنسا فيها بمحاولات تدخل خجلى وغير ملحة ، ولكنها كانت تتوقف مباشرة عندما يظهر خطر أي تعقيد ، كما جرى في بولونيا وفي إيطاليا .

التدخل في بولونيا . - لم يذكر لامارتين بولونيا ، في بيان ه آذار ، كمنطقة من المناطق التي تنوي السياسة الفرنسية ان تعمل فيها ، لأنه يرى ان هذا بدعي ويعتبر القضية البولونية قضية فرنسية . وفي ١٩ آذار اجاب في هذا المعنى وفداً من بولونيا ، وترك أعضائه يؤملون بمساندة فرنسا ، مع الدلالة على أن فرنسا تحتفظ بالعمل في الساعة التي تراها ، وفي الشكل الذي تتطلبه مصلحتها . ولم يعمل لامارتين شيئاً لصالح بولونيا النمساوية

وبولونيا الروسية . ولكنه سيعمل من أجل بولونيا البروسية فقط . وبالأجمال وقف على صعيد المبادئ . وفي بداية آذار ، أرسل بلاغاً إلى العمال الفرنسيين لدى البلاطات الثلاثة : البروسي والنمساوي والروسي صرح فيه : « ان الشرط الأول للسلام هو بعث بولونيا » . ودون تعيير بولونيا « يبقى كل شيء قلقاً ، وخاطئاً ، وكريهاً ، ومزروعاً بالعقبات والحروب والفخاخ » . ولم يقبل ، حل القضية البولونية ، الا بتسوية سلمية ، بالطريق الدبلوماسي . وفي التعليقات التي أرسلها إلى القائم بالأعمال الفرنسي في فرنكفورت ، دوسالينياك - فينيون ، في ١٥ آذار ، أكد ارادة فرنسا في السلام في القضية البولونية . وأضاف في ١٩ آذار بأن فرنسا « لن تسمح بأي عمل عدوان وعنف ضد الدول الجرمانية » ويعتبر بأن لاسلام حقيقياً في أوربه ما لم تعمر بولونيا ؛ ولكنه لا يقبل أيضاً بتسوية ثورية للقضية البولونية ، ولا يرى الا حلاً واحداً بطريق العلاقات الدبلوماسية ، الحل السلمي .

وعندما قامت الثورة في بولونيا ابدت بروسيا ، في الاصل ، ارادة طيبة ، وأفاد لامارتين من هذه النقطة وحاول العمل . وتشكلت لجان بولونية في برلين وفي المدن الألمانية الهامة . واطلقت الحكومة البروسية صراح ميرو سلاوسكي واستقبل استقبال الظافرين في برلين في ٢٠ آذار . وكان جميع المفكرين الألمان لصالح بولونيا ، وصرح البرلمان التحضيري (الفور بارلمان) بأن تقسيم بولونيا ظلم يجب اصلاحه . وحاول لامارتين أن يفيد من هذه الاستعدادات الطيبة للحصول على فوائد للبولونيين في القسم البروسي ، على الأقل ، وأرسل إلى برلين آدولف دوسيركوف واتصل هذا بوزير الشؤون الخارجية ، فون آرنيم ، فصرح له بأن القضية البولونية مبدأ عادل ، وانها مبدأ الحكومة البروسية ؛ حتى ان فون

ارنيم تصور ترتيباً سياسياً عظيماً ، حلفاً فرنسياً - بروسياً يمكن أن يجارب روسيا ، ومن هذه الحرب يخرج في آن واحد استقلال بولونيا والوحدة الألمانية . ورفضت الحكومة الفرنسية هذا العرض ، ولكنها دفعت بروسيا في سياسة العطف على البولونيين . وفي بداية نيسان ، أرسلت الحكومة البروسية حاكماً لدوقية بوزن ، الجنرال فيلليزن ، وكان في صالح البولونيين وتعاهم مع زعمائهم على تشكيل فرق مغيرين وسمح لهذه الفرق ، في ٩ نيسان ، باتخاذ الشعار القومي .

ويبدو أن القضية بدأت بالتنفيذ ، ولكن الشحنة القومية ظهرت من جديد بسرعة بين البولونيين والالمان . فقد قامت اللجان البولونية في المدن الألمانية بنشر بيانات كشف فيها عن استعباد الحكومة البروسية للبولونيين في بوسنانيا . وللجواب على هذه اللجان البولونية تشكلت لجان المانية في هذه المنطقة ؛ وفي ٥ نيسان طالبت دانتزيغ بادخالها في الكونفدراسيون الجرمانية . وكان حاكم مدينة بوزن ، الجنرال كولومب ، يكره البولونيين وتفاهم مباشرة مع الدوائر الرجعية في برلين ومع الملك ، من فوق رأس الحاكم فيلليزن . وفي ٢٦ نيسان ، اتخذ فريديريك - غليوم الرابع قراراً ، بحجة تعمير بولونيا ، فصل فيه الدوائر الألمانية عن دوقية بوزن لادخالها في باقي الملكية ؛ وصنع بما تبقى دوقية بولونية كبرى ، وجعل عاصمتها غنيون وكانت تضم ٣٠٠,٠٠٠ نسمة . ومنع هذه الدوقية البولونية الكبرى الاستقلال الذاتي ، والحق في ان تكون لها مدارسها وموظفوها ، وعلمها ؛ ولكن اعادة بولونيا بـ ٣٠٠,٠٠٠ نسمة ضلال مبین . ومع ذلك ، لم تطبق هذه البراءة الملكية . فقد استدعي الجنرال فيلليزن إلى برلين وأرسل مكانه الجنرال فون بفول مفوضاً بصلاحيات واسعة . وفي بداية أيار وطد هذا الجنرال السلطة البروسية تماماً .

وستدخل بوسنانيا بكاملها ، في الآجل القريب ، في الكونفدراسيون الجرمانى .
وعلى هذا لم تؤد نضائح لامارتين إلى شيء ، فضلاً عن أن سيركور
لم يخدمه إلا قليلاً لأنه لا يجب البولونيين وامراته روسية . وكانت ثورة
١٨٤٨ ، في الواقع ، فرصة جديدة لجرمنة بولونيا ، وفرصة لتقدم
جديد للجرمانية في بولونيا ، لأن بوسنانيا دخلت قطعاً في الكونفدراسيون
الجرمانى . وحاول لامارتين ، بعد أن اوقف ميروسلاوسكي من جديد ،
ان يحصل على اطلاق سراحه وارسالة إلى فرنسا وفي ٩ حزيران ، احتج
باستيد على لسان ايمانويل آراغو ضد ما أسماه « تقسيم بولونيا الرابع » ،
أي دمج الدوائر الألمانية دوقية بوزن في جسم الكونفدراسيون الجرمانى .
و تقدم بهذا الاحتجاج ، وهذا يلفت النظر ، باسم معاهدة فيينا ،
التي جعلت من بولونيا موضوعاً لقرار متخذ من كافة الدول الأوربية .
و دام النقاش في هذه النقطة بين الحكومة الفرنسية والحكومة البروسية
عدة أشهر : تقدم باستيد بشكواه ضد القومية الألمانية ، ولكنه ظل
حذراً في احتجاجاته ، خشية أن يشير تهديدات روسيا . وفي ٢٣ تشرين
الأول ، صوت المجلس البروسى ، الذي كانت تحركه أفكار اليسار ،
على قرار يمنح البوسنانيين ضمانات لحقوقهم . وبدأ عندئذ أن كان للبولونيين
ضمان لحرياتهم الداخلية ؛ ولكن البراءة الممحت ، بعد الانقلاب الملكى ،
ودخلت بوسنانيا بكاملها في الكونفدراسيون الجرمانى . وهكذا ظلت
الارادة الفرنسية الطيبة ، كما رأينا ، في حدود حذرة جداً ،
وافلاطونية صرفاً .

التدخل الفرنسى فى ايطاليا . - لقد جعل لامارتين لاطاليا مكاناً
خاصاً فى بيانه . وكانت ايطاليا قضية عزيزة على قلوب الفرنسيين ،
وخاصة على قلب لامارتين : فقد أجاب وفد اللاجئين الإيطاليين فى

باريس ، في ٢٧ آذار ؛ « إن قضيتكم قضيتنا وليست فرنسا وإيطاليا إلا إسمًا واحدًا في عواطفنا المشتركة لتجديد ايطاليا الليبرالي ، اذهبوا وقلوا لها بأن لها أبناء ايضاً في هذه الجهة من جبال الألب ، اذهبوا وقلوا لها ، بانها اذا هوجمت على ترابها أو في روحها ، في حدودها ، أو في حرياتها ، ولم تكف سواعدكم للدفاع عنها ، فلن تقدم اليها الأمانى فحسب ، بل اننا نقدم اليها سيف فرنسا ليصونها من كل غزو . »
وعندما أعلن الملك شارل - ألبر الحرب على النمسا ، طلب لامارتين من الحكومة أن تقرر، في ٢٩ آذار ، تشكيل « جيش الألب » من ٦٠.٠٠٠ رجل وجعله على أتم الاستعداد ، في شهر نيسان ، لنجدة ايطاليا .

ولكن البيمونت أبعدت هذه النجدة الفرنسية ، كما ردت الهجوم المفاجيء الذي قام به اللاجئون الايطاليون على شامبيري من ٣٠ آذار إلى ٤ نيسان .
لقد كانت البيمونت تكره الجمهورية والأفكار الجمهورية ، واندفعت بتأثير انكلترا التي كانت تخشى أن ترى فرنسا والنفوذ الفرنسي يعظمان في ايطاليا الشمالية . وأخيراً كان الايطاليون مقتنعين بتفوق قوام على قوى النمساويين ، ولم تقبل كبرياؤهم بالنجدة . وفي ١٠ آذار جعل شارل - آلبر « بسرور عظيم تعاليم الحكومة الفرنسية السلمية ، ورغبها في عدم القيام بدعاية ، وتركها النمو المعنوي والفكري لنظم الشعوب المجاورة يعمل عمله تدريجياً » . وهذا يعني القول بأنه يتمسك حرفياً بتصرجات فرنسا في عدم التدخل . وفي النداء الذي ألقاه على شعب بيمونت لاعلان الحرب على النمسا ، حمد الله « أن جعل ايطاليا في حالة تعمل وحدها » .
وفي ٢٨ آذار أوضح وزيره في باريس إلى لامارتين عن قلقه من زيارة الاسطول الفرنسي لجنوه ؛ وبعد ثلاثة أيام ، في ٣١ آذار ، كشف تاريخ الحركات القومية (٢٢)

العامل الفرنسي في تورينو ، بيكسيو ، في رسالة لوزيره ، عن الحذر الذي تثيره الأفكار الجمهورية في ييمونت ، وأضاف ، متكلماً عن وزير الشؤون الخارجية في حكومة تورينو : « إن جيش راديتسكي يخيفه أقل من وجود جيوش الجمهورية على نهر الفار الذي أعلنت عنه الصحف » . وفي ٧ نيسان ، طالبت اليمونت بعبارات تكاد تكون مهذبة ، بإبعاد الجيش . وفي ٢٠ نيسان ، كتب بيكسيو : « إن الايطاليين لا يريدون نجدة » ، ولا يريدونها حتى في وقت فيه يستحقون . وقال : « إن كل تدخل يثير ضد فرنسا كرهاً لا يهدأ ، كره ايطاليا » . وإذا دخلت الجيوش الفرنسية ييمونت ، حتى ولو لنجدتها ، فإن حصون الألب ستطلق النار ضدها ، ولن يتأمن تموين الجيوش .

وتعاضم خمس اليمونتيين بانتصارات الحملة في البدء . وفي ٢٢ أيار أرسل الميلانيون ، الذين تحرروا ، إلى لامارتين رسالة يطالبون فيها بإيقاف انخراط المتطوعين الفرنسيين في الجيش لصالحهم لأنهم لا يريدون أن يتهموا بأنهم طلبوا النجدة من الأجنبي . ودام هذا الموقف الى النهاية ، وبعد أن استأنف راديتسكي الحرب ، حتى منتصف تموز . وهكذا لم تقبل ييمونت بأي حركة من فرنسا لصالحها ، تدعمها في موقفها هذا انكلترا . وكانت معادية لكل تدخل فرنسي ، وأبعدت إرادة فرنسا الطيبة . وفي المضمار الوحيد الذي كانت السياسة الفرنسية فيه مستعدة للعمل ، وجدت نفسها مكتوفة الأيدي برفض محييا أنفسهم .

ومن الطبيعي أن يتغير هذا الموقف بعد كوستوزا ، في ٢٥ تموز . ففي ٢٨ استنجد اللومبارديون بفرنسا ، وفي ٢٩ منه ، اليمونتيون ، وأودع طلب النجدة رسمياً في باريس في ٣ و ٤ آب . وجرت محاولة لجر فرنسا إلى الحرب ، بعد أن أبعدت نجدتها حتى الآن . وفي ٢٢

تموز ، طلبت حكومة بيمونت من الحكومة الفرنسية أن تبعث اليها
بجنرال ، وطلبت بخاصة الجنرال بوجو ، وحاولت ، بشكل عام ، أن
ترجع الفرنسيين في القضية لتضطرم إلى التدخل . ولكن الحكومة الفرنسية
كانت على علم بعواطف الايطاليين الحقيقية وباطماع البيمونتين الذين
لا يريدون الوحدة الايطالية ، بل يريدون توسع بيمونت في ايطاليا
الشمالية . ومن جهة أخرى ، أرادت الحكومة الفرنسية أن تبقى في
السياسة السلمية ، واقترحت على انكلترا ، في بداية آب ، وساطة مشتركة
بين النمسا وبيمونت مستفيدة من أن النمسا ، قبل النصر ، قدمت
بنفسها عروضاً مصالحة وفي الحقيقة ، ان النمسا ، في ٢٣ و ٢٤ أيار ،
عرضت أن تتخلى عن لومبارديا ، وتجعل منها دولة منفردة ، حتى انها
قبلت أن تتنازل عنها إلى بيمونت ، لتشكل مع البندقية دولة مستقلة
ذاتياً ولها نظام بمائل لنظام هونغاريا وعلى هذه الأسس ، باستثناء
المقترحات النمساوية السابقة ، اقترحت فرنسا وانكلترا ، في ٨ آب ،
وساطتهما . ولكنها جاءت متأخرتين قليلاً ، لأن البيمونت وقعت ، في ٩
منه ، مع النمساويين هدنة أكثر خسارة من أسس المقترحات الفرنسية -
الانكليزية .

وهذه الوساطة ، التي قبلت مبدئياً من المتحاربين ، اصطدمت بصعوبات
مختلفة : من جهة ، بسياسة النمسا المتطرفة ، التي رأت نفسها منتصرة
فحاولت أن تكسب الوقت بعد أن عرفت أن الزمن يعمل لصالحها ،
وفي أثناء ذلك أخذت تعزز قواها ؛ ومن جهة أخرى اصطدمت بسياسة
البيمونتين المستاءة والطائشة ؛ لأن البيمونتين ، وإن غلبوا ، كانوا يرون
أن الوساطة لا يمكن أن تؤدي إلا إلى استقلال اقليم لومبارديا والبندقية .
ونحس الرأي البيمونتي شيئاً فشيئاً لمعاودة الحرب ، ولم يقبل بالهدنة إلا

كهدنة مؤقتة . هذا فضلاً عن أن شارل آلبيز ، من جانبه ، ظل مستمراً في شكوكه التي لا يمكن التغلب عليها بالسياسة الفرنسية . ولم تثمر الوساطة حتى في الوقت الذي استأنف فيه اليمونتيون أنفسهم العمليات العسكرية .

وهنا أيضاً ، ظلت الحكومة الفرنسية أمينة على سياستها السلمية ، ولكنها جعلت مكاناً خاصاً لاطاليا . وفي الواقع ، منعت عداء النمسا ضد البندقية ، وعارضت دبلوماسياً العمليات ضد المدينة ، وأرسلت سفينتين حربيّتين إلى البحر الادرياتيكي لتمنع النمساويين من حصار البندقية . وهددت النمسا تهديدات جريئة إذا ما جاءت وتجاوزت خط نهر الآذا : وقالت إن فرنسا تتدخل عند الحاجة بالسلاح ، لدعم ييمونت المهاجمة على أرضها (٢٩ آب) . حتى إن باستيد تكلم بأثرة دعاية أكثر ثملاً إذا كان ذلك ضرورياً (٤ ايلول) . وكانت الحكومة الفرنسية ، مع تصريحاتها هذه إلى النمسا ، تعدد نصائحها إلى اليمونت بالحدّز . ولم تفل في ذلك كثيراً ، لأن برقيات (رسائل) باستيد وبرقيات القائمين بالأعمال في ايطاليا تدل على مدى أطاح ييمونت بالخطرة ، وضعف حكومتها . فمن ذلك أن بيكسيو دل في برقية على أن استدعاء المتطوعين لم يثر كبير حماسة ، وحتى في ييمونت ، وذلك لأنه لم يكن ، في تورينو ، إلا أربع وأربعون متطوعاً ، وفي جنوة ثلاث وعشرون . ولذلك تمسكت فرنسا بالشروط التي تصورتها ، وهي إعطاء لومبارديا والبندقية دستوراً حراً ، وإن اليمونت تستطيع أن تعوض خسارتها ، عند مقتضى الحال ، وإذا كان ضرورياً ، على حساب دوقتي بارما ومودينا .

وكما قلنا لقد استأنفت اليمونت بجنون العمليات العسكرية ، ولكن

هذه العمليات كانت شؤماً عليها ، وكذلك معركة نوفارو التي دمغت اليمونت بهزيمة قطعية . وتدخل السفير الفرنسي لدى النمساويين ، وحصل على إيقاف العمليات مباشرة دون أن يحتاج النمسا أراضى اليمونت ، مقابل احتلال حصن الاسكندرية وغرامة تحدد فيما بعد وتدفعها اليمونت . ولم تكن سياسة الأمير - الرئيس لوي نابليون ، عندما خلفت حكومته اللجنة التنفيذية في فرنسا ، لتختلف عن سياسة لامارتين وباستيد ، أي أنها كانت مطبوعة بمجاملة خاصة لاطاليا ، وقد ثبط اليمونتيون أنفسهم همة هذه المجاملة . ونرى في هذا المضمار ، الذي هو أقصى ما حاولته فرنسا ، أن التدخل الفرنسي لم يكن بعيداً .

سياسة فرنسا العامة - . وفي السياسة العامة ، خارجاً عن هذين البلدين ، بولونيا واطاليا ، بقيت فرنسا متحفظة ، وحاولت في جميع الميادين ، ألا تعمل وحدها ، بل أن تشرك سياستها مع السياسة الانكليزية ، وعندما لا تريد السياسة الانكليزية أن تعمل ، لا تعمل شيئاً ، كما هي الحالة في جنوب - شرقي أوربة ، حيث لا نرى أي عمل للحكومة الفرنسية حيال النمسا والحركات القومية التي تفجرت في النمسا ، وبخاصة في هونغاريا . لقد بقيت معادية للنمسا ذاتها ، ولحكومتها الرجعية ، ولكنها لم تعمل شيئاً لصالح القوميات التي ثارت عليها ، وظلت متمسكة بسياسة الجمود هذه ، آخذة بعين الاعتبار انكلترا وروسيا اللتين كانت سياستها ملائمة للنمسا ولم تشأ فرنسا أن تستاءا منهما . لقد حاولت أن تنساق في سياسة من شأنها دعم الامبراطورية العثمانية واسداء النصع لها ، وفي صالح روماني الأفلاق والبغدان ؛ وأرادت أن ينصح السلطان بسياسة الإصلاحات لصالح المسيحيين ، لاجتناب تدخل روسيا ، ولكن بالمرستون ،

في هذه النقطة ، كان حذراً جداً ولم يخاطر بالحرب أو بتعقيدات مع روسيا . وبالرغم من أن الثوريين الذين حاولوا القيام بعمل في الأفلاق قد أتوا من باريس ، فإن الحكومة الفرنسية لم تعمل شيئاً في هذه الأمانة ، كما لم تعمل في النمسا .

العمل الفرنسي في الدوقيتين الدانماركيتين . . وفي قضية الدوقيتين اشترك العمل الفرنسي والانكليزي : لقد اندفع البروسيون مباشرة لنجدة هولشتاين عندما أعلنت تشكيلها دولة منفردة ، ودخل الجيش البروسي هولشتاين ، تحت قيادة الجنرال فرانجل ، في ٤ نيسان ، عندما ادخل الديباط الألماني شلزيغ في الكونفدراسيون الجرمانى . وقهرت الجيوش البروسية الدانماركيين ، وفي أول أيار ، بدأت الجيوش البروسية باجتياح جوتلاند . وباتجاه معاكس ، قهر الاسطول الدانماركي السفن البروسية . احتجت فرنسا مباشرة في فرنكفورت ، في ٨ حزيران ، باسم الحق العام لصالح الدانمارك ، وفي برلين في ٢٩ حزيران . وذكرت الحكومة الفرنسية في احتجاجها ضد التدخل الألماني في الدوقيتين ، في ٨ حزيران ، بشرعية حقوق الدانمارك وقالت : « إن الشلفيك اقليم دانماركي ، هذا أمر لا نزاع فيه ، ، وارتفع احتجاجها لصالح « الحق والعدل الجريجين » . وقالت ان العاطفة التي تحمل المانيا على تشكل ذاتها على مبدأ الوحدة القومية كان ولا شك مشروعاً ، ولكن يجب الا يدفع هذا الاتجاه حتى الاغتصاب ، وأشارت الحكومة الفرنسية في احتجاجها ، في ٢٩ حزيران ، إلى أن البروسيين يجازفون بآثاره تدخل روسي ، ولامت الحكومة البروسية ، التي كانت تتجه في ذلك الحين نحو الليبرالية والديموقراطية ، على دعمها الارستقراطية المتعصبة لحزبيتها في هولشتاين ضد ملك الدانمارك ، الذي يعتبر من أكثر ملوك أوربة ليبرالية .

وتذاكرت الحكومة الفرنسية ، في الوقت نفسه ، مع انكلترا ، لنجدة الدانمارك ؛ وانضمت إلى انكلترا والسويد للقيام بمساع تؤدي إلى هدنة بين البروسيين والدانماركيين في ٢ تموز ، ثم انضمت إلى انكلترا وروسيا للقيام ، في برلين ، بمساع تضطر البروسيين إلى قبول هدنة مالمو نهائياً في ٢٦ آب . وحتى النهاية ، أي حتى تسوية ١٨٥٢ ، حافظت الحكومة الفرنسية على سياسة الاشتراك مع انكلترا وروسيا لحماية الدانمارك من الأطماع البروسية والألمانية . وهكذا دافعت عن حقوق الدانمارك ضد المطالب الألمانية ، بالرغم من أن هذه المطالب تستند على حقوق القومية ، أي على مبدأ من مبادئ الحكومة الفرنسية .

الموقف الفرنسي حيال ألمانيا . - وأخيراً ما هو الموقف الذي اتخذته الحكومة الفرنسية حيال الثورة الألمانية ؟ لم يبق شيء في العواطف الفرنسية من الانفعال الذي كان يلاحظ في أزمة ١٨٤٠ : لقد زالت عواطف المرارة ضد ألمانيا ، وكانت فرنسا ، منذ الأصل ، تؤكد بعدها عن المنفعة . وفي بلاغ ه آذار ، أعربت عن نواياها السلمية وانكارها لأي مشاركة مع اللاجئين الألمان المنخرطين في جوقه هوفينغ ، واتخذت ، بعد اخفاق هذه المحاولة ، احتياطاتها دون عودتها : وبعثت على الأرض الفرنسية اللاجئين الألمان ، أو أعادتهم إلى أوطانهم في ألمانيا . وأكدت بانها تنظر نظرة طيبة إلى تحويل ألمانيا ، وإن عاملها في ألمانيا ينظرون نظرتها الطيبة إلى هذا التحويل نحو الوحدة ، وبخاصة إيمانويل آراغو ، الذي كان يمثل فرنسا في برلين : حتى أنه كان يود آراغو أن يوعد البروسيون ، عند الحاجة ، بمساندة فرنسا ضد الروس . وفي ٨ حزيران ، كانت الحكومة الفرنسية تتصور أيضاً أن مبدأ « تحالف وثيق بين فرنسا

وانكلترا ، شيء أساسي . وهذا ما كتبه باستيد إلى سافوي العامل الفرنسي في فرنكفورت .

ولكن الحكومة الفرنسية ، فيما عدا قضية الدوقيتين والحبة التي منيت بها في القضية البولونية ، في صيف ١٨٤٨ ، أصبحت حيال المانيا ، أكثر كتماناً ومواربة ، عندما رأت موقف برلمان فرنكفورت وسياسة القومية والجامعة الجرمانية . وفي ٣١ تموز ، أوضح باستيد ، في رسالة إلى السفير ، عن قلقه من هذا الشكل الذي تأخذه المانيا ، وخوفه من أن يرى تشكل دولة المانية مخيفة لجيرانها أكثر مما كانت المانيا في السابق؛ وخاف من أن يرى تشكل « دولة من أربعين مليون نسمة » . ولم يقبل في ٢٤ آب أن يستقبل كشخص رسمي رسول الارشيدوق جان ، نائب الامبراطورية ، ممثلاً لألمانيا ، خارجاً عن تمثيل مختلف الدول الألمانية الموجودة من قبل . ودعم بروسيا في معارضتها لبرلمان فرنكفورت ، وفي الوقت نفسه ، في معارضتها للنمسا . وكتب باستيد في ٧ تشرين الأول ١٨٤٨ : « إن حليفنا الطبيعي في المانيا ، هو بروسيا ، لأن بروسيا ، في ذلك العصر ، كانت تعارض توحيد ألمانيا . وهكذا فان السياسة الفرنسية التي كانت في الأصل ، محبذة ، اتخذت بسرعة موقفاً متحفظاً حذراً .

ووقف لوي - نابليون الموقف نفسه ، ولم يشجع المشاريع البروسية ، وابتعد عرض التحالف الذي قدمته الحكومة البروسية على لسان الوزير رادوفيتز ، في ١٢ تشرين الأول ١٨٥٠ . ولكنها لم تدعم النمسا ايضاً ، بل احتجت عندما اراد شفارتز انبرغ ان يدخل النمسا كلها في كونفدراسيون المانيا ، في صيف ١٨٥٠ ، ومن ثم من جديد ، في آذان ١٨٥١ ، وطلب من روسيا ان تضغط على النمسا لتتخلى عن هذا القصد . وهكذا تراجعت فرنسا أمام النتائج التي قد يجريها تطبيق مبدأ القوميات ، الذي

تعلقت به ، ونرى بشكل عام ، ان فرنسا ، في ١٨٤٨ والسنة التالية ، لم تتدخل لدعم الحركة القومية في اوروبا كلها ، الا في بعض الحالات الاستثنائية جداً .

تفسير التناقض الفرنسي - كيف يوضع هذا التناقض ؟ لاشك ، ان السياسة الفرنسية ، منذ أيام حزيران ، أصبحت أكثر محافظة . ان العائق الثوري الذي كان يثقل عليها قد رفع ابتداء من ذلك العهد ، كذلك جنب دفع الأجانب للحكومة الفرنسية . ولكن السياسة الفرنسية ، في الخارج ، لم تكن مقيدة بعناصر من هذا النوع ، باعتبارات المحافظة ، لأن الجهاز ظل على حالة كما في البداية ، وظل يعطف دوماً على مبدأ القوميات وحق الشعوب في ان تحكم نفسها بنفسها . وهذه القناعة كانت نفسها موجودة عند الامارتين ، وعند باستيد ، وعند توكوفيل ، الذي كان اول وزير للشؤون الخارجية في عهد رئاسة لوي - نابليون ، وعند لوي - نابليون نفسه . ولم يكن هؤلاء الاشخاص افكاراً خجلى ، واذا لم يتدخلوا لصالح القوميات الأوروبية ، فلم يكن ذلك منهم بدافع روح المحافظة .

ولم يكن عدم تدخلهم بسائق عجز مادي : فقد كان الجو خالياً أمام فرنسا لسلوك سياسة تدخل في اوروبا ؛ وحتى صيف ١٨٤٨ ، لم تلق أي خصم يمكن في حكومات اوروبا الوسطى ، لأن النمسا لم تبدأ باستتوجاع قوتها الا في صيف ١٨٤٨ . ومن ثم لم نجد السياسة الفرنسية أمامها أي خصم جدي : لأن اوروبا الوسطى ، ظلت ، في الواقع ، مفتتة زمنياً طويلاً ، وعزلاء من السلاح تماماً . ولم يكن في اوروبا غير روسيا يمكن ان تؤلف قوة . وعلى هذا فان العوائق المادية لاتوضح حذر الحكومة الفرنسية أو جمودها . ، وفي الواقع ، ان التفسير الحقيقي لهذا الجمود وهذا الحذر ، هو ان فرنسا لاحظت انها لاتفهم مبدأ القوميات بالشكل الذي تفهمه

اوربة . لقد ظهرت القومية ، في ايطاليا ، وفرنسا وهونغاريا ، ارادة قوة ؛ وفهمت على انها قومية جنس ، وحقاً أسمى في ان تشمل في بلد واحد جميع اخوة اللغة والجنس . . . غير ان الحكومات الفرنسية ردت نظرية القومية المبنية على الجنس ، ولم تقبل بأن تهدم الحقوق المشروعة كما عرفها التاريخ ، كحق الدانمارك الشرعي في دوقيتها ، أو حق بولونيا في اجزاء دوقية بوزن المأهولة بالألمان ، حتى ان الحكومة الفرنسية قالت : « يجب الا يدفع حق القومية حتى الاغتصاب . وان جميع البلاد ، التي يوجد فيها شعب من جنس الماني ، غير تابعة ، بهذا وحده ، الى المانيا » .

وأضافت : ان هذا مبدأ خطر ، ويمكن ان ينقلب على المانيا نفسها : « ان هذه الروح في القومية الجرمانية ، بظهورها على هذا النحو بظهر الاجتياح ، لن يكون منها ، في قلب المانيا بالذات ، الا تمجيد وتعزيز عاطفة القوميات الأخرى ، وقد تنزع الى تقسيم المانيا عوضاً عن توحيدها » .

وذكرت ، على سبيل المثال ، حال بوهيميا ، وانتهت في بلاغ ٨ حزيران ١٨٤٨ بقولها : ان كل هذا يبرهن على عدم وجوب المبالغة في شيء ، وان الواجب يقتضي ان نكون عادلين قبل كل شيء » .

ونجد في ١٦ حزيران ، في رسالة من باستيد الى السفير الفرنسي في فرنكفورت ، تعبيراً آخر بنفس الفكرة : « ليس عندنا ، اكرر ذلك ، الا عواطف ودية لألمانيا . اننا نود مخلصين من كل قلبنا ان نرى اتحاداً وثيقاً يتوطد بينها وبين فرنسا . ولكن فرنسا لا تعتبر الا المانيا وحدها ؛ وان سياستها يجب الا تكون جرمانية بخاصة ، فضلاً عن ان المانيا ، تبدو لنا ، في هذا الحين ، انها تستسلم لأهواء خطيرة عليها » . وكتب ، في ٢٧ حزيران ، الى ايمانوئيل آراغو : « لا يسعنا ، من وجهة النظر القومية ،

ان نقول ان الشلزيغ المانية ، لأن اللغة الألمانية دخلت اليها ، ولأنه يوجد فيها على وجه التقريب ١٢٥٠٠٠ نسمة ، من ٣٥٠٠٠٠ نسمة مجموع السكان ، يتكلمون هذه اللغة في القسم الجنوبي من الدوقية وكذلك يتكلم باللغة الألمانية في الالزاس ، واللورين ، وفي سويسرا ، وفي كورلاند وفي ليفونيا : فهل هذا سيكون سبباً في ان تشاء المانيا دمج الالزاس واللورين والكانتونات الألمانية في سويسرا ، والكورلاند ، وليفونيا في جسمها ؟ ان مثل هذا المبدأ يؤدي بكل بساطة الى اللامعقول .

ومكذا نرى ان ما حاولته فرنسا ، عندما تدخلت لصالح الحركات القومية في اوروبا ، هو الا تفصلها الى بلاد مستقلة ، بل ان تسعى لمنحها الاستقلال الذاتي والحريات وضمن هذه الحريات : هذا ما حاولته في سبيل البولونيين واللومبارديين والبنادقة والرومانين والصقليين . وان ماتراه الحكومة الفرنسية أساسياً هو حرية الشعوب ورخاؤها وليس التحديد بمحدود . ان ماتريده هو ان يعطى لهذه الشعوب استقلال ذاتي قومي جوهرى يحترم حقها في الثقافة ، وشخصيتها المعنوية ، لان تقسم الى بلاد حسب هذا الزعم العرقي او ذاك . انها تلح على النظم الحرة اكثر مما تلح على التبعية للدولة . وتعتبر ان المهم هو النظام السياسي للدول اكثر من تعريف الدول . ان القومية تبقى ، بالنسبة لفرنسا ، حقاً في استقلال الحياة الروحية ، وحقاً في ممارسة الحريات السياسية . وان فرنسا تجد نفسها غريبة وخائفة . أمام المفهوم الجنسي للقومية الذي ظهر في اوروبا الوسطى . انها لاتعرف في ذلك فلسفتها . ولا تشجع هذا المفهوم . هذا هو السبب العميق لتراجع فرنسا أمام النتائج التي ولدتها الثورة في كل مكان تقريباً ، ولسيستها في التخلي عن كل كفاح في صالح القوميات .

هذه هي التجربة الاولى التي يمكن بها ان تنفصل القومية والحرية عن بعضها بعد تلاحم، ويمكن بها ان تكون الواحدة خصماً للأخرى . وهنا يكمن تفسير موقف فرنسا . وفي هذا المعنى تبدو لنا تجربة ثورة ١٨٤٨ كتصفية لعقائدية لم توضع حتى الآن موضع نقاش ، وضرورة لمعاودة البحث في قضية القوميات على أساس آخر . وهذا ما سيجري في وقائع اوروبا بعد ١٨٤٨ .

★ ★ ★

الفضل السابع

الحركة القومية في إيطاليا وفي الامبراطورية النمساوية

تختلف الحركات القومية الإيطالية ، والسلافية والهونغارية بعضها عن بعض، ولتاريخها نتيجة وهي إظهار فردياتها واختلافاتها . ومع هذا يجب جمعها ، لأن معظم هذه الحركات قامت في بلاد كانت تحت سيطرة النمسا، ولأن سير هذه الحركات كان تابعاً للثورة التي قامت في فينا وللتطورات الليبرالية التي حدثت فيها . ولقد رأينا الارتباط الموجود بينها ، ونريد الآن أن ندرس كلاً منها دراسة خاصة على حدة .

١ — جهود إيطاليا نحو الوحدة

تضامن الثورات . - إن الحركة التي بدأت عام ١٨٤٧ وانطلقت في بداية ١٨٤٨ كانت موجهة نحو الحرية السياسية لانحو القومية . ولكن وحدة الثورات اوجدت تضامناً فيما بينها : لقد نشبت الحركة ، كما رأينا ، في آن واحد : في إيطاليا الوسطى ، وروما ، وتوسكانا ، والمملكة اللومباردية - البندقية ، والييمونت . وأصبحت الحركة الليبرالية قومية باعتبارها كانت مناوئة للنمسا . وان قساوة القمع الذي قام به النمساويون في ميلانو ، وبخاصة مذابح ٢ و ٣ كانون الثاني ، والاعتقالات التي جرت

في البندقية ؛ ومن جهة أخرى ، ان احتلال الجيوش النمساوية فراره في ١٣ آب ١٨٤٧ ، والجلء الذي حصلت عليه فرنسا في ٢٣ كانون الأول ، كان لها في كل مكان نتيجة مزدوجة وهي : ان حوادث ميلانو أحدثت رعشة في إيطاليا كلها . وان الاصلاحات الليبرالية التي أجراها البابا بيوس التاسع ، والهجوم على دول البابا في فراره ، إن كل هذا بلور حوله تطلعات ايطاليا وظهر آتئذ بطل الحرية الايطالية ضد النمسا ، وحتى في لومبارديا . ولقد وجه ماتزيني زعيم الحركة الوحدوية الجمهورية ، إلى البابا بيوس التاسع ، في ٨ كانون الأول ١٨٤٧ ، رسالة مؤثرة وقال فيها : « وحدوا إيطاليا ، وطنكم ، واجمعوا حولكم أفضل ممثلي الحزب القومي . ولا تشحدوا تحالف الامراء ، وتعلقوا بكسب تحالف شعبكم ... الوحدة الايطالية شيء إلهي ، وستكون بكم أو بدونكم » ، وقدم للبابا مساندة الحزب الجمهوري الايطالي كله . وأعطى للجمعيات السرية كلمة الأمر في الانضمام علناً للبابا ودفعه في الطريق الليبرالية والقومية ، وأراد أن يجعل من البابا زعيم حملة الكفاح ضد النمسا . وفي الحريف ، أخذت المظاهرات لصالح الوحدة أهمية متزايدة ، وحتى في روما . وكانت كلمات الأمر التي تسري في الشعب الصراخ القديم في العصر الوسيط : « اخرجوا أيها الألمان ! » أو « ليحيى الاستقلال » . وانشد نشيد مارسيز ايطالي ، الف حديثاً . ورفعت الألوان الثلاثة : الأخضر ، والابيض ، والأحمر ، في شهر شباط . وفي اليمونت نشر دازيليو رسالة في « مصائب لومبارديا » . واضطر الملك أمام الاضطراب ، ان يبدل الوزارة ويعطي رئاسة مجلس الوزراء إلى بالبو . وفي المنطقة اللومباردية - البندقية ، بالرغم من حالة الأحكام العرفية ، بدأ الناس

يتهيئون علناً للثورة . وفي البندقية ، وضع جانباً المال المخصص لعيد
المساخر ليصرف لضحايا ميلانو . وفي ميلانو ، كان الشعب جزءاً ،
حتى ان الزعماء البورجوازيين في المدينة اعلّموا تورينو بانهم عاجزون
وايس باستطاعتهم أن يمنعوا المناداة بالجمهورية . وكانت الجيوش النمساوية
في ايطاليا الشمالية موضع شك . لأنها كانت تضم على وجه التقريب
نصف جنودها من الايطاليين . وتظاهر طلاب بادوا وبافيا ، ولكن الشرطة
ارهقتهم ونكلت بهم . واستطاع ماتزيني أن يكتب إلى غيزو بأن
المعتدلين لا يوجدون في ايطاليا : « لا يوجد إلا حزب واحد في ايطاليا ،
الحزب القومي ، وهكذا اجبرت الحركة الملوك على توسيع اصلاحاتهم ،
وفي الوقت نفسه ، أخذ التنظيم العام يرتسم .

وفي الواقع ، افتتحت مفاوضات لتشكيل عصبة ايطاليا الوسطى ضد
النمسا ، بناء على اقتراح البابا ، بعد ضربة القوة على قصادة فراره ، وأرسل
البابا دبلوماسياً إلى تورينو وإلى فلورنسه ليقترح اتحاداً جرمياً ، ارضاءً
للحزب القومي ، وفي ذلك ما يعطي الدول قوة لمقاومة النمسا . فقبلت
فلورنسا ، وترددت تورينو وبدأت مقاومة . وكانت الأوساط الاقتصادية
معادية للذوبان الجمركي مع ايطاليا الوسطى . ورأى شارل آلير أن الحالة
أخذت تتغير فرأى أن يخلف النمسا في ايطاليا الشمالية ، واقترح ، في
جوابه ، تحويل مشروع الاتحاد الجمركي إلى عصبة دفاعية ، ضد النمسا
وضد الدفع الليبرالي معاً . ووضع بعض الشروط لقبوله . وكان على
العصبة أن تعين الامتيازات التي يجب منحها لها ، وان تبادر للنجدة بشكل
متبادل دون طلب من الخارج ، للحفاظ على الهدوء العام . وحالت هذه
الاعتراضات التي أبدتها اليموننت دون تحقيق المشروع ، ولم يتوصل الا

إلى تشكيل اتفاقية جمركية بين روما ، وتوسكانا والبيمونت ، في ٣ تشرين الثاني ١٨٤٧ ، وانضم إلى هذه الاتفاقية دوق مودينا الأكبر ، في ١٥ كانون الأول . ومن السهل أن نرى ، حالياً على الأقل ، منذ بداية هذا التنظيم الايطالي ، بأنه يوجد سوء تفاهل بين البابا وملك البيمونت من جهة ، وبين البابا الحركة القومية من جهة أخرى . وقد قال بيوس التاسع إلى وصيف له : « لا أريد أن أفعل ما يريد ما تريبي ، ولا أريد أن أفعل ما يريد جيوريني » .

حركة ميلانو . - زاد تأثير ثورة باريس الاضطراب في كل مكان تقريباً . وسجل ظفر الفكرة الدستورية في نابولي ، وروما ، وفلورنسا والبيمونت . وعبر عنه في بادئ الأمر ، عند عدم القدرة عن التعبير عنه بشكل آخر ، بحركة عامة ضد اليسوعيين الذين اعتبروا أدوات للنفوذ النمساوي والرجسي في إيطاليا كلها . وأثارت أخبار ثورة ١٣ آذار في فيينا حركة الاستقلال في المملكة اللومباردية - البندقية . واصلت الامتيازات التي تنازل عنها الامبراطور لشعبه ، في ميلانو ، في ١٨ آذار صباحاً ، وقد علم الخبر بها في ١٧ منه مساءً . وتذاكر المعارضون في الليل . وصحب المتظاهرون القاضي الأول ، كازاتي ، إلى القصر البلدي وطلبوا من الحاكم تشكيل حرس أهلي . ولكن الشعب ثار ، على صوت محامي الشعب كاتانيو ، وهاجم الجيوش النمساوية في المدينة بالآجر والحجارة وبأنواع القذائف ؛ ونظمت المتاريس وتسليح الشعب جهد استطاعته ، ووقف في بداية الخمسة أيام الأولى من القتال أمام ٢٠.٠٠٠ رجل من رجال راديتسكي ، الذي أخذت تنضب قواه بسبب نقص التموين . واثارت أعصاب جنوده من اجراس المدينة المجلجلة دون

توقف ، فاستسلمت ؛ وانسحب راديتسكي من ميلانو في ٢٢ آذار بعد أن ضرب المدينة بالقنابل . ويجدر بنا أن نسجل مميزات هذه الحركة بقولنا : انها حركة شعبية رفضت كل تسوية مع النمساويين ، وكل هدنة طلبها راديتسكي في ٢٠ آذار . وقد امتدت الحركة إلى المدن المجاورة : فقد شوهد أثناء القتال ، أن الجيران كانوا يتوافدون من مونتزا ، وكومو ، وبرغام . ومنذ بداية الثورة ، ارسلت البعث إلى تورينو لاعلام شارل - البير ، رغماً عن رغبة الديمقراطيين وكاتانيو ، وهذا يدل على وجود حزين في الشعب . ويجب أن نشير الى ان جيوش راديتسكي ظلت منظمة أمام هذه الحركة الايطالية ، وان الكروااتين والبوهيميين والموارفين ، في هذه الجيوش ، كانوا يحاربون ، بحماسة كالنمساويين ، ضد ثورة الشعب الميلاني .

حركة البندقية . - وكانت حوادث البندقية مشابهة تقريباً ، وأقل عنفاً ودماً : خلص الشعب مانين وتومازيو من سجنهما في ١٧ منه ، عندما انتشر خبر حوادث فينا . وأراد مانين أن يلهم الشعب مستنجداً بالتقاليد القديمة المعروفة في الجمهورية البندقية ، وأعلن عودة جمهورية القديس - مرقس . وكان الحادث الحاسم ، عندما رفع مانين صوته ، تخلى العمال والجنود الايطاليين في ترسانة البندقية ومخازن الاسطول . ولم يحارب النمساويون هنا كما في ميلانو بل انهم تفاوضوا مع الثوار وانصرفوا . وكانت جماهير الشعب تطرد النمساويين من الأراضي البندقية أو أن الجنود الايطاليين كانوا يتخلون عن الجيش النمساوي في جنوة واودين ، وتريفيز ، عدا مدينتين حافظتا على حاميتهما وهما فيرونه وفنيانو

حركة لومبارديا . - وفي لومبارديا حدثت حركة مشابهة وانتشرت بسرعة ، واضطرت الحاميات النمساوية في كومو ومونتزا وبرغام إلى الاستسلام ؛ وتأخى الجنود الايطاليون مع الثائرين في كريمون وبريشا . وأخيراً شكوا الجيليون تاريخ الحركات القومية م (٢٣)

السلاح في جميع الاجزاء الجبلية من البلاد ، من كادوره حتى فالتيلين . ولم يحتفظ راديتسكي قطعاً الا بمانتو، وفيرونه و بكشيرا وليغنانو أي الحصون الاربعة الموجودة في منطقة الشكل الرباعي الحصينة ، وترانت في وادي نهر الآديج . امتداد الحركة في ايطاليا . - وخارجاً عن المنطقة اللومباردية - البندقية ، امتدت الحركة في ايطاليا كلها : اجبر شعب بارما الدوق على مشايعة العصبة الايطالية ، ثم طرده . وفي بليزانس ومودينا ، اضطرت الحاميات النمساوية الى الفرار وذهب الدوقان معها ؛ وفي فلورنسا ، ذهب ثمانمائة متطوع بسرعة الى الشمال وانساق الدوق الاكبر بالحركة ، وصرح قائلاً : « لقد دقت ساعة بعث ايطاليا ، وفي القصادات الحربية ، في بولونيا ، فر متطوعون وانخرطوا في الجيش ، لتشكيل جيوش ، مع الفارين النمساويين ، تحت قيادة الزعيم الليبرالي ، زوكشي . وكذلك وصل متطوعون من اومبريا ووديان الآبنين . وبلغ المجموع كله ١٢٠٠٠ رجل تقريباً . وكذلك زحف متطوعون من نابولي واتجهوا نحو الشمال .

موقف ييمونت . - ولكن الموقف الأساسي كان موقف اليمونت : لأن نجاح الحركة كله منوط بها فماذا تفعل ؟ في اليمونت تابع الشعب الحركة حالاً : ففي ١٩ كانت الطرق المؤدية للومبارديا مليئة بالمتطوعين الذين ذهبوا للقتال مع اللومبارديين . وفي المدن طلب البورجوازيون الانخراط في الجيش ؛ وفي تورينو ، قامت المظاهرات المدنية والعسكرية . ونادى كافور في جريدته « البعث » بالحرب بقوله : « الحرب ، الحرب دون تأخير ! » ولو ان شارل البير زحف سريعاً على ميلانو لاستطاع فتح المدينة فجأة دون صعوبة : ولكنه تردد . كانت يخشى الجمهورية في ميلانو ، ومن ميلانو ، دعايتها نحو دوله . وانتظر ان يناديه بورجوازيو ميلانو ، وان يكون مطمئناً من عدم المساعدة بالجمهورية ، ليقرر .

وفي ٢٢ منه اطمأن ، عندما انتهى القتال . غير ان حركة الرأي في دولته كانت عامة وكان من الصعب عليه ان يقاوم : وقال : « ان الشعب كله لا يمكن ان يرغب شيئاً سيئاً » . وأخيراً ، حزم أمره : ففي ٢٣ أي بعد يومين على انتصار الميلانيين ، وأمام اندفاع الجمهور ، الذي جاء متظاهراً ، للخبر الظافر عن نجاح الميلانيين ، ظهر في الشرفة ، ودون أن يقول كلمة ، حرك منديلاً مثلث الألوان . وفي اليوم التالي ، في ٢٤ ، القى بنداؤه الى اللومبارديين : وعدهم بدعمه الدعم الذي ينتظره الأخ من أخيه والصديق من صديقه ، ، ووعد بهذا الدعم « باسم الله والبابا » . ولكنه ، من وراء ستار ، اعلم النمسا وانكسرت ، بأنه تدخل ، ليمنع الحركة الجمهورية في اللومبارديا . وفي ٢٥ ، عبرت الجيوش اليموننية نهر التيسان ، الحد الفاصل بين اللومبارديا والبيموننت . ومن هنا نرى ، في الأصل ، وجود وراثية فكرية في تدخل شارل البير .

ان المهم في هذه الحركة القومية الايطالية ، في اصلها ، هو انها اجماعية حقاً : لقد وجد في هذه الحركة اناس ، من جميع طبقات الشعب ، اتحدوا جميعاً ، وبخاصة البورجوازية والشعب بالطبع : وجد طلاب وعمال ، وحتى اطفال انخرطوا فيها متطوعين ؛ حتى ان المبتدئين في المدارس الكهنوتية أخذوا يمارسون تداول الأسلحة . وأهاب الكهان بالاغنياء الى الاكتتاب ، فاعطوا ، في كل مكان تقريباً ، ذهبهم وجواهرهم : ففي بولونيا ، تحمست فتاة لخطاب خوري فقدمت شعرها للقضية القومية وكان الاخلاقيون ينهون الشعب الايطالي الى لزوم انتفاضة قوة واخلاق بغية تجديد ايطاليا ، حتى ان راديتسكي نفسه شده من سعة الحركة وقال : حقاً لقد تحول المزاج الايطالي بمعجزة .

وهكذا اشتعلت ايطاليا كلها بلهب العاطفة القومية بشكل اوسع

وأعقّب بما يتصور . وكانت الحركة غريزية دون ان يتضح هدفها السيامي ويصبح واعياً . بيد أن هذه الحركة الجميلة ماعتمت ان انخرفت بعد أن تحولت الحالة بسرعة بحادث مزدوج عسكري وسيامي .

الحادث العسكري . - وهو عدم القدرة التي ابداهها الايطاليون ، بالرغم من الوضع الملائم بشكل غريب ، لأن جيش راديتسكي الذي فر من ميلانو كان منهوك القوى ، وامتد على الطرق بشكل شريط طوله سبعة وعشرون كيلو متراً ، وكان من السهل الامساك به وقطعه ، بل الوصول الى مانتو قبل جيش راديتسكي ومنعه من التجمع ولكن الميلانيين ، الذين برهنوا على هذه الشجاعة خلال الأيام الاولى من القتال في المدينة ، بدا انهم لم يهتموا بمتابعة الحوادث ، ولا بلاحقة راديتسكي ؛ وانطلق بضع مئات من المتطوعين فقط في ملاحقة النمساويين . وربما كان زعماء الحركة الميلانية يخشون من عنف الجمهوريين في المدينة وفي جوارها ، او ربما كانوا يفكرون ببساطة ان على البيمونت الآن ان تتدخل ، ومن الممكن القاء المسؤولية على عاتقها . أما شارل - البير فقد بدا غير كفؤ وبطيئاً : فقد قضت الجيوش البيمونتية تسعة أيام في الذهاب من التيسان الى كريمون ، وخمسة أيام ايضاً لبلوغ نهر المينسيو . وفي ٨ نيسان ، وصلت الجيوش النهر ولم تلق خصوماً بعد . وأخذت مدينة كواتو ، وبذا أصبح عبور النهر ممكناً ؛ ولكن الجيش لم يمر بتمامه الى الضفة اليسرى لنهر المينسيو الا في ١١ نيسان . وكان شارل - البير يقود الجيش بنفسه ، وأخذ الهامه عن راهبة ملهمة على ما يبدو . وكان زعماء الجيش البيمونتي ضعافاً . ولم يكن لدى الجيش مصلحة لوازم ولا مصلحة صحة . وفي هذه الاثناء ، جمع راديتسكي حوله جنوده المنهكين ، وركن في الحصون الأربعة ، وامسك بخط نهر الآديج وبه كان يتصل مع فينا بواسطة الجنرال فيلدن . وانتهى بأن جمع حوله

٦٠٠٠٠ رجل من جميع قوميات الامبراطورية ، ولكنهم كانوا مقيدون بنظام حازم ، ولم يفلت منهم أحد . وهاجم شارل - البير فيرونه ، في ٦ أيار ، دون جدوى . اما المتطوعون ، الذين اقبلوا من باقي ايطاليا ، فكانوا على غاية من الاختلاف في المهنة والعمر ، وبالتالي ، كانوا قليلي النفع من الوجهة العسكرية . وكان جيش الألب ، أي جيش الجبلين والمتطوعين الذين يقبضون على الجبل ، يتألف من ٤٠٠٠ رجل تقريباً ، أتوا من ميلانو وجنوة وبارما ، ووصلوا حتى بحيرة غارذ . ولكن الجنرال فيلدن ردهم على اعقابهم في ٢٠ نيسان . ولم يتأثر شارل - البير لاختفاق هؤلاء الجمهوريين ، وأمرهم أن ينسحبوا الى بريشيا لينخرطوا في القطعات اللومباردية التي ستشكل . وفي الجنوب ، امام مانتو ، وقف ١٢٠٠٠ متطوع من توسكانا ، وناپولي ، ومودينا . وفي البندقية تجمع ٣٠٠٠٠ روماني وبنديقي وفساويين هاريين ، وتجمدت هذه الجنود المتطوعة في مكانها ، وفقدت نشاطها بسرعة ، وكان اخفاق البيموننتيين في فيرونه اول عنصر في فقد المعنويات وتثييط الهمم .

الحادث السياسي . - اما لحادث الثاني ، السياسي ، فكان في تخلي الحكومات تدريجياً عن الحركة . وبسرعة ظهرت الاعتبارات السياسية واستيقظت الاطماع : اطماع نابولي في انقونة ، اطماع روما في روفينغو ، اطماع توسكانا في لونيغليانا . وكانت مفاهيم الوطنيين مختلفة جداً ومتشابكة : فمنهم الماتزليون أي الوجدويون الجمهوريون في بعض المدن ؛ وانصار وحدة ايطاليا الملكية ، أما في ظل دوق توسكانا الاكبر ، وأما في ظل ملك البيمونث . ولكن هؤلاء الوجدويين ، بالاجمال ، من جمهوريين او ملكيين ، كانوا اقلية . ومع ذلك فقد وجد اناس يعملون لتشكيل ملكة ايطاليا الكبرى في الشمال على الأقل ، ويسمون الالبرتين ، أي انصار شارل - البير ، وكانوا نشيطين في دوقية مودينا ودوقية بارما ، وكانت كل منها دون أمير ،

لأن الدوقين ذهبا مع الحاميات النمساوية . وكان الألبيرتيون يعملون في بلاد أخرى : فمن ذلك ان برشيه كان يعمل في فلورنسا ، وماميانى في روما ، وسبافانتا في نابولي . ولا يعلم كثيراً لأي حد كان هؤلاء المبعوثون على اتفاق مع شارل البير ، ولكن حركتهم ، على أي حال ، ايقظت حذر سادة هذه الدول الايطالية . وانفصل سيدان من هؤلاء السادة عن القضية القومية ، وهما البابا وملك نابولي .

بيوس التاسع . - كان بيوس التاسع مرتبكاً : ولا شك في انه كان اميراً ، وهذه الصفة ، كان يشارك في تطلعات سائر البلاد ، ولكنه كان حبراً ايضاً ، أي أباً لجميع المسيحيين ، مساويين وايطاليين ، وملزماً بالطبع بالدعوة الى السلام ، ولذا حاول حلاً سلمياً . ففي ٢٨ آذار ، القى بندا دعافيه جميع سادة ايطاليا الى الاجتماع في مؤتمر يعقد في روما لدراسة نظام يمكن لايطاليا ، وأخرج مشروعه في العصبة الايطالية الذي عرضه في السنة السابقة . ولكن هذه المبادرة اصطدت بعقبة مزدوجة : فقد تنحى عنه رجاله الخاصون ، وعلى رأسهم الجنرال دوراندو ، قائد الجيوش المحتشدة في قصائد الشمال ، ووقف مباشرة موقفاً قومياً جداً . وجه ، في ٩ نيسان ، نداء الى جنوده ، وقال لهم فيه : لقد بارك بيوس التاسع سيوفكم المنضمة الى سيوف شارل - البير . وهذه الحرب ، حرب الحضارة ضد البربرية ، ليست ابدأ حرباً قومية ، بل حرباً مسيحية . وفي اليوم التالي انكر بيوس التاسع على الجنرال قوله . وبالرغم من اوامر البابا ، عبر دوراندو وجنوده الحدود ودخلوا منطقة البندقية . اما مشروع العصبة ، فقد أخفق ، بخطأ بيمونت ، رغم مشايعة نابولي وتوسكانا : فقد زعم ملك اليمونت ، في البدء ، بأن لاشيء يمكن دون ملك نابولي ، وعندما اعطى ملك نابولي موافقته ، وجد اسباباً أخرى وقال : بما ان

الحرب بدأت فان القضية العسكرية تفوق كل شيء ، واقترح ، عوضاً عن العصبة العسكرية ، تشكيل حلف هجومي بين الدول الإيطالية ضد النمسا . وهذا يستحيل على البابا ، لأنه لا يستطيع ، بالبداهة ، ان يتزعم حركة حربية . وأخيراً رفض شارل - البير نهائياً العصبة في ١٨ أيار . وفي الدور نفسه كان من طبيعة غير الحركة الثورية في روما ان تقلق البابا . ولهذا الأسباب ، نرى ان بيوس التاسع ، في خطاب القاء على الكرادلة ، واعطاه اسم مرسوم ، في ٢٩ نيسان ١٨٤٨ ، شجب الحرب والثورة معاً ؟ واحتج على ذلك من يريدون ان يرأس الحزب الروماني تشكيل جمهورية جديدة من جميع شعوب إيطاليا . وبعد بضعة أيام ، في ٣ أيار ، كتب رسالة الى امبراطور النمسا وطلب منه ان يتخلى طوعاً وكرماً عن إيطاليا الشمالية . وكانت لمرسوم البابا وقع صاعق : فقد سقطت شعبيته دفعة واحدة . وفي الواقع كان الوضع ، الذي اتخذته البابا ، خطيراً بالنسبة للمستقبل ، لأن الحركة القومية ، اذا استمرت ، تعتبر بسبب شجب البابا لها ، داخلية في طرق ثورية مناوئة لروما .

حركة نابولي . - وفي الوقت نفسه ، بدأ ، في نابولي ، رد الفعل السياسي . وكانت الحركة القومية ضعيفة في ملكة نابولي ، وعدمها مطلقاً في صقلية ، التي كانت تتابع ثورتها الانفصالية ونعرتها الاقليمية دون أي عاطفة قومية . وقد اجبر انعقاد البرلمان النابولي الملك على التنازل عن امتيازات . وأعربت وزارة ترويا ، التي تشكلت في اول أيار ، عن الاسهام بالحرب ضد النمسا ، وارسلت ١٦٠٠٠ جندياً نظامياً تحت قيادة الجنرال غليوم بيبييه ، وهو زعيم سابق لثورة ١٨٢٠ ، للالتحاق بجيوش بيمونت . ولكن هذه التنازلات كانت موقته : فقد كان الملك ينتظر الفرصة لايقاف الثورة . حتى انه فزع ، والبرجوازية معه ، من حركة ريفية ثورية

وشيوعية نشبت في جنوب ايطاليا : فقد طالب الفلاحون بتقسيم الأراضي ، وشرعوا في اجراء هذا التقسيم ، ومن ذلك ان كاهناً في سالرنو بشر بالشيوعية وهو على كرسيه . واغتتم الملك فرصة ثورة دون أهمية كبرى ، قامت في نابولي ، في ١٥ أيار ، يوم انعقاد البرلمان ، للقيام بقمع دموي ، وارسل ، في ٢٢ منه ، أمره باستدعاء الجيوش التي ذهبت نحو الشمال ؛ وبلغ الرسول ، الذي يحمل هذا الأمر ، الجنرال بيبه في الوقت الذي وصل فيه الى بولونيا . واراد الجنرال ان يتجاوز الامر ، ولكن لم يتبعه سوى ٢٠٠٠ من رجاله عندما عبر نهر البو . ومنذ الآن فصاعداً نحت نابولي نحواً خاصاً ، وبالتالي لم تعد لتهم بايطاليا القومية ، واذا ماتشكلت ايطاليا القومية فلن تنضم مملكة نابولي اليها .

ان السبب الاكبر في إخفاق الحركة القومية ، هو ، في الحقيقة ، طموح الليمونت . وفي آخر الربيع نرى ان رقعة الحركة القومية قد تقلصت بشكل فريد ، مع أن جميع الحظوظ مازالت مواتية لانتصارها في الحرب القومية ضد النمسا .

خسران الحرب القومية . - ان تخلي البابا وملك نابولي عن القضية القومية كان ، من بعض الوجوه ، حادثاً سعيداً بالنسبة للليمونت ، لأنه لم يبق ، في هذه الظروف ، الا جلال مميكنان : اما الجمهورية التي لم يكن لها الا قليل من الحظ ، واما الليبرتية .

كان الجمهوريون اقلية صغيرة من المفكرين والعمال ، الذين يقبلون بالتأكيد بمشايعة الوحدة الايطالية اذا حققتها الليمونت . وربما كان شارل - البير لا يتصور باخلاص القضية الايطالية ، ولكنه ، على كل حال ، قصر بسرعة جداً فعل الحرب القومية على اطعائه الشخصية الخاصة . كان فردياً دوماً : رفض نجدة المتطوعين السويسريين الذين قدموا أنفسهم له ، وقطع

العلاقات التي فتحها الميلانيون مع الثوار الهونغارين ؛ وكما رأينا ابعد بعناد ارادة فرنسا الطيبة . لقد كان يريد ان يجعل من ايطاليا الشمالية مملكة كبرى ، وسعى لذلك حقاً وصدقاً : ووهبت بارما ومودينا نفسها دون حيلة لليمونت ، غير ان حركة قوية ، حركة قومية انفصالية قامت في رومانيو .

وفي ميلانو وجد حزب جمهوري هام : جاء ماتزيني ليقم في ميلانو في بداية نيسان ، وقبل الجمهوريون أن يضحوا بأنفسهم ، وكل ماطلبوه ببساطة هو أن يربح كل حل قطعي حتى النصر . وقبلت بذلك الحكومة المؤقتة والبورجوازية الميلانية اللتان مازالتا حتى ذلك الحين انفصاليتين وذاتي نعة خاصة . وفي البندقية كانت حالة مانين بمثابة غير أن الأرياف ، في كلا البلدين ، كانت تخشى الجمهورية وساءتها القوة غير الكافية التي أتت بها الحكومة المؤقتة للتأهب للحرب . وهذا ماأفاد الدعاية اليموننتية : انتقل جيورتي الى ميلانو ، موصياً بجل الانضمام الى اليمونت ، وفي ميلانو كانوا يغنون آخر شعره « شارل - آلبيز أو النمسا » . وانتهت هذه الدعاية بأقرار القيام باستفتاء مباشر لتسوية القضية الميلانية . وشارك هذا الاستفتاء بالتصويت ، ووجد مايقارب سبعة صوت معاد الانضمام الى اليمونت . وعلى القارة البندقية ، قررت المدن المعادية للبندقية ، متذكراً ظلها القديم ، الاستفتاء ، وجرى في ؛ حزيران ، في أربعة أقاليم فقط وهي : تريفيز ، بادوا ، فيسانس ، دوفينغو ، لأن الاقاليم الثلاثة الأخرى ، في ذلك الحين ، احتلها النمساويون : كانت الاكثية عظيمة لصالح الانصار مع اللومبارديا ، وبما أن اللومبارديا صوتت على الاتحاد مع اليمونت ، فهذا يؤدي اذن إلى الانصار مع اليمونت . وفي البندقية

الأصلية ، اضطر مانين ان يقبل حل القضية بمجلس . وقد انعقد هذا المجلس في بداية تموز وصوت أيضاً ، بالاجماع تقريباً ، لصالح الليمونت . ووضع الميلانيون والبنادقة شرطاً وهو أن يضع مجلس تأسيسي (جمعية تأسيسية) دستور النظام الجديد . وهكذا اتجه الرأي الى تشكيل مملكة ، وهذا العمل يعتبر مع ذلك مرحلة لها أهميتها في المستقبل .

وفي الواقع لقد تعلق نجاح الحركة بالحوادث العسكرية . ويبدو أن القوة المجتمعة في ايطاليا ، القوى الليموننتية أو قوى المتطوعين ، أو القوى المنظمة كثيراً أو قليلاً والآتية من باقي شبه الجزيرة ، استطاعت بداهة أن تجنب ، في الأصل ، الخطر النمساوي ، لأنها كانت تؤلف قوة عدوية عظيمة ؛ ولكن هذا الجيش كان بطيء التنظيم جداً . ولم يتجمع ، في منطقة ميلانو الا ١٠٠٠٠ جندي ، ومازالوا في حالة تدريب عندما فاجأتهم الهزيمة . أما شارل - آلير فقد أبدى لامبالاة كلية بشأن الأقاليم البندقية ، ويبدو أنه تخلى عنها الى النمسا . وفي الحقيقة ، كان في مفاوضة مع انكلترا التي حملت اليها النمسا ، في آخر شهر أيار ، اقتراحات مصالحة . وفي بداية حزيران ، قبل شارل - آلير ، مبدئياً ، هذه المقترحات وهي : أن تكون الحدود بين النمسا والليمونت على نهر الأدبيج ، وهذا يعني التخلي عن لومبارديا للليمونت ، على أن تبقى البندقية للنمساويين مع الاحتفاظ بنظام الاستقلال الذاتي . قبل شارل - آلير هذه الاقتراحات نهائياً في بداية تموز . وعندما بدأ الريب بهذه المفاوضات وبنيتها في ميلانو ، ثار الرأي وبخاصة ماتزيني ، على هذا الحل . وهكذا فقد شارل - آلير ثقة أبناء قومه به .

ومن جهة أخرى ، نظمت القوى العسكرية النمساوية نفسها وانتصرت

بسرعة . فقد أتاها من فينا نجات من خمسة عشر ألف رجلاً ، نحت قيادة الجنرال نوجانت الذي وصل ايطاليا في الأيام الأولى من شهر حزيران . وقضى بسرعة على الموانع في القارة البندقية واسترجع المدن الواحدة بعد الأخرى . وفي هذا الوقت خرج راديتسكي من حصونه وبجركات جريئة بل وغير حذرة ، فرق شمل التوسكانين والنابوليين الذين ظلوا في جنوب البلاد ، فوق فيسانس ؛ وفرض على الجنرال دوراندو التسليم وبوجهه تعهد الجنرال بالا يقاتل خلال ثلاثة أشهر ، واستعاد راديتسكي فيسانس في ١٠ حزيران ١٨٤٨ . وفي هذا الحين تعلق البيمونتيون بأخذ مدينة بشيرا ، دون نجدة سائر المقاتلين ودون الافادة من المخاطرة الاستراتيجية التي قام بها راديتسكي .

وعندما تجمعت القوى النمساوية ، قوى نوجانت وقوى راديتسكي قام المارشال بالمجوم ، في ٢٣ تموز ، وخرق الخطوط البيمونية في معركة كوستوزا ، في ٢٥ تموز ، ولذا اضطر باقي الجيش البيمونتي الى انسحاب سريع . ونظمت لجنة السلام العام ، في ميلانو ، أمر الدفاع ؛ وانبرى شارل - آلبر ووعده في ٣ آب بالدفاع عن المدينة . ولكن راديتسكي وصل إليها في ٥ منه ، فهرب الملك ، وأجلى قسم من سكان المدينة خلف الجيوش البيمونية ، وفي ٩ منه وقعت هدنة عرفت باسم هدنة سالاسكو باسم الجنرال البيمونتي الذي وقعها . ولم يخسر شارل - آلبر اللومبارديا التي استرجعها راديتسكي فحسب ، بل قبل بالجلء عن الدوقيات وسحب الجيوش التي كانت له في الدولة البندقية . ثم احتلت الجيوش النمساوية فراره ، في ١٤ آب ، واندحر متطوعو غارييلدي في سويسرا . وخسر الايطاليون الحرب

القومية : واذا ما استمرت الحرب ، منذ الآن فصاعداً ، فستأخذ طابع خلاف بين اليمونت والنمسا لطابع حرب قومية .

اخفاق الحركة القومية . - ولكن الثورة لم تنته مع ذلك على الصعيد الليبرالي ، بل ، على العكس ، استمرت واتسعت في روما وفي فلورنسا اللتين انتهتا بالوصول الى الجمهورية ، وقامت في اليمونت ، على حين أن رد الفعل ، بالعكس ، انتصر في نابولي وفي المملكة اللومباردية - البندقية ، وأعيد الدوقان الكبيران الى بارما ومودينا . ولن نقول شيئاً عن هذه الليبرالية ، لأننا نود أن نبقى على صعيد الحركة القومية .

وبينا استمرت الثورات الليبرالية ، فقد أغمى على السراب القومي : لقد زالت كل قوة للتلاحم ، والشيء الوحيد ، الذي بقي ، هو رسم تلك العصبة الايطالية التي اقترحها البابا . لقد جعلها جيورتي قضيته ، فما زال له بعض النفوذ ، ونراه في شهري نيسان وأيار ، ينتقل الى روما حيث قام بالدعاية لصالح الفكرة ونجح ، على ما يبدو ، وحياء السكان . ولكن كان عليه إقناع البابا : فأرسل إليه في شهر تموز الأب روميني ، وكان من أهم اللاهوتيين الاحرار في ايطاليا . عرض روميني على البابا أمر اشتراك اليمونت في العصبة ، بل وحرية الكنيسة اذا أراد الحفاظ على مشروعه . وحاولت توسكانا ، كذلك ، أن يقرر البابا معاودة الفكرة ، مقابل التخلي عن بعض نقاط في التشريع الليوبولدي . وبعد هذه الحركة انكمشت الحكومات وتخلت عن مبدأ العصبة . وعندئذ حاول جيورتي ان يثير حركة في الرأي ليفرضه على الحكومة : عقد ، في ١٠ تشرين الأول ، في تورينو ، مجلساً أسماه « المؤتمر الاتحادي » . وكان يعتمد على حركة موازية في الرأي في دوقية توسكانا ، يدفعها الأستاذ

مونتانييلي ، الذي تقدم بفكرة مجلس تأسيسى ايطالى ، منتخب بالتصويت العام ، او على الأقل ، اذا لم يستطع الامتداد على ايطاليا كلها ، مجلس تأسيسى لاطاليا الوسطى . غير ان جيوريتى نفسه رأى أن هذه الفكرة لا يمكن نجاحها فأبعدها . وفي غضون ذلك قامت ثورات ديموقراطية في روما وفي فلورنسا ، في آخر سنة ١٨٤٨ ، وأدت الى ابعاد البابا والدوق الأكبر ، والى اعلان الجمهورية . ومع ذلك فقد تابع رئيس الحكومة التوسكانية الجمهورية ، غيرازي ، فكرة عصبة ايطاليا الوسطى : وقام بانتخاب المجلس التأسيسى الايطالى ، في الوقت الذي قام فيه انتخاب المجلس التأسيسى التوسكاني ، في ه آذار ؛ ولكن ١/٢ الناخبين اشترك في هذه الانتخابات التي لم يكن لها مثيل في الدول الايطالية الأخرى .

ومكذا سقطت فكرة العصبة الايطالية ، وهي بقية من الفكرة القومية ، أمام لا مبالاة السكان وأمام سوء ظن الأمراء ؛ حتى ان الاتحاد ، الذي اقتصر على دولتين ، الدولة الحبرية والدول التوسكانية ، لم يتم . وستكون هزيمة الوندويين الماتونيين في روما ، على يد الجيوش الفرنسية ، آخر ضربة وجهت الى الحزب القومى الموجود .

وفي الوقت نفسه حدثت الحركات العسكرية . فقد وجدت ، في الواقع ، انتفاضة في ايطاليا الشمالية ، دون امكان تسميتها انتفاضة قومية ، ولكن وجد فيها عنصر تضامن ، لأن اليموننت استأنفت العمليات لنجدة اللومبارديين البائسين الذين سقطوا ضحية الاضطهادات النمساوية . وفي الحقيقة كانت الحركة حركة سياسية بقدر ما هي حركة قومية او اكثر . فقد كانت نتيجة عمل جمهوريين جنوه والديمقراطيين الذين اجبروا شارل-البير على العمل مكرهاً . وكان شارل-البير يرغب بأخذ ثأره ؛ وكانت عنده دوماً

روح فروسية وأراد أن يأتي بها لنجدة اللومبارديين ، وبحث عن أحلاف له في برلين ، في شهر تشرين الثاني ١٨٤٨ ، وفي نابولي في كانون الثاني ١٨٤٩ ، وعرض على ملك نابولي قطعاً من الدولة الحربية . ليجعله يقرر التحالف وبالرغم من النصائح التي أسدتها له كل من فرنسا وانكلترا ، نقض الهدنة ، في ٢٢ آذار ١٨٤٩ وهاجمت جيوشه في ٢٠ منه . ولكن راديتسكي سحقه في نوفارو ، في ٢٤ منه ، وتنازل عن العرش ، بعد المعركة ، لصالح ابنه ، فيكتور - ايمانوئيل الثاني . ولحسن حظ البيمونت ، تدخل بسرعة السفير الفرنسي لدى النمساويين وحصل ، في ٢٦ منه ، على تعليق الحرب ، مقابل احتلال النمساويين لاسكندرية وانسحاب السفن الحربية البيمونية من الادرياتيك .

وبقيت البندقية وحدها تدافع عن علم الحرية الإيطالية ، لأن القصد ليس الآن القومية الإيطالية . ومنذ ١١ آب ١٨٤٨ ، عندما انسحب المفوضون البيمونتيون ، وبعد الهدنة الاولى ، كان مانين ، في الحقيقة ، دكتاتور البندقية ، دكتاتور واقع ، وصرح بأن سلطته ليست الا موقفة ، وكانت البندقية منعزلة فعلاً . فقد اعتبر بالضبط ان هدنة سالاسكو قد جعلتها في حل من الذوبان مع لومبارديا والبيمونت . وكانت تؤمل في فرنسا ، ولكن التدخل العسكري الفرنسي لا يدخل ، كما رأينا ، في مفاهيم الحكومة . وفي شباط ١٨٤٩ ، أمر لوي - نابليون بالتصريح الى البنادقة بأنه لن يحارب لأجلهم . وكل ما حاولت الحكومة الفرنسية الحصول عليه ، على الأقل ، كان استقلال البندقية الذاتي ، كما حاولت ان تمنع مهاجمة المدينة وحصارها بابقاء بعض السفن الحربية في أعماق الادرياتيك . لقد نظمت المدينة عسكرياً على يد الجنرال بيبه الذي التجأ اليها . وكان يعتمد على الدفاع الطبيعي ، الذي شكله الأهوار ، وعلى المؤن العظيمة

التي جمعت في المدينة . ولكن القوة الحقيقية لمقاومة البنادقة كانت قوتهم المعنوية ، والنظام الذي قبلوا معه ضرورات النضال . لقد بقي الشعب بكامله هادئاً ومتضامناً اثناء الحصار . وكانت النداءات تغذي عاطفة المقاومة . فمن ذلك : « ان البندقية طلبت من الكنائس مالها ، ومن النساء حليهن ، ومن الاجراس برونزها ، ومن المطابخ نحاسها ، ومن خراطيش العدو حديدتها ، كل شيء الا ان تكون كرواوية ! » . ولدى سماع خبر نوفارو قرر البنادقة المقاومة ، مها كلف الأمر ، عوضاً عن ان يتركوا انفسهم يقتلون ، وخولوا مانين السلطات الكاملة في سبيل الدفاع ولكن ، في ٢٦ أيار ، أخذ النمساويون آخر حصن بيد البنادقة على القارة وهو حصن مالفيتا . وفي ٣ حزيران بدأت البطاريات النمساوية تقذف المدينة بالقنابل . وانتشر التيفوس والكوليرا في المدينة وتركوا بسرعة اربعة آلاف ميت . وفي ٢٢ آب اضطرت البندقية إلى الاستسلام . ومن الممكن القول بأن البندقية ومانين كانا عظمتين وحيدتين في ايطاليا ، اثناء ثورة ١٨٤٨ . وهكذا اخفقت الحركة القومية الايطالية اخفاقاً ذريعاً . وكانت ، والحق يقال ، حركة استقلال اكثر بما كانت حركة تنظيم قومي . حتى ولم يكن فيها اتحاد ايطالي تصوره الشعب بوضوح . ولم يكن الوندويون الا قبضة ، ولم يتجاوز الالبريتيون فكرة ايطاليا الشمالية التي تضم الدوقيات . ان عناصر سوء الظن السياسي ، واستحكام الاوساط النعرية الخاصة شلت القوة الناجعة الممكنة ، اليموننت ، وتحملت اليموننت نفسها ، في اخفاق هذه الثورة ، مسؤولية ثقيلة . ومع هذا فان اليموننت هي التي ستفيد قطعاً من الحركة . لأن اليموننت ، في ايطاليا التي سقطت ثانية تحت نير رد الفعل ، ظلت البلد الدستوري الوحيد : وقد حافظ فيكتور ايمانويل في الواقع على النظام الاسامي الذي منحه أبوه في العام ١٨٤٨ ، وبقيت

الييمونت الدولة الوحيدة المستقلة من كل نفوذ أجنبي دون سائر الدول الإيطالية . أما فيما عداها فقد كان نفوذ النمسا أو نفوذ فرنسا ، في روما ، مفروضين في الواقع .

غير أن ثورة ١٨٤٨ ، على أي حال ، كانت تجربة لايطاليا ظهرت في بعض النقاط ، وبخاصة ، لقد برهنت على أن ايطاليا غير قادرة على تشكيل نفسها بنفسها كما كانت تعتقد ، وانها غير قادرة على تشكيل وحدتها بقوة الثورة الداخلية وحدها . لقد كانت ، لتشكيل وحدتها ، بحاجة إلى ظروف أخرى دبلوماسية وسياسية ، ولن تتوفر هذه الظروف إلا في العام ١٨٥٩ و ١٨٦٠ .

٢ - قوميات النمسا

كانت ثورة فينا في ١٣ آذار ١٨٤٨ حركة ليبرالية ضربت شكل الحكم المطلق ، وطردت مترونيخ من فينا . وتبدو هذه الثورة حركة سياسية بسيطة جداً ، وبالأجمال ، محلية موضعية . وفي الحقيقة ، ان هذه الثورة ، رغم انها كانت حركة سياسية بسيطة ، كانت أكثر خطورة من ذلك ، لأنها وضعت ، على بساط البحث ، قضية بنية الامبراطورية النمساوية : فعلى ضوء الثورة شوهد أن الدولة لم تكن سوى فسيفساء صنعت من بعض نظم عامة لجميع البلاد في الادارة والجيش والاكليروس . وقد زالت وسائل السلطة ، وبقيت الدولة في الهواء ، دون سند ودون قوة تلاحم ، لأن العنصر ، الذي يعتمد عليه كل شيء ، وهو العاهل ، قد زال . ومن جهة أخرى ، وضعت الثورة ، في الصعيد الأول من المسرح السياسي ، العناصر المقومة في الأمة ، لا في الدولة ، كما هي الحال حتى الآن ، وهنا ظهرت تنوعات واختلافات هذه العناصر ، حتى ان تعابشها بدا غير ملائم .

وهكذا لم تضع ثورة ١٣ آذار المشكلة السياسية العادية في التوفيق بين سلطة الحكومة وحقوق المواطنين فحسب ، وإنما وضعت ايضاً قضية أخرى وهي: كيف يمكن أن تعيش معاً هذه الشعوب المختلفة التي تؤلف الامبراطورية النمساوية . ولقد بينا كيف أن الحكومة النمساوية حاولت ، في عدة مراحل متعاقبة ، إعادة تنظيم الامبراطورية .

من الوجهة الزمنية ، أثارت الحركتان البوهيمية والهونغارية ، اللتان انفجرتا في وقت واحد ، الثورة الليبرالية في فينا . وكانت الحركة الهونغارية أهم من الأخرى بكثير ، ودامت زمناً طويلاً . وقد قامت الحركتان اليوغوسلافية والرومانية منافستين لها أو كرد فعل ضدها ونظراً لامتدادها زمناً طويلاً سندرسها على حدة . والآن نبدأ بدراسة الحركات السلافية .

الحركات السلافية . - كانت الحركات السلافية أعظم تجديد سياسي ، لأن الهونغاريين موجودون منذ زمن طويل من وجهة النظر السياسية ، ولم يكن من الثورة إلا أن عجلت وقوت حركة التلاحم والاستقلال الهونغارية . وعلى عكس ذلك ، كانت الحركات السلافية عناصر جديدة ، وتختلف عن الحركة الهونغارية ، ولم تسع ، على نقيض هذه ، الى تشكيل دول منفصلة ، ولا تفهم خارجاً عن الامبراطورية ، حتى انها ساعدت على تعمير الامبراطورية عندما هددت . ولقد رأينا ذلك في ايطاليا عندما لم تخرج العناصر الكرواتية و الهونغارية على أوامر راديتسكي . وظلت الحركات السلافية موالية ، والتجديد فيها هو أنه في الوقت الذي كانت فيه الحركة حتى ذلك الحين فكرية صرفاً ، أخذت لتنتقل الآن

إلى الصعيد السيامي ولم تطلب ضمانات « ثقافية » ، فحسب ، بل ضمانات سياسية أيضاً .

بوهيميا . - كانت بوهيميا أول من تحرك ، فمذ وصل نبأ الثورة الباريسية ، تحرك التشيكيون . وحتى ذلك الحين ، لم تكن الحركة سياسية ، ولم يكن فيها أحزاب منظمة ، والتجمع الوحيد المستعد للعمل كان يتألف من بعض الجندريين (الراديكاليين) فقد قام هؤلاء بمبادرة الدعوة لاجتماع سياسي كبير عقد في براغ ، في ١١ آذار ، وأعرب عن مطلوب مزدوج وهو : مساواة التشيكيين والألمان من جهة ، ومن جهة أخرى انعقاد دياط عام سنوي للأقاليم الثلاثة في مملكة القديس - فانيسلاس القديمة ، أي بوهيميا ، مورافيا ، سيليزيا . وسمى هذا الاجتماع العام وفداً ليحمل هذه المطالب إلى فينا ، وكان هذا الوفد يناقش الحكومة عندما نشبت ثورة ١٣ آذار في فينا . وفي ٥ نيسان حول هافليتشيف مباشرة مجلته إلى صحيفة كبرى يومية .

وبعد يوم فينا ، جدد البوهيميون عريضتهم وأرسلوا وفداً ثانياً ليضع أمام الحكومة نوعاً من إنذار . وكان على رأس هذا الوفد كاتب شاب ، ويجير ، المولود في ١٨١٨ ، وقد حصل على الدكتوراه في الحقوق برسالة في حرية الصحافة . ووضع ريجير هذا له مغزاه ومعناه . فقد كان صحافياً وشاعراً يكتب بالتشكية . وتنازلت الوزارة النمساوية الجديدة ، وزارة بيلير سدورف بالحال . حتى ان ريجير كلف بأن يحرر بنفسه قرار مجلس الوزراء ، في ٨ نيسان ، الذي يسمى ، « ميثاق بوهيميا » . وقد اعترف هذا الميثاق للتشيكيين بجميع الحريات السياسية المعتادة : حرية الصحافة ، حرية الاجتماع ، العبادة ، التعليم ، والمساواة أمام القانون ؛ وبحق جميع المكلفين بالضريبة في التصويت . وخارجاً عن

هذه الحريات الفردية ، اعترف الميثاق بـ « الحقوق التاريخية ، لبوهيميا : أعلن مساواة القوميتين الألمانية والنشكية ومساواة اللغتين ؛ ووعد بتنظيم سلطة عليا ، في براغ ، للبلاد الثلاثة المؤلفة للمملكة : بوهيميا ، مورافيا ، سيليزيا ، على أن تنظم الجمعية التأسيسية النمساوية العامة هذه الدولة الجديدة ، بما يبرهن على ولاء النشكيين للتاج النمساوي ؛ وانتظاراً لذلك ، اقيمت ، في الواقع ، سلطة محلية بشكل لجنة قومية مؤلفة من صهر الوجهاء المساعدين للحاكم ومن لجنة ١١ آذار .

واتيحت لبوهيميين فيما بعد فرصة موافقة للتعريف بأنفسهم بشكل أوضح كقومية : دعت ، في الواقع « لجنة التحسين ، في البرلمان التحضيري الألماني ، بالاتسكي لأن يأتي ويتعاون معها ، ولا عجب في ذلك ، لأن بالاتسكي كانت له صلات ألمانية ، وكان معروفاً في ألمانيا أكثر من أي عالم تشيكي آخر . ودعت لجنة التحسين في الوقت نفسه البوهيميين أن يرسلوا نوابهم الى برلمان فرنكفورت ، بصفة أعضاء في الكونغرسيون الجرمان ، فأجاب بالاتسكي هذه الدعوة برسالة رفض نسخت في كراس ولاقت انتشاراً كبيراً . وتجدر الإشارة في هذه الرسالة الى نقطتين :

١ - يقول بالاتسكي : « لست ألمانيا ، وعلى الأقل ، لا يملكني شعور بأن اكون كذلك » . ويقول : « انني تشيكي ، ومن أصل سلافي ، والقليل الذي استحقه هو بكامله في خدمة الوطن » .

ان هذا الرفض ، الذي يعارض به بالاتسكي التعاون مع الألمان ، ينكر التضامن التاريخي لبوهيميا مع ألمانيا ، أو بتعبير آخر ، المفهوم القديم الذي ساد في العصر الوسيط وهو الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة . وهذا الرفض يعني ان أساس الدولة ، كما يفهمه بالاتسكي ، هو رضى الشعب

بأن يؤلف جزءاً من الدولة وان يقرر مصيره بعقد ، او بتعبير آخر ، هو وضع أسس مفهوم الدولة الحديثة المعارض لدولة المانيا التاريخية .

٢ - يقول بالاتسكي : « من المؤكد ان الدولة النمساوية اذا لم توجد منذ زمن طويل ، فيجب علينا ، لمصلحة اوروبا والانسانية ، ان نبادر لآيجادها » . فهو يتصور هذه الدولة النمساوية على أساس المساواة التامة في الحقوق والاعتبار لكل القوميات التي تشكلها . ونجد في هذه العبارة ، أن المفهوم ، الذي كانت القوميات السلافية بحاجة اليه للخلاص ، ولمعارضة القوميات الأخرى بصورة عامة ، هو قوة التنسيق ، التي لا يمكن ان توجد الا في تبعيتها لدولة مشتركة نمساوية ، وهذا وحده يساعدنا على ان تلعب دور المدافعين عن الحضارة الغربية حيال الشرق . وهذا يقتضي ، كما نرى مفهوم دولة نمساوية جديدة ، دولة نمساوية كانت وما زالت موجودة .

واتبعت كلمة الأمر التي قالها بالاتسكي : فقد قام هافليتشيف بحملة مقالات ضد الانتخابات المقترحة من اجل برلمان فرنكفورت . وغنيت الاغاني ضد الالمان . وكانت النتيجة مقاطعة التشيكيين للانتخاب ، وعدم اشتراك المان بوهيميا تقريباً ايضاً . وقد جرت هذه الانتخابات في آخر نيسان ، في ثلث الدوائر الانتخابية تقريباً ، وكان عدد المصوتين ضئيلاً . وهكذا عرف التشيكيون بأنفسهم عن طريق معارضتهم للألمان . لقد عرفوا بأنفسهم ، ولكن دون ان ينكروا ، من اجل ذلك ، تضامنهم مع المان بوهيميا .

وتطورت الحالة العامة تدريجياً في الامبراطورية النمساوية ، في الأشهر التالية ، في اتجاه ليبرالية عظيمة ، بسبب ثورات محلية صغيرة فينوازية ، وبخاصة ثورات ١٥ أيار و ٢٦ أيار ، التي قررت على ان يكون البرلمان النمساوي مجلساً تأسيسياً . وكان على التشيكيين في هذا البرلمان النمساوي

ان يظهروا حقوقهم . وعينت فينا على بوهيميا حاكماً ليبرالياً مناصراً للقضية التشيكية ، وهو الكونت ليون تون ، الذي تعاون مع اللجنة القومية . وكانت هذا التعاون دليلاً على ان ولاء التشيكيين للتاج مازال موجوداً دائماً . وفكر بيلرسدورف بتقديم حقبة (وزارة) في وزارته الى شافاريك اولاً ، ثم الى بالاتسكي فرفضاً . وعندما غادر الامبراطور فينا على اثر الثورة التي قامت في المدينة ليقيم في انزبروك ، في ١٧ أيار ، صوت التشيكيون على رسالة تفان وبذل في سبيل الامبراطور . وفي ٢٦ منه ، رفضوا ان يطيعوا حكومة فينا الثورية . واوفد ريجير الى انزبروك ليطالب الى الامبراطور ان يرسل بسرعة نائب الملك الذي عين لبوهيميا ، وهو الارشيدوق فرنسوا - جوزيف . وسمح الامبراطور بدعوة الديباط وتشكيل مجلس حكومة من ثمانية أعضاء في براغ ؛ وبتعبير آخر ، لقد شرع بالتنظيم القومي في بوهيميا ، قبل ان يوضع الدستور النمساوي ودستور الحقوق البوهيمية .

ولكن ، أمام الحكومة التي قامت بهذه التنازلات ، بقي الجيش متعلقاً بشدة بمفهوم الدولة القديم وكان فيندشغراتز يقود جيش بوهيميا ويمثل العناصر الرجعية في الدولة . فقد وجه خطابات الى الجنود لصالح السلطة . وجرى خلاف بين الجنود والعناصر الراديكالية في الحرس القومي ، في ١٢ حزيران ١٨٤٨ ، فانسحب فيندشغراتز من المدينة ، دون شرط ، ثم دخلها في ٢٧ منه واعلن حالة الأحكام العرفية . وعادت الأمور الى ما كانت عليه قبل ١٥ أيار . وما كاد الديباط ينعقد في ١٦ منه حتى أجل . يضاف الى ذلك ان التحقيقات السابقة في التنظيم التشيكي ارجئت وعلقت بقرارات من البرلمان النمساوي .

انعقد هذا البرلمان في فينا في ٢٢ تموز . وبتألف في اكثريته العظمى

من السلافين . ألغى النظام الاقطاعي ، في ٧ ايلول ، وبدأ عندئذ عمل تأسيس الدولة . ثم انتقل هذا البرلمان فيما بعد من فيينا الى مدينة صغيرة في مورافيا وهي مدينة كويميسير ، في ١٩ تشرين الأول . وتجمع التشيكيون في البرلمان ، خلف بالاتسكي وربجير ، والفوا يميناً اتحادياً (فيديريالياً) ، وحاول هذا اليمين وضع حل للقضية النمساوية ، والتوفيق بين السلطة المركزية واحترام القوميات . ولكن سفارتزانبيرغ ، الذي تسلم الوزارة في تشرين الثاني وعرض وجهات نظره في خطاب له في ٢٧ تشرين الثاني ، أقام مقام هذا المفهوم مفهوماً آخر ، وهو المفهوم الوحدوي ، لا المفهوم الاتحادي ، واحترام ، مع ذلك ، مختلف القوميات بمنحها استقلالها الذاتي الاداري . وهكذا لم يطالب التشيكيون بنظام خاص بهم ، بل كانوا يفيدون من التنظيم العام للاستقلالات الذاتية القومية في داخل الدولة النمساوية . وفي الواقع ، لم ينالوا شيئاً اكثر من القوميات الأخرى ، لأن الحركة الرجعية تغلبت أخيراً في النمسا .

اليوغوسلافيون - كان اليوغوسلافيون في وضع مغاير: لقد كانوا تابعين لتاج القديس - ايتين ، ويتميزون عن المجر لا عن الألمان . ونجد عندهم مطالبة مزدوجة معاً: المطالبة بالاستقلال الذاتي لكل فئة يوغوسلافية ، وفي الوقت نفسه ، عاطفة تضامنهم . ولذا لم تقم الحركة اليوغوسلافية ضد فيينا والحكومة المركزية ، بل انها اعطت الدليل على انه لا توجد حركة سلوفينية في القسم اليوغوسلافي التابع مباشرة لفينا ، ولكنهم كانوا ضد المجر وكان المجر يؤلفون حائلاً بين حكومة الامبراطور وبينهم ، ولما لم يتفاهم اليوغوسلافيون مع المجر ، توجهوا ، لأعلى منهم ، إلى الامبراطور . وولدت ثورة فينا والمثل الذي ضربه الهونغاربيون ، مطالب سياسي ، في هذه المناطق ، بعد أن ظلت ، حتى الآن ، مطالب فكرية . وقامت الحركة في آن

واحد ودون اتفاق ، في المنطقتين اليوغوسلافيتين : التخوم الصربية وكرواتيا .

حركة التخوم الصربية . - كان صرب التخوم كثرثورية وديموقراطية . لقد وجدوا زعماءهم في آن واحد في الاكليسوس وعند العسكريين ؛ وكان الزعيان الكبيران المتروبوليت راياتسيتش والكولونيل سوبليكاك . لقد نقلوا مطالبهم أولاً إلى بودابست ، فرفضت ؛ وأجابهم كوسوط : « السيف يقرر » . عندئذ توجهوا إلى فينا : طالبوا بتشكيل «فويغوديا» أي اقليم مستقل . واستقلت الجيوش الصربية عن بودابست واستنجدت بالمتطوعين ، برئاسة زعيم شاب قوي ، شترا ديميرو فيتش . وانفجرت في القرى مشادات بين الفلاحين الصرب والفلاحين الهونغارين . وفي ١٣ أيار انعقدت الجمعية العمومية في كارلوفيتز . وطالبت باقليم مستقل وانتخبت حاكماً مستقلاً وأعلنت بأنها اقليم يرتبط مباشرة بفينا .

كرواتيا . - أما كرواتيا ، فقد وجدت عندها من قبل اطرار قومية ، ويكفي أن تحرك لتلعب دورها . واستعملت الطريقة نفسها وحصلت على النتيجة نفسها كما هي الحال في التخوم الصربية : قدمت مطالب إلى بودابست ثم إلى فينا . وتآلفت اللجان الثورية في كل مكان في كرواتيا . وصرح الكرواتيون في العريضة التي قدموها للامبراطور بأنهم سيؤمنون استقلالهم بأنفسهم إذا رفضت الحكومة المركزية مطالبهم ضد « القوم الآسيوي الذي ليس لنا ما نأخذه منه أو نعطيه إياه » . وقرروا مطالبهم في مجلس عقد في آغرام . ووجدوا في فينا مستجيبين وحماة كالارشيدوق جاث والكونت آبوني . وانضمت الحركتان إلى بعضها . وعينت حكومة فينا باناً من كرواتيا ، انتقته من بين أبناء البلاد وعينته مباشرة ، على حين أن بان كرواتيا كان يرتبط ، حتى الآن ،

بودابست ؛ وكان البان الجديد الكولونيل يلاشيش . وكان وطنياً كرواتياً وشاعراً كرواتياً معاً ، وضابطاً مالياً لفينا ، ورفع دفعة واحدة إلى رتبة فريق وقائداً لقطعة من الجيش . وبأشر وظيفته الجديدة في ١٤ نيسان ودعا الديباط إلى أغرام .

واتحدت الحركتان الصربية والكرواتية ، والقى يلاشيش بندا إلى الكرواتيين والصربيين وطبعه في الابديتين الرومانية (من روما) والسيريلية . وفي الاحتفال الذي اقيم للمتروبوليت رايانسيش نجده إلى ~~حبيب~~ الأساقفة الكاثوليك الكرواتيين . وكان رجال الآداب والكتاب يشيرون باتحادالفتين اليوغوسلافيتين ، وانعقد ديباط أغرام في ٥ حزيران ، ووضع برنامج مطالب ليبرالية ومحلية : طالب باتحاد الأقاليم القديمة في المملكة الاتحادية الثلاثية المؤلفة من سلافونيا ، كرواتيا ، دالماسيا ، مع التخوم الصربية . ويقول الكرواتيون في الرسالة التي وجهوها إلى الارشيدوق جان «اننا نشكل مع الصربيين شعباً واحداً ، ونرتبط ارتباطاً وثيقاً ، ولا شيء في العالم يستطيع فصلنا » .

وكانت هذه الحركة اليوغوسلافية تشكل ، كما نرى ، عنصراً لحالة جديدة تماماً تضع وجود تاج القديس ايتين موضع تساؤل ، لأن الشيعة اليوغوسلافية في الدولة كانت تريد الانفصال عن بودابست . وبالرغم من المجاملة التي أبدتها الحكومة الامبراطورية بتسمية يلاشيش فقد حاولت أيضاً التفاهم مع الهونغارين ، بتضحية الكرواتيين: ففي ١٠ حزيران اكدت اتحاد كرواتيا وهونغاريا ، وجردت يلاشيش من وظائفه . وصرحت حكومة بودابست أن يلاشيش متمرد . ولكن تعنت الهونغارين كان سبباً في اخفاق هذا الحل الثنائي ، وعندئذ قررت فينا أن تلعب بحظ الكرواتيين . ارسل الديباط وفداً من الكرواتيين إلى فينا ليحمل لها

مشروع دستور الدولة الكرواتية ، وتزعم يلاشيش هذا الوفد بجرأة ، بالرغم من أن حكومة بودابست اعتبرته متمرداً ، ولكنه في الواقع كان مدعوماً من قبل صداقاته في فينا ، وتخلص من الخطر الذي كان يهدده . وأمام الهونغاريين ، الذين كانوا مترددين ، أعطى الأمر إلى الجنود الكرواتيين الذين يخدمون في إيطاليا أن يظلوا أوفياء إلى الامبراطور وحماه العطف الذي كان له في فينا ، وثبت في سلطاته ، ورجع إلى أغرام حيث طلب إلى الديباط أن يصوت على اقتراح الولاء للامبراطورية الوحيدة . وفي ٩ تموز عهد الديباط اليه بسلطات واسعة وانفض . وفي مؤتمر عقد في فينا ، في ٢٦ تموز ، تحت تحكم الارشيدوق جان ، دعا يلاشيش الهونغاريين لسحب القرار الذي اتخذوه ضده ، فرفض الهونغاريون . عندئذ انسحبت الجنود الصربية من القطعات الهونغارية وانتظمت جانباً ، وشكل يلاشيش منها جيشاً قومياً . وفي ٤ ايلول صدرت براءة امبراطورية ثبته في جميع سلطاته .

وهكذا تم الوفاق والتفاهم بين الحكومة الامبراطورية والقوميات الكرواتية - الصربية ضد الهونغاريين ، مقوضي وحدة الامبراطورية النمساوية ومضطهدي الصرب والكرواتيين . وارتبطت فينا واليوغوسلافيون ، ونظم يلاشيش الجيش الصربي - الكرواتي ، وأسهم هذا الجيش في جميع العمليات الموجهة ضد الهونغاريين . ففي البدء ، كان على يلاشيش أن يعمل وحده : استلم ، في ٣ تشرين الأول ، قيادة جميع الجيوش ضد الهونغاريين وارسلت اليه جميع النجندات الجاهزة في النمسا ، ثم قاتل الصرب تحت قيادة فيند شغرائتز . وعندما قهر فيند شغرائتز الثورة في فينا ، في ٣١ تشرين الأول ، تألفت وزارة سفارتزانبورغ ، في تشرين الثاني ، عندما تسلم الامبراطور الجديد السلطة ، في ٢ كانون الأول . وأسهمت

جيوش يلاشيش الصربية - الكرواتية أولاً بحملة كانون الأول ١٨٤٨ التي يقودها فيند شغرائتز ، وبعد نفوذ الهونغارين من عشارهم في شهر آذار ، في الحملة التي قاموا بها معاً ضد الروس والنمساويين ، في تموز وفي آب ١٨٤٩ . وهكذا كان الصرب والكرواتيون عنصراً من العناصر القوية في اصلاح الامبراطورية واخفاق الهونغارين .

نرى أن مصير الصربيين والكرواتيين ، في مستقبلهم السياسي ، ممزوجاً بمصير جميع القوميات الأخرى في الامبراطورية ، كما يتعلق مصيرهم بمصير التشيكيين بالبرلمان النمساوي أولاً ، ثم بشفارتزانهربغ . وأخيراً ، لم يحصل الصرب والكرواتيون على تشكيل دولة في منظمة فدرالية أكثر من التشيكيين ، ولكنهم حصلوا ، على الأقل ، في النمسا الجديدة التي شكلها شفارتزانهربغ على فائدة ، وهي تحررهم من الجبر ومساواتهم مع الهونغارين في الدولة الجديدة التي وجد فيها " فويغوديا " اقليم كرواتي واقليم سلوفينيا - دالماسيا ، ويتمتعان بالمساواة وبنفس النظم التي تتمتع بها الأقاليم الأخرى في الامبراطورية ويتمتع بها الهونغارون الذين كانوا يوجهونهم سابقاً .

هذا فضلاً عن أن الحركة السلافية في النمسا كانت تمتاز ايضاً بالتضامن العام بين السلافيين الذي فسحت الثورة أمامه مجالاً للظهور . ولقد رأينا أنه كان بين المفكرين كتاب وعلماء سلافيون وعاطفة وحدة السلافيين كافة . وقد تعممت هذه العاطفة بفضل الثورة ، وبفضل دعوة الألمان لهم للاسهام في برلمان فرنكفورت . وقد ابعث التشيكيون هذه الدعوة . وكان برلمان فرنكفورت يتطلع إلى جمع أوربه الوسطى تحت الإدارة الألمانية . غير أن هذا التطلع أوجد عند السلافيين ضرورة معارضة الكتلة السلافية للكتلة الألمانية ، وشعر سلافيو الشمال بخاصة الذين كانوا على اتصال مباشر ومعارضة مع الالمان بعاطفة التضامن مع الأجناس

السلافية الأخرى أكثر من غيرهم ، هذه العاطفة التي أخذت تملك السلافيين جميعاً .

لقد ألقى بفكرة التجمع السلافي كاتب كرواتي اسمه ساكسينسكي . فقد نشر في شهر نيسان في « صحيفة القومية الالبيرية » مقالاً تصور فيه اتحاداً فيدرالياً بين جميع السلافيين ينظمه دباط يسهم فيه السلافيون من مختلف اجزاء اوروبا . وأثار هذا المقال ضجة ؛ ونسخ ثانية في « الصحيفة القومية التشيكية » التي يديرها هافليتشيف ، في ٣٠ نيسان ، وفي هذا اليوم بالذات اجتمع في براغ فريق يتألف من عشرين تشيكياً وبولونياً ومموا لجنة من اثني عشر عضواً لاعداد هذه المنظمة السلافية . وكان يرأس هذه اللجنة الكونت ماتياس فون تون ؛ فقد دعا الى مؤتمر يعقد في براغ ، في ٣١ أيار ، لسلافي الامبراطورية ، لا لجميع السلافيين كما اراد مقال ساكسينسكي ، ودعا اليه ، مع ذلك ، سلافي البلاد الأخرى كضيف ، دون ان يحق لهم التصويت أو المناقشة ، بل الاشتراك في المؤتمر . وهذه الدعوة ، التي وجهت في أول أيار ، كانت تضم بين موقعيها الكونت ماتياس فون تون ، وعدداً من كبار الزعماء التشيكيين ، مثل شافاريك ، بالاتسكي ، ريجير ، شتور ، أكبر كاتب سلوفاكي ، وسلوفيني ، وبولوني ، وصري من لوزاس . وبالتالي وجد اناس من جميع أجزاء الدولة النمساوية . ثم انضم آخرون الى الموقعين الاولين ، في الأيام التالية . وظهر النداء أولاً بالتشكية في جرائد البلاد ، ثم ترجم الى الالبيرية والبولونية والصرية في لوزاس ، والألمانية .

قوبلت الفكرة بحماسة . ونجد في هذا النداء طابعاً لروح مزدوجة : وهي ان السلافيين يعارضون الألمان صراحة ويذيعون الفكرة القائلة بلزوم انقاذ امبراطورية النمسا من التفتت . ويؤكدون ، من جهة أخرى ، بأن

للسلافين الحق بحريتهم وانهم ، في الواقع ، وصلوا اليها من قبل ، وانه يجب ضمان هذه الحرية والعمل على عظمة الجنس السلافي بالتفاهم بين مختلف جماعاته . ولأزالة كل سوء تفاهم ، نشرت اللجنة ، في ٥ أيار ، اعلاناً ، حرره بالاتسكي ، يوضح ويعرف وجهات نظرها .

مؤتمر براغ - افتتح المؤتمر، في ٢ حزيران ، في براغ ، وضم ، منذ الأيام الاولى ، ٢٢٩ شخصاً ، تم ارتفع العدد الى ٣٦٣ ، وجدفيهم ٤٢ يوغوسلافياً ، و٦١ بولونياً . كانت الفئة العظيمة فيه بالطبع فئة التشيكيين والسلوفاكيين ، وعددهم ٢٣٦ عضواً . ورفعت المدينة لاستقبالهم الألوان التشيكية : الأبيض والأحمر ، والألوان السلافية عموماً : الأبيض ، والأزرق ، والأحمر . وزينت ردهة الاجتماعات بجميع اعلام الفئات السلافية في اوربة كلها ، والعلم الأصفر والأسود ، علم امبراطورية النمسا ، وانتخب بالاتسكي رئيساً للمؤتمر . وانقسم اعضاء المؤتمر للدراسة التي يجب عملها الى ثلاثة فرق : فرقة بملكة بوهيميا ، اليوغوسلافيون ، والبولونيون والروتين والروس الصغار .

وضع منهاج العمل فونسوا زاش : ويتضمن تحويل النمسا الى دولة اتحادية ، مع لزوم معرفة جميع اللغات السلافية في الامبراطورية من قبل اعضاء الحكومة والادارة ، ومساواة البولونيين والروس ، وتحرير الصرب المضطهدين من الاتراك ، وتعليم مختلف اللغات في البلاد السلافية ، وعقد المؤتمرات العلمية السنوية في البلاد السلافية ، والتسامح المطلق في الأديان . ولم يكن هذا البرنامج برنامجاً متساوياً فحسب ، أو يتضمن فقط تحويل النمسا ، وانما كان اوسع من ذلك ، لأنه يتصور في آن واحد نظاماً عاماً للسلافين وايضاحات عن حالة البولونيين والصرب في تركيا .

وهناك وثيقة أخرى للمؤتمر وهي بيان وجهه المؤتمر الى اوروبا ، وقد حرره بالاتسكي ، وفيه يتجاوز البرنامج النمساوي الأصلي ، ويسرد فلسفة حق الشعوب المؤسسة على شعار الثورة الفرنسية : « حرية ، مساواة ، إخاء » . وهذا البيان يدل على الهام معنوي سام جداً . والعبارة المكررة التي نجدناها في آن واحد في برنامج عمل زاش وفي بيان بالاتسكي هي دوماً اتهام الألمان والمجر المعارضين للسلافيين .

وأخيراً نجد مشروع رسالة موجهة الى امبراطور النمسا توضح مطالب المؤتمر . وقد صوت على النص النهائي في ١٤ حزيران . ولكن في ١٢ منه قامت ثورة براغ التي تكلمنا عنها وقطعت الجلسات مؤقتاً . ثم استؤنفت الجلسات في ١٦ منه ، ولكن عدداً من المؤتمرين كانوا قد انصرفوا من قبل ، وفي ٢٨ منه ، غداة دخول فيندسغراثز براغ ، اجل المؤتمر نهائياً .

ولكن العمل ، الذي بدىء به ، توبع ، في الأشهر التالية ، من قبل كبار المشتركين ، تحت شكل جمعية عرفت باسم جمعية « الزيزفون السلافي » (الزيزفون هو شجرة السلافيين الرمزية ، كشجرة السنديان عند الألمان) . وهدف هذه الجمعية هو الحصول على نظام دستوري مع مساواة القوميات في داخل النمسا ، وحماية الاستقلال البسامي لامبراطورية النمسا من مزاعم برلمان فرنكفورت والكونفدراسيون الجرمانى ، وأخيراً العمل على الاتحاد الأخوي للسلافيين . وانشأت جمعية « الزيزفون » اخوات لها في الامبراطورية كلها . وتدخلت لتطلب تخفيفاً للتدابير الانتقامية التي اتخذها فيندسغراثز في بوهيميا . ثم دعت التشيكيين لصالح سلافي الجنوب الذين كانوا يناضلون الهونغارين ، واحتجت بجرارة على سحق المجر بالدم حركة سلافية قامت في آخر السنة . ودعت أخيراً ، في ٢٨ كانون الأول ، مؤتمراً من جميع

اخوانها ، وقررت ان تنقلب الى اتحاد ، وأن يكون لها مؤتمر سنوي ؛ ولم تعقد جمعية الزيفون أي اجتماع آخر .

ولم يخرج عملياً من هذه الحركة الجامعة - السلافية شيء فعلي . وذلك لأن الحركة كانت روحية صرفاً ، اكثر منها سياسية . الا أن لها اهميتها ، لأنها كانت اول ظاهرة للتضامن بين جميع السلافين ، وبخاصة لأن السلافين توصلوا فيها الى تعزيف انفسهم أمام الألمان ، ولم يدوا عداً لامبراطورية النمسا ، ولم يقوموا بظاهرات مؤيدة للروس ؛ ولم يكونوا بالتالي في أصل ماسمي ، في منتصف القرن التاسع عشر ، « الجامعة السلافية » التي كانت شكلاً سياسياً خاصاً استعملته الدبلوماسية الروسية .

الحركة الهونغارية . - يمتاز الحركة الهونغارية في عام ١٨٤٨ بسياها خاصة بالنسبة للقوميات الأخرى في الامبراطورية ، وبالنسبة لماضيها ايضاً . ولم يكن القصد من هذه الحركة ، كما في الحركات السلافية ، الحفاظ على امبراطورية النمسا مع تحويلات ضرورية ، بل كانت هذه الحركة تنزع ، على العكس ، الى تفتيت الدولة النمساوية ، لتخرج منها جسماً جديداً . ومن جهة أخرى ، كانت الحركة الهونغارية ، حتى الآن ، حركة ارسقاطية ، اما في ١٨٤٨ ، فعلى العكس ، كانت نتاج دفع ديموقراطي . وفي هذه الحالة او تلك ، لم تحدث الحركة دفعة واحدة ، بل على مراحل ، وسنبحث في كل منها .

لم يكن الهونغاريون ، في الأصل ، مبعدين عن تقاليدهم ، وقد طالبوا بحقوقهم التاريخية فقط . واجتمع الديباط في بوسبورغ ، وكان في جلسة عندما وصل اليه نبأ ثورة باريس ، التي احدثت مباشرة ، في العالم المالي ، انهياراً ، واعطت للحركة الهونغارية دافعاً جديداً . وكانت عنصر العمل الحزب

الراديكالي الجديد الذي تشكل في ١٨٤٧ حول كوسوط بالرغم من انه لم يكن سوى عنصر تجمع قومي هونغاري . كانت الأزمة المالية بالنسبة لكوسوط حجة في كشف مسؤولية الحكم المطلق ، وطلب من الديباط ، ونوعاً ما الى هيئة المدافعة ، تحت ضغط الشبيبة الراديكالية التي كانت تقوم بمظاهرة في برسبورغ ، التصويت على برنامج مطالب يتضمن وزارة هونغارية مسؤولة ، وضمانات لاحترام القوانين الهونغارية ، ونظماً دستورياً عاماً للمملكة لأنه الوحيد القادر على تأمين الأمن المالي .

لقد كان يوم ١٣ آذار في فينا لحداً ما ناجماً عن تأثير الهونغاريين ، لأن قراءة خطاب كوسوط والدعاية له في سكان فينا أثارت حماسة وتحريضاً في الأفكار كانا في أصل المظاهرة الحتمية التي قلبت حكم مترونيخ . ولقد كان ليوم ١٣ آذار نتائج مباشرة : ففي بست شكلت الشبيبة « لجنة الأمن » وحررت برنامجاً في اثنتي عشرة نقطة حربية قومية . وفرض كوسوط في برسبورغ على الديباط التصويت على عدة قرارات ثورية : الضرائب الاجبارية على الجميع ، الغاء الاعباء الاقطاعية مقابل تعويض يدفع للمالكين . وأرسل وفد الى فينا واستقبله الشعب فيها بحماسة بعد ان انتصر على الحكومة . استسلمت الحكومة الجديدة دون صعوبة أمام هذه المطالب . ونقلت سلطات الملك الى حاكم هونغاريا ، وتقرر تشكيل وزارة من ثمانية أعضاء مسؤولين أمام الديباط . ونظم قانون ٢٢ آذار هذه الوزارة التي ضمت زعماء الائتلاف القومي : دياك ، باتياني ، كوسوط . ونظم كوسوط حرساً قومياً . ومع ذلك فقد عينت الحكومة القضايا التي تحتجزها لنفسها باعتبارها ذات أهمية عامة . ولكنها تنازلت ، بعد قليل ، أمام اضطراب جديد ، وتقرر ان تكون تسوية القضايا العامة والتقسيم بين القضايا العامة والقضايا الهونغارية الخاصة بيد التشريع . وأن يؤيد الملك جميع القوانين التي صوت

عليها . وقد اذيعت هذه القوانين في ١١ نيسان وشكلت نظام هونغاريا الجديدة .

ظلت هونغاريا الجديدة هذه وحدوية : وقد دل القانون بصراحة على دمج ترانسلفانيا وكرواتيا والتخوم بهونغاريا ، على ان يكون لها نواب في البرلمان الهونغاري . وكانت الحكومة المحلية التي نظمها نظام ١١ نيسان ، ديموقراطية ، وأصبحت بست العاصمة السياسية لا برسبورغ . وتألف البرلمان الهونغاري من مجلس يسمى لثلاثة اعوام بتصويت غير عام ولكنه واسع جداً . وألغيت الامتيازات الاقطاعية ، وكذلك امتيازات الاكليسوس ، واعلنت مساواة القوميات ، وأصبحت الكومينات أي الادارة المحلية منسجمة مع هذه المبادئ الجديدة . وأقرت حرية الصحافة مع التعهد المتوجب دفعه على الصحف والعقوبات على التهجم على أساس الدولة . ويعترف هذا الدستور أخيراً بسلامة المملكة واسهام هونغاريا في الحياة العامة للدولة ؛ وانشئت وزارة هونغارية في فينا للتعاون في القضايا العامة ، ومن جهة أخرى استلم الحاكم الهونغاري من الملك السلطة التنفيذية في هونغاريا .

وهكذا حصل الهونغاريون على تأكيد ، بل يمكن القول ، على زيادة حقوقهم التاريخية . ووجدت الآن دولة هونغارية ، في نطاق الامبراطورية ، متكيفة ، بالطبع ، مع المفاهيم الجديدة الليبرالية الدارجة . ولكن هونغاريا المنبعثة من جديد كانت في الوقت نفسه هونغاريا جديدة من الوجهة الاجتماعية ، لأن الارستقراطية التقليدية فقدت امتيازاتها ، أي فقدت سيطرتها السياسية والاجتماعية .

وكانت هذه الحوادث معاصرة للامتيازات التي تنازلت عنها الحكومة لبوهيميا وبمائلة لها ، وبالتالي ، وجدت الدولة النمساوية في حكم ثلاثي : النمسا ، بوهيميا ، هونغاريا . كما كانت هذه الحوادث معاصرة للحركات

القومية السلافية والرومانية ، في داخل هونغاريا نفسها . ولقد رأينا ان الهونغاريين ، حيال هذه الحركات السلافية ، كانوا متعنتين وغير متساهلين ، ورادين للمطالب السلافية ؛ وكان كوسوط ، بخاصة ، مسؤولاً بشخصه عن التطور العام الذي قيده هذا الرفض الهونغاري .

وقد وضعت الثورة الايطالية أمام الحكومة النمساوية ضرورة ملحة بأن يكون لديها اسلحة ورجال ! وبعد تردد اتجهت شطر الهونغاريين للحصول عليهم فرفض الهونغاريون ان يدعوا جنود جيشهم الموجودين تحت قيادة راديتسكي ، وابدى كوسوط ملاحظته بقوله : « فكروا بأننا من اجل الـ ١٢٠٠٠ هونغاري الموجودين في الجيش سنرى عودة ٣٥٠٠٠ كرواتيا » . وفي هذه الظروف لعبت الحكومة الامبراطورية لعبتها الثانية وضعت بالكرواتيين لحساب الهونغاريين للحصول على ماتحتاجه من هؤلاء من رجال ومال . وصدرت براءة امبراطورية في ١٠ حزيران ١٨٤٨ أيدت سلامة تاج القديس - ايتين ، وبالتالي دمج ترانسلفانيا وكرواتيا ، ووضعت جيش التخوم تحت قيادة حكومة بست ، وجردت بات كرواتيا من وظائفه . وفي ٢٦ حزيران تسلم الحاكم الهونغاري تفويضاً بجميع سلطات الامبراطور في البلاد الهونغارية .

ولكن هذا الحل اصطدم بتعنت الهونغاريين . فقد انقسم الائتلاف القومي : فمن جهة المعتدلون : باتياني ، أوتفوس ، زبشيني ، وكانوا يرون بأنه يجب قبل كل شيء بقاء الدستور واستمراره ، وتقويته ، ولهذا ، يجب البقاء على صعيد الشرعية . غير ان كوسوط ، على العكس ، رغم انه كان وزير المالية ، بقي محرضاً ، وبمالقاً : وباع التضامن الوزاري بضمن تاريخ الحركات القومية (٢٥)

نجس ، وسلك سياسة على حدة . وفي اول تموز انشأ لنفسه جريدة ، وأخذ يلقي في البرلمان بتصريحات عنيفة . وانعقد البرلمان في ٤ تموز ، وطلب كوسو من المجلس شروطاً لتطبيق النظام الجديد : لقد اراد ان تبدأ الحكومة الامبراطورية باخذ نامة ما سماه « المتمردين » أي الكرواتيين ، قبل ان تهتم باللومبارديين ؛ كما اراد فرط ارتباط المانيا والنمسا، وصرح بأن الهونغارين، في حالة حرب بين النمسا و المانيا ، لن يهتموا بالقضية ؛ وأخيراً صرح بأنه نصير حرية الابطاليين . وهكذا ادت سياسة كوسو الى تفتيت الامبراطورية النمساوية . ولزم الأمر انشاء كتائب جديدة هونغارية خاصة ، وكان في ذلك بداية لجيش هونغاري . وهكذا اتجه الهونغاريون نحو سياسة متطرفة جعلت ثنائية الحكم مستحيلة .

لذا غيرت الحكومة النمساوية اتجاهها ، لاسيما وان نجاح فيندسغرائتز في براغ وراديتسكي في ايطاليا قد قوياها . وعندئذ تبنت يلاشيش ، فأتى الى انزبروك ، في ١٦ حزيران ، على رأس وفد كرواتي ، واستطاع ، بفضل مهارة موقفه ، ان يدخل البلاط ثانية ، وعاد الى اغرام مع تثبيته في وظائفه ، وطلب من الديباط ان يصوت على الدكتاتورية التي عهدت اليه في ٦ تموز . وتمت القطيعة النهائية بين السلافيين والهونغارين اثر مؤتمر عقد بينهم دون جدوى في ٢٦ تموز . فضلاً عن ان باتياني كان في هذا المؤتمر ، متعنّياً ايضاً حيال السلافيين ، كالديموقراطيين . وفي هذه الظروف ، تم التلاحم ، بين الحكومة النمساوية والسلافيين ، ضد الهونغارين . وانتصبت الحكومة النمساوية بقوتها ، وفي ١٤ آب ، سحبت السلطات من الحاكم الهونغاري ، وفي ٤ ايلول ، صدرت براءة امبراطورية أعادت ليلاشيش جميع سلطاته . وفي البرلمان النمساوي ، الذي انعقد في ٢٢ تموز ، كان السلافيون اكثرية أمام

الألمان والهونغاريين . وهكذا قطف الهونغاريون ثمار سياستهم الانانية الخاصة والمتعنتة حيال السلافيين .

وفي هذه الشروط ، وجد الهونغاريون أمامهم جميع الغرباء عنهم : ثار السلوفاكيون في الشمال ولكنهم سحقوا في الدم في شهر آب . وفي الجنوب ، دحر التوماسلفانيون وصرّب البانات الهونغاريين بدفعهم انحاء شتى في معركة زنت - تاماز ، في ١٩ آب . وعبر الكرواتيون نهر الدراف في ١٢ ايلول ، ورفض البرلمان النمساوي ، في ١٥ ايلول ، استقبال وفد من بست . وتواجد حل السلافيين . وحل الحكومة النمساوية : وذلك باحلال المساواة بين القوميات ، في الامبراطورية الجديدة ، وبصورة ادق ، المساواة بين الكرواتيين والهونغاريين .

وفي الوقت الذي كان فيه السلافيون والحكومة الامبراطورية يتألبان على الهونغاريين أحرز المتطرفون الهونغاريون نصراً مميّناً . ونحت تأثير الكراهية التي سببتها براءة ٤ ايلول ١٨٤٨ انقاد الديباط لدفع كوسو وقرر بصوته اصدار نقد ورقي هونغاري وانشاء جيش قومي ، و لجنة دفاع ، تحت رئاسة كوسو ، والغيث آخر بقايا النظام الاقطاعي ، ولم يخضع أي من هذه القوانين لتأييد الامبراطور . وأمام انتصار المتطرفين اسقط في يد المعتدلين وانسحبوا ؛ وامتنع الماغنت عن المجيء الى البرلمان ، وعجزت جهود باتياني في اصلاح ذات البين ، وفقرت همّة دياك و اوتفوس وانسحبوا ، وانتحر زيشيني ، وسلم الحاكم الهونغاري سلطاته . وهكذا أبعد تدريجياً حل هونغاريا الحرة في داخل الامبراطورية النمساوية .

وحاولت حكومة فينا أيضاً أن تجد شكلاً أخيراً للتوفيق بواسطة محافظين هونغاريين ، وأرادت بذلك تسمية مفوض ملكي يلغي البرلمان ،

ومجكم في النزاع بين الهونغاريين والسلافين ، وبعيد بناء الحكومة الهونغارية على أساس البراغماتيك سانسكيون . وأخذ الكونت الهونغاري المحافظ ، الكونت لامبرغ ، القضية على عاتقه ؛ فدعمه المعتدلون ، ولكن المجلس بدا معادياً للكونت لامبرغ بعنف وحرّم على الجنود طاعته ، كما حرّم على الكونت نفسه ممارسة وظائفه ، وداهمت الجماهير المفوض السامي على جسر الدانوب ، فاغتالته ، في ٢٨ ايلول ١٨٤٨ . ولم يبق بعد الآن إلا حل واحد ، وهو الحرب بين الهونغاريين وباقي المملكة . وفي ٣ تشرين الأول حل الامبراطور البرلمان الهونغاري ، وأعلنت حالة الطوارئ ، وسمت الحكومة الامبراطورية يلاشيش قائداً لجميع الجيوش وارسلت اليه كل مالدتها من نجيدات في باقي المملكة .

ومع هذا فقد تأخرت الحرب بسبب ثورة جديدة قامت في فينا ، في ٦ تشرين الاول ، وفيها شتى الجنرال لانود وزير الحربية بعد أن علق بفانوس . ولذا لزم أولاً توطيد السلطة في فينا في ٣١ تشرين الأول ، وتشكيل الحكومة على أسس جديدة ، وزارة شفارتزانهغ . في ٢١ تشرين الثاني ، وأخيراً تغيير شخص الامبراطور ، وذلك بتولي فرانسوا - جوزيف ، في ٢ كانون الأول ١٨٤٨ ، عرش النمسا . ولكن الهونغاريين لم يعترفوا بالامبراطور الجديد .

بدأت الحرب في بداية تشرين الثاني ؛ وفي ١٢ تشرين الثاني سلمت الحكومة فيند شغرائتز صلاحيات واسعة . وفي ٨ كانون الاول ، شكل الامبراطور حكومات خاصة في كرواتيا - دالماسيا ، وفي ترانسلفانيا ، وأخيراً في البانات و « الفيغوديا » ، في ١٨ كانون الاول . وفي ١٥ كانون الأول قام الهجوم من مختلف الجهات ، من الشمال ومن الشمال الغربي ؛

ضد الهونغاريين وكان يقود جيشهم الجنرال البولوني دمبينسكي . دحر الهونغاريون الى وراء نهر تيسزا ؛ وأخذت بودابست في ٥ كانون الثاني ١٨٤٩ ؛ وانتصر النمساويون عليهم أخيراً في كابولنا ، في ٢٦ شباط . وانتهى الأمر بحل التقسيم ، ووضع دستور ؛ آذار الهونغاريين في صف القوميات الأخرى في الامبراطورية ، وكم أفواه المعتدلين ، لأن وجود هونغاريا القديمة كان في موضع حرج وتضمنت التسوية بالدستور العام الحفاظ على الاصلاحات الاجتماعية التي صوت عليها الديباط ؛ ونالت هونغاريا الأصلية أي هونغاريا دون الأراضي السلافية ، استقلالها الإداري ، ولكن في الامبراطورية الموحدة . وكان هذا المفهوم الحديث ، مفهوم النمسا الجديدة على نقيض الثنائية التاريخية ، وعلى نقيض حق هونغاريا القديم . ولكن الدستور لم يعمل عمله في هونغاريا اكثر من الثنائية البدائية . لقد انتقلت لجنة الدفاع مع البرلمان الى دوبرتشن ، ولكنها لم تستلم ، وتبنى الهونغاريون موقف عدم القبول بالدستور . وتشكل من جديد جيش جديد في ترانسلفانيا تحت قيادة جنرال بولوني آخر يدعى ييم وعندما أصبح الجيش على أهبة الاستعداد شكا السلاح ودحر الألمان والروس خارج ترانسلفانيا في آخر آذار ، ثم استأنف الهجوم على النمساويين فطرحهم الى ماوراء نهر تيسزا نحو الغرب والشمال . وكسر جيش فيند شغراثتز في ٧ نيسان ١٨٤٩ واستردت بست . وفي آخر شهر نيسان تحررت ارض هونغاريا الأصلية كلها .

كانت النتيجة الطبيعية لهذا النصر تقوية الحزب الانفصالي : ففي ١٤ صوت البرلمان بالاجماع ، الا المعتدلين فقد انسحبوا فعلاً ، على سقوط « بيت آل هابسبورغ اللعين » ، وصرح « بأنه يضع هونغاريا ، مع جميع

اجزائها واقاليمها في صف الدول المستقلة . وانتظمت الجمهورية الجديدة بسرعة ، وانتخب كوسوٲ رئيساً . وهذا يعني الانفصال . وافت هونغاريا دولة مستقلة . ولا شك في ان الحركة لم تحظ بأجماع الرأي ، لأن المعتدلين انسحبوا تباعاً أمام المتطرفين ، ولكن هل هونغاريا المستقلة قادرة على الحياة ؟ لقد اثبتت الحوادث انها واقفة ضدها .

كانت هذه القضية بالنسبة للنمسا رئيسية . و كانت كذلك بذاتها ، فضلاً عن ان ثورة هونغاريا هدمت أمكانات سياسة شفارتزانبرغ الألمانية : فقد اضطرت النمسا ان تطلب من الألمان ان يؤجلوا كل قرار تنظيم في المانيا . وكان من نتيجة الحرب الهونغارية ان اطلقت ، في المانيا ، يد بروسيا بسبب انسحاب النمسا الذي اضطرت اليه . ولم تقبل النمسا هذا الانفصال الهونغاري ، كما لم تقبله القوميات الأخرى في الامبراطورية ايضاً . لأن هذه القوميات لاتستطيع ان تعلق عليه أي أمل ، ولا ان تجد فيه أي فرصة ، نظراً لتعننت الهونغاريين على الصعيد القومي . لقد كانت القضية قضية قوة بين النمسا والهونغاريين ، وبتهمك فطيع عادت كلمة كوسوٲ الى السلافيين : « السيف يقرر » ، ضد الهونغاريين .

واعيد بناء الجيش النمساوي على يد قادة اتوا من اركان الجيش في ايطاليا ، وبخاصة هايناو ، ولكن الأمر كان يتطلب لزوم أداة اقوى من الجيش النمساوي : فتوجه شفارتزانبرغ الى الروس ، وكان عندهم ١٥٠٠٠٠ رجل في غاليسيا و ٤٠٠٠٠٠ في بولونيا ، واكثر من ذلك الجنود الذين احتلوا الافلاق في العام الفائت . شخص فرنسوا - جوزيف وشفارتزانبرغ الى فارسوفيا (وارسو) لتنظيم حملة مشتركة ، وجاء ضباط من الأركان الروسية الى فينا لتحضير العمليات . وفي اول أيار ١٨٤٩ ، اعلنت

«الجريدة الرسمية» التحالف مع الروس . ورتبت ثغور جميع الجيوش ضد الهونغاريين . جاء ناسكيفيتش من غاليسيا واجتاز جبال الكربات مع ٨٠٠٠٠ رجل ، وانحدر هايناو على طول نهر الدانوب ؛ ودخل هونغاريا في راب ، في آخر حزيران . وصعد بلاشيش منطلقاً من بانات وأخذ نوفي زاد وبيتوفاردان ، وأخيراً جاء آخر جيش مساوي روسي من ترانسلفانيا ، حيث أخذ كروولشتات . وبعد بضعة أسابيع أخذت الجيوش الآتية من بودابست ، ومن جهة أخرى ، أخذت الجيوش الآتية من الطرف الآخر ، دوبرتشن في الجنوب ، في شهر حزيران . وطرح الهونغاريون في جنوب البلاد حيث سحقوا بانضمام الجيوش الثلاثة في تيميسفار ، في ١٠ آب . وسبب هذا الاخفاق تفتت اللجنة الهونغارية ، من جهة كوسوطة ، ومن الجهة الاخرى وزير الحربية جورجي . واضطر كوسوطة الى التخلي عن السلطة ، واستسلم جورجي بين أبدي الروس في فيلاغوس ، في ١٣ آب . وهرب كوسوطة الى تركيا ، واستسلم كومورون ، آخر حصن هونغاري ، في ٢٩ ايلول . وكانت النتيجة نهاية هونغاريا . وأصبح مصير هونغاريا منوطاً بالنمسا ومرتبطة بالتنظيم العام للنمسا ، وبنفس الصفة كسائر القوميات الأخرى .

نتائج الثورة في الامبراطورية النمساوية . - ماهي نتائج ثورة ١٨٤٨ في الامبراطورية النمساوية ؟ يجب ان نشير الى انه تم ، خلال هذه الحركات القومية ، تحول اجتماعي في الامبراطورية : لقد ألغي النظام الاقطاعي وحذف تشريع الامتيازات ، دون ان تهدم قوة الارستقراطية الاقتصادية : فقد حافظ النبلاء على ملكياتهم الكبرى . واذا لم يوجد النظام الاقطاعي حقاً ، فان السيطرة الاقتصادية للطبقة النبيلة مازالت مستمرة

في الواقع . وهناك نتيجة تجدر الإشارة إليها وهي أن النمسا نظمت نفسها ، في البدء ، في اتجاه سياسة ليبرالية . ولكن ، في النهاية ، أقام نظام باش الحكم المطلق ومحا الحريات السياسية الداخلية .

ان ما يهمنا من ذلك هو القوميات . فمن الطبيعي انها حصلت جميعاً ، كل واحدة بذاتها ، على المكاسب الاجتماعية للثورة . ومن الوجهة القومية ، تصورت الحكومة وبدأت تنظم تباعاً اشكالاً عديدة للدولة النمساوية : أولاً الحكم الثلاثي : النمسا - بوهيميا - هونغاريا ؛ وبعد اخفاق التفاهم مع الهونغاريين ، جربت الاتحادية (فيدراليسم) ، بشكل تؤلف فيه كل قومية من القوميات جزءاً من الدولة الاتحادية النمساوية ؛ واخيراً مع سفارتز انبرغ ، حل الوحدة ، وتشكيل نظم اقليمية : وهذا هو دستور ١٨٤٩ . وقد بدى بتنظيم هذه الهيئات الاقليمية في القوميات الصغيرة ، وفي الأنظمة ١٨٤٩ و ١٨٥٠ ، الأقاليم الألمانية في مورافيا ، وسيليزيا ، وبوهيميا وغاليسيا . وآخر تطور حدث هو : ان برنامج الحكومة المركزية أصبح استبدادياً بالتدريج ، وقامت الصعوبات عندما اريد تنظيم وضع القوميات الكبرى مثل الكرواتيين والهونغاريين . وأخيراً ، انتهى سفارتز انبرغ بحذف الدستور المتوقع ، في ٣١ كانون الأول ١٨٥٠ ، وعندئذ ساد الحكم المركزي المطلق على جميع القوميات في الامبراطورية .

ونتساءل لأي حد كانت هذه القوميات متيأة لقبول هذه الحلول المتتابعة التي أتت بها الحكومة النمساوية ! في البدء ، طلبت كلها ، كما رأينا ، استقلالاً سياسياً ذاتياً واسعاً جداً ؛ ثم في برلمان فينا وكريسيو ، جهدت القوميات ، الا الهونغاريين ، بالتوفيق بين وحدة الامبراطورية والاستقلالات الذاتية القومية ، بشكل اتحادي . ثم ان محنة الحرب الأهلية اقنعت

الجميع ان من الضروري الابقاء على وحدة الدولة . وبشت البورجوازية خاصة ، فاندفعت في مصالحها المادية . وشايع الصحفيون الأحرار فكرة حكومة قوية تحافظ على السلام في الدولة . وهذا رأي بالاتسكي وأوتفوس . أما الذين رفضوا قبول هزيمة القوميات ، مثل دياك ، فقد اقتصروا على سياسة الدفاع السلبي بالتخلي عن الحلول الثورية وعن الانفصال .

وهكذا خرجت الامبراطورية النمساوية من الثورة بأقوى مما كانت عليه في السابق . لقد تصابت نوعاً ما ، . ومستبقى هادئة عشرة أعوام ، إلى ان تدهمها حرب خازجية بائسة فتضع من جديد قضية القوميات . وكانت هذه الحرب حرب ايطاليا عام ١٨٥٩ التي كانت من نتيجتها حدوث تحول داخلي في النمسا بموجب براءة ١٨٦٠ .

الفصل الثامن

الوحدة الألمانية

من ١٨٤٨ إلى ١٨٥٠

كانت الحركة الألمانية أكثر جميع الحركات القومية تعقيداً في ثورة ١٨٤٨ . فقد اشتبكت فيها قضايا متعددة ، وتنازعت الألمان ، كما رأينا ، مفاهيم متناقضة . وبعد أن نجحت الحركة الألمانية نجاحاً تاماً ، اخفقت كلياً ، حتى ان حركة ١٨٤٨ لم تقرر المستقبل ، لأن العقائدية ، التي حققت الوحدة الألمانية ، فيما بعد ، لم تكن عقائدية ١٨٤٨ . يضاف إلى ذلك أن هذه الحركة ، كما سنرى ، قد كشفت بخاصة عن المزاج القومي

١ — الأعمال التحضيرية وانعقاد البرلمان

لقد كانت ألمانيا ، قبيل الثورة ، معرفة بدقة في الصعيد السياسي أكثر مما في الصعيد القومي . وكانت العاطفة القومية حارة وعامة ، ولكنها لم تذهب إلى أبعد من ذلك : وتصورت أهداف كثيرة ظلت غامضة . وقدمت بعض الحكومات فكرة إصلاح الديايط ، ولكن هذا العمل كان محدود القيمة والأهمية : وفكرت حكومات أخرى برلماناً جرماني للاتحاد الجرماني (تسولفراين) ، ولكن لم يكن في كل هذا ألمانيا تامة

لأن الاتحاد الجرماني لم يمتد على ألمانيا كلها. ولم توضع القضايا الأساسية وهي : أصل السلطة في ألمانيا ، وشكل الدولة ، وامتداد ألمانيا نفسها . وعلى العكس ، كان الألمان ، على الصعيد السياسي الخاص ، أكثر وعياً لما يرغبون في السياسة الداخلية . وفي هذه الظروف ، سبقت الثورات السياسية الحركة القومية ، وكانت أكثر وضوحاً منها . فقد ظلت هذه الحركة تطلعاً كبيراً ، ولكن لم يكن لها زعيم له برنامج أو سلطة يعترف بها الجميع ، ولذا كانت هذه الحركة القومية ، في الواقع ، تحت رحمة الحوادث .

فكرة اصلاح الديياط . - كانت القضية مرتبطة بالفكرة الليبرالية ، وانبثقت مباشرة منذ أن شجعت ثورة باريس الألمان . وقامت مبادرات مختلفة من جهات متعددة ، ومع نجاح متفاوت ، منذ علم بثورة ٢٤ شباط ١٨٤٨ : فمن جهة الأمراء ، وأولاً ، من الجهة البروسية ، كان الممثل البروسي في الديياط ، الكونت دونهوف ينصح الملك فريدريك - غليوم بأن يتزعم الحركة ، وأن يدعو إلى فرنكفورت ، بمشلي ألمانيا كلها ، وجميع الديباطات ، وينظم جيشاً وأسطولاً ألمانين مع علم . غير أن فريدريك - غليوم ، لم يذهب بعيداً ، وأرسل منذ ٢٨ شباط رادوفيتز الى فينا ، وجرى اتفاق بين الحكومتين النمساوية والبروسية ، في ٢٥ آذار ، لدعوة مؤتمر الأمراء في درسدن . وعندما اختتم المجلس المتحد ، في ٦ آذار ، عاد فريدريك - غليوم في خطابه ، وأثار الذكريات الكبرى لعام ١٨١٣ و ١٨١٥ . ولكن أفكاره ظلت غير دقيقة وغير محدودة : لقد كان يتصور امتداد الاتحاد الجرماني في سائر ألمانيا ، ومحكمة عليا ، واتفاقاً نقدياً . كما أن ملك بافاريا ، من جانبه ، في نداء وجهه إلى

الشعب ، في ٦ آذار ، انتهى بقوله : « كل شيء لشعبى ، كل شيء لألمانيا » ، وفي ١٦ آذار ، اقترح حلاً وهو : هيتان من مندوبي الديابات تتفقان مع هيئة الأمراء ، وهكذا تتشكل حكومة من ثلاث هيئات ، أي نوع من تذكّر دياط الامبراطورية المقدسة . وأخيراً تصور ملك فرتامبرغ تجميع الدول الألمانية من جديد بشكل لا يبقى فيه إلا أربع أو خمس دول . وفي الوقت نفسه ، اقنعت مبادرة خاصة حكومات الغرب أن تأخذ على عاتقها الإصلاح أيضاً : وبناءً على اقتراح هنري فون غاغيرن في مجلس هس ، في ٢٥ شباط ، قررت الحكومات الثلاث في هس ، وباد ، وناسو أن ترسل بعثة استعلامات لدى الحكومات الأخرى ؛ وتألفت هذه البعثة من رجلين : ماكس فون غاغيرن والجنرال ليرباخ . وبدأت تحقيقها في كارلسروه وشتوتغارت ، ثم انتقلت إلى مونيخ ، ثم إلى برلين حيث وصلت في ٢٣ آذار متأخرة ، لأن الثورة نشبت في الفترة الفاصلة بين التاريخين . وكانت الفكرة البدائية تشكيل حكومة مؤقتة تأخذ بيدها القضايا الأجنبية ، بانتظار التمثيل القومي . إلا أن هذه الفكرة تحولت تدريجياً بالتعديلات التي جمعت من مختلف العواصم ، بيد أنها وصلت متأخرة ، لأن حلولاً أخرى تدخلت . وبالأجمال ، يجب أن نأخذ من هذا ، ان الحكومات فهمت ضرورة إصلاح ألمانيا ، ولكنها أرادت أن تقصر هذا الإصلاح على إصلاح الدياط ، وتصورت بصعوبة إشراك الشعب بكامله ، الأمة ، في هذا العمل .

دراسة الإصلاحات . - وهناك مبادأة أخرى لم تكن من الحكومات الخاصة ، بل ، إذا أمكن القول ، من حكومة ألمانيا ، من الدياط : كان دونهورف مفعماً بالنشاط والمبادأة ، وكان يتجاوز تعليمات حكومته

ومحاول أن يفيد من الغياب الموقت للمندوب النمساوي في إجازة : ففي أول آذار وجه الديباط ، بناءً على مبادئته ، نداءً إلى الحكومات وإلى الشعب الألماني ، وناشدهم الاتفاق والتعاون في سبيل التقدم العام ، ووعد أن يعمل على توطيد الأمن والحياة القومية وفي ٩ آذار ، وضع في أسلحة ألمانيا النسر الإمبراطوري القديم والراية القديمة للإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة . وفي ١٠ آذار دعا الدول الألمانية ، بناءً على اقتراح مندوب باد ، فيلكر ، أن تلتحق به سبعة عشر « رجل ثقة » ليدرسوا معه الإصلاحات التي يجب القيام بها .

التمثيل القومي . - وهو المبادرة الثالثة والحاسمة وقد اقترحها الأفراد . فبناءً على اقتراح تقدم به ليبراليان ، دوهر وإتسهايم ، اجتمع واحد وخمسون ليبرالياً ، آتين من الجنوب والغرب ، في هايدلبرغ ، في ٥ آذار ١٨٤٨ ، واتخذوا قراراً يطالب بالتمثيل القومي ، وبأنه يجب على رجال الثقة من جميع البلاد الألمانية أن ينظموه ، وسموا لجنة مؤلفة من سبعة أعضاء لدراسة شكل هذا المجلس . وكان هؤلاء الأحرار معتدلين يكرهون الحركة الشعبية الزراعية التي بدأت ترتسم في ألمانيا وتحدث الأمراء . ودعوا السبعة الأعضاء ، الذين اشتركوا في جميع الديباطات الألمانية القديمة والحالية . ثم وسعوا دعوتهم على رابطات وطنية ، وأخيراً ، على وجهاء . وكلف غوفينوس أن يدرس مقدماً المشروعات التي ستعرض على المجلس . وهذه المبادرة الخارجة عن القانون ، التي قام بها بعض الأحرار الليبراليين ، كانت في أساس الثورة القومية .

وفي غضون ذلك ، قامت الثورات في فينا ، في ١٣ آذار ، وفي برلين في ١٨ ، وفي مونيخ في ١٩ ، وتحولت جميع الدول إلى دول

ديموقراطية . ومن جهة أخرى ، نشبت الحركة الجمهورية في الجنوب الغربي وأخفقت . ويبدو أن فريدريك - غليوم أراد أن يتزعم الحركة القومية ، أما لأنه رأى فيها تحويل نظر ، وأما عن قناعة شخصية . ففي ندائه الذي وجهه إلى سكان برلين ، في ٢٠ آذار ، قال : « إلى شعبي وإلى الأمة الألمانية ، وصرح بأن سلام ألمانيا يأتي من « اتحاد الأمراء والشعوب » ، تحت إدارة عامة » . وصرح بأنه على استعداد لأن يأخذ على عاتقه هذه الإدارة في يوم الخطر ، وأضاف : « ان بروسيا ، من الآن فصاعداً ، تتحول في ألمانيا » ، وستكون الشروط العامة لهذا التجديد الأنظمة الدستورية ، ومسؤولية الوزراء ، وهيئة المحلفين ، والمساواة في الحقوق السياسية والمدنية والمساواة في العبادات . ويبدو أنه كان عند فريدريك - غليوم اخلاص حقيقي في هذه النقطة ؛ وفي ٢٨ آذار ، قال إلى ضباطه : « إن جميع أفكارني ، في الوقت الحاضر ، منتمكة في الوطن الألماني . ولأننا نقاتل من الانقسام ، ولن أتردد أمام أعظم التضحيات » . غير أن أفكاره كانت مزيجاً من أمور مبهمه مع بعض الدقة والوضوح وهذا ما جعل برنامجه ضعيفاً هزئلاً . وبلغت النظر فيه الاختلاف بين الحزبي الذي فرضته عليه ثورة برلين والمزاعم الألمانية التي يؤكد عليها . وهذا الموقف من فريدريك - غليوم أثار مباشرة كثيراً من سوء الظن والاحتجاجات : فمن ذلك أن الحكومة النمساوية اتهمته في بلاغ وجهته إلى عملائها في ألمانيا ، في ٢٤ آذار : « إننا نؤمن بأن الملك لا يتابع إعادة النظر في الدستور ، وإنما الانقلاب التام » ، وليس هذا العمل منه بناءً على معاهدة ابرمت بشكل منظم ، بل حسب إرادته الخاصة وحدها . وفي هذه الظروف ، يريد الامبراطور بوضوح ، أكثر من أي وقت مضى ، أن يبقى على صعيد معاهدة ٨ حزيران ١٨١٥ ، التي يمكن ولاشك أن تتغير

ولكن دون أن تفسخ من جانب واحد ويترتب على ذلك مفعول حقوقي .
وفي الدول الأخرى ، في فرتامبرغ ، في ساكس ، في هس ، في باد ،
ظهر عدااء عنيف ضد ملك بروسيا ، سواء من الحكومات أم من الشعوب
وعلى الراين بدأت تظهر من جديد ، فكرة اتحاد الراين ، وفكرة
الحاكم البروسي . وهكذا نرى ، منذ الأصل ، الإمارات الأولى لسوء
تفاهم بين فريدريك - غليوم الرابع وألمانيا . وكان هنري فون غاغيرون
وحده في ألمانيا ، يدافع عن ملك بروسيا .

انعقد المجلس التحضيري (الفور بارلمان) ، الذي نصت عليه لجنة
السبعة ، في فرنكفورت في ٣١ آذار . ويتألف من ٦٠٠ عضو تقريباً ،
موزعين بشكل متفاوت جداً بين مختلف دول ألمانيا ، فلم يكن للنمسا
إلا ثلاث ، باعتبار أنه لم يكن لها برلمان ، ولذا لم يكن
لها مندوبون ، على حين أنه كان لبروسيا ١٤١ مندوباً ، والفرتامبرغ
٤٢ ، وبافاريا ٤٤ ، وبالمقابل كان لدوقية باد ٧٢ ، ودوقية هس -
دارمشتات ٨٤ . ولم يكن لهؤلاء الاعضاء في الفور بارلمان بالطبع أي
تفويض بالسلطات الشخصية ولا يمثلون شيئاً ، وهم من أصول مختلفة .
وعقد الفور بارلمان أربع جلسات ، من ٣١ آذار إلى ٣ آب ، واتخذ
بعض قرارات هامة .. ووجد نفسه أمام مشروعين مهيأين لاصلاح ألمانيا .
١ - المشروع الأول ، وضعته لجنة السبعة ، ويتصور دولة اتحادية ،
مع رئيس ووزارة مسؤولة ، ومجلس منتخب ومجلس الدول ، ويدخل
في اختصاصها الجيش ، والعلاقات الخارجية ، والتجارة ، والجمارك والنقد؛
وتقوم وحدة القوانين المدنية والجنائية في كل ألمانيا . ولم يكن هذا
المشروع بالإجمال الا توضيحاً لفكرة البندسشتات عوضاً عن الشتاتنبوند
والدولة الاتحادية مكان كونفدراسيون الدول .

٢ - المشروع الثاني ، اتى به الديموقراطيون الراديكاليون ، جماعة شتروف ، ويتضمن خمس نقاط تتصور جميع القضايا السياسية ، والاجتماعية والقومية ؛ ويريد أن يوطد في المانيا الوحدة القومية باكثر مما في المشروع الآخر وأن يلحق الدول المحلية بالحكومة القومية بشكل أوثق .
وقامت المناقشة بين النزعتين حالاً ؛ وأخيراً أحييت القضية الى البرلمان لينظر بها حين انعقاده .

كيف سيكون هذا البرلمان ؛ هذا هو القرار الرئيسي . لقد أضيفت الى الكونفدراسيون بروسيا الشرقية وبروسيا الغربية اللتان لم تؤلفا جزءاً منه ، وليمبورغ وشلزيغ . ودعيت هذه الأقاليم الأربعة لأرسال ممثلين عنها الى البرلمان ، كما تؤلف ، بالطبع ، اللوكسمبورغ وأقسام النمسا جزءاً من الكونفدراسيون . ويكون النخبون جميع المواطنين دون تمييز في الدين والحالة الاجتماعية ، باعتبار انهم مستقلون ، وهذا يعني التصويت العام الذي ينتخب نائباً عن كل ٥٠٠٠٠ نسمة . أما الاهتمام بتنظيم وتعريف كيفية الاقتراع فقد ترك الى الدول الخاصة .

وفي داخل هذا المجلس الأول ، قام نزاع عنيف لمعرفة ما اذا كانت المجلس سيقى في حالة انعقاد أو لا ؛ لقد أراد الجمهوريون ، وكانوا عنيفين ، مثل هيكشر وشتروف ، استمرار انعقاد المجلس ، فلم يحصلوا على ما يبتغون وانفصلوا . ثم انتهى الأمر بتسوية : وهي أن يسمى المؤتمر التحضيري وفداً مؤلفاً من خمسين عضواً لم يوضح دورهم ويقصى عنهم الجمهوريون . وأخيراً أبعد هذا البرلمان برنامجاً جمهورياً لصالح الطبقات العاملة ، وأعرب على أمله بتحسين مصير الطبقات الفقيرة .

وهكذا تناولت المطالب ، التي ظهرت في المؤتمر التحضيري ، الصعيد

السياسي والصعيد الاجتماعي معاً ، ولكنها أبعدت في هذه النقطة الأخيرة .
وفي الواقع ، لم يقم الفور برلمان بأي مبادرة ثورية الا بمبادرة دعوة البرلمان ،
وهذا كثير .

وبانتظار اجتماع البرلمان وضعت مشاريع عمل لتعرض عليه عند
انعقاده . و تمت في ذلك الحين الحركة الجمهورية والاجتماعية في غرب المانيا
واثرت على الانتخابات في اتجاه محافظ ، في شهر نيسان ، وفي الوقت
نفسه افتتحت قضية الدوقيات الدانماركية بثورة هولشتاين . وضعت
مشاريع العمل أولاً من قبل رجال الثقة السبعة عشر في الديباط ، وكان
مشروعهم مشروع دالمان . فقد انتهى في ٢٦ نيسان ونشر حالاً ؛ ويتضمن
امبراطوراً وراثياً ، ومجلس أمراء أعلى ، ومجلساً منتخباً أدنى ، والوحدة
الدبلوماسية والعسكرية والاقتصادية في المانيا ومحكمة اتحادية . ولكن
الدول المختلفة وبروسيا نفسها استقبلت فكرة الامبراطور استقبالا سيئاً .
ووضع الخمسون مشروعاً آخر ، وكانوا يعتبرون أنفسهم أداة انعقاد
البرلمان ، وبهذه الصفة دعوا بالانسكي ليأتي ويتعاون معهم . ودعوا أيضاً
دول النمسا ، بما فيها سلافيا الشمال ، وبخاصة التشيكيين ، الى انتخاب
ممثلهم في البرلمان ؛ ولقد رأينا أن هذه الدعوات اصطدمت برفض .
واقترح الخمسون تعليق الديباطات المحلية أثناء انعقاد البرلمان ، فرفضت
الدول .

وأخيراً وضع الديباط مشروعاً ثالثاً : وقد افزعته الحركة الثورية
الجمهورية هذا الديباط ، فأراد انشاء سلطة تنفيذية بالحال ؛ وقد اقترحها
في ١٢ نيسان ، ولكن اقتراحه أثار خلافاً مع الخمين .
وأظهرت هذه الحلول المختلفة المتصورة صعوبات ، واصطدم بها تنظيم
تاريخ الحركات القومية (٢٦)

المانيا آجلاً . وفي الواقع ، لم يتوصل الى شيء فعلي في هذين الشهرين والنصف . وهذه ظاهرة عجز ولادي للورور الى صعيد العمل ، ونراه صفة مميزة للبلاد ومع هذا فقد تمت نتيجة واحدة ، لأن كل شيء سلم لقرار البرلمان . وهذا اعتراف ضمني لمبدأ السيادة القومية في المانيا كلها .

تركيب برلمان فرنكفورت . - وفي شهر نيسان قامت في المانيا حركة اجتماعات ومناقشات وانتخابات . وتوجب انتخاب ٨٣١ نائباً للبرلمان ومن محل محلهم من نواب مختلف البرلمانات في المانيا ، وتركت كيفية الاقتراع لقرار الدول الخاصة .

لقد وجد في الواقع أقل من ستائة نائب في برلمان فرنكفورت بسبب قطيعة ممثلي التشيكيين في بوهيميا . إلا أن ممثلي النمسا كانوا كثيراً في آخر السنة في برلمان فرنكفورت . وجد في البدء ٤٠٠ الى ٥٠٠ نائب في الجلسة . ولم يوجد تقريباً ، في هذا البرلمان ، ممثلون للطبقات الشعبية ، وهذا يوضع لنا أن العمال شعروا بحاجة لانشاء منظمات موازية . فقد كان النواب جميعهم بورجوازيين أو أناساً من الطبقات العليا ولم يكن ليمثل المهن الاقتصادية إلا ١٤٠ نائباً منهم ٦٦ تاجراً و ٦٠ مزارعاً ، وكان هؤلاء وهؤلاء منتخبين من بين كبار الملاكين أو التجار أو رجال الأعمال الهامين . وكان المفكرون مسيطرين ، وقد بلغ عددهم ٥٦٩ ، منهم ١٠٦ أساتذة ، ٢٢٣ رجل قانون ، ١١٨ أعضاء ادارات . وكان لتركيب برلمان فرنكفورت هذا مغزاه من حيث جمع (سوق) الحزب القومي ، الذي كان بخاصة ، كما رأينا ، حزب المفكرين ، ومن حيث المفهوم الذي كونه ألمان ذلك الزمن عن القيمة الاجتماعية .

لم يكن هؤلاء النواب بالطبع أي تجربة في العمل البرلماني . اجتمعوا في ١٨ أيار في كنيسة القديس - بول ، في فرنكفورت . وفي الجلسة الثانية

انتخب الرئيس هنري فون غاغيرن ، نائب المهس ، ب ٣٢٠ صوتاً على ٣٩١ . ونظم العمل الداخلي حسب نموذج النظام الذي تبنته الجمعية التأسيسية في فرنسا : فقد انقسم هذا البرلمان الى خمسة عشر مكتباً (لجنة) للمناقشة الأولية للمشاريع قبل مناقشات الجلسات العامة . وتشكلت هذه المكاتب في لجان خاصة ، ولكن اللجان البرلمانية الفرنسية كانت هيئات عمل ؛ أما هنا فكانت مجالس نقاش حقيقية صغيرة تضم من خمسة عشر الى ثلاثين عضواً ، ثم ازدادت . وهكذا وجدت لجنة الشؤون الاقتصادية ، وكانت برلماناً حقيقياً صغيراً ، ولجنة العرائض ، ولجنة الشؤون الخارجية ، وأرادت أنها توجه الدبلوماسية ، ولجنة التشريع وتقوم بعمل مزدوج مع لجنة الدستور . وهذه اللجنة أساسية لأنه يتوجب عليها اعداد مشروع تنظيم المانيا ، وكان رئيسها باصمرمان ، وتضم كبار نظريي الحزب القومي : آندريان ، دالمان ، هنري سيمون ، رويبرت بلوم ، فيلكر ، وغيرهم . وكان هؤلاء النواب يؤدون مهنتهم بكثير من الوجدان وبكثير من القناعة ، ويهتمون بالذهاب بالمناقشات حتى آخر حد ، ويعالجونها بروح الألمان الذين يندفعون حتى النهاية في نظرياتهم ولا يتخلون عن أفكارهم . وتعددت المشاريع ، وامطرت التعديلات ، ووجدت منوعة من العرائض أتت من المانيا كلها . وهكذا ضاع النواب في مناقشات لانهاية لها . ومن جهة أخرى ، ارتكبوا ، في ٢٩ أيار ، خطأ في تثبيت جدول أعمال المناقشات بشكل نهائي ، ولم يعرفوا كيف باتون بالمرونة الضرورية في المناقشات وفي العمل .

وهكذا كان البرلمان أداة ضعيفة للعمل ، ورأى انه لا يستطيع ان يسير أعماله بشكل نافذ إلا إذا اقتصر على عمل واضح ومحدود وهو : سن الدستور ، وبقي في مضمار التشريع بخاصة . ولكن وجوده كان على درجة عظيمة

الأهمية . ومما يكن اتجاهه ، فان وجوده وحده كان ثورة ، وذلك لأنه وجدت للمرة الاولى هيئة تمثيلية لكل المانيا .

٢ - البرلمان في العمل .

لقد كان هذا البرلمان مطلق البدن ، ليس أمامه أي عائق في الأشهر الأولى من انعقاده ، ولم تأت منه الحكومات أي عقبة . إلا أن الحكومات في الحريف بدأت تشعر بأنها أكثر وعياً وأكثر قوة . لقد تحمل البرلمان حقاً مسؤولية مصيره . وظهرت الأحزاب السياسية بسرعة . وفي الواقع ، وجدت اختلافات كبرى في الرأي وتناقض في المصالح . لقد كانت جميعاً حسنة النية ورصينة ، ولكنها سيئة التصرف ومتعنتة : كان طابع هذه الأحزاب فردياً عنيداً ومتعصباً ، ولم يكن لها في الوقت نفسه نظام داخلي . وأخذت تتنوع بازدياد . وفي الحقيقة كان المجلس السياسي ينقص رجال الأحزاب جميعاً .

اليسار . لم يكن في البرلمانات سوى عنصرين معروفين جيداً ولهما نظام وهما بالطبع الطرفان . كان اليسار ، بالاجمال ، تتمتع للعناصر الراديكالية والديموقراطية التي ظهرت في السنوات الأخيرة . فقد تجمع في الفندق الألماني (لقد كانت تعرف هذه الأحزاب من المكان الذي تجتمع فيه) حول روبرت بلوم وكانوا يرون ان يطبق في المانيا ، مع الوحدة ، برنامج متقدم جداً بالديموقراطية . ومع ذلك فقد كانوا يقبلون أيضاً الاعتراف بوجود ملكيات ، وبعدم تقويضها حتى انه في هذه المجموعة التي اجتمعت في الفندق الألماني ، انفصل بسرعة الديموقراطيون المتعنتون الذين ظلوا مخلصين أوفياء لمثلهم الأعلى الثوري وهو تركيز جميع السلطات التنفيذية والتشريعية في فرنكفورت ، والسيادة البرلمانية ، الجمهورية . وكان الزعيمان برنتانو

وتسيّز ؛ يجتمعان في دونوسبرغ . وستعرضها الحركات الثورية ، الحركات الاجتماعية التي قامت في ألمانيا ، للخطر أكثر مما تدعمها .

اليمن . - وفي الطرف الآخر ، في اليمن ، انعقد اجتماع في دارة بطوس ، ثم في مقهى ميلاني . وكان برنامج اليمن أن يقتصر البرلمان على دوره التأسيسي الذي يجب أن يتم باتفاق مع الحكومات . ورفضوا في البرلمان كل سلطة تنفيذية . وبالجملة كانت هذا اليمن يضم النعرات المعارضة لصهر الدول في ألمانيا . ووجدت له فرق مختلفة . وجد البروسيون حول رادوفيتز وفينكيه . ووجد البافاريون ، حول لاسولكس ؛ والمهانوفويون ، حول ديتمولد ؛ وغمساويو اليمن حول شميرلنغ الرئيس النمساوي السابق في الديايط ، وأمر رجال البرلمان وأكثرهم خبرة . وإلى جانب هذه الفرق ذات النعرة الخاصة ، كان اليمن يتألف من اكليركين من جميع المذاهب .

الوسط . - وبين هذين الطرفين ، يتألف الوسط من كتلة النواب ، وكان يرغب مخلصاً بالوحدة والحرية معاً ، غير أنه كان مضطرب الأفكار ، وعلى العموم محافظاً ، وبالتالي يفزع من الحركات الشعبية . وكانت فيه جميع الدرجات الممكنة للحرية والقومية والحفاظة . ويضاف الى ذلك تعاطف الأصل ، وقضايا التكتيك ، ولذا كان الوسط مقسماً الى جماعات ذات موقف مضطرب ومتناقض . وعلى العموم ، وجد انقسام بين جماعتين : الوسط الأيمن والوسط الأيسر .

كان الوسط الأيمن يتألف من حزب الدولة الاتحادية السابق ويلتف حول هنري غاغيرن . إلا أن هنري يلتف غاغيرن هذا أصبح رئيساً للبرلمان ، وبالتالي لا يستطيع أن يوجه الحزب فعلاً . وكان الحزب يجتمع في كازينو ، ويضم النظرين الأساسيين من انصار الاصلاح الدستوري والحرية في

الدول ، بتعاون الأمراء والشعب . وكان الجميع متفائلين ، وهذا قوة ، ولكن لم يكن لديهم حس بالواقع ، وهذا ضعف . ونجد بينهم دالمان ودرويسن المؤرخين ، واسرمان وماتي مؤسسي « الجريدة الألمانية » وفيلكر وميفيسن .

واجتمع الوسط الأيسر في فندق فورتامبرغ . وكانت أفكاره افكار الوسط الأيمن ، ولكنه كان يلح في اتجاه السيادة القومية على طبقتين ، أما في الدول وأما في التنظيم الألماني . كانوا ملكيين وبرلمانيين ، وأنصار تحديد الاستقلال الذاتي للدول أكثر مما يريد الوسط الأيمن . وكانوا من كبار العاملين ، وسيطروا بصورة خاصة في اللجان ، وأهم زعمائهم ويجير وفيشر .

وكان كل حزب من هذه الأحزاب ، ومن الممكن القول ان كل نائب من هؤلاء النواب يؤكد قناعاته واعتقاداته في موجة من الاقتراحات والخطب . وقدفقت العرائض من جميع أجزاء المانيا . ووجهت جميع أنواع الأسئلة إلى برلمان فرانكفورت . حتى انه توجب مضاعفة عدد أعضاء لجنة العرائض ، وكل هذا يدل على روح قومية حارة ، وإيمان عريض بصير المانيا القومي ، ولكنه كان في الوقت نفسه بادرة صعوبات عظيمة عملية .

وكانت ينتظر الكثير من نواب فرانكفورت ، حتى انهم أنفسهم كانوا مستعدين للقيام بالكثير ، وأول خطأ لهم زعمهم القيام بسياسة عظيمة . الحكومة المؤقتة . - كان يراد في البدء تشكيل حكومة مؤقتة على الأقل : وقد أراد النواب في حماسهم واندفاعهم الأول أن يؤكدوا سيادتهم . وفي ٢٧ أيار ، بعد أربعة أيام من المناقشات ، صوت المجلس على اقتراحين مبدئين ، وقال عن نفسه بأنه « هيئة أرادة الامة الألمانية وانتخابها لتأسيس وحدة المانيا وحريتها السياسية » .

أما المبدأ الذي اعتمد عليه فهو أنه يعتبر نفسه ممثلاً لسيادة الأمة الألمانية . وأضاف : « ان دساتير الدول لا تكون مقبولة إلا في الحد الذي تكون فيه على اتفاق مع العمل التنظيمي لبرلمان فرنكفورت ، ؛ وهذا يعني ، بعد العودة إلى الاتجاه الليبرالي ، الالتزام الذي فرضه ديباط ١٨٣٢ ، بعد الثورة ، على الدساتير الألمانية : فقد صرح بالاحتوي هذه الدساتير ما يعاكس التنظيم الملكي للديباط ، أي ان برلمان فرنكفورت خص نفسه بحق تنسيق النظم المختلفة في الدول الخاصة .

وحتى ذلك الحين كانت السلطات القديمة مستمرة في ممارسة السلطة في ألمانيا ، أي أما الحكومات المحلية وأما الديباط . ولم يؤخذ أي اعتبار للعمل السابق الذي قام به الديباط والخمسون والمؤتمر التحضيري (الفوربارلمان) ، ونوقشت مقترحات جديدة . فقد وجد ستة عشر اقتراحاً لأشكال الحكومات الخاصة ، و ٢٢٣ خطيباً لمناقشتها . ونظر في جميع الحلول الواحد بعد الآخر ، وأخيراً جنببت جميع الترتيبات الممكنة . وبعد اسبوعين لم يتوصل إلى شيء . وفي ٢٤ حزيران اقترح هنري غاغيرن أشياء واضحة دقيقة وذلك بأن يشكل المجلس نفسه حكومة لجميع ألمانيا ، وأن يعهد بها مؤقتاً إلى نائب الامبراطورية ، واقترح الأرشيديوق جان . وتؤلف هذه الاقتراحات تسوية ترضي فكرة السيادة لأن المجلس يسمى الحكومة ، كما ترضي المبدأ الملكي ، لأن الحكومة أسندت إلى نائب الامبراطورية ، وهذا يفترض وجود امبراطورية ، وامبراطور ، وأخيراً التقاليد الهابسبورغية ، لأن الأرشيديوق انتخب ليكون نائباً للامبراطورية .

انتصر الاقتراح ، بعد أن جنببت الموافقة الضرورية الدول بـ ٧٧ صوتاً مقابل ٣١ . وهكذا نرى أن البرلمان يريد أن يؤكد تفوقه على الحكومات

المحلية . وجنبت الجمهورية بـ ٣٥٥ صوتاً مقابل ١٧١ . وصوت على قرار تسمية نائب الامبراطورية بـ ٤٠٥ أصوات مقابل ١٣٥ ، وانتخب الأرشيديوق جان بـ ٤٣٦ صوتاً مقابل ٥٢ إلى هنري غاغيرث الذي لم يكن مرشحاً ، و ٢٧ امتناع من أقصى اليسار الجمهوري . وتم انتخاب الارشيديوق في ٢٩ حزيران . عندئذ ألغي الديباط بـ ٥٧٠ صوتاً مقابل ٣٥ . وصوت على مسؤولية الوزراء ، وعدم مسؤولية نائب الجمهورية ، كما لو كان ملكاً دستورياً إلا أن الارشيديوق جان مازال ، لبضعة أسابيع ، مضطراً إلى البقاء في النمسا بسبب وظائفه ، ولا يمكنه أن يأتي إلا في آخر تموز ويشكل وزارته ، وقد شكلها من برلماني الجنوب والمنطقة الرينانية ، يضاف لهم شميرلنغ ، مندوب النمسا ، وترأس الوزارة البرنس الليبرالي فون لاينينغن . وكانت هذه الحكومة أول حكومة ألمانية .

جيش ألمانيا . - ولكن برلمان فرنكفورت لم ينتظر تشكيل حكومة ليؤكد إرادة عظمة ألمانيا ويجاوب أن يعطي لألمانيا أداة السياسة العظيمة ، أي الجيش . ولم ينظر إلى هذا الجيش ببساطة كجيش حماية اتحادية دلت الأحداث على ضرورته بمحاولات الثورات الجمهورية ، وإلما كجيش حقيقي لألمانيا . واقترحت لجنة الحرب ، التي يرأسها فريدريك - تيودور فيشر ، في ٧ تموز ، أن يشكل الجيش القومي بزيادة ٢٪ على جميع جنود الدول . وأخيراً تقرر أن يشكل الجيش القومي باقتطاع ٢٪ من الجيوش المحلية . وعندما أريد إعداد هذا الجيش ، اصطدم بمعارضة الجيوش المحلية ، وفي الواقع ، لم يتوصل مطلقاً إلى تنظيم الجيش القومي . ولكنهم لم يريدوا جيشاً فقط ، وإنما أرادوا اسطولاً أيضاً : فقد شعروا بالذل من تفوق الأسطول الدنياركي ، في الباطيك ، على البروسيين ، وارتفعت

في ألمانيا كلها حركة غير عادية لصالح الاسطول ، ولا سيما عند شعب لم يكن له في أي وقت مضى اسطول ، وهو مع ذلك قاري بصورة أساسية . وتألفت لجان في كل مكان لصالح الاسطول ، وانعقد مؤتمر للأسطول في هامبورغ في ٣١ أيار ، وأشتت لجنة الاسطول سفناً من انكلترا ومن هولنده ، وسلحت سفن مساعدة في بريم ولوبيك ، وشرع بإنشاء سفينة خط كبرى في هامبورغ . بصوت البرلمان على اعتماد ستة ملايين مارك لإنشاء الاسطول دون أن يعلم كيف يمكن الحصول على هذه الستة ملايين .

البرنامج الألماني الجامع . - وفي الوقت الذي كان فيه برلمان فرنكفورت ينشئ وسائل السياسة العظمى كان ينادي ببرنامج حقيقي جرمانى جامع . ولقد رأينا أنه استنجد بالبوهميين ، وتعاون النمسا . وأراد أن يضم إلى ألمانيا جميع البلاد الناطقة بالألمانية ، ورحب بالقرار البروسي الذي يفصل المناطق الناطقة بالألمانية من بروسيا البولونية ، وقبل نواب هذه المناطق في البرلمان . وفي ٢٦ آب ، أبعد اقتراحاً لصالح إعادة تأسيس بولونيا ، وأدخل بروسيا البولونية في الكونفدراسيون . وقبل نائين من ليمبورغ ، وصوت ، في ١٩ تموز ، على إرسال بعثة إلى حكومة البلاد المنخفضة للمطالبة بحذف القانون الأسامي أي الدستور الهولاندي ، في ليمبورغ واللوكسمبورغ ، هذين الاقليمين اللذين يعتبران ألمانيين ، وأراد إقامة جنود في الاقليمين . ووجد منهم أنصار لضم البلاد الاخرى ، وطالبوا بالتيرول والكانتونات السويسرية الشرقية ؛ وهلل رادوفيتز مصرحاً بأن الحدود الألمانية على نهر المنسيو ، أي إن المملكة اللومباردية - البندقية تؤلف جزءاً من ألمانيا ، كما في زمن فريدريك - بارباروس . وطالب نائب بالألزاس ، باسم حقوق اللغة الألمانية . وفي قضية الدوقيتين

نخمس البرلمان للمطالبة بهولشتاين وشلزفيغ ؛ وهاج ضد هدنة ٢٦ آب . وبعد مناقشة عنيفة ، في ٤ ايلول ، رفض البرلمان المصادقة على الهدنة بصوت دالمان ، ب ٢٣٨ صوتاً مقابل ٢٢١ . وهذا ماسبب استقالة وزارة لاينينغن . ولكن دالمان لم يستطع التوصل إلى تشكيل وزارة اخرى ، واضطر البرلمان إلى العدول عن تصويته ، في ١٦ ايلول ، بطرح حرب الدانبارك ب ٢٥٨ صوتاً مقابل ٢٣٧ ؛ وعندئذ أعيد تشكيل الوزارة السابقة برئاسة شمير لينغ .

وعبر عن هذا الهياج الوطني ، الذي أثاره تصويت البرلمان ، بمحاولة ثورة جمهورية ، وثورات : فرنكفورت في ١٨ ايلول ، وكولونيا في ٢٥ ، وحركة شتوف في سبيل الجمهورية الاجتماعية الالمانية . وتبنى برلمان فرنكفورت النظرية التاريخية واللغوية في القومية ودفعها حتى النهاية . وهذا الموقف الجامع للجرمان كان من نتيجته تحويل الرأي الاوربي ضد ألمانيا : فقد احتجت هولنده في ١٠ آب ، وبلجيكا في ١٩ ، ضد مزاعم البرلمان في ليمبورغ واللوكسمبورغ ؛ واحتجت فرنسا ، في ٩ حزيران ، ضد دمج المناطق البولونية ، ولقد رأينا أن باستيد أبدى قلقه من هذه الحركة الوحدوية الالمانية . واحتج سكان بوهيميا والتيروول وحتى تريستا ، لأن بعض الالمان كانوا يطالبون بضم تريستا ، على هذه المزاعم . وأخذت انكلترا وروسيا على عاتقها ، باتفاق مع فرنسا ، حماية الدانبارك .

وهكذا نرى ان برلمان فرنكفورت ألقى بنفسه ، دون كثير تفكير ، في سياسة توسع كبرى . وفي الوقت نفسه ، انطلق في عمل تشريع مركزي ، وطمع في أن يخص نفسه بسلطة التشريع ويخضع الدول إلى تشريعه . واندفع دون أن يهتم بحقوق الدول ، أو بوسائل التنفيذ .

وأنشأ الارشيدوق ووزارته بوروقراطية (ديوانية) امبراطورية ، بل وفي آخر آب ، تمثيلاً دبلوماسياً في الخارج ، إلا أن الحكومات الاجنبية لم تقبل الاعتراف به . وفي ٢٠ ايلول صرح بلاغ بأن القضايا العامة (المشتركة) خاصة بمفوضي الامبراطورية ، وعين مباشرة خمسة مفوضين لغرب وجنوب ألمانيا . وفي ٢٢ ايلول صرحت وزارة العدلية بأن الملاحقات والاحكام على جنح الصحافة يجب أن تتم باسم حكومة الامبراطورية . وفي ٣٠ تشرين الاول ارادت وزارة الداخلية أن يعرض عليها نظام جميع الجمعيات السياسية ، وفي ٧ تشرين الأول ، ان تؤمن لنفسها الاشراف على ممارسة حق الاجتماع . وفي ٢٢ ايلول وضع البرلمان خطة الوحدة التجارية ، وفي ٢١ تشرين الثاني صوت على إلغاء الجمارك الداخلية ، وهذا ما أثار أنواعاً من الصعوبات العملية ولم يؤد إلى شيء . وفي ٢٢ كانون الاول ، حدد بسلطته الضرائب التي يتوجب على الدول دفعها لتغذية موازنته . غير أن الحكومات لم تأبه لذلك ، ولم يعش برلمان فرنكفورت ، من وجهة النظر المالية ، إلا بما بقي في صندوق الديباط .

مقاومة الدول الألمانية . - أما الحكومات ، التي كانت أقل فزعاً من الثورة بما في البدء ، وتشجعت بمقاومة النمسا وفريدريك - غليوم الظافرة على الثورة ، فقد تبنت ، حيال هذه السلطة التشريعية لبرلمان فرنكفورت ، المقاومة السلبية وأحياناً المقاومة الايجابية . وفي ١٨ ايلول بدأ ملك بافاريا وملك فررتامبرغ بالتحدث عن الموقف المشترك الذي يجب اتخاذه لمقاومة برلمان فرنكفورت . وفي ١٤ تشرين الأول اطرحت الدول دعوة لجنة التشريع في الارتباط مباشرة بحكومة فرنكفورت لجذف حكومتها المحلية . ونشبت منازعة عنيفة مع النمسا في ١٢ تشرين الأول :

فقد سمت حكومة الامبراطورية مفوضين للأقاليم الألمانية في النمسا . فاستقبلا استقبالاً سيئاً عند وصولهما إلى النمسا . وفوق ذلك ، أراد هذان المفوضان أن يحشرا وسطتهما بين الحكومة النمساوية ورعاياها . وأرسل أربعة نواب من فرنكفورت لهذا الغرض ، وكان منهم روبيوت بلوم . ووصلوا إلى فينا في ١٧ تشرين الأول وزجوا بأنفسهم دون تبصر في النزاع ، في الوقت الذي استعاد فيه فيند شغرائتز فينا ، في ٣١ تشرين الأول . فلم يراع هذا أحداً ، وأعدم روبيوت بلوم بالرصاص ، في ٩ تشرين الثاني وفي الحريف أي في الوقت الذي أصبحت فيه الحكومات في كل مكان سيدة الموقف ، وجد برلمان فرنكفورت الوسيلة لأغاطة أوربة ودول ألمانيا كلها تقريباً .

الدستور . - كل هذا يجري ولم يباشر البرلمان عمله الأساسي ، وهو الدستور . إلا أنه في ١٩ تشرين الأول بدأ هذا العمل أي في جلسته المائة . واخذت التعقيدات تتدفق . وقد أريد ، قبل الدستور، التأكيد على حقوق الألمان الأساسية . وفي هذه النقطة ، نجدنا أمام عمل لجنة الدستور ، وقد دام هذا العمل ثلاثة أشهر ، وتم الاتفاق تقريباً على الخطوط الكبرى ، ولم يتحمل ذلك مناقشات كبيرة ، وانتهى كل شيء في آخر تشرين الأول . وهذه الحقوق الأساسية هي : المساواة أمام القانون ، حرية الصحافة ، والاجتماع ، والتعليم ، والدين ، واستقلال القضاء ، والاستقلال الذاتي للمدن (قومون) ، والمبدأ التمثيلي في جميع الدول . وأذاع غاغيرن ، وقد أصبح وزيراً ، هذه الحقوق ، في ٢٨ كانون الأول ، كقانون للامبراطورية . وهي تؤلف نوعاً من حق ألماني عام يتضمن المساواة في التمتع بهذه الحقوق من كل فرد ألماني مهما كانت قوميته الخاصة في ألمانيا : بافارياً ، بروسياً ، الخ ... ومن جهة أخرى ،

وطد هذا الحق العام تحرير الفرد تحريراً حقيقياً ، والتحرير من كل العبوديات التي ثقلت عليه بما فيها استحالة الانتقال والذهاب الى الخارج ؛ وقد وضع حق الهجرة ، والتجحر من كنائس الدولة والمدارس الدينية ، والتحرر من اضطهادات الاغلبية من الأجانب من الأعراق الأخرى . وهذه الحقوق الأساسية هي القسم الدائم من عمل برلمان فرنكفورت .

تنظيم السلطات . - ولكن كان من الصعب تنظيم السلطات . فقد بدىء بمعالجة قضايا دقيقة وفريدة . وكانت هذا عمل كل آخر سنة ١٨٤٨ . ولم تلغ الدول حتى ذلك الحين ، وظلت كما كانت عليه في الربيع وفي الصيف ، وبدأت برد الفعل أو باتخاذ احتياطاتها ضد طغيان البرلمان . وارتسم في ألمانيا الجنوبية عداء لكل حل مركزية ؛ وفي ٢٢ ايلول أعلنت بافاريا معارضتها بعناد لتسمية العامل الألماني ؛ وفي آخر تشرين الثاني ، أرسلت رسولاً الى شفاترزابرغ لتطلب دعمه ضد ترتيب برومي وضد مركزية فرنكفورت ؛ وفي كانون الأول ، أعلنت فرنسا وانكلترا بأنها لن تعترف بحكومة بروسية ألمانية ؛ وفي كانون الثاني ، أعلنت برلين بأنها ترى بالآ تخرج النمسا من ألمانيا . ووجدت صدى لما تقول عند جارتها في فرتامبرغ ؛ واتفقت فرتامبرغ وبافاريا ، في ٢١ تشرين الأول ، على شكل ديركتوار جماعي وفاوضتا الحكومات الأخرى بهذا الحل حتى كانون الأول . وكان فريدريك - غليوم الرابع متقلباً دوماً في افكاره ؛ فقد نشر مذكرات متناقضة ، وأكد ، على لسان بعثة في النمسا ، بأنه لا يتصور مطلقاً قطيعة بين النمسا وألمانيا . إلا أن ، مذكرة من حكومته ، في ٢٧ كانون الثاني ، عرفت برلمان فرنكفورت بأن النمسا إذا اتصلت ، فان بروسيا تقترح بأن تقوم مقامها ، وطالبت بالمكافة التي يستحقها وضعها وأهميتها ، وصرحت بأنها مستعدة

لان تقدم لألمانيا جميع الخدمات التي تطلب منها . وفي الواقع ، ان توطيد سلطة الملك في داخل بروسيا قد أعطاه قوة أكبر إزاء الدول الألمانية الأخرى .

أما النمسا ، فقد كانت آخذة بالهوض : وكان شفارتزانبورغ يرى توطيد وضع النمسا في ألمانيا وفي إيطاليا كما كان قبل الثورة . وفي ٢٦ تشرين الأول أعلم نائب الامبراطورية بأن النمسا لن تخرج من ألمانيا . وفي ٢٨ كانون الأول ، سلم شميرلينغ مذكرة تعليقات : فقد طلب أن تترك له أيضاً مهلة ستة أشهر ؛ وستعمل النمسا كعضو في الكونفدراسيون ، بتعاون مع برلمان فرنكفورت ، ولكن من المتوجب الانتظار حتى تنهي دستورها الخاص لتثبيت الدستور الألماني . وفي ١٥ كانون الأول ، انسحب شميرلينغ من الوزارة وحل محله في الرئاسة هنري غاغيرن . وفي الواقع ، فرط برلمان فرنكفورت بالوقت الذي كان فيه سيد عمله الوحيد ؛ أما الآن فعليه أن يحسب حساب الحكومات ، ولا سيما في هذا الوقت الذي وضعت فيه قضايا دقيقة في التنظيم العام .

وتفتت الأحزاب : انقسم حزب الوسط الأيسر ؛ وفزع أربعون نائباً من الحركات الاجتماعية فانضموا الى اليمين ؛ وكان اليسار في شقاق منذ بعثة روبييرت بلوم في فيينا . وتشكل فريق آخر ، في البرلمانات ، وهو فريق مماثلي مع زمرة نعرويين من الجنوب انفصلوا عن الوسط وشكلوا حزباً رجعياً خاصاً ، لأنهم أرادوا أن يرجعوا الى حالة الأمور السابقة . وازداد اضطراب الأحزاب . وكانت هذه الظروف سيئة للمناقشات الدستورية الكبرى .

قواردا المبدأ . - وفي ٢٧ تشرين الأول ، اتخذ البرلمان قراراتين

مبدئين :

١ - لا يمكن لأي جزء من ألمانيا أن يتحد في دولة مع بلاد غير ألمانية .

٢ - إذا كان لبلد ألماني ولبلاذ غير ألمانية سيد واحد ، فإن علاقتها لا تكون إلا اتحاداً شخصياً .

وبهذين القرارين وضع برلمان فرنكفورت القضية النمساوية . وقد أثار مقتل روييرت بلوم استياءً شديداً في ألمانيا ، وكان غاغيرن يدعم الفكرة البروسية . ولذا أجاب برلمان فرنكفورت بمزاج ميء على اقتراح سفارتزانبورغ في انتظار النمسا ريثما تنهي تنظيمها الجديد الخاص لتعمل في التنظيم الألماني . وصوت ب ٢٦١ صوتاً مقابل ٢٢١ ، على الدخول في علاقات دبلوماسية مع النمسا ، وبتعبير آخر ، على اعتبار النمسا دولة أجنبية عن ألمانيا . وعلى العكس ، اقترح سفارتزانبورغ على البرلمان ، في ١٧ كانون الثاني ، خطة كونفدراسيون أوربة الوسطى ، لا كونفدراسيون ألمانيا وحدها ، المقسمة إلى ست دوائر ، وتؤلف النمسا فيها دائرة .

القروادات الكبرى . - اتخذت القرارات الكبرى في قراءتها الأولى في سياق شهر كانون الثاني : جنب مبدأ الديركتوار ، مبدأ رئيس الجمهورية المنتخب بأكثرية قوية . وفي ٢٥ كانون الثاني صوت على لقب الامبراطور لسيد ألمانيا ب ٢١٤ صوتاً مقابل ٢٠٥ . ولكن ورائة اللقب اطرحت ب ٢٦٣ صوتاً مقابل ٢١١ . وفي اليوم التالي ، ٢٩ كانون الثاني ، صوت على مبدأ نظام مجلس امبراطورية الدول ، ولكن لم يقرر عدد الممثلين ، ولا عدد الدول التي تسهم في مجلس الامبراطورية . وفي ٢٨ كانون الثاني ، انتهى التصويت على القراءة الاولى ، وعندئذ دعا غاغيرن ، بيلاغ ، الحكومات الألمانية أن تبدي رأيها في المشروع . وفي الفترة من ١٥ شباط

إلى ٢ آذار ، وبانتظار أجوبة الحكومات ، ناقش البرلمان القانون الانتخابي .
و درس فيه مختلف الأشكال .

وهكذا ، انتهى في آخر كانون الثاني رسم الدستور . ولكن هذا الدستور وضع في الاضطراب . لأن القضايا الأساسية ، أي موقف بروسيا والنمسا ، لم توضع . ووجدت المناقشات أمام جزع الحكومات المحلية ، التي صدمتها مزاعم البرلمان التشريعية . وأخيراً وضع هذا الدستور في وسط قلق أوروبية ، وفرنسا وأنكلترا ، وأيضاً روسيا التي اتخذت موقفاً واضحاً : فقد أعلم القيصر بشكل قاطع بأنه لايعادي فقط سياسة برلمان فرنكفورت في الجامعة الجرمانية ، لأن هذا بديهي ، وإنما الوحدة الألمانية . وقد قال ذلك في حزيران ، وكرره في منتصف ايلول ، ودعم النمسا صراحة في سياستها التسلطية وإرجاعها الأمور في دولها إلى ما كانت عليه في السابق . وفوت برلمان فرنكفورت الوقت الذي كان يستطيع فيه فرض الدستور . وفي شهر آذار ، افتتحت الأزمّة الكبرى التي أدت إلى فشله ، أزمّة التاج الأمبراطوري

٣ — الأزمّة الامبراطورية وانقراض البرلمان

الوحدة الألمانية بشكلها الامبراطوري — تغيرت الحال فجأة في درامة الوحدة الألمانية في شهر آذار ١٨٤٩ : فقد وقف البرلمان ، في ذلك الحين ، أمام مشكلة رئيسية ، وهي تعريف البلاد وامتيازات التاج في السلطة المركزية . وتصنف الأحزاب ، في هذه المشكلة ، كما يلي : في بداية شباط ١٨٤٩ تأسس فريق يسمى « الألمانيون الكبار » ، ويتلخص برنامجهم في أنه يجب على ألمانيا أن تحتوي النمسا ، وأن يوجه التنظيم

الفيدرالي من قبل حكومة تتألف من أكثر من سبعة أعضاء وعلى رأسها (ناظر) الامبراطورية ، ويكون بالتوالي ، كل ثلاثة أعوام ، امبراطور النمسا وملك بروسيا . ورداً على تشكيل هذا الفريق تألف في ١٧ شباط فريق « الالمانيون الصغار » ، وهؤلاء يريدون تأليف دولة ألمانية خاصة ، ويجبونها صغيرة وخاصة ، وبالتالي ، دون النمسا ، ويعطونها شكل امبراطورية وراثية . ولكن لم يكن هذا الحزب أو ذاك عظيماً حتى يشكل أكتربة البرلمان فمن جهة الالمانيين الكبار وجد من ١٢٠ إلى ١٣٠ نائباً ؛ ومن جهة الالمانيين الصغار وجد أكثر من ذلك من ٢٢٠ إلى ٢٣٠ . وفي هذه الشروط كان القرار تابعاً لأقلية ثالثة ، لليسا ، حسباً يقرر لهذا الحل أو ذاك .

توافدت تدريجياً أجوبة الحكومات على بلاغ غاغيرن المؤرخ في ٢٨ كانون الثاني . وكان الرأي العام في ألمانيا ، بكتلته ، يريد الاتحاد القومي ، وضغط على الحكومات . ففي بافاريا ، كانت بالاتينا وفرنكونيا وحدويتين وديمقراطيتين . وعلى العكس ، ظلت بافاريا العليا انفصالية ومحافضة ؛ ولكن البرلمان البافاري قرر في ٧ شباط ، لصالح الدستور الامبراطوري . وفي فرتامبرغ ، في هانوفر ، في ساكس ، شلت المجالس الحكومة المحافظة وذات النعرة المحلية الانفصالية ، وضغطت لتأييد الدستور الامبراطوري . وفي بروسيا ، انقسم الرأي ، ولكن ، بشكل عام ، تقدم الرأي المحافظ تقدماً محسوساً ، وفي الانتخابات التي جرت في بداية السنة وافقت الهيئة الانتخابية على الانقلاب الملكي الذي تم في ٥ كانون الأول

وفي آخر شباط صرحت ست وعشرون دولة بقبول الدستور الامبراطوري ، مبدئياً ، مع بعض التعديلات التي يجب أن تدخل عليه . وفي بداية آذار ، أعربت بافاريا عن رأيها لصالح ديركتوار من خمسة تاريخ الحركات القومية (٢٧)

أعضاء . وفي ٩ آذار وصل جواب سفارتزانبورغ ، وكان جريئاً : فقد كان يرى في أن تدخل النمسا بكاملها في الكونفدراسيون ، وليس فقط البلاد التي كانت تؤلف سابقاً جزءاً من الإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة ، وأن يوجه هذا الكونفدراسيون هيئة من سبعة أعضاء ، ترأسها النمسا ، وتضم هذه الهيئة ممثلي النمسا وبروسيا ، ولكل منها صوتان ، وبافاريا ، ولها صوت واحد ، وتتقاسم الدول الألمانية الاخرى بقية الأصوات . وأن تنظم هيئة دول ، إلى جانب ديركتوار السبعة أعضاء ، وتتألف من مندوبي المجالس ، ويكون للنمسا في هذه الهيئة ٣٨ ممثلاً ولألمانيا ٣٢ . وهذا يعني ، دون مواربة ، الاعتراف بأرادة سيطرة النمسا على ألمانيا .

وأعربت ألمانيا بمجموعها عن رأيها لصالح الوحدة بشكل امبراطوري . وزعمت النمسا أن تسيطر بكتلتها على ألمانيا وتشرف عليها . وفي الوقت ، الذي كان فيه سفارتزانبورغ يعلن دستور ٤ آذار الذي يعيد بناء النمسا ، وضع وجود النمسا نفسها على بساط البحث عندما اهتزت هونغاريا وأخفق فيندشغرااتز .

أثار جواب النمسا ، في فرنكفورت ، رد فعل شديداً : ففي ١٢ آذار اقترح نائب باد ، فيلكر ، أن تحذف المناقشة الثانية للدستور ، وأن يخص التاج الامبراطوري ، مباشرة ودون انتظار ، بملك بروسيا . فرد اقتراحه ، في ٢١ آذار ، ولكن بأكثرية ضعيفة : ٢٨٣ صوتاً مقابل ٢٥٢ . وفي الحقيقة ، إن مبالغة مزاعم سفارتزانبورغ وجهت المترددين في برلمان فرنكفورت ، نحو بروسيا . ثم أعيد النظر سريعاً بالدستور . وأدخلت عليه بعض التعديلات التي أعطته طابعاً أكثر ليبرالية : أدخل فيتو التعليق في الدستور عوضاً عن الفيتو المطلق ؛ وصوت على وراثة التاج الامبراطوري بأكثرية أربعة أصوات فقط . وأخيراً حذف مجلس

الامبراطورية الذي نص عليه في المشروع الأول وانتهى الدستور ، ونشر في ٢٧ آذار ١٨٤٩ . وشكل ألمانيا مع حكومة امبراطورية مثل ألمانيا تمثيلاً دبلوماسياً في الخارج ، وتوجه السياسة الخارجية ، وتنظم القوى العسكرية الألمانية ، وأخيراً السلطة التشريعية والسلطة الاقتصادية العامة . وعهد بهذه الحكومة إلى امبراطور وراثي له القيادة العليا للجيش ، ويتمتع بحق الفيتو التعليقي على المشاريع التي يصوت عليها البرلمان ، وبحق حل البرلمان . ويتألف البرلمان ، أو الريخشتاغ من مجلسين : مجلس الدول ، ويتألف نصفه من ممثلي الحكومات ، والنصف الآخر من ممثلي الشعوب ، ويمثل الدول الخاصة في الامبراطورية ؛ ومجلس الممثلين ، وينتخب بالتصويت العام .

وانتهى الدستور . وفي ٢٨ آذار جرى انتخاب الامبراطور ، وانتخب فريدريك - غليوم الرابع بـ ٣٩٠ صوتاً ؛ ووجد ٢٤٨ امتناعاً ، اذ لم يشأ المعارضون أن يصوتوا ضده ولكنهم امتنعوا فقط . وفي ٥ نيسان ، استدعى سفارتزانبورغ ، بعد نتيجة هذا التصويت ، النواب النمساويين ؛ وفي ٨ منه ، أرسل إلى سفراء النمسا في ألمانيا مذكرة صرح فيها : بأن المجلس تجاوز حقوقه وإن الحكومة النمساوية لا يمكنها الاعتراف بصفة قراراته ، ولا بحقه في عمل لاحق وتعتبر هذا المجلس غير موجود . وهكذا ولد التنظيم الألماني حكومة امبراطورية بشكل برلماني وديمقراطي . وكان هذا الحادث ثورة تاريخية كبرى في ألمانيا لأن الوحدة تمت فيها ، وطردت النمسا من ألمانيا .

رفض التاج الامبراطوري . - وكان الوقت مناسباً لروسيا لتلعب مصيرها . كان يراد في بروسيا أن ينتهز الملك الفرصة ويتوأس ألمانيا : وكان مستشاروه ، وبخاصة رادوفيتز ، الأمير الملكي ، يتوسلون إليه أن

يقبل التاج الامبراطوري وكانت الوزارة ، عدا بعض التغييرات التي يجب إجراؤها على الدستور ، من نفس الرأي ؛ وتكفي المفاوضة مع الحكومات لأحداث هذه التغييرات في الدستور الذي كان مقبولا بذاته . وصوت المجلسان على رسائل وجهت للملك في المعنى نفسه ، وفعلت مثل ذلك نقابات برلين ، والمجلس البلدي . وعندما وصل وفد فرنكفورت إلى برلين لينقل اقتراح المجلس إلى الملك ، استقبله السكان استقبالا ظافرا . ومن جهة أخرى ، ضغطت المجالس في كل مكان في ألمانيا على الحكومات . واضطر ملك فرتامبرغ ، في ٢٤ منه ، أن ينشر الدستور الامبراطوري . وصرحت بافاريا ، من جانبها ، بأنها تربط جوابها بجواب النمسا . وأرجأت ساكس وهانوفر جوابها . وبالأجمال أعطت ثمان وعشرون دولة ألمانية موافقتها على الدستور الجديد .

وبينا كان الناس في بروسيا يتوسلون إلى الملك أن يقبل التاج ، كانت جماعته الخاصة تسدي إليه نصائح مغايرة : كانت بطانة (كاماريل) الأشراف والضباط التي تحيط به معادية لهذا التاج الآتي من مجلس برلماني . ووجد الملك نفسه بين رغباته في توجيه ألمانيا وصنع الوحدة ، وتقاليده العائلية والقومية . غير أنه كان في هاتين النقطتين حازما دوماً : فقد كان يقول بأن تحويل ألمانيا لا يمكن أن يكون إلا بالحكومات نفسها ، لا بمجلس شعبي . وكرر ذلك في هذه الآونة : فقد كتب في رسالة إلى مستشاره بونسن : « لا أملك أن أقول نعم أو لا ، لأنه ليس لديكم شيء تقدمونه إلي : انها قضية تحتاج إلى تسوية بين أمثالي ؛ ولا يوجد مقابل الديمقراطيين ، إلا اللجوء إلى الجنود » .

والنقطة الثانية ، التي ظهر عندها حازما دوماً ، هي أن النمسا لا يمكن أن تطرد من ألمانيا ، وان النمسا ضرورية لألمانيا . واستعلم من

الجنرال فون بفول الذي عاد من فرنكفورت بقوله : « وما الذي سيخرج من كل هذا ؟ » فأجاب الجنرال : « امبراطورية تصبح لها زعيماً ، ورد الملك « أبدأ ، أبدأ ! إنني أعلم من أنا ، ولست الأول والآخر في ألمانيا . ان النمسا تملك التاج الامبراطوري وستحتفظ به ، وستكون بروسيا سيف الامبراطور . وإنني أفضل أن أقدم الطست إلى الامبراطور ، قياماً بوظيفتي الامبراطورية ، على أن تمس يدي التاج » . وكتب إلى دالمان : « مادام هنالك أمل بالبقاء على وحدة ألمانيا والحفاظ على السبع وثلاثين مليون نمساوياً ، وترك بيت آل هابسبورغ على رأس الامبراطورية المسيحية وألمانيا ، فلن أقبل التاج الامبراطوري . خذ خارطة ألمانيا ، ولون بالسواد الدول النمساوية وانظر : إنك تفهم عندئذ السبب الأساسي لرفضني ، وآمل أن تقبله . أجر التجربة بنفسك ؛ لقد أجريتها وليس في وسعي أن أعمل غير ذلك . إن هذه الامبراطورية لن تكون إلا قطعة من ألمانيا ؛ وستسقط من ٤٤ إلى ٢٧ أو ٣٠ مليون نسمة ، غير قادرة على القيام بالعمل الذي فرضه الأزل عليها لتجابه منتصرة على الثورة في الغرب والاستبداد في الشرق » .

وعرف ، بأجوبة مماثلة ، قراره إلى رسل فرنكفورت في ٣ نيسان ، وسفير النمسا ، في ٦ منه . وطلب شهراً لأعطاء جوابه : وسيعطيه في ٢٧ نيسان .

وهكذا انفصل ملك بروسيا عن حل فرنكفورت بعقائدية كاملة : وهي أن السيادة الملكية ، في نظره ، تقف أمام سيادة الشعب ، ومفهوم الحق التاريخ المعارض لمفهوم الحق الطبيعي ، ومفهوم دور ألمانيا والنمسا حيال مفاهيم القومية الشعبية . وفي ٢٧ نيسان ، قام بعملين معبرين :

فقد رفض التاج الذي قدمه إليه برلمان فرنكفورت وأعلن حل المجلس البروسي ، مغيراً ، بقرار ، قانون الانتخاب .

اختفاق الوحدة الشعبية . - ان رفض بروسيا للتاج الامبراطوري معناه إلغاء عمل برلمان فرنكفورت . وقد حاول البرلمان أن ينفذ الدستور رغم كل شيء بدعوة الرينخشتاغ للانعقاد في ١٥ آب ، وقرر بأن تحل بافاريا ، وهي دولة ألمانية هامة ، محل بروسيا . ونصح غاغيرن الارشيدوق جان باستعمال القسر لاجبار الدول على قبول الدستور الامبراطوري ، ولكن الارشيدوق رفض ، واستقال غاغيرن ، في ٩ أيار . واستدعى فريدريك - غليوم ، كما فعل سفارتزانبيرغ ، النواب البروسيين ، في ١٥ أيار . وفي ٢٠ أيار غادر فرنكفورت ستون نائباً من الحزب الامبراطوري . وغادر باقي الحزب المدينة في ٢٦ منه . فضلاً عن أنه ، في آخر نيسان ، بدأت الحركة الثورية الكبرى الجمهورية ، وانتشرت أولاً في ساكس ، في شهر أيار ، ثم في المناطق الغربية ووضعت وجود الدول الألمانية في خطر . وأنقذ الجيش البروسي الوضع ، في ساكس أولاً ، بقمع الثورة من ٥ إلى ٩ أيار ، ثم في دوقية باد الكبرى ، وفي بالاتينا البافارية وفي هس . وانهارت قضية السيادة الشعبية التي تمثلها حكومة فرنكفورت بسبب الثورة .

ولم يبق في البرلمان ، الآن ، إلا العناصر الديمقراطية والجمهورية ، وعددهم ١١٠ تقريباً ، وفقدوا اعتبارهم في الثورة الجمهورية الاشتراكية التي قامت في الغرب .

وفي فرنكفورت وجد هؤلاء النواب أنفسهم مغمورين ومحاطين بالجنود البروسية التي احتلت دوقية باد الكبرى والبالاتينا وجاءت تكافح الثورة . وفي ٣٠

أيار قرر البرلمان أن ينتقل إلى دولة فرتامبرغ ، حيث ظلت العناصر الديمقراطية قوية ولها شوكتها . وتآلفت فيها جميعات سياسية تقدمية ، مثل « رابطات مارس » التي قامت بتظاهرات كبرى في شتوتغارت ، في ٢٧ أيار . وفكروا في أن يجدوا ملجأ في هذه الدولة الديمقراطية . وما وصل النواب إلى شتوتغارت حتى ألقوا ببيان يدعو الألمان للقيام على الاستبداد ؛ وسموا ، في ٧ حزيران ، مجلس وصاية من خمسة أعضاء لحكم ألمانيا . وأمروا بتجنيد أربعين ألف رجل لطرد البروسيين من الحصون الاتحادية في واشتات ولانداو ، وقرروا تجنيد اللاندوهر (الجيش البري) ليفرضوا احترام الدستور ، واتفق باقي البرلمان مع حركة الجمهوريين . ولذا جعل إجماع الرأي ضده : فقد أعلن ملك فرتامبرغ وحكومتها انها ضده ؛ كما أن رئيس مجلس الوزراء ، دومر ، أُنذره ، في ١٧ حزيران ، أن ينتقلوا إلى مكان آخر ، وفي ١٨ منه أمر الجنود ببعثتهم . ودعا رئيس البرلمان زملاءه للاجتماع في ٢٣ آب في كارلسروه ، ولكن البرلمان لم يجتمع فيها . ولم يبق من الحكومة التي ألفها برلمان فرنكفورت ، منذ عام ، إلا الارشيدوق ووزارته .

وهكذا أخفق حل الوحدة الألمانية بطريق المجلس الشعبي ولم تكن السيادة القومية التي ينادي بها على درجة من القوة الانتقال إلى الواقع . لقد أخفقت الوحدة الألمانية أمام عداء ملك بروسيا ، وأمام ايدولوجيا (عقائدية) الحكومات ، وكذلك يجب القول ، إنها أخفقت بسبب التواطؤ النهائي لعملها مع الديمقراطية الثورية .

٤ - الاتحاد ببروسيا

الاتحاد الضيق . - ومع هذا فان فكرة الوحدة لم تهجر بعد . فقد كانت هنالك حلول أخرى ممكنة كحل فرنكفورت في السيادة القومية . لأن قضية إصلاح الديباط كانت موضوعة دوماً بين الحكومات ، ولأن حركة الرأي لصالح القومية مازالت واسعة .

كان فريدريك - غليوم يناصر دوماً إصلاح الحكومة والديباط ليقم دولة فدرالية ويكون لها زعيماً عسكرياً ويحل محل الكونفدراسيون السابق . ومن جهة أخرى ، كان الرأي العام البروسي يدفعه لانتهاز الفرصة التي يمثلها شغور النمسا التي مازالت مشغولة بثورتها الداخلية ، ليصنع ، إلى حد ما ، الوحدة الألمانية التي قصر دونها برلمان فرنكفورت . وفي بداية أيار دعا فريدريك - غليوم الرابع الدول الألمانية إلى إرسال مفوضين فوق العادة إلى برلين للمناقشة في إصلاح الكونفدراسيون . وقال : « ان دستور ألمانيا يجب أن يكون حصيلة تعاون الحكومات والشعوب » . ووصل رسل الحكومات الى برلين في منتصف شهر أيار ، وفي ٢٦ منه وقع « اتحاد الملوك الثلاثة » : ملك بروسيا وساكس وهانوفر ، ووجه هؤلاء الملوك بلاغاً إلى الحكومات في ٢٨ منه ، ليعلموها عن اتفاقهم ويطلبوا منها قبول مشروع دستور ليعرض فيما بعد على مجلس شعبي . وفي الواقع ، ان مشروع الدستور ، الذي أعده الملوك الثلاثة ، كان ، على وجه التقريب ، دستور برلمان فرنكفورت باستثناء السلطة التنفيذية التي لم يعهد بها إلى امبراطور ، بل الى رئيس تساعدته هيئة امراء مؤلفة من ستة أعضاء ، على أن يكون المجلس الاعلى مؤلفاً من مندوبي الحكومات لا بترتيب انتخابات وتسميات حكومية .

أفادت بروسيا ، في الرأي الألماني ، من الشدة التي ردت بها الحركة الاشتراكية الثورية . ومن جهة ثانية ، وضع الوندويون جانباً قناعتهم الشخصية واجتمعوا في غوطا في ٢٥ و ٢٦ حزيران ، في مجلس شبه رسمي ضم على وجه التقريب جميع زعماء أحزاب الوسط في فرنكفورت : وقرروا إلزام الأمراء بقبول مشروع الدستور البروسي ، وقبلوا أن يضحوا بمبدأ السيادة الوطنية رغبة في الوحدة . وفي آخر شهر آب ، قبلت ثمانية وعشرون دولة اقتراحات الملوك الثلاثة . إلا أن بافاريا وفرتمبرغ رفضتا ولزمتا الحذر ولذا فإن فريدريك - غليوم لا يستطيع أن يفكر بأن يكون الدستور الألماني كما كان الاتحاد الجمركي الذي توسع شيئاً فشيئاً حتى شمل مجموع ألمانيا . وأما ما يتعلق بطريقة ملوكه فقد فعل بالإجمال كما فعل بالدستور البروسي ونجح وذلك عندما تخلص من مبدأ السيادة القومية ، ومنع ، من سلطته الخاصة ، دستوراً واستطاع أخيراً أن يجمع الرأي حوله . وقبل الدستور ثمانية وعشرون أميراً ووضع موضع التطبيق : وفي ١٥ تشرين الأول ، قرر مجلس إدارة الاتحاد الألماني تطبيق الدستور ؛ وحددت الانتخابات في ٣١ كانون الثاني ١٨٥٠ ودعي مجلس الاتحاد ، الرينخشتاغ ، الى ارفورت للاجتماع في ٢٠ آذار .

كانت هذه الانتخابات محافظة صراحة : فقد انتصر رجال الوسط في فرنكفورت مثل : غاغيرن ، بيكيوات ، فينكية . ويتألف نصف أعضاء مجلسي ارفورت من نواب بروسين . وفي ألمانيا الجديدة هذه ، التي لانضم بافاريا وفرتمبرغ والنمسا ، كانت بروسيا أعظم من غيرها من الدول بكثير ، وكان نصف أعضاء المجلسين من نوابها . وقد تلقى قسم من هؤلاء النواب البروسين أمراً بالاقبالوا مايعاكس سلامة التاج البروسي .

وهذا الموقف كما نرى يعتبر مقيداً ومحددأ ، من الوحدة الألمانية . وقد سعى غاغيرن رئيس برلمان ارفورت ، في توجيه المناقشات بسرعة لوضع الدستور . وتبنى المجلس الأدنى هذا الدستور في ١٩ نيسان ١٨٥٠ ، والمجلس الاعلى في ٢٥ . ثم تأجل البرلمان ، وهذا ماجعل للاتحاد الالماني وجوداً في الحق ، ولكن هذا الاتحاد كان ناقصاً ، ومن هنا أتى الاسم الذي أعطي له وهو « الاتحاد الضيق » .

هيئة الحكم الموقته في ألمانيا . - وفي غضون ذلك . خرجت النمسا من صعوباتها الداخلية ، في آخر آب ١٨٤٩ ، ولكنها كانت ملازمة بعد ، ولعدة أشهر ، بالحذر : فقد كان يتوجب عليها تمتين الوضع الناشئ عن النصر الروسي . وناور شفارتزانبيرغ بمهارة عظيمة ، على اعتبار أنه كان غير حر في حركاته ، وعلى اعتبار أن الارشيدوق يجسد دوام الرايخ . وكانت معارضة دول الجنوب للتفوق البروسي بالنسبة إليه قاعدة أولى لعمل ممكن . وفي الواقع ، قررت بافاريا ان تسد الطريق في وجه الطموح البروسي . وتخلص ماكسمليان ، في ١٠ حزيران ، من برلمانه ليكون طليق اليدين . ووضع مشروع دستور ألماني عارض به المشروع البروسي ، وقبلته فرتامبرغ ، ثم عرضه على الملكين الآخرين ، ملكي ساكس وهانوفر ، وأدخلت على هذا المشروع تعديلات في تموز ١٨٤٩ ، ثم في كانون الاول . وكان مبدأ هذا المشروع أن تخول الادارة الامبراطورية الى هيئة أمراء ترأسها النمسا .

وفي الأصل ، لا يستطيع شفارتزانبيرغ العمل إلا بواسطة ملكي بافاريا وفرتامبرغ ، لأنه لم يكن حراً بعد في عمله . ولذا طمن بافاريا بأن ليس لها من صديق تطمئن إليه إلا النمسا . وفي آخر آب ، اقترحت بافاريا

والنمسا أن يستعاض عن الارشيدوق بهيئة مؤقتة : ونوقش هذا المشروع مع بروسيا التي استعدت بحمق للمناقشة ، ولم تدرك بعد وجود عدم تلاؤم بين اتحادها الضيق وبين التنظيم الجديد للسلطة في ألمانيا بعناية النمسا وبافاريا . وتصورت أن تصون حقوقها مصرحة ، بأنها تفاوض باسم مجموع الاتحاد الألماني ومحاولة بأن لاتجر نفسها ، كما تريد النمسا ، إلى صعيد الحق القديم للديايط . وتدخل اتفاق بينها وبين الملوك الآخرين في ٣ ايلول ، وينص على أن يحل محل الارشيدوق لجنة من مساويين اثنين ومن بروسيين يتأسون اللجنة بالتعاقب ، وأن تمثل الدول الأخرى نفسها لديهم . وقبلت الحكومات الأخرى بهذا الحل الذي يعني تشكيل هيئة مؤقتة . وهكذا وجدت بروسيا نفسها مرتبطة بتعهدين متناقضين ، في الواقع ، حيال الاتحاد الضيق وحيال هذه الهيئة المؤقتة .

لقد سجل سفارتزانبيرغ في هذا العمل نقطة نجاح ، ولغم بشكل أصم الاتحاد الضيق ، بواسطة الأمراء الآخرين : فقد حصل من ساكس وهانوفر على أن تضا تحفظاً بحقوق النمسا المتوقعة إذا قبلتا الدخول في الاتحاد الضيق ، وعلى أن يعاد النظر في دستور الاتحاد إذا بقيت بافاريا وفرتامبرغ خارجاً عن الاتحاد . وفي ٢٥ تشرين الأول رفضت ساكس أن تقوم بالانتخابات من أجل مجلس ارفورت ؛ وحذت هانوفر حذوها . وهكذا أخذ الاتحاد الضيق ، بسبب انفصال الساكس وهانوفر ، بعد رفض بافاريا وفرتامبرغ ، صفة نوع من جامعة تجمع بروسيا مع الدول الألمانية الصغرى ، أمام الدول الأربع الكبرى في ألمانيا الجنوبية تساندها النمسا . وفقد كذلك صفته القومية الخاصة ، وأخذ صفة جامعة (عصبة) بروسية مع الدول الصغرى فقط وعصبة بروتستانتية تفزع الكاثوليك وترمح

هم إلى بافاريا والنمسا . واعتبر مكيدة دبرتها بروسيا ، عوضاً عن أن يكون حركة قومية .

وفي آخر السنة ، كانت النمسا مالكة لقواها . فقد استقدم شفارتزانبرغ من ايطاليين جنوداً كانوا في التيرول ، وكانت هذه الجيوش مستعدة للدخول ، عند مقتضى الحال ، إلى ألمانيا . وفي شهر كانون الأول ، اقترح شفارتزانبرغ ، بعد أن تخلص من قلقه الداخلي ، تسير هذه الهيئة المؤقتة التي قررت في ٣٠ ايلول . واستقال الارشيدوق في ١٤ كانون الأول ليتروك المكان لهذه الهيئة . واضطرت بروسيا أن تتحني ، لأنها قبلت ، في ٣٠ ايلول ، مبدئياً ، هذا الشكل الجديد للحكم . وصرحت مع ذلك بالألا نهم هذه اللجنة إلا في القضايا الادارية دون السياسية . وهكذا وجد في ألمانيا هيتان حكومتان : الاولى عامة لكل ألمانيا ، ولكن ليس لها إلا صفة مؤقتة ، وهي هذه الهيئة الجديدة ؛ والآخرى منتظمة وسوية من حيث الأصل ، لأنها منبثقة عن عمل دستوري وانتخاب ولكنها ضيقة ، وهي حكومة الاتحاد البروسي .

اتفاق مونيخ . - أما وقد أقيم حكم جديد في ألمانيا عوضاً عما بقي من برلمان فرنكفورت ، فقد اقترح شفارتزانبرغ ، باتفاق مع بافاريا ، مشروع اصلاح في ألمانيا : وهذا ما يسمى « اتفاق مونيخ » ، في ٢٧ شباط ١٨٥٠ . وبوجهه تحول إدارة ألمانيا إلى مجلس من سبعة أعضاء يضم النمسا ، والخمسة ملوك ، والهسّان ولها صوت مشترك . وتبنى الملوك الآخرون مشروع شفارتزانبرغ . وسلم فريدريك - غليوم الرابع وقبل المفاوضة ، في ٨ نيسان ، مبدئياً وباسم الدول المتحدة مع بروسيا بكونفدراسيون ، وباعتبار أنه يفاوض ، تخلى عن الاتحاد الضيق وعندئذ جذب شفارتزانبرغ إلى صعيد الحق القديم ؛ وباعتبار أن القصد كان يقتضي

اصلاح الكونفدراسيون القديم لذا وجب العمل حسب نظام الحق القديم . وفي ٢٧ نيسان دعت الهيئة الموقته للحكم جميع دول الكونفدراسيون الجرمانى ، بما فيها البلاد المنخفضة والدانمارك ، من أجل قضية اللوكسمبورغ ومن أجل هولشتاين ، للانعقاد في فرنكفورت في مجلس عام للديباط . وهذا يعنى تنظيماً جديداً للهيئة القديمة للكونفدراسيون السابق للثورة . وفي شهر تموز ، طلبت من الدول المجتمعة في فرنكفورت أن تسمي مجلساً ضيقاً للديباط ورفضت ، في الوقت نفسه ، النقاش مع بروسيا في اصلاح الدستور « في اجتماعات حرة » . وهكذا ، وبالتدريج ، وجدت وسيلة لبعث الديباط ، لا بشكله القديم ، بل بشكل مجلس ضيق وتخلت بروسيا تدريجياً عن مشروعها في الاتحاد الضيق . وسدت عليها المنافذ ، وكان عليها اما قبول إعادة إنشاء الديباط بشكله المقلوب الجديد واما التخلي عن الاتحاد الضيق . يضاف إلى ذلك ان معارضة ناخب هس والأميرين الصغيرين ، في الاتحاد الضيق ، علقت تطبيق دستور ارفورت ، مؤقتاً ، في ١٠ آب

تراجع اولمترز . - لقد كان وضع بروسيا حبال النمسا ، سيئاً جداً ، على الصعيد الداخلي والخارجي : ففي الداخل ، جمعت النمسا الدول الألمانية الأساسية حولها ؛ وفي الخارج ، أعلن القيصر البروسي صراحة أنه ضد الوحدة الألمانية . ولسوء حظ بروسيا ، انتهى النقاش النظري وانتقل إلى صعيد الواقع بقضية تفجرت في هس الناجية . فقد أثار ناخب هس ووزيره هاسنر فلوغ ، سياستها الرجعية ، ثورة طردتها من كاسل في أول ايلول ١٨٥٠ . ولذا وجب اتحاد هذه الثورة ، ومن الذي يأخذ على عاتقه ذلك ؟ فبموجب الحق القديم السابق لعام ١٨٤٨ ، كان يحق لبروسيا أن تمر جيوشها في الطرق على أرض هس ؛ ومن

جهة ثانية ، بموجب دستور الاتحاد الضيق ، الذي تدخل هس فيه عضواً ، يجب على حكومة الاتحاد أن تعمل ؛ وفي كلا الحالتين ، كان يجب على بروسيا أن تقوم باخماد ثورة هس . غير أن الدوق - الأكبر استنجد بالمجلس الضيق في الديباط ، ولم يستنجد بملك بروسيا ، وعين مجلس الديباط بافاريا لتقوم بالتنفيذ الفيدرالي عوضاً عن بروسيا .

كان احتجاج فريدريك - غليوم على خرق حقوقه شديداً وأعد جيشه لدخول دوقية هس . ولكن النمسا تعهدت حتى الأعماق وراء هس ، باتفاق مع ملك ساكس وفرتمبرغ وبافاريا . وفي ١١ تشرين الأول ، اتفق الملوك على التصريح بأن معارضة بروسيا للتنفيذ الفيدرالي الذي قرره المجلس الضيق للديباط يخلق « حالة حرب » . وفي ٢٠ ايلول ذهب سفارتزانبورغ إلى نيقولا الثاني قيصر روسيا إلى فارسوفيا وحصل منه على ما يؤمنه بأن روسيا تدعم السياسة النمساوية . وليعطي نفسه موقفاً جميلاً ، قبل ، مع ذلك ، بأن يناقش اصلاح الديباط ، كما طلبت بروسيا في « المؤتمرات الحرة » في درسدن ، لا في المجلس العام للديباط .

وأرسل فريدريك - غليوم ، من جهته ، رئيس مجلس وزرائه . الجنرال براندنبورغ إلى فارسوفيا ، ليحاول الحصول على دعم القيصر ، أو ، على الأقل ، على حياده . فهاج الرأي البروسي بشدة . وسادت برلين حمى حربية . وعاد براندنبورغ من فارسوفيا بجواب مبسط : وهو أن القيصر يدعم النمسا ويلزم بروسيا بالتنازل . ولم يكن بإمكان فريدريك - غليوم الرابع أن يفعل غير ذلك : فقد قرر ، في أول تشرين الثاني ١٨٥٠ ، قبول المقترحات النمساوية في مناقشة الاصلاح في مؤتمر ، طالباً ضمانات على الاحتلال البافاري لهس ، وقبل حل الاتحاد

الضيق ، بعد استشارة أعضائه . وفي الواقع ، قررت هيئة الأمراء في الاتحاد الضيق ، في ١٥ تشرين الثاني ، قبول حل الاتحاد .

وبعد أن تنازل فريدريك - غليوم الرابع عن الجواهر ، مأخوذاً بتناقضاته ، قرر ، مع ذلك ، في ٦ تشرين الثاني ، النفير العام للجيش البروسي ، وفي ٢٥ منه ، خطب أيضاً خطاباً حريماً . وبدأ الوضع على أهبة حرب بين بروسيا وبافاريا ، ووراء بافاريا ، كانت النمسا ، تدعمها روسيا .

واستطاع سفارتزانبورغ أن يعمل بشدة لهدم بروسيا ؛ فألقى انذاراً ، في ٢٥ تشرين الثاني ، يطلب فيه جلاء الجيوش البروسية عن هس . ورضي أن يستقبل في اولمتز رئيس مجلس الوزراء البروسي ، مانتوفيل في ٢٩ تشرين الثاني : وقبلت بروسيا أن تتخلى هس والهولشتاين للتنفيذ الفيدرالي وأن تعلن تسريح الجيش البروسي . وهكذا كان « تراجع اولمتز » خزيّاً رهيباً لبروسيا . ودفع فريدريك - غليوم الرابع في ذلك ثمن الخطأ الذي ارتكبه برفض التاج الذي قدمه اليه نواب فرنكفورت ؛ ولم يفهم أن عناصر الوحدة ، في المانيا ، كانت في الشعوب ، لا في الحكومات ، وأن محاولته في صنع الوحدة بالحكومات قد أدت به إلى اخفاق ذريع أكيد .

أما مؤتمر دوسدن فقد ناقش بعض الوقت حلولاً بدت مستحيلة كلها ، وبالرغم من أنه تقرر ، عند اليأس من القضية ، الرجوع ببساطة إلى الصيغة القديمة ، فقد انعقد الديباط في ٢٣ تشرين الأول ١٨٥١ ، واستأنف مناقشاته ، وكان شيئاً لم يكن ، جريباً على ما كان يفعل في عام ١٨٤٧ .

وهكذا نرى أن ثورة ١٨٤٨ ، في ألمانيا ، كانت حركة عظيمة ، وتختلف اختلافات محسوسة جداً عن الحركة الإيطالية ، التي كانت حركة الجميع ، في ذلك العصر وتشبهها كثيراً ، بهدفها ، لأن القصد ، في ألمانيا كما في إيطاليا ، كان في احلال الوحدة القومية محل تشعث الدول . ولكن الحركة القومية في ألمانيا ، على عكس إيطاليا ، دامت بشكل أطول من الحركة الليبرالية . فقد رأينا ، في إيطاليا ، أن الحركة القومية انحلت بسرعة ، وان الحركات الليبرالية استمرت أيضاً بما يقارب العام ، أما في ألمانيا ، على العكس ، فقد أخفقت فيها الحركة الليبرالية عملياً في خريف ١٨٤٨ ، وامتدت فيها الحركة القومية بشكلها البرلماني ، في صيف ١٨٤٨ ، وبشكل الاتحاد الضيق في العام ١٨٥٠ .

وكانت هذه الحركة القومية الألمانية ، من جهة أخرى ، أعمق ، وأبسط ، وأرسخ في القلوب في ألمانيا منها في إيطاليا . لقد رغب الألمان في الوحدة القومية أكثر مما رغبوا بالحرية ، ورد عندهم سراب العظمة القومية المثل الأعلى الليبرالي إلى الصعيد الثاني بسرعة ، ولكننا ، في هذه الرؤية القومية ، نرى شيئاً من الاضطراب والاختلاط ، فقد ظهرت بسرعة شهوة السيطرة بشكلها القومي . ولم يكن في هذه الرغبة شيء من البعد عن المنفعة الذي عرفت به العقائدية القومية الأصلية . لقد أصبحت الفكرة القومية ، في برلمان فرنكفورت ، حجة لاستعباد الشعوب الأخرى ، التي لم تكن لتؤلف جزءاً من ألمانيا ، ولكنها تنطق اللغة الألمانية . حتى أن برلمان فرنكفورت الناشئ عن السيادة الديمقراطية باع هذا الحق رخيصاً ، ونظم نوعاً ما حقيقة نظريته في أن القومية تعبر عن عبقرية الشعب . وهنا ، نرى ، لصالح القومية ، ظهور العواطف الغريزية والعميقة للشعب الألماني ، ارادة القوة ، وغريزة النهب والسلب . ومنذ

يبدو أي إمكان لذلك كان دوار العظمة يأخذهم فينسيهم الأسس
الاخلاقية للقومية .

وبدل درس برلمان فرنكفورت أيضاً على الصعوبة التي لاقاها الألمان
المرور من الصعيد الفكري إلى الصعيد العملي ، وللمرور من الفكر إلى
العمل . لقد بدا المفكرون الألمان الذين يوجهون برلمان فرنكفورت غير
قادرين على تحقيق مذاهبهم الخاصة بأنفسهم ، أما لأن الفكر السيامي
ينقصهم ، وأما أيضاً لأنهم ينزعون بشكل غريزي لدفع مذاهبهم حتى
النهاية : فهم يظهرون لانتصار مفاهيمهم تعنتاً عنيداً ، وهذا التعنت
صفة من صفات طبعهم . وبدأ في العام ١٨٤٨ وفي ١٨٤٩ ان هؤلاء
المفكرين كانوا بحاجة إلى زعيم ينسق فيما بينهم ويقودهم ليتمكنوا من
الوصول إلى شيء عملي . غير ان هذا الزعيم لم يكن عندهم في العام
١٨٤٩ ؛ ولذا تنازلوا ، بين يدي ملك بروسيا ، ولكن ملك بروسيا
كان غير قادر على أن يأخذ على عاتقه العمل الذي أسنده التاريخ إليه .

لقد وضعت ثورة ١٨٤٨ لألمانيا جميع القضايا التي ستوضع أمامها من
جديد في السنوات التالية : وضعت قضية الوحدة الداخلية ، أي ترتيب
العلاقات بين الدول الخاصة والحكومة المركزية التي يجب انشاؤها .
ووضعت سنة ١٨٤٨ أيضاً ما يسمى في القرن العشرين « قضية الانشلاوس » ،
أي قضية علاقات الأجزاء الألمانية في النمسا مع الدولة الألمانية . ووضعت
ثورة ١٨٤٨ أيضاً لأول مرة القضية الاجتماعية : فقد أخرجت حركة العمال
وحاجات تنظيم هذه الحركة بشكل بدائي مع هذا التنظيم المزدوج الذي
رأيناه في عالم الحرفيين وعالم عمال المصانع . هذه هي القضايا التي وضعت
تاريخ الحركات القومية م (٢٨)

أمام ألمانيا السياسية في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين أيضاً ، حتى ان حركة ١٨٤٨ ، التي أخفقت بسرعة في ألمانيا ، ظلت بالنسبة لألمانيا القرن العشرين ، مطبوعة بطابع الجدة ، وهي ان الحلول التي كان يبحث عنها في ١٨٤٩ قد وجدتها ألمانيا بأشكال مختلفة : اما بيسمارك ، أو بغيريوم الثاني ، أو بالرايخ الثالث ، وقد أخفقوا نهائياً الواحد بعد الآخر .



الختام

وهكذا وصلنا إلى نهاية هذا التحقيق الطويل ، ومن هذا التحقيق نستطيع أن نستخلص بعض النتائج :

أولاً (ان حركة القوميات ظهرت لنا عنصراً من العناصر الأساسية في ثورة ١٨٤٨ ، وعلى ضوء هذه الثورة ، نستطيع أن نسجل نتائجها . ويكفي لذلك ، أن نتحقق من الوضع في بداية القرن لئلا يرى بسهولة أهمية المسافة المقطوعة . ونرى من جهة أخرى ، في الدور الثاني ، انه لا يضاف إلى جغرافية القوميات الا بعض عناصر تفصيلية ، لأن التاريخ اللاحق لعام ١٨٤٨ لم يكن منه إلا أن وسع الحركات التي ظهرت ، ومن الممكن القول ان هذه الحركات تمت كماً ، وان هذا النمو لم يخرج عنه طبيعة جديدة . ان ما ينقص ، في العام ١٨٤٨ ، للوصول إلى حلول القرن العشرين هو قيام بعض الحركات في بلاد الشمال وفي البلقان : ففي الشمال ، في اسكاندينافيا ، ظهرت الحركات النورفيجية والفنلندية ، في الوقت الذي تفتحت فيه الجامعة الاسكاندينافية أي محاولة الاتحاد بين جميع القوميات الاسكاندينافية ، الدانماركية والنورفيجية والسويدية ، التي تلاحظ حوالي العام ١٨٦٠ . وإلى جانبها قامت ، بشكل مؤقت ، حركات قومية في البلاد البaltية دون أن تتأكد حقاً ما إذا كانت تطابق قوميات حقيقية . ومن جهة أخرى ، قامت في البلقان الحركة البلغارية إلى جانب الحركة الصربية واليونانية . ومن الممكن أيضاً ، ليكون البحث كاملاً ، الكشف عن قومية تركية أصلية خاصة ، وبصورة عامة ، في الامبراطورية العثمانية ، بعض حركات آسيوية أو منية وعربية .

لقد تجلت حركة القوميات خاصة بطاليب أقليات ، مثل مطالب

الكاتالانين ، التي كانت ترمي قليلاً أو كثيراً الى الاستقلال الذاتي أو الحصول على ضمانات سياسية . ومن الممكن القول بأن القوميات تفجرت في النصف الأول من القرن التاسع عشر ووعت نفسها ووضعت مطالبها .

ثانياً (وفي هذا الدور أيضاً ظهرت نظرية القومية . وفي غداة ثورة ١٨٤٨ وضع أول مؤلف حقيقي في درس الحقوق العامة الدولية للأستاذ مانتشيني ، في تورينو ، عام ١٨٥١ . وفي السنوات التي تلت ، صدرت عدة كتب أعطت القومية تفسيراً أو هدفاً للتاريخ . وتعلق مختلف المؤلفين بهذا المظهر أو ذاك من مظاهر القومية ، وهنا أيضاً لانجد جديداً تمكن إضافته إلى ما كنا اكتشفناه . والشيء الجديد هو ادخال فكرة التفوق العرقي ، على يد غوبينو ، واستعمال علم الحياة (البيولوجيا) في مادة القومية التاريخية . وفي الحقيقة ، ان القوميات ، منذ ١٨٤٨ ، قد كسبت كل عتادها العقائدي .

ثالثاً (وإذا رجعنا إلى النمو التاريخي الذي حللناه طويلاً ، ظهرت لنا القومية بلامع مختلفة : لقد بدا لنا أن القومية لا تتضمن بالضرورة تعبيراً سياسياً ، اذ يمكنها أن تبقى قليلاً أو كثيراً على صعيد الوحدة الروحية ، دون أن تبدي رغبة في صنع فردية دولة . وهذه هي حال القومية المفهومة بشكل ديني ؛ وهذه أيضاً حال ألمانيا زمناً طويلاً ، وحال القوميات السلافية في النمسا ، قبيل ١٨٤٨ ، التي كانت ترى في فكرة الامبراطورية حماية سياسية كافية ضد هونغاريا . ولكن من الواضح أنه ينبغي ، لبقاء هذه الفكرة القومية نظرية ، أن لاتعيق ثمرها ظروف الحكم .

في الدول القديمة التشكل ، أي في الدول التي قام فيها عمل انصهار وتلاحم العناصر الاساسية في الأمة ، حتى ولو كانت مختلفة ، كان الشكل

الأول والوحيد زمنًا طويلًا هو الوطنية . وجوهرها الأسامي هو التلاحم الروحي للجماعة ، وإرادة القبول ، وإرادة الوحدة ، وباختصار مفهوم العقد ، والرضى الإلزامي ، بين العناصر المقومة للدولة . وفي هذه الحالة ، تكون فكرة القومية في أساسها عقائدية (إيديولوجيا) عقلانية ، ولا تتصور القهر السياسي ، بل وتمثل بالنسبة له ، على العكس ، نقيضاً . ولذا كانت الحرية لها شرطاً وتتويجاً . وهذا هو المفهوم الفرنسي الأسامي للقومية .

وعلى العكس ، في الدول التي رأينا فيها القومية تتفجر في الدور المعاصر ، وبخاصة ، منذ ١٨١٥ ، نراها تنشأ دوماً من عاطفة التباين مع البيئة المحيطة ، أما في واقعها الحالي ، وأما في واقعها التاريخي ، حتى ولو نسي هذا الواقع بعض الوقت . ثم ان القومية تقوى وتتكامل ، بتوضيح نفسها ، وبالعودة إلى كل ماسجلها ، وإلى كل ما يمكن أن ينمي هذا التباين ، أي التاريخ والأدب الشعبي والاخلاق والعادات والتقاليد وغيرها . أما المطالبة بالحرية فلا تظهر إلا في المرحلة الثانية : إنها أداة نحتاج إليها القومية لتتحرر وتحقق ذاتها ؛ ولكن القومية لا تتحدد مع الحرية ، ومن الممكن أن ترفض هذه الحرية للآخرين . وهذه هي حال الهونغارين ، وفي بعض الأجزاء ، حال الالمان . ومن جهة أخرى ، إذا وجدت القومية وسيلة لتحقيق بشكل مغاير ، استطاعت أن تتخلى عن الفكرة الليبرالية ، وهذا ما سيحدث للوحدة الألمانية مع بسمارك . وهنا تبدو الصفة المميزة للحركة القومية في ترك الحطة العقلانية ، والمناداة بالعنصر العاطفي ، اللاعقلاني ، وبالغرائز التي توجهها نحو كره الآخرين ، نحو إرادة القوة ، ونحو السيطرة . وإن الشكل المتطرف لهذه العاطفة القومية هو ما يسمى النظرية القومية المتعصبة .

رابعاً (تختلف النتائج حسب الاتجاه الذي تأخذه حركة القوميات ،
فاذا ألح على العنصر العقلاني المثالي ، تمكنت حركة القوميات من النزوع إلى
اتحاد في الحرية يحصل عليه لذاته ويقبله الآخرون . وعندئذ يكون الاتجاه
عنصر تفاهم بين الشعوب التي يظهر مثلها الأعلى اتحاداً يتشكل بجرية بين
قوميات حرة . وهذا هو مفهوم نابوليون الثالث ، ومن الممكن القول
مفهوم الفرنسيين على العموم .

وإذا أصر ، بالعكس ، على العنصر اللاعقلاني والعاطفي ، وهذا مايسير
الجاهل بسمولة أكثر من العقل ، ثقفت حركة القوميات الحقد والقومية ،
ودفعت إلى تشييت الروابط الدولية ، وأدت إلى الحرب . وهذا هو مفهوم
بسمارك وبصورة عامة مفهوم الألمان .

وهكذا نلامس ، مع مبدأ القوميات ، عنصراً من العناصر الأساسية
لايضاح التطور التاريخي لأوربة بل والعالم في النصف الثاني من القرن التاسع
عشر والنصف الأول من القرن العشرين .

فهرس الاعلام

| | | | |
|---------------------|--------------------|------------------------|---|
| Arpad | آرباد | A | |
| Asachi | آزاشي | Abel | آبيل |
| Augustenburg (آل) | اغستنبورغ (آل) | Agoult (Mme) (السيدة) | آغول (السيدة) |
| Austroslavisme | النمسلافية | Adda | آدّا (نهر) |
| | ازيليو (ماكسيم دو) | Akkerman | اكerman |
| Azeglio, Maxsime de | | Albani | الباني (الكاردينال) |
| | B | Alessandri | |
| Bach | باش | | اليساندري (الشاعر الروماني) |
| Balbo | بالبو | Alexandresco, Grégoire | |
| Ban | بان: حاكم | | اليكساندريسكو (غريغوار) الشاعر الروماني |
| Barbès | باربس | Alfieri | الفيري |
| Bakonine | باكونين | Altenstein | آلتنشتاين |
| Barbier | باربيه | Aluta | آلوتا (نهر) |
| Barit (Georges) | باريت (جورج) | Ancilon | آنسيلون |
| Barnut | بارنوت | Anton, Dr | أنطون (الدكتور) |
| Barrot, Odilon | بارو، اوديلون | Apponyi | ابوني (الكونت) |
| Bassermann | باسرمان | Arago, Emmanuel | |
| Bastide | باستيد | | آراغو (ايمانويل) |
| Batthyany | باتياني | Arnim, von | آرنيم (فون) |

| | | | |
|------------------------|-------------------|---------------------|----------------------|
| Börne | بورنه | Beaumont | بومون |
| Brabançonne (La) | لابرابانسون | Bauer , Christin | باور ، كريستن |
| Bismarck | بسمارك | Beccaria | بكتاريا |
| Bixio | بيكسيو | Becker , Nicolas | بيكر ، نيقولا |
| Boinvilliers | بوانفيليه | Beckerath | بيكرات |
| Bonald | بونالد | Belgio Joso | بلجيو جوزو ، الأميرة |
| Bonhomme , Jacques | بونوم ، جاك | Belgrade | بلغراد |
| Bossuet | بوسويه | Bem , Général | بيم ، جنرال |
| Bowring , Sir John | بورينغ ، السيرجون | Benzenberg | بنزنبرغ |
| Brandburg , Von | برانديبورغ ، فون | Bezirke | بيزيركه : مقاطعة |
| Bratianu | براسيانو | Beranger | بيرانجييه |
| Brentano | برنتانو | Berchet , Giovanni | برشيه ، جيوفاني |
| Breslau | بريسلاو | Bergmann | برغمان |
| Brisgau | بريسغاو | Berthier (Gl) | برتييه (جنرال) |
| Brodzinski | برودزينسكي | Biblioteca italiana | المكتبة الايطالية |
| Broglie , de | بروي ، دو | Bignon | بينيون |
| Brouckère , Charles de | بروكير ، شارل دو | Blanc , Louis | بلان ، لوي |
| Buchez | بوشيز | Blanqui | بلانكي |
| Büchner | بوخنر | Blaï : Blaj | بلاي |
| Bugeaud , général | بوجو ، جنرال | Bleiweis | بلايفيس |
| Budapest | بودابست | Blittersdorf | بليترسدورف |
| Bundesstadt | بوندسشتات | Blum , Robert | بلوم ، روبرت |
| Bunsen | بونسن | Böckh | بوخ |
| | | Boimmel, Van | بومل ، فان (الأب) |

Cobden , Richard

كوبدن ، ريتشارد

اقتصادي وصناعي انكليزي

Coito

كوانو

مدينة على نهر المنسيو في ايطاليا الشمالية

Colomb, général كولومب ، جنرال

Comte

كونت

Consigliatore (il)

الكونسيلياتور : المشاور والناصح

Constant , Benjamin

كونستان ، بنيامين

Cotta

كوتا

Cousin , Victor كوزن ، فيكتور

Crémieux

كريميو

Czarnocki

تشارنوسكي

D

داهي اسم اطلق على الانكشارية في

Dahis (les) داشية بلغراد

Dahlmann

دالمان

Danica

دانيكا : نجم الصبح

Déak , Franz

دياك ، فرانز

Debreczen

دوبرتشن

Delessert

دوليسير

Dembinski , Général

دمينسكي ، جنرال

C

Campe

كامب

Comphausen

كامفاوزون

Cantu

كانتو

Capponi

كابوني

Carlotta

كارلوتا

Carre

كار

Carrel , Armand كاريل ، آرمان

Casati

كازاتي

Casimir - Périer كازيمير - بيريه

Cattaneo

كاتانيو

Caussidière

كوستودير

Cavaignac , godefroy

كافنيك

Cavour

كافور

Cernovicz

شيرنوفيتش

Chafarik

شافاريك

Celakovsky

سيلاكوفسكي

Celles (de)

سيل (دو)

Circourt , Adolphe de

سيركور ، أدولف دو

Chateaubriand

شاتوبريان

Chlopicki

شلوبيكسي

Chopin

شوبن

Choumadia (La)

شوماديا ، الاقليم الواقع في شرق بلغراد

| | | | |
|-------------------------|--------------------|--------------------|------------------------------------|
| Estkowski | ایستکوفسکی | Denis , Ernest | دونی ، ارنست |
| Eupen | اوپن | Després | دسپریه |
| Ewald | ایفالد | Déssewffy , Aurel | دیسوفی ، اوریل |
| F | | Detmold | دتمولد |
| Fabvier | فابیہ ، کولونیل | Devaux | دوفو |
| Failly | فایلی | Deuschtum | دوبشتوم |
| Falk | فالك | Dobrovsky | دوبروفسکی |
| Fallersleben , Hoffmann | | Donnersberg | دونرسبرگ |
| | فالیرسلین ، هوفمان | Dönhoff | دونہوف |
| La fayette | لافایت | Dorn | دورن ، العامل دورن |
| Ferintsek | فیرینتسیک | Draskovitch , Jean | دراکوفیتش |
| Ferronnaye (La) | لافرونہ | Droysen | دروینسن |
| Fichte | فیختہ | Du Bos | دوبوس او دوبو |
| Flottwell | فلوتویل | Dufour | دوفور |
| Focsani | فوسکانی | Dupont de L' Eure | دوبون دو لور |
| Foscolo | فوسکولو | Durando | دورانڈو |
| Foy | فوا ، جنرال | E | |
| Frédéric | فریدریک | Egmont | ایگمونت |
| François - Joseph | فرانسوا - جوزیف | Eichorn | ایشورن |
| G | | Engels | انگلز |
| Gaj | غای | Eötvos , Joseph | اوتفوس جوزیف |
| Gallois | غالوا | Ernest - Auguste | ارنست - اوگست |
| | | Esclavon | اسکلافون : اسم عام لجميع السلافيين |

| | | |
|------------------------|---------------------------------|---------------------------------------|
| Guizot | غيزو | الغلفيون Gueltes : أنصار البابا في |
| Gützkow | غوتزكو | إيطاليا من القرن الثاني عشر إلى القرن |
| Györ | جيور | الخامس عشر |
| H | | وعكسهم الجيبليوت Gibelins : |
| Haïdouks | الاشقياء الخارجون عن القانون في | أنصار الأمبراطور |
| | باشوية بلغراد | |
| Haller | هالر | جندوبين Gendebien |
| Hanka | هانكا | جيرار ، جنرال Gérard , général |
| Hassenrflug | هاسنر فلوغ | غرفينوس Gervinus |
| Haurane , Duvergier de | هوران ، دوفير جيه دو | جيفخا ، غريغوار Gikha , gégoire |
| Haüsser | هومر | جيورتي Gioberti |
| Havlitchek | هافليتشيك | غنيزن Guesen |
| Haynau | هايتاو | غوبينو Gobineau |
| Hecker | هيكير | غورليتز Goerlitz |
| Heine | هاينه | غوديلو Gödelö |
| Hegel | هيجل | جورجي Görgei |
| Helckel | هيلكيل | غوتا Gotha |
| Heppenheim | هابينهايم | غوتنغن Gottingen |
| Herwegh | هيرفيسغ | غراتز Graz |
| Herzen | هرتزن | غريم Grimm |
| Hétairie | هيتيري | غروتلي Grütli |
| Holstein | هولشتاين | غوبرنيوم Gubernium |
| Hoznek | هوزنيك | الإدارة في ترانسلفانيا |
| | | غيرازي Guerrazzi |
| | | غليوم ، شارل Guillaume , Charles |

| | | | |
|--------------------|-----------------|----------------------|-------------------------|
| K | | Hütten , Ulrich von | هوتن ، اولريخ فون |
| Kamienski | كامينسكي | I | |
| Kant | كانط | Ingolstadt | انغلشتات |
| Kamptz | كامبتس | Insbrück | انزبروك |
| Kaïsarov | كايزاروف | Invalides | انفاليد ، قصر |
| Kapolna | كابولنا | Itzheim | ايزهايم |
| Kara - djich , vuk | قره - جيش ، فوك | J | |
| Karinski | كارينسكي | Jahn | يان |
| Karlowitz | كارلوفيتز | Jean , Archiduc | جان ، ارشيدوق |
| Kassa | كاسا | Jelacic | يلاشيش |
| Klein , Samuel | صموئيل كلاين | Jenneval | جنفال |
| Kraichgau | كريشغاو | Johannes - gymnasium | يوهانس - جيمنازيوم |
| Kemeny | كيميني | : Johanneum | يوهانيوم |
| Kisfaludi | كيسفالودي | | متحف أسسه الارشيدوق جان |
| Kisselev | كيسيلف | Jordan , Sylvestre | جوردان ، سيلفستر |
| Kogalniceanu | كوغالنيسيانو | Josika | جوزيكا |
| Kollar | كولار | Jungmann | يونغمان |
| Kombst | كومبست | Jutland | جوتلاند |
| Komorn | كومورن | | |
| Kopitar | كوپيتار | | |
| Kosciusko | كوسيووسكو | | |
| Kossuth | كوسووط | | |

| | | | |
|---------------------------|---------------------------------|--------------------|----------------------|
| Lebeau , Rogert et Joseph | الاخوان لوبو : روجه و جوزيف | Kosziuski | كوزيوسكي |
| Lodru - Rallin | لودرو - رولن | Krazinski | كرازينسكي |
| Légations Pontificales | القصادات الحبرية التابعة للبابا | Kragoujevatch | كراغوجيفاتش |
| Lehrbach | ليرباخ | Kreize | كرايزه |
| Leiningen | لاينينغن | Kremsiér | كريمسير : كريمزير |
| Leldnitzki | ليلدنيتسكي | Kolsovar | كولسوفار |
| Lelewel , Joachim | لوفيل ، يواشيم | L | |
| Léopardi | ليوباردي | Lachmann | لاخمان |
| Leuchtenberg | لوشتانبرغ | Lacordaire | لاكوردير |
| Leroux , Pierre | لورو ، بير | Laffitt e | لافيت |
| Linde | لينده | Lamarque , général | لامارك ، جنرال |
| List , Frédéric | ليست ، فريدريك | Lambert | لامبرت ، الكونت |
| Lortet | لورتيه | La Mennais | لامانيه |
| Luben , Heinrich | لوبن ، هنريك | Lanwdehr | لاندوير |
| Lowicz | لوفيتش | | الجيش البري الالماني |
| Lubecki | لوبيكى | Lassoulx | لاسول |
| Lusace | لوزاس | Laube | لاوبه |
| Luther | لوثر | Laurent | لوران |
| | | Lazar. geogesr | لازار ، جورج |
| | | Latour , général | لاتور ، جنرال |
| | | Lauenburg | لاونبورغ |
| | | Lavalée | لافاليه |

| | | | |
|-------------------|---------------------------|---------------------|-----------------------|
| Mazzini | مازيني | Maëstricht | ميدستريخت |
| Mázzinhowicki | مازينكوويسكي | Maï , Angelo | ماي ، آنجيلو |
| Méane (de) | ميان المونسينور دو | Maistre , Joseph de | جوزيف دوميستير |
| Meiner | ماينر | Majeur , Piere | ماجور ، بير |
| Menzel | مانتزل | Malmédy | ماليدي |
| Mérods , Félix de | ميرود ، فيليكس | Mameli | ماميلي |
| | ميشار Michar اسم مدينة في | Mamiani | مامياني |
| | باشوية بلغراد | Mancini | مانتشيني |
| Miéroslawski | ميروسلاوسكي | Manin | مانين |
| Mignet | مينيه | Manteuffel | ماتوفيل |
| Milani | ميلاني | Manuel | مانويل |
| | مقهى في فرنكفورت | Manzoni | مانتروني |
| Minto | مينتو | Marcokranievitch | ماركو كرانيفيتش |
| Miskiewicz | ميسكيفيتش | Marie - Thérèse | ماريا - تيريزا |
| Mittelmayer | ميتل ماير | Marmont | مارمون |
| Molé | موليه | Martignac | مارتينياك |
| Moltke , von | مولتكه ، فون | Martin , Henri | مارتن ، هنري |
| Mons | مونس | Marx , Karl | ماركس ، كارل |
| Montalembert | مونتالامبير | Mathieu Lansberg | ماتيو لانسبرغ - جريدة |
| Montanelli | مونتانييلي الأستاذ | Matthy | ماتي |
| Montez , Lola | مونتز ، لولا | Mauguin | موغن |
| Montlosier | مونلوزيه | Mavissen | مافينستن |
| Moranski | مورانسكي | | |
| Motz , von | موتز ، فون | | |

| | | | |
|------------------------|-----------------------------|----------------|--------------------|
| Novisad | نوفيزاد | Mortemart | مورتمار ، الدوق دو |
| Novosiltsov | نوفوسيلتسوف | Mouroussi | موروسي |
| Nugant | نوجانت ، الجنرال | Mouscron | موسكرون |
| | | Munchengraez | مونشنغرايتز |
| | | Mundt | موندت |
| | | Musset , de | موسيه ، دو |
| | | N | |
| Obrenovitch , Miloch | اوبرينوفيتش ، ميلوش | Nagifzeben | ناجينزيبين |
| Oberkreise | اوبر كرايزه ، العمدة الأعلى | Nagivarad | ناجيفاراد |
| Obradovitch , Dosithée | اوبرا دوفيتش ، درسيته | Nassau | ناسو |
| O'connell | او كنيل | Neander | نيندر |
| Odenwald | اودنفالده | Nébénus | نيبينوس |
| Offenburg | اوفانبورغ | Neckar | نيكار ، نهر |
| Olténia | اولتينيا | Nesselrod | نيسارود |
| Olmütz | اولماتز | Niebitch | نيبيتش ، الأسقف |
| Ossolenski , comte | اوسولانسكي ، الكونت | Niebuhr | نيبور |
| Oudinot | اودينو ، الجنرال | Niecolini | نيقوليني |
| | | Nich | نيش |
| | | Niemuvicz | نيموفيتش |
| Païsi | بايزي | Nejedli , Jean | نيجيدلي ، جان |
| Palacky | بالانسكي | Nemours , duc | نومور ، الدوق |
| Paskievitch | باسكيفيتش | Normanby | نورمانبي ، اللورد |
| Pasquier | باسقيه | Nothomb | نوثومب |

| | | | |
|---------------------|-------------------------------|----------------------------|----------------------------------|
| Presburg | برسبورغ | La Patente de 1960 | براءة ١٨٦٠ في النمسا |
| Pruth | بروت ، نهر | Poulin | بولن |
| Puzta | بوزتا | Pellico, Silvio | بيليكو ، سلفيو |
| | | Pépé , guillaume , général | بيبيه ، الجنرال غليوم |
| | Q | Pesmés | اغاني السهر عند الصرب |
| Quinet , Edgar | كينيه ، إدغار | Peschern | بشيرن |
| | R | Pest Hirlap | بست هيرلات « جريدة بست » |
| Radetzky | راديتسكي | Petiaux , Duc | بيتيو ، الدوق |
| Radowitz | رادوفيتز | Petoefi | بيتوفي |
| Radulesco , Héliade | رادوليسكو | Pfizer | بفيزر |
| Radziwill | رادزيفيل | Pfül , Von | بفول ، الجنرال |
| Raguse | راغوز | Pillersdorf | بيار سدورف |
| Dubrovnik | وتسمى اليوم | Pirot | بيرو ، مدينة في يوغوسلافيا |
| | مدينة في يوغوسلافيا ، وهي غير | Polignac | بولنيك |
| | مدينة راغوز في صقلية . | Porgovici | بورغوفيتشي |
| Ranke | رانكه | Posnanie | بوسنانيا |
| Rajitch | راجيتش | Potocki , Jean | بوتوكي ، جان |
| Raumer | راومر | Potter , Louis | بوتر ، لوي |
| Rajacitch | راجاتشيتش ، المتروبوليت | Pouchkine | بوشكين |
| Raspail | راسباي | Pragmatiques Sanctions | براغماتيك سانكسيون : براءة ملكية |
| Rehfus | ريفوس | | |
| Reuter | رويتو | | |

| | | | |
|--------------------------|-------------------------|---------------------------|-------------------|
| St - Vith | سان فيت | Richelieu | ريشليو |
| Salasco | سالاسكو | Riger | ريجير |
| Salignac - Fénélon , de | ساليلاك - فينيلون | Regierung | ريجيرونغ |
| | | Risorgimento | ريزور جيمنتو |
| Salzburg | سالزبورج | | (البعث) |
| Savigny | سافيني | Risquons - Tout | ريسكون - تو |
| Savoye | سافويه | Rogier | روجيه |
| Saxe - Cobourg , Léopold | ساكس - كوبورغ ، ليوبولد | Römer | رومر |
| | | Rosetti | روزيتي |
| Schamlz | شاملز | Rosmini | روسيني ، الفيلسوف |
| Scharnhorst | شارنهورست | Rossi | روسي |
| Schmerling | شميرلنغ | Rousseau , Jean - Jacques | روسو ، جان - جاك |
| Schneckenbürger | شنيكنبورغر | | راويه كولار |
| Schlegel | شليجيل | Royer - Collart | رويه كولار |
| Schelling | شيلينغ | Rtemberg | رتامبرغ |
| Schlözer | شلوزر | Ruge , Arnold | روغه ، آرنولد |
| Schwazenberg | شفارتزانبورغ | Les Ruthènes | الروتينيون |
| Schweidnitz | شفابدينيتز | | |
| Sebastiani | سيباستياني | S | |
| Seldnitzky | سيلدنيسكي | Sachkievitch | ساشكيفيتش |
| Seraing | سيرينغ | Saguna | ساغونا |
| Shapper | شابير | St - Augustin | سان اوغستين |
| Sismondi | سيسمونيدي | Sainte - Aulaire | سانت اولير |
| Slovaiki | سلوفاكيسكي | Sakcinski | ساكسينسكي |
| | | St - Simonisme | سان سيمونية |

| | | | |
|-------------------------|-----------------------|-----------------------|------------------------------|
| Willisen , général | فيليزن ، جنرال | Treitschke | ترايتشكه |
| Vincke | فينكه | Troya | ترويا ، رئيس وزارة في نابولي |
| Vischer , | فيشر | Tsichindéal | تسيشنديال |
| Frederic - Théodore , | | | قصاص روماني |
| Vladimiresco , Théodore | | Tschoppe | تشوبه |
| | فلاديميريسكو ، تيودور | Turgenev | تورغونيف |
| Volksgeist | فولغايسست | U | |
| Vodnyk | فودنيك ، الأب | | |
| Vörösmarty | فوروسمارتي | Ucase | اوказ (براءة ملكية) |
| Vorparlement | فور بارلمان | V | |
| | المؤتمر التحضيري | | |
| W | | Vaillant | فايان |
| | | Valievo | فاليفو |
| Wallerstein | فاليرشتاين | Var (le) | الفار ، نهر |
| Wartburg | فارتبورغ | Venedey , Jacob | فينيدي ، جاكوب |
| Weber | فيبير | Verdi | فردى |
| Wienbarg | فينبارغ | Vernet , Horade | فرنيه ، هوراد |
| Weitling | فايتلينغ | Vidakovitch | فيدا كوفيتش |
| Welden | فيلدن الجنرال | La Vigne , Casimir de | لافين ، كازيمير دو |
| Wercker | فيركير | Vieusseux | فيوسيو |
| Weyer, Van de | فيير ، فان دو | Villagos | فيلاغوس |
| Windischgraetz | فيندشغرايتز | Villèle | فيليل |
| Wittgenstein | فيتغنشتاين | Villemain | فيلمان |
| Wrangel | فرانجل | | |

| | | | |
|--------|-------|-----------------|---------------|
| Zay | زاي | Υ | |
| Zitz | زیتز | Ypsilanti | یپسیلانتي |
| Zucchi | زوکشي | Z | |
| | | Zach , François | زاش ، فرانسوا |

الفهرس

المقدمة

الدور ١٨١٢ — ١٨٤٨

الفصل الأول

الحرية الفرنسية وانعكاساتها الدولية

الدرس الفرنسي : ١١ ، الحزب القومي ١٢ ، الاعلام ١٤ ، تأثير القضية اليونانية ١٩ ، الرسالة الفرنسية على المحك : ٢١ ، مذهب ثورة ١٨٢٠ ، الثورة البلجيكية ٢٤ ، موقف الرأي الفرنسي ٢٥ موقف الحكومة الفرنسية ٢٦ ، قضية بولونيا ٢٨ ، الثورة في ايطاليا ٣٨ ، موقف الحكومة الفرنسية ٤٠ ، الثورة في ألمانيا ٤٣ ، فرنسا عاصمة الحرب الأوربية : ٤٥ ، العناصر الفرنسية ٤٥ . الاسطورة النابوليونية ٤٨ ، الأزمة المصرية عام ١٨٤٠ . العناصر الأجنبية ٥١ ، الجمع البولوني ٥٣ ، الاتجاهات البولونية ٥٦ ، المعتدلون ٥٦ ، الديمقراطيون ٥٦ ، العقيدة القومية الرسولية ٥٨ ، ميشلية ٦٠ ، ادغار كينية ٦٠ .

الفصل الثاني

تشكيل دولة بلجيكا

اخفاق الدمج وبداية المعارضة القومية : ٦٤ . النظام الأساسي ٦٧ ،

الرخاء الاقتصادي ٦٩ . نمو الأنوار ٧٠ ، عقبات النلاحم ٧١ ، النفوذ الفرنسي ٧١ ، القضية الدينية ٧٣ ، المعارضة ٧٨ ، الثورة ٨٥ . مظاهرة بروكسل ٨٦ ، الانفصال القومي ٨٨ . انشاء الدولة : ٩١ ، الدستور البلجيكي (٧ شباط ١٨٣١) ٩٢ ، الموقف الأوربي ٩٥ . الشروط الدولية ٩٧ : رد الفعل البلجيكي ١٠٠ ، موافقة هولاندة ١٠٢ .

الفصل الثالث

الحركة القومية الايطالية

أصول الحركة القومية وأشكالها الاولى : ١٠٩ . عقبات الحركة القومية ١١٠ . الاعتبارات المحلية ١١٤ ، الابداعية الايطالية : ١١٦ ، مانتزوني (١٨٧٥ - ١٨٧٣) ١١٩ ، ليوباردي ١٢٠ ، طابع الابداعية السياسي ١٢١ ، ايطاليا الفتاة : ١٢٢ ، ماتزيني ١٢٢ ، البعث الايطالي : ١٢٩ ، تحويل شروط الحياة الاجتماعية ١٢٩ ، الأفكار القومية الجديدة ١٣١ جيوروتي ١٣٢ ، مذهب الملكية البيمونتية ١٣٧ ، ماكسيم دازيليو ١٣٧ .

الفصل الرابع

الحرية والقومية في ألمانيا

النظام السياسي والنزاع بين السلطة والحرية : ١٤٢ ، عمل الحكومات ١٤٢ ، المدرسة التقليدية ١٤٤ ، سافيني ١٤٤ ، هالر ١٤٥ ، فلسفة هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) ١٤٦ ، فلسفة التاريخ ١٤٧ ، العلوم الاجتماعية ١٥٠ ، مفهوم الدولة ١٥١ ، الادارة البروسية ١٥٥ ، الاتحاد الجركي (التسولقران) ١٥٨ ، المرحلة الاولى ١٥٩ ، المرحلة الثانية ١٦٢ ، المرحلة الثالثة : مرحلة تشكيل الاتحاد الأكبر ١٦٥ ، علاقة الاتحاد

الجرمكي بالقومية الألمانية ١٦٦ ، رد الفعل الليبرالي والنصرة الإقليمية ١٧٠ .
مانتزل ١٧١ ، بورنه ١٧٣ ، الحزب الدستوري ١٧٣ ، الحياة السياسية
في ألمانيا الجنوبية ١٧٦ ، رد الفعل الرجعي ١٨٠ ، الحياة الفكرية
واتجاهها القومي : ١٨٢ ، الجامعات الألمانية ١٨٢ ، الحركة الأدبية ١٨٦ ،
ألمانيا الفتاة ١٨٧ ، الليبرالية الرينانية ١٨٩ ، العناصر الجديدة في القومية
الألمانية ١٩٢ ، الأزمة المصرية عام ١٨٤٠ ، القومية الاقتصادية ١٩٥ ،
فريدريك ليست ١٩٦ ، رسالة القومية الألمانية ٢٠١ ، دالمان ٢٠١ ،
غرفينوس ٢٠٣ ، الليبرالية الرينانية الجديدة ٢٠٨ ، الاهتمام بالقضايا
الاجتماعية ٢٠٩ ، الليبرالية القومية البروسية ٢١٠ ، اللاندتاغ المتحد ٢١٣ ،
قضية شازفبغ - هولشتاين ٢١٤ .

الفصل الخامس

الثورة الأوربية عام ١٨٤٨

بواذر الثورة : ٢١٩ ، الأزمة الاقتصادية ٢٢٠ ، العوامل الدولية ٢٢٣ ،
العوامل الدولية ٢٢٣ ، القضايا الدولية : ٢٢٦ ، الثورة البولونية ٢٢٦ ،
الحرب الأهلية في سويسرا ٢٢٨ ، الثورات الداخلية في أوربة الوسطى
٢٣١ ، الثورة في ألمانيا ٢٣١ ، الثورة في إيطاليا ٢٣٣ ، ثورة ١٨٤٨ :
٢٣٧ ، الحركة السياسية ٢٣٧ ، الحركة الاجتماعية ٢٣٨ ، ثورة فينلا
(١٣ آذار ١٨٤٨) ٢٣٩ ، الثورة القومية في ألمانيا ٢٤١ ، مصير
الثورات ٢٤٢ ، في إيطاليا ٢٤٢ ، في النمسا ٢٤٦ .

الفصل السادس

قوميات جنوب شرقي اوروبا

أصل الحركات القومية : ٢٥٥ ، أثر الجامعات في الحركات الفكرية
٢٥٥ ، البعث القومي ٢٦١ ، الحركة القومية الهونغارية ٢٥٦ ، اليقظة
الفكرية ٢٦٧ ، الحركة السياسية ٢٦٩ ، زيشيني ٢٧٢ ، لوي كوسوط
٢٧٥ ، قضية الادارة المحلية ٢٧٦ ، الحزب التقدمي ٢٧٨ ، الحزب
الديمقراطي ٢٨٠ ، يقظة الأمم السلافية : ٢٨٣ ، يقظة سلافي الشمال
٢٨٤ ، بالاتسكي ٢٨٥ ، شافاريك (١٧٩٥ - ١٨٦١) ٢٨٦ ،
كولار ٢٨٦ ، يقظة سلافي الجنوب ٢٩١ ، فوك قره - . جيتش
(١٨٢٤ - ١٨٧٧) ٢٩٥ ، لويس غاي ٢٩٦ ، ميلوش اوبرينوفيتش
٣٠١ ، رومانيو ترانسلفانيا والأمارات الدانوبية : ٣٠٥ ، في الامبراطورية
النمساوية ٣٠٦ ، في الامبراطورية العثمانية ٣٠٧ ، نشوء القومية الرومانية
٣١٠ ، الثورة الألمانية ٣١٦ ، الحركة السياسية ٣١٦ ، تنظيم الطبقات
٣١٧ ، حركة الحرفيين ٣١٨ ، حركة عمال المصانع ٣١٨ ، الثورات
المحلية ٣١٩ ، الحركة الليبرالية في بروسيا ٣٢٠ ، رد الفعل الرجعي ٣٢١ ،
موقف الملك الرجعي ٣٢٢ ، محاولة الوحدة ٣٢٤ ، فرنسا والثورة
الأوربية : ٣٢٧ ، مبادئ السياسة الفرنسية ٣٢٧ ، سياسة التدخل
الفرنسية ٣٣٣ ، التدخل في بولونيا ٣٣٣ ، التدخل الفرنسي في ايطاليا
٣٣٦ ، سياسة فرنسا العامة ٣٤١ ، العمل الفرنسي في الدوقيتين
الدانباركيتين ٣٤٢ ، الموقف الفرنسي حيال المانيا ٣٤٣ ، تفسير التناقض
الفرنسي ٣٤٥ .

الفصل السابع

الحركة القومية في إيطاليا وفي الامبراطورية النمساوية

جهود ايطاليا نحو الوحدة : ٣٤٩ ، تضامن الثورات ٣٤٩ . حركة ميلانو ٣٥٢ ، حركة البندقية ٣٥٣ ، حركة لومبارديا ٣٥٣ ، موقف بيمونت ٣٥٤ ، الحادث العسكري ٣٥٦ ، الحادي السيامي ٣٥٧ ، بيوس التاسع ٣٥٨ ، خسران الحرب القومية ٣٦٠ ، اخفاق الحركة القومية ٣٦٤ ، قوميات النمسا : ٣٦٨ . الحركات السلافية ٣٦٩ ، بوهيميا ٣٧٠ ، اليوغوسلافيون ٣٧٤ . التخوم الصربية ٣٧٥ ، كرواتيا ٣٧٥ ، مؤتمر براغ ٣٨٠ ، الحركة الهونغارية ٣٧٢ ، نتائج الثورة في الامبراطورية النمساوية ٣٩١ .

الفصل الثامن

الوحدة الألمانية

من ١٨٤٨ إلى ١٨٥٠

الأعمال التحضيرية وانعقاد البرلمان ٣٩٤ . فكرة اصلاح الديباط ٣٩٥ . دراسة الاصلاحات ٣٩٦ ، التمثيل القومي ٣٩٧ ، تركيب برلمان فرنكفورت . البرلمان في العمل : اليسار ٤٠٤ ، اليمين ٤٠٥ ؛ الوسط ٤٠٥ ، الوسط الايمن ٤٠٥ ، الوسط الأيسر ٤٠٦ . الحكومة المؤقتة ٤٠٦ . جيش المانيا ٤٠٨ . البرنامج الألماني الجامع ٤٠٩ ، مقاومة الدول الألمانية ٤١١ . الدستور ٤١٢ ، تنظيم السلطات ٤١٣ ، قرارا

المبدأ ٤١٤ ، القرارات الكبرى ٤١٥ . الأزمة الامبراطورية واخفاق
البرلمان : الوحدة الألمانية بشكلها الامبراطوري ٤١٦ ، رفض التساج
الامبراطوري ٤١٩ ، اخفاق الوحدة الشعبية ٤٢٢ ، الاتحاد ببروسيا
٤٢٤ ، الاتحاد الضيق ٤٢٤ ، هيئة الحكم المؤقتة في المانيا ٤٢٦ ، اتفاق
مونينخ ٤٢٨ ، تراجع اولتز ٤٢٩ ،

فهرس الأعلام ٤٣٩

أسماء الأشهر في البلاد العربية

| | | |
|--------------|---|--------|
| كانون الثاني | = | يناير |
| شباط | = | فبراير |
| آذار | = | مارس |
| نيسان | = | أبريل |
| أيار | = | مايو |
| حزيران | = | يونيو |
| تموز | = | يوليو |
| آب | = | أغسطس |
| أيلول | = | سبتمبر |
| تشرين الأول | = | أكتوبر |
| تشرين الثاني | = | نوفمبر |
| كانون الأول | = | ديسمبر |

كلمة شكر

خالص الشكر لكل من أسهم في نشر هذا الكتاب

